

للإنسان في الحياة



آية الله العظمى السيد محمد حسين فضل الله

إعداد وتسيج: شفيق الموسوي

دار الملاك

حقوق الطبع محفوظة للناشر
الطبعة الثالثة
١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

دار المللك للطباعة والنشر والتوزيع ش. م. م.

بيروت - لبنان - حارة حريك - قرب مستشفى الساحل - هاتف: ٠٣/٧٥٥٢٠٠ - ٠١/٨٢١٣٩٢ - فاكس: ٠١/٣١٤٨٢٤
ص.ب ١٥٨ / ٢٥ الغبيري . Email: dam @ dar - almalak. com. / Int: www. dar - almalak. com.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الافتتاحية

«النص الذي

تفضلُ به

سماحة آية الله

العظمى السيد

محمد حسين

فضل الله

(دام ظلّه)»

الحمد لله رب العالمين والصلاة على سيدنا محمد وآله الطاهرين وأصحابه المنتجبين والتابعين لهم بإحسان إلى قيام يوم الدين. وبعد، فهذه كلمات متناثرة لم تنشأ في وقت واحد أو في موضوع واحد أو في موقع واحد، بل، كانت جواباً عن أسئلة حيّة، في أجواء الندوات الحوارية التي كانت مفتوحة. بيني وبين الناس، تحت شعار «ليس هناك سؤال تافه وليس هناك سؤال محرج، الحقيقة بنت الحوار» وشعار «لا مقدسات في الحوار» انطلاقاً من أن الله عَلَّمنا أن نثير الحوار في كل شيء حتى في وجوده وتوحيده، وشخصية النبي واليوم الآخر كما هو الحوار القرآني.

ولعلّ انطلاق هذه الكلمات في نطاق الأجوبة السريعة التي تحركت بها الندوات جعل بعض الأفكار بعيدة عن السعة في البحث والعمق في التحليل، لأن ذلك يتطلب مجالاً آخر ووقتاً أوسع، وذلك هو الفارق بين الندوات الجماهيرية والندوات العلمية، ولكنني، في الوقت الذي عالجت فيه الكثير من عناوين الكتاب في كتبي ومحاضراتي، أجد في هذه الكلمات الكثير من الإضاءات الفكرية والروحية والاجتماعية والسياسية والنفسية للعناوين التي تحدثت عنها لأنها وليدة الكثير من المعاناة والتجارب الطويلة في حياتي المليئة بالتحديات المتنوعة ولذلك فإنها لا تمثل الفكر المرتجل بل تمثل الملاحظات المدروسة التي تفتح أكثر من أفق للتفكير وتنتقل في أكثر من ساحة للبحث والحوار، وهذا هو ما أحب أن أثيره مع القراء في الاستعداد الدائم لإغناء هذه العناوين المتنوعة في موضوعاتها وأبعادها السياسية

مقدمة الكتاب

أن تدخل إلى رحاب عقل سماحة آية الله العظمى السيد محمد حسين فضل الله، فانت تفتح عينيك على مدى مساحه الأفق الرحب الذي يختزن عمق الرؤى وشمولية التطلعات، صوب الحياة، وصوب الإنسان..
فأن تحب الحياة، فإنك بجدارة تحب الله، حبُّ الله الذي يحركُ فيك نبضاً بالمسؤولية تجاه بناء الحياة على قواعد من الحق، من الخير، ومن العدالة.

وأن تحب الإنسان، فإنَّ اللمسة الإنسانية تحكم كلَّ إيقاع الحركة الفكرية فيك، لتضع في أوليات تصوراتك إنساناً لك في الدين، أو نظيراً لك في الخلق، تبني معه الحياة، إفتقرت معه في القناعات أم توافقت.

لهذا كان مشروع هذا الكتاب، مشروعاً بحجم الأفكار الحضارية المتسمة بالتجديد والتطور التي حملها عقل سماحة السيد، للخروج من حالة التخلف والإحباط، إلى حالة امتلاك الحياة بروحية تلغي الإهتزاز في مواقفها، وتسقط عوامل الخوف من كيانها، هذه العوامل التي حاولت مصادرة وجودنا، وتهميش دورنا في إيجاد مشروع حضاري نتمرد فيه على الهزائم، ونواجه الكمُّ الهائل من الإحباطات التي تراكمت وتراكمت، وشكَّلت بيننا وبين الحرية جداراً سميكاً، خنق إنطلاقة الإبداع فينا، وتركنا على قارعة طريق مجهول في التاريخ، نتوه فيه ضياعاً وبحثاً عن أمان..

ولأنَّ «لكلِّ عصر أسلوبه وحاجاته، ولكلِّ عصر طريقته في مواجهة الواقع» على حدِّ تعبير سماحته، فقد أردت لهذا الكتاب - الذي عرض نزرأ يسيراً من بحر مواقفه وطروحاته (دام ظلّه) - بعيداً عن الترف الفكري، وقريباً جداً من الهمِّ الفكريِّ يتجاوز جمود ماضٍ، ويتحرَّر من ضغط حاضر، ويرى الأفق مشرقاً في المستقبل، محتضناً الواقع كلّه، والقضايا كلَّها، راسماً حلولاً حضارية، تنبع من فكر حيٍّ، رافضاً كل الأفكار الميتة، المخنوقة بالتجريد، حيث يرى في الإنفتاح طريقاً لتحقيق آمال لطلما أهملتها ذاكرة التاريخ، وغُيبت في مجاهل النسيان.

«ولأنَّ الحقيقة بنت الحوار» شكَّلت الحوار والجدال الهادي مع الآخر،

وعلى مدى ما يقارب الخمسين عاماً، همّاً ثقافياً لسماحته، مستنداً فيه على موروث فكريّ فذّ، يعطيه من عمره، ومن جهده، الكثير، إبرازاً لديمومة الحياة فيه، وتبياناً لقوته ولفرادته في النظرة إلى الكون وما فيه ومنّ فيه، مما يبذلّ الخوف إلى اطمئنان، والقلق إلى واحة أمان.

وعلى هذا، انكبت على أرشيف سماحته الصوتي، الذي يشكّل ثروة فكرية عظيمة يستحقّ صفة الموسوعيّة الشاملة، فاستخرجت منه بعض الإثارات الحياتية والإنسانية والتي طرحت على سماحته في حوارات هادئة مع كبار الصحفيين، ونُشرت على صفحات الجرائد والمجلات والدوريات المحليّة والعربيّة والعالمية، وبُنت عبر أثير وسائل الإعلام المسموعة والمرئية محلياً وعالمياً، وضجّ بها صوت سماحته خلال مناقشات واسعة مع جمهور عريض من المفكرين والمثقفين وأساتذة الجامعات عبر منابر المساجد والجامعات والكليات والمنتديات الثقافية والفكرية، واللقاءات الجماهيرية المختلفة والمتنوعة في لبنان وخارجه.

والأمل كلّهُ بأن يكون هذا الكتاب خطوة في طريق تلمّس الحقيقة والوصول إليها، لإزالة ضباب حجب الرؤية، ولتبيان سبيل يهفو المتعطشون للحق رؤيته والسير على جادته، وقبل كلّ هذا أمل أن ينال هذا العمل رضى المولى سبحانه وتعالى.

وختاماً أشكر فريق العمل الذي ساعدني في إخراج هذا الأثر، وأخصّ بالتقدير والإمتنان الأخوة في المكتب الإعلامي لسماحة آية الله العظمى السيد محمد حسين فضل الله، والأخوة والأخوات في إذاعة صوت الإيمان، متمنياً لهم وللقرّاء الأعزاء كلّ توفيق ونجاح.

شفيق محمد الموسوي

١٣ ذو القعدة ١٤١٦هـ

الأول من نيسان ١٩٩٦م

□ الإسلام والحوار :

- * قدسيّة الحوار.
- * إمكانية الحوار.
- * رداً على دعوة.
- * التمسك بالمقولات.

■ ما رأيكم بموضوع الحوار؟

* عظمة القرآن أنه كتاب الحوار المقدس.

حوافز للحوار

□ نحن نعتبر أن الله تعالى علمنا أن نحاور كلَّ الناس وأن لا مقدسات في الحوار..
فالله حاور إبليس في أكثر من موقع، فهل هناك من النَّاس مَنْ «يرقى» لابليس؟
القرآن الكريم، في بعض سورته وآياته، هو كتاب حوار مع المشركين في توحيد الله،
ومع الكافرين في وجود الله واليوم الآخر، وفي نبوة النبي (ص) وصفاته. وعظمة القرآن
أنه كتاب الحوار المقدس الذي يقول لك: إن مسألة أن تؤمن، هي أن تفكر وتقتنع، وإن
مسألة أن تفكر تقتنع هي أن تحاور.

ولذلك عندما تحدّث القرآن عن الدعوة إلى الله، تحدّث عن الحوار: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ
رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)^(١)، ومعنى ذلك أن
يتحرّك الجدل بالتي هي أحسن، لأنك لا تستطيع أن تستمر في خطأ الدعوة، إلا بعد أن
تصطدم بالآخر، وإذا اصطدمت بالآخر، فمن الطبيعي أن تفهم ما عند الآخر، ليفهم
الآخر ما عندك.

وقد عبّر القرآن عن أسلوب الحوار، بما لم يستطع أيّ تطوّر بشري أن يصل إليه،
وهو اعتبار الشك أساساً للحوار: (وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ
مُّبِينٍ)^(٢).. فالنبيّ (ص) قدّم نفسه أمام الآخرين - بتعليم الله له - في صورة الشاك وهو

(٢) سبأ: ٢٤.

(١) النحل: ١٢٥.

(الذي جاء بالصدق وصدق به)^(٣)، ليجر الآخرين إلى أن يشكوا كما يشك.. ومن موقع الشك يمكن أن تبدأ الخطوات التي تقود إلى اليقين.

الحوار في حركة الدعوة

وفي ضوء ذلك، ننطلق من القرآن الذي فتح باب الحوار مع الأديان، من خلال الآية الكريمة (وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)^(٤).

وهكذا نرى أن القرآن يمثل حركة فكرية في مسألة الحوار مع أهل الكتاب، لا في عقائدهم التفصيلية وحسب، بل حتى في سلوكهم العملي. فالحوار الذي أداره مع اليهود في سلوكهم العملي مع الأنبياء والمسلمين، يؤكد أننا نستطيع أن ندخل في حوار مع أهل الأديان الذين نلتقي معهم في الخطوط العامة للرسالات، ونستطيع أن نتحدث معهم عن العقيدة، وعن تفاصيل الشريعة، وعن المفاهيم الرسالية التي يمكن أن تتحرك لتكوّن مفاهيم الواقع السياسي. فنستطيع أن نتحاور مع أهل الأديان حول قضية الاستكبار والاستضعاف باعتبارهما قضية العدل في العالم، ويمكن أن نتحدث معهم عن كثير من الأوضاع التي يعيش فيها المقهورون والمحرومون بسبب الاستعمار، وما إلى ذلك.

فنحن نعتقد أن القرآن الكريم، وسيرة النبي (ص) والأئمة من أهل البيت (ع)، كل ذلك يوحي إلينا بأن علينا أن ننطلق في خط الدعوة من روحية الحوار الذي ينطلق من خلال فكرٍ نعرف به ما عندنا وما عند الآخرين، ومن خلال أسلوبٍ نملك به أن نعبر عما عندنا في مواجهة الآخرين، ومن خلال حركةٍ نعرف كيف نُطلقها لكي نلتقي مع حركة الآخرين.

(٤) العنكبوت: ٤٦.

(٣) الزمر: ٣٣.

■ المعروف أنكم تدعون دائماً للحوار بين المسلمين والمسيحيين، فلماذا لا تدعون إلى حوار بين المسلمين أنفسهم، على أن يكون هذا الحوار علنياً أمام الرأي العام؟

□ هذا طموحٌ نطمحُ إليه، ويطمحُ إليه كلُّ المخلصين، لأنَّ المشكلة التي نعيشها حتى الآن في مجتمعاتنا - وخصوصاً في العالم الثالث - أننا لم نصل إلى درجة يُمكن للإنسان أن يطرحَ فيها رأيه بحرية، وأن يناقشَ بموضوعية.. هذا من جهة. ومن جهة ثانية أنه عندما يحدث هذا الحوار أمام الجماهير، فالجماهير تملك انفعالات، والحوار لا بدَّ أن يُسمَّى الأشياء بأسمائها، فإذا كان عندك شخصٌ تقدسه تقديساً كاملاً، وتعتبر أنه يُقرِّبك إلى الله، وأنا أقول لك، إنَّ هذا الشخص لا يملك شرعية كلية، طبعاً، ستثور أنت (كذلك زينا لكلِّ أمةٍ عملهم)^(١).

لذلك نقول: لا بدَّ أن يكون الحوارُ أولاً بين العلماء الذين يملكون روحية العلم وموضوعية الحوار، وعند ذلك يُمكن أن تُطرح بعض القضايا على الجماهير التي يمكن أن تقربَ بينها، فتتحرك التربية، التي تخلقُ عند هذه الجماهير ذهنية موضوعية. ولكنَّ الكثير من علماء المسلمين، لا يملكون ذهنية موضوعية، وإنما يتحركون في القضايا من خلال عواطفهم وانفعالاتهم، فكيف تصلُ القضية إلى الجماهير؟ لذلك، فإنَّ هذا الحوار طموحٌ لا بدَّ أن نبلغه، ولكنَّ علينا أن نكونَ له ظروفأً موضوعية من خلال إيجاد منهجية للتفكير، بحيث ينطلق فيها النَّاس على أساس العقل، وعلى أساس مقارعة الحجة بالحجة، لا على أساس الانفعالات.

■ ما هو تعليقكم على دعوة مفتي مصر «الشيخ سيد طنطاوي» لإنشاء لجنة مشتركة من ثلاثة أعضاء، أحدهم مسيحي، والآخر يهودي، والثالث مسلم، للبحث في حلّ لمسألة سلمان رشدي، علماً بأنّ الشيخ طنطاوي يقول: أنا لست ممن يطالبون بإهدار دم سلمان رشدي، ونصح بسؤال رشدي حول روايته، هل عشتَ في ذلك الزمن النبوي أم نقلت هذا الكلام عن مصدر فأرشدنا إلى هذا المصدر؟

أي حوار؟

□ إننا لا نفهم معنى لهذا الاقتراح.. إن سلمان رشدي في روايته تهجم على النبي محمد (ص) وأساء إليه، وتحدّث في ما يشبه السبّ! وإذا كان رشدي قد اعتمد على بعض المصادر التي ربما يُستفاد منها بعض الأفكار، فإنّ هناك مصادر أخرى تعارض هذه المصادر، وكان عليه أن يقارن هذه المصادر مع بعضها.

وفي هذا نقول: ما دخل المسيحيّ في هذا الموضوع، وليست للمسيحي علاقة بالنبيّ محمد (ص) في موقع نبوّته؟ وما دخل اليهودي في هذه المسألة، واليهود لا يطبقون ذكر اسم النبي (ص) وهم من أشدّ النَّاسِ عداوة للذين آمنوا، وقد كانوا أشدّ النَّاسِ عداوةً للنبيّ محمد (ص)؟ لذلك نحن لا نفهم معنى، أن تكون هناك لجنة مشتركة من المسيحيين واليهود والمسلمين. فالقضية قضية إسلامية، وقد انطلق الإمام الخميني (قده) من حكم إسلامي يتفق عليه المسلمون، وهو الحكم بقتل المرتدّ. فالعنوان الأولي بالنسبة للمرتد أن يُقتل، وإذا تحدّث البعض عن عناوين ثانوية، وعن مصالح أخرى، فذلك كلام آخر. ولكنّ

(*) صار شيخاً للأزهر أثناء طباعة الكتاب بتاريخ ٢٧/٣/١٩٩٦م.

«مفتي مصر» كغيره من علماء المسلمين يعرفون أن مسألة «القتل» هي مسألة محسومة في ما هو الحكم الإسلامي بالنسبة للمرتد، وإن كان هناك خلاف بين المسلمين، في أن بعضهم يقول، إن المرتد الفطري يُقتل ولا يُستتاب، وبعضهم يقول، يُستتاب، فإذا لم يتب يُقتل.. لذلك لم يبيِّن لنا «الشيخ طنطاوي» كيف يمكن له أن يناقش هذا الحكم الشرعي حتى نتعرّف وجهة نظره.

ونعود إلى مسألة اللجنة، نحن كُنّا نقول انطلاقاً من القرآن، لا مشكلة عندنا من الحوار مع اليهود ومع المسيحيين، لأنّ القرآن الكريم يقول: (ولا تُجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، إلا الذين ظلموا منهم، وقولوا آمناً بالذي أُنزِلَ إلينا وأنزِلَ إليكم، وإلهنا وإلهكم واحدٌ ونحنُ له مسلمون)^(١).. فلا مشكلة عندنا في الحوار مع اليهود، ولكنْ مشكلتنا مع «إسرائيل» أنّها ليست مشكلة إسلامية يهودية بالمعنى الديني للمشكلة، بل إن اليهود الذين احتلوا فلسطين هم من الظالمين الذين يقول الله عنهم: (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسنُ إلا الذين ظلموا منهم)، لأنّ الظالم لا بدّ أن تدفعَ ظلمه وتواجهه. من هنا، نحن مع حوار الأديان، ولكن لسنا مع الحوار مع «إسرائيل»، لأنّها لا تتحرّك بمنطقٍ ديني، وإنما تتحرّك بمنطق استعماري.. لذلك نحن نريدُ من مفتي مصر، أن يُفتي من خلال الإسلام، لا من خلال النظام الذي يريد بطريقتة وبأخرى أن يخلط الأمور بشكل يرضى عنه الغرب الاستكباري، ولو كان على حساب مفاهيم الإسلام.

(١) العنكبوت: ٤٦.

■ إذا كان أتباع كلِّ دين يتمسكون بمقولاتهم،
على أنها وحدها هي الحقيقة المطلقة، كيف يمكن أن
ينشأ حوار؟

صراع الأتباع

إن الصراع الموجود في الأديان، إنما هو صراع ذاتيات الذين يلتزمون الأديان، لأننا عندما ندرس الأديان، فإننا نشعر أنها تنطلق من قاعدة واحدة في المسألة الأخلاقية والاجتماعية.. ولكن هناك فوارق في شمولية الأديان للزمن كله، فاليهودية تعتبر نفسها أنها هي الدين النهائي في العالم، وهكذا النصرانية، وهكذا الإسلام.. وهذه المسألة يمكن أن تخضع لحوارٍ فكري يضع نبوة كلِّ نبيٍّ في إطارها المحدد، ليُتساءل من خلال الحوار الفكري عما إذا كان هذا الدين يستمرُّ باستمرار الحياة، أو يتوقف عند مرحلةٍ معينة، هذه نقطة.

والنقطة الثانية، هي بعض التفاصيل التي يعيشها الخلاف اللاهوتي، كما في مسألة تجسد الله سبحانه وتعالى في نبيِّ الله عيسى (ع)، أو ما إلى ذلك من الأفكار التي قد يختلف فيها المسيحيون أنفسهم، وقد يختلف فيها اليهود أنفسهم. فمسألة أن تعتبر نفسك، أنك تملك الحقيقة، ليست هي التي تمنع الحوار، ولكن الذي يمنع الحوار، أن تمنع الآخر من أن يدخل معك في جدال حول مسألة حقيقتك وحقيقته.. وليست هذه المسألة من المسائل المختصة بأتباع الأديان، ولكن تخصُّ أيضاً أتباع الأفكار الوضعية حيث يملكون هذه القناعة اليقينية فيما يفكرون به..

سقوط الأحكام المسبقة

المسألة إنذاً، هي كيف يمكن أن يكون أسلوبك في الحوار مع الآخر، فنحن نجد

الإسلام متميزاً عن كلّ التيارات الدينية والفكرية في أسلوب الحوار، فنقرأ في القرآن (وَإِنَّا أَوْ أِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)^(١)، إنّه يضع الفكرة أمام المحاور ليقف وإياه على حدّ سواء في الشك فيما هي الحقيقة، إنّه يطرح الفكرة حتّى ينطلق من موقع فرضية الشك في موضوع الحوار، بعيداً عما إذا كنت مقتنعاً أو غير مقتنع (وَإِنَّا أَوْ أِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ).. وهذا ما كنّا نكرّره دائماً في أحاديثنا عندما نقول، إنّ الإسلام يتقدّم على أيّ أسلوبٍ حواريّ في العالم، حيث يعتبر أن رأيه، رأيي صوابٌ يحتملُ الخطأ، ورأي غيره خطأ يحتملُ الصواب، أمّا الأسلوب الحواري الموجود الآن، فيعتبر، أنّ رأيه صواب بنسبة مئة بالمئة، أو بنسبة سبعين بالمئة.

ونصل إلى أنّ الإسلام لا يقول رأيي صواب ورأيك خطأ، بل يمكن أن يكون رأيي خطأ أو صواباً، ويمكن أن يكون رأيك خطأ أو صواباً. فالمسألة إذاً ليست في أنّ الذي يمنع الحوار هو قناعتك بأنك مع الحقيقة، ولكن هي طريقتك في الحوار حول الحقيقة.

□ الإسلام وصراع الحضارات :

- * هل من مشروع حضاري للإسلام؟
- * استمرارية الطموح.
- * صراع حضارات أم «مؤامرة»؟

■ إذا كان ثمة سقوطاً للحضارات، فهل ثمة مشروع حضاري للإسلام ليدخل إلى العالم؟

* إن دراستنا للإسلام في مفاهيمه الإنسانية، وفي تخطيطه للمجتمع الإنساني يجعلنا نفكر بأنه يملك طاقات حية، يمكن لها أن تحقق نظاماً حضارياً جديداً.

شمولية الفكر الحضاري

□ أنا لا أتحدث عن سلبية تجاه كل مفردات الحضارة في الغرب، وإنما أتحدث عن مادية الغرب في حركته الحضارية، وأتحدث عن حالة الاستكبار التي يعيشها تجاه الشعوب الأخرى، هذا أولاً.. وإنما نعتقد أن الإسلام في مفاهيمه التي يُوحي فيها للإنسان بحريته أمام العالم، ويؤكد له أن الكون مسخرٌ له، ليستفيد منه، وليحرك طاقاته فيه، وليتأخرى معه، نعتقد أنها حركة الطاقة الإنسانية تتكامل معها الطاقة الكونية.. وعندما نتحدث عن الجانب الإنساني، فإن الإسلام يرفض الاستكبار، حتى على مستوى الفرد، ويعتبر أن لأي إنسان الحرية في أن يعبر عن نقده للسلطة، من دون أن يُسمح للسلطة أن تعتبر النقد حالة تُبرر لها اضطهاد هذا الإنسان الناقد. بل إننا ندرس نصاً في حياة النبي محمد (ص) حيث وقف في آخر حياته - وهو إنسانٌ مسؤول أمام الله، وليس مسؤولاً أمام الناس - يقدم حساباته للأمة، ويُفهم أفرادها بأنه لم يُحلّ إلا ما أحلّ الله، ولم يحرم إلا ما حرم الله. وهذا خليفة المسلمين، الإمام علي (ع) يقول للناس: «لا تكلموني بما تكلمون به الجبابرة»، ويُفيدهم بأنه «لا يستثقل الحق ولا يرفض مشورة بحق، أو مقالة بعدل». ومن هنا نجد، أن هناك ساحةً مفتوحة بين الحاكم وبين الشعب، ليقف الحاكم طالباً من الشعب أن يراقب أعماله، وأن ينقده، ويعتبر أن من مسؤولية

الشعب القيام بذلك.. كما نجد في التشريع الإسلامي ما يكفل للإنسان حاجاته، حيث الإسلام يملك مذهباً اقتصادياً، يمكن أن يتحوّل إلى نظام اقتصادي مبنيّ على تكافؤ الفرص، وعلى اعتبار العمل قيمة، ولا يعتبر أنّ رأس المال هو الأساس، بل يعتبر أنّ رأس المال يمثّل تراكمات للعمل، أي أن الأعمال المتحركة تتحوّل إلى رأس مال، ولذلك فإنه لا يعطي رأس المال كلّ القيمة، بل يعتمد أسلوب تزواج رأس المال مع العمل، ليكون لهذا حصّة، ولذاك حصّة معينة.. وكذلك نعتقد أنّ العناصر الإنسانية الموجودة في التشريع الإسلامي يمكن أن تكفل للإنسان حياة جيدة، لا سيما وأنّ الإسلام لا يعتبر أنّ المسألة الاقتصادية هي كلّ شيء، ولا المسألة الاجتماعية كل شيء، ولا المسألة الجنسية كذلك.

مقومات للنهوض

في الإسلام هناك فردٌ يتكامل ويتفاعل مع المجتمع، هناك مادة تتمازج مع الروح، وغرائز إنسانية تتكامل لتحمي الإنسان، والإسلام لا يعتبر الغريزة شيئاً من الرّجس، بل يعتبرها شيئاً طبيعياً في الحياة.

إنّ دراستنا للإسلام في مفاهيمه الإنسانية، وفي تخطيطه للمجتمع الإنساني يجعلنا نفكر بأنه يملك طاقات حيّة، يمكن لها أن تحقق نظاماً حضارياً جديداً. ونحن نعتقد أنّ الإسلام في القرن الأول من حركته، استطاع أن يحوّل المجتمع الجاهل إلى مجتمع متحضّر، بقطع النظر عن السلبيّات التي نرصدها في بعض ممارسات الحكم والحكّام.. ولكنّ المسألة هي أنّ الإسلام أو أيّ نظام حضاريّ آخر، لا بدّ له من أرضية صالحة يتحرك فيها، ولا بدّ له من إنسانٍ يؤمن به ويتمثله في تفكيره، لأنّ الدين لا يستطيع أن يحمي نفسه من المتدينين، والفكرة لا تستطيع أن تحمي نفسها من مفكرّيها، ولهذا قيل: «الإسلام شيء، والمسلمون شيء آخر».

■ هل يمكن أن نطمح لبناء حضارة إسلامية، كما

كانت في الماضي؟

□ لقد استطاع الإسلام أن يبني حضارةً واسعة، يقول عنها «نهر»^(١) في مذكراته: «إنها أم الحضارات الحديثة»، ولكن في حجم القدرات والأوضاع في تلك المرحلة.. ومن الطبيعي أن الإسلام قادرٌ بمفاهيمه أن يبني حضارةً من خلال الإمكانيات والقدرات الموجودة في هذه المرحلة.

إنّ الخط واحد، ولكنّ حركة الخط في الواقع متنوعة، لأنّ الواقع تغيّر، ولذلك فإنّ طريقة إنشاء الحضارة الآن، وحجم هذه الحضارة، لا بدّ أن يختلف عن طريقة إنشاء الحضارة فيما سبق.. ونحن نعرف أنّ الإسلام منفتح على الحضارات الأخرى، يأخذ منها ما لا يتنافى مع مفاهيمه وخطوطه، لا سيما في القضايا العلميّة والعملية، وبناءً على ذلك فإنّه بإمكاننا - كما استطعنا أن نأخذ من الآخرين، ونصنّع ما أخذناه إسلامياً - أن نصنّع كثيراً مما استحدثه الإنسان في المجالات العلميّة والثقافية والعملية لنجعله إسلامياً.

(١) أحد زعماء الهند في بدايات القرن العشرين.

■ الغرب اليوم يسيطر على كلّ الواقع، بامتلاكه السلاح النووي، وبغزوه للفضاء، وبامتلاكه لثورة المعلومات. هل يمكن إرجاع الصراع بينه وبيننا إلى مفهوم «المؤامرة» أم لحركة صراع الحضارات؟

* عندما دخل الغرب إلى بلادنا لم يدخل مُحاوراً ولا مناظراً من أجل تغليب قيمة على قيمة، وإن كان يحرك قيمة في بعض مواقعنا بالشكل السطحي الذي كان يعمل فيه على إلغاء شخصيتنا.

* الإنسان الغربي إنسانٌ مُستَلَبٌ وضائع، تحكمه المخدرات ويتحرك تحت تأثير الجرائم.

واقع الصراع

□ لا أحب أن أستخدم كلمة «مؤامرة» لفرط ما استُهلكت فلم تعد تعبّر عن معنى، ولكني أقول، إنّ صراعنا مع الغرب، لم ينطلق في حركيته، وفي كلّ مفرداته، من مسألة صراع الحضارات، لأنّ صراع الحضارات عندما يتحرك، فإنه يعمل على أساس أن يحرك المفاهيم المتضادة أو المتنوعة، لتعمل على أساس أن تدخل في حوار، أو تدخل في عملية قهرٍ فكريٍّ أو ما إلى ذلك.. والمسألة المطروحة هي أن الساحة لم تنطلق منذ أن دخل الغرب المنطقة في عملية ما هي القيمة الإنسانية، وما هي مسألة الحرية، وما هي حدودها، وما هي عناصر العدالة، وما هو المذهب الإقتصادي الأفضل، بل كانت المسألة، مسألة صراع القوة والضعف.. فجاء الغرب إلى العالم الثالث من أجل أن يسيطر على ثرواته، وأن يسيطر على مواقعه في صراعاته مع بعضه البعض.

إننا نلاحظ أن بداية عهد الاستعمار، هي عملية الغزو، التي كان يقوم بها المستعمرون من هنا وهناك لأجل أن يريحوا هذا الشاطئ، أو ذاك، وكانت الصراعات بين الغربيين أنفسهم من أجل طرق المواصلات للوصول إلى مستعمراتهم وأسواقهم الجديدة.. لهذا عندما دخل الغرب إلى بلادنا، لم يدخل محاوراً ولا مُناظراً من أجل تغليب قيمة على قيمة، وإن كان يحركُ قيمه في بعض مواقعنا بالشكل السطحي، الذي كان يعملُ فيه على إلغاء شخصيتنا من خلال الفوضى الفكرية التي تتحرك في السطح، ولا تتحرك في العمق، لتوجد إنساناً ضائعاً بين مفاهيم ضبابية لا يعرف معناها، وإن كان يلتقي ببعض مواقع السطحية.. من هنا، كان هدف الغرب وما زال، السيطرة على الأرض والإنسان، وعلى المواقع الاستراتيجية. لذلك لا نستطيع أن نعتبر الصراع بيننا وبينه صراع حضارة.

للحضارة إنسانيتها، فأين منها واقع الغرب؟

ونحن عندما ندرس حروب أميركا في المنطقة، فإننا نجد أنها حروبٌ من أجل السيطرة على النفط، وحين ندرس حربها في «بنما» مثلاً، نجد أنها من أجل السيطرة على المواقع الاستراتيجية في مواجهة الاتحاد السوفياتي السابق.. ولا تزال حروبها، وحروب الغرب المتنقلة في أكثر من مكان في العالم، تنطلق من أجل حماية مصالحها. فالمسألة إذاً هي مسألة المصالح، وهكذا نجد أميركا دولة لا مبادئ لها، إنما هي دولة «براغماتية» تحاول أن تصنع مبادئها من خلال المواقع التي تتحرك فيها. وعلى ضوء هذا، نعتبر أن مسألتنا مع أميركا بالذات، ومع الغرب بشكل عام، هي أن الغرب يمثل قوة تريد أن تسرقنا جميعاً، أن تسرق أرضنا وثرواتنا وإنساننا، ولا تريد أن تدخل معنا في عملية احترام.

فالعالم الغربي في تعامله مع المسألة الفلسطينية نراه يتعامل مع الإنسان اليهودي

بطريقة، ويتعامل مع الإنسان العربي والمسلم بطريقة أخرى، حتى أن إعلامه يعيش احتقار هذا الإنسان.. لهذا، لا نضع القضية في عملية الصراع الحضاري. وأمّا الحديث عن أن الغرب يمتلك هذه القوة، فإنني أعتقد أنه أسيرُ هذه القوة، لأنّه لا يستطيع أن يستعملها، إنه يملك القنابل الذرية، ولكنه لا يملك استعمالها، فلم تُستعمل القنبلة الذرية بعد الحرب العالمية الثانية، بعد «هيروشيما» أبداً. صحيح أنه يستطيع أن يحصل على نتيجة من خلال الأقمار الصناعية، ومن خلال غزوه للفضاء، ويستطيع أن يحرك التكنولوجيا ليسيّطرها على مواقع التقدّم في العالم، ولكننا نجد أن الغرب لم يستطع أن ينجح في إنسانيته، وعندما ندرس واقعه، نجد أنه واقع يعيش مشاكل مدمّرة على مستوى الإنسان. وهذا وزير الخارجية السابق «جيمس بيكر» يتحدث عن سقوط القيم الإنسانية الأميركية في واقع الإنسان الأميركي الفردي والاجتماعي، نتيجة كثير من القضايا التي أصبح يتخبّط فيها، في أخلاقيات سلبية تُسيء إلى كلّ واقعه. إننا نعتقد أن الغرب مُحاصرٌ بمشاكله بشكلٍ فوق العادة، وإننا عندما ندرس الواقع الأميركي لا نجد أن هناك شعباً أميركياً توحدّه إنسانيته، بل ما يوحد إنسانيته هي هذه «الورقة الخضراء» والنظام الأميركي، ولو أن هذا النظام اختلّ فإنه لن يبقى هناك شعب، تماماً، كما كان الاتحاد السوفياتي مع حلفائه في أوروبا الشرقية حيث كان يُوحّد هذه الشعوب، النظام الشيوعي. ولقد حدّثني «سفير يوغوسلافيا» السابق - آخر سفير لهذه الدولة - بأن الذي يوحدنا هو النظام الشيوعي، فنحن نتمسك بالشيوعية لأنها توحدنا، وفيما لو سقطت لانفرط العقد كله.. وهذا ما حدث بالضبط، وقد حدّثني بذلك قبل حرب البوسنة والهرسك. لذلك، فنحن نعتقد أن الغرب، ربما استطاع أن يملك القوة الكبرى من ناحية الكميّة أو النوعية، ولكنّه لم يستطع أن يملك قوة كبرى من ناحية إنسانيته. فالإنسان الغربي، إنسانٌ مُستَلَبٌ وضائع تحكّمه المخدرات، ويتحرّك تحت تأثير الجرائم.

□ الإسلام والغرب :

- * الصراع القائم.
- * إنسحاق أمام الآخر.
- * تقدّمهم وتأخرنا.
- * مؤزمر السكّان.

■ كيف تنظرون إلى الصراع القائم اليوم بين الغرب والإسلام؟

- * إنني أتصور أن الصراع سوف يكون مريراً في المستقبل.
- * إن الخطاب الإسلامي للغرب ليس خطاباً جامداً متعصباً يستغرق في السلبيات.
- * نحن نعتبر أن هذه الشعوب (الغربية) هي ساحة رسالتنا في أن نفتح عقولها على الإسلام.
- * نحن لا نتعقد من الغرب الشعب، ولا نتعقد من الغرب العلم.
- * نحن نتعقد من الاستكبار الغربي بكل ما تعطيه كلمة الاستكبار في مواجهة استضعاف العالم الثالث.

تحديات المفاهيم

□ في تصوّري أن هناك صراعاً - إذا أردنا أن نكون دقيقين - بين المفاهيم الإسلامية وبين المفاهيم الغربية في كثير من المواقع.. ولا أستطيع أن أتحدث عن حضارة إسلامية في الواقع، لأنني أجد أن الواقع الإسلامي لا يمثل حالة حضارية تُعبّر عن الإسلام، بحيث يمكن أن نطلق عليها اسم الحضارة الإسلامية.. هناك مفردات لمضمون الحضارة الإسلامية تتصل بالمفاهيم التي يختزنها المسلمون، أو ببعض الأوضاع العملية التي ينطلقون فيها.

ومن الطبيعي أن القاعدة التي تنطلق منها الحضارة الغربية هي القاعدة المادية، بينما القاعدة التي تنطلق منها الحضارة الإسلامية ليست قاعدة مادية، وإن كانت لا تبتعد عن

حركة المادة وتأثيرها في الإنسان، لأن الإسلام لا يتنكر للعالم الخارجي وتأثير العوامل المادية في حركة الإنسان وفي واقع الحياة. ولكنه يعتبر أن الله هو الأساس في ذلك، وهو سبحانه خلق السببية وخلق الإنسان، ليجعل الإنسان هو محور الكون باعتبار أنه صانع التغيير (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)^(١).

أنا أعتقد أن هناك صراعاً بين الغرب وبين الإسلام، وقد برزت هذه الحركة الصراعية حديثاً - عندما انطلقت الصحوة الإسلامية - وشعر الغرب بخطورة المفاهيم الإسلامية التي تمثل خلفيات هذه الصحوة في المسألة السياسية والإقتصادية والأمنية. من هنا، بدأ يستعد لها في القيود التي يفرضها على الإسلاميين الذين يعيشون في محيطه من جهة، أو في الأوضاع التي يفرضها على الحركة الإسلامية في هذا البلد الذي يرتبط به سياسياً، أو ذاك البلد الذي يرتبط به أمنياً أو اقتصادياً، أو ما إلى ذلك.. وإنني أتصور أن الصراع سيكون مريراً في المستقبل.

واقعية الخطاب

وهناك فرق بين أن نتحدث عن سلبية تجاه الغرب ككل، أو نتحدث عن سلبية تجاه الغرب كقوة اقتصادية وسياسية وأمنية تفرض نفسها على واقع المستضعفين، وتصادر ثرواتهم وحررياتهم وما إلى ذلك. إننا لا نتعقد من الغرب العلم والثقافة، ومن الغرب القوة التكنولوجية والتقنية.. ونحن نعمل على أن نستفيد من الغرب في ذلك كله، لذلك ندفع بشبابنا لكي يذهبوا إلى الغرب ليتخصصوا، ونعمل على تحصين هؤلاء الشباب من خلال المواقع الثقافية والدينية الإسلامية التي تحفظ للشباب إسلامهم، لذلك نحن لا نتعقد من الغرب، ولا نوافق على خطابٍ يلغي الغرب كله، حتى أننا نفرق بين الغرب في

(١) الرعد: ١١.

المسألة السياسية، على حسب درجات التحرك الغربي ضد مصالحنا. فنحن الآن نفرق بين الغرب الأميركي، والغرب الأوروبي، بالرغم من أننا عانينا من الغرب الأوروبي كثيراً في بعض المسائل المتصلة بالقضية الفلسطينية، أو بعض المسائل المتصلة ببعض الواقع الموجود في هذا البلد أو ذلك.

إنّ الخطاب الإسلامي في مواجهته للغرب، ليس خطاباً جامداً متعصباً يستغرق في السلبيات الغربية ويُعطي الحكم الشمولي عليها، ولكننا نواجه المسألة الغربية على أساس أن هناك شعوباً غربية، وأنّ هناك إدارة غربية. ونحن نعتبر أنّ هذه الشعوب هي ساحة رسالتنا في أن نفتح عقولها على الإسلام، وأن نعمل على أن نربح صداقتها وتأييدها لقضايانا بطريقةٍ وأخرى.

ومن هنا، فنحن لا نتعقد من الغرب الشعب، ولا نتعقد من الغرب العلم.. نحن نتعقد من الاستكبار الغربي، بكلّ ما تعطيه كلمة الاستكبار الغربي من معنى في مواجهة استضعاف العالم الثالث، والذي يمثل مصادرة ثرواتنا والضغط على قراراتنا السياسية، والطغيان في المسائل الأمنية وما إلى ذلك. وتبقى هناك المفاهيم عن الإنسان وعن الحياة وعن الكون وعن الخطوط السياسية والمذاهب الاقتصادية، مما قد يختلف الغرب فيه بين مفكرٍ وآخر، وبين مدرسةٍ وأخرى، كما قد نختلف فيه بين مذهبٍ إسلامي ومذهبٍ إسلامي آخر، أو دينٍ إسلامي ودينٍ مسيحي وما إلى هنالك.

■ بعضنا منسحق أمام الآخر، وتحديداً أمام الغرب، كيف يمكن أن نحصن الذات أمام ذلك؟

* لماذا نعمل دائماً على أن نكون صورةً للآخرين، نحن نريد أن نكون نحن.

* هل تريدون أن تكونوا الأمة التي تنحني للأقوياء، لأنها أدمنت الضعف؟

* إصنعوا القوة للفكر، واصنعوا القوة للحياة، حتى إذا أردنا أن نتعاون مع الآخرين فليكن تعاوننا تعاون القوي مع القوي.

□ مشكلة الكثيرين منا من نساءٍ ورجالٍ أنهم يستهلكون ما يُنتجه الآخرون.. الآخرون يصنعون لهم طعامهم وشرابهم وثيابهم وأزياءهم وأفكارهم وعاداتهم وتقاليدهم، العصر هكذا، الزمن هكذا، الناس هكذا، لكن أنا ماذا؟ هل يفكر أحدنا أنا ماذا؟ هل أننا نختار حياتنا وشكلنا وطريقة حياتنا، أم أن الآخرين يختارون لنا ذلك؟

لا نزال نسأل، ماذا من جديد في واشنطن، وماذا من جديد في باريس، وماذا من جديد في لندن وغيرها، ماذا من جديد في سرعة الأزياء، وماذا من جديد في سرعة الأفكار والسياسات، وما إلى ذلك، نحن لا نريد أن نرفض الآخرين، ولا نريد أن نعيش العقدة ضد الآخرين، لكن لماذا نعمل دائماً على أن نكون صورةً للآخرين، نحن نريد أن نكون نحن، أن نكون صورتنا، أن نكون عقلمنا، أن نكون إرادتنا، أن نكون ذاتنا، وعند ذلك يمكن لنا أن نصنع الصورة للآخرين من خلالنا، أو نتكامل مع الآخرين فيما لدينا، وفيما لديهم.

إنّ الحياة تكامل، والحضارات كذلك، لذلك فكروا، هل تريدون أن تكونوا الأمة التي تنحني للأقوياء، لأنها عاشت الضعف، وتقبّلته وأدمنتته، وبذلك أصبحت تخاف أن تكون قويّة، فأمعنت في تخليد ضعفها، تماماً كما يمعن الذي يتناول المخدّر في تذويب نفسه.

القصة، هي أن نكون الأقوياء في مجتمع لا يحترم إلاّ الأقوياء، لا تصدّقوا أنّ الفكر وحده يمكن أن يصل إلى أهدافه بعيداً عن القوة، اصنعوا القوة للفكر، والقوة للحركة، والقوة للحياة، حتى إذا أردنا أن نتعاون مع الآخرين، فليكن تعاوننا تعاون القوي مع القوي، لأنكم تعرفون ما معنى تعاون القويّ مع الضعيف، وما معنى تحالف القويّ مع الضعيف، ما هو إلاّ صيغة قانونية لسيطرة القويّ على الضعيف.

■ بنظركم ما هي أسباب تقدّم الغرب، وتأخر

الشرق؟

* عندما نكون أمة العقل لا أمة الإنفعال، وأمة الإرادة لا

أمة الاسترخاء، وأمة اقتحام المستقبل لا أمة النوم في

انتظار المستقبل، فإننا نستطيع أن نتقدم.

□ الغربيون أخذوا بأسباب العلم، فصاروا أقوياء، ونحن لم نأخذ بأسباب العلم والتقدم لذلك تأخرنا.. يُقال: إن عالماً وصل إلى مستوى المرجعية، إلتقى بعالم آخر كان زميلاً له، ولكنه بقيَ في المواقع الخلفية.. التفت إليه هذا الزميل الذي لا يزال في المواقع الخلفية، وقال له: شيخنا، ألم تكن زملاء معاً، فكيف تقدّمت وبقيتُ أنا في مكاني؟ قال له: «مشينا ووقفتم».. المهم، أن الآخرين مشوا، ونحن وقفنا، ولذلك فإن الكثير من علماء النفس يقولون: إن مشكلة الشرق والعالم العربي هي مشكلة المغنية أو المطربة باعتبار أنها كانت تجعل الناس يسهرون ست وسبع ساعات، وما لهم من عمل سوى اطلاق التهديدات والتأوهات، ولا ينادون الفجر، إنما ينادون الليل من أجل الاستغراق في هذا الليل.. وزعمائنا أيضاً، فإن الواحد منهم يخطب ساعتين وثلاث ساعات، ونحن نهتف ونتحمّس، ونرفع الشعارات، وفي آخر الأمر نكتشف أن هذا الزعيم الذي صفّقنا له لا يملك خطة للتحرير ولا للبناء ولا أي منهج، ولكنه كان يملك كمية كبيرة من القدرة على استثارة الانفعالات في العالم العربي، لذلك لم يستطع الشرق أن يُحقق شيئاً.

فعندما نكون أمة العقل، لا أمة الانفعال، وأمة الإرادة لا أمة الاسترخاء، وأمة اقتحام

المستقبل، لا أمة النوم في انتظار المستقبل، فإننا نستطيع أن نتقدم.

■ أبرز مؤتمر السكان الذي عُقد في القاهرة عام ١٩٩٤م، ومؤتمر بكين عام ١٩٩٥، تطابقاً في العديد من وجهات النظر بين الفاتيكان وعدد من الجهات الإسلامية ولا سيما الجمهورية الإسلامية في إيران، وذلك في مواضيع الحفاظ على المرأة، وتحقيق ذاتها، والحفاظ على الأسرة، ورفض الإجهاض، والشذوذ الجنسي، والعلاقات غير الشرعية.. السؤال: لماذا لا يُصار إلى تنسيق عملي بين الفاتيكان، والدول الإسلامية وعلى رأسها إيران، ليؤسس لجبهة القيم في العالم في مواجهة الإنحراف؟

بين نظرة ونظرة

□ إن الاتجاه الثقافي الذي تتحرك به الحضارة الغربية الخاضعة للقيم المادية، يختلف عن الاتجاهات الدينية، سواء منها المسيحية أو الإسلام. والحضارة الغربية تؤكد على حرية الإنسان الفردية في كل ما يشتهي وما يحبه، وما يشعر بالسعادة معه.. فالقيمة في هذه الحضارة هو الإنسان في حريته الذاتية في كل شيء، فهو حر في ممارسة شهواته الجنسية بالطريقة التي تحلو له، لذلك اعتبرت الحضارة الغربية العلاقات غير الشرعية خارج نطاق الحياة الزوجية علاقات إنسانية طبيعية، وبدأوا بالتشريع لها، وبالاعتراف بالولد غير الشرعي، ويرون أن للعشيقة حقاً في بعض الجوانب المالية، تماماً كما هو حق الزوجة بالنسبة إلى زوجها، وهكذا يرون أن الشذوذ الجنسي، سواء كان شذوذاً مذكراً وهو اللواط، أو شذوذاً مؤنثاً وهو السحاق، يرون أنه

يمثلُ أمراً مشروعاً، لأنه يُلبّي حاجة فريق من الناس يشعرون بالسعادة معه. ولذلك شرّع الشذوذ الجنسي في أكثر من دولةٍ غربية، حتى أن الحملات الإنتخابية على المستوى النيابي أو رئاسة الجمهورية في أميركا وغيرها، كان من شعاراتها التي تجتذب الناخبين، تشريع زواج الرجل من الرجل، وزواج المرأة من المرأة، حتى أننا قرأنا أن بعض المؤسسات الدينية في الغرب، عقدت زيجات من هذا القبيل، وليس ذلك إلا من جهة أن المسألة تخضع لحرية الإنسان في جسده، وحرية في وسائل التنفيس عن شهوته وغيرةته.. وهكذا انطلقوا في الغرب ليتحدثوا عن الأم غير المتزوجة، يعني الأم غير الشرعية، ولتحدثوا عن الأسرة، كما لو كانت نظاماً يُقيد حرية المرأة وحرية الرجل، وما إلى ذلك من الأفكار ومن القيم المادية، التي تقف وجهاً لوجه أمام القيم الأخلاقية التي شرعتها الرسالات، هذه الرسالات التي تحارب الشذوذ الجنسي والعلاقات غير الشرعية.

تطابق مع اختلاف

من هنا، فالإسلام والمسيحية ومنها الفاتيكان، يلتقون بالنسبة إلى حرمة الإجهاض، وإن كانت الشريعة الإسلامية بلحاظ بعض الفتاوى. تجوز الإجهاض في بعض الحالات الطارئة، كحالة الخوف على الحياة. وهكذا نجد أن هناك خلافاً بين الفاتيكان، وبين الفقه الإسلامي في مسألة وسائل منع الحمل. فالفقه الإسلامي المعاصر يرى أن وسائل منع الحمل جائزة بشكل عام، إلا في بعض الوسائل التي تشتمل على بعض الإشكالات الشرعية الخارجية، كموضوع كشف العورة، أو مسألة التعقيم الكامل.. ومع ذلك، فإننا نتفق مع الفاتيكان في بعض القضايا التي أثّرت في هذه المؤتمرات، ونختلف في بعض القضايا الأخرى.. ونحن دعونا الفاتيكان، وما زلنا، إلى كلمة سواء على مستوى العالم، وبأن نقف كمسلمين وكمسيحيين - ولا سيما الكاثوليك الذين يتزعمهم البابا - أن نقف

معاً، على الكلمة السواء، وهي تأكيدُ الإيمان بالله الواحد، وتشجيعُ وتنمية الدفاع عن القيم الروحية والأخلاقية المشتركة بين الإسلام وبين النصرانية، ومواجهة الاستكبار العالمي.

وقد لفت نظرنا أن مندوبة الفاتيكان في مؤتمر بكين حول المرأة، كانت تتبرأ من مسألة التنسيق مع الدول الإسلامية، كما لو كانت تخاف أن تُضبطَ منفتحة على الواقع الإسلامي، لأن ذلك قد يُشكّل دعاية للإسلام.. وعلى كلِّ نحن لا نتوقف أمام هذه السلبية، ونجدُ أنّ علينا أن نقف جميعاً لندافع عن القيم الأخلاقية والروحية والإيمانية في العالم باعتبارها قيماً مشتركة تلتقي عليها الأديان جميعاً.

□ الإسلام والعنف :

- * بين العنف وسلمية الأسلوب.
- * ماذا لو فرض العنف؟
- * عنف أم جهاد؟
- * ظاهرتان مميزتان.

■ أكد الإسلام على مسألة الموعظة الحسنة، والجدال الهادئ والبُعد عن العنف، ولكن في مسار الحركة الإسلامية في بعض المواقع، نرى أن العنف يحكم مسار هذه الحركة.

* إختار الأسلوب الأحسن، الفكر الأحسن، البسمة، اللفتة، الإيماء، الإيحاء حتى تستطيع أن تفتح قلب الآخر وبعد ذلك أنت لست مسؤولاً عن هداه وعن ضلاله.

حركة الأسلوب

□ العنف ليس الأساس، إنما الأساس في الإسلام عندما تكون القضية، قضية فكر يُراد إقناع الآخرين به، وعندما تكون هناك سياسة يُراد للآخرين أن يقبلوا بها، وعندما يكون هناك واقع يُراد للآخرين أن يعيشوه، عندما تكون القضية كذلك، فالإسلام يقول (وقلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)^(١)، إنه يرفض أن تقول الكلمة الحسنة، إنه يريد لك أن تقول الأحسن، أن تدخل في عمق الكلمات لتدرس كل الإيحاءات السلبية والإيجابية التي حملتها من خلال كل التاريخ الذي عاشت فيه الكلمة، لتختار الكلمة التي لا تحمل إثارة سلبية، وتنتقي الكلمة التي تحمل الإثارة الإيجابية..

في الدعوة (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ)^(٢) والحكمة، هي وضع الشيء في موضعه، الحكمة هي حركة الفكر في عالم التطبيق، لذلك حدثنا الله عن الكتاب والحكمة.. وإذا كان هناك الكتاب، وهو كتاب الله، فما حاجتنا إلى الحكمة؟ لأن

الله يريدُ لنا أن نحركَ الكتاب في الواقع، وأن نعرف كيف نركّز آياته ونوزعُها على مفردات الواقع لتلتئم معها.. وأن نضع الكلمة في موضعها، والموقف في محلّه، تماماً كما هو تعريف البلاغة عند علماء البلاغة: «البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال»، ولذلك لن يكون الإنسان بليغاً إذا لم يكن للإنسان ثقافة الواقع.. أدرس كلّ الآداب، وكلّ فنون البلاغة، ولكن إذا كنت لا تفهمُ الواقع، فكيف تستطيع أن تختارَ للواقع الكلمة التي تتناسب معه، والتي تحركه؟

(ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة)، ادرس ذهنية الإنسان الآخر، ادرس ظروفه، ادرس الأجواء التي تتحرك فيها الكلمة، ادرس كلّ ما هناك من سلبيّات وإيجابيات وخلفيات ومؤثرات، واطلق الكلمة (والموعظة الحسنة) التي تلامسُ القلب وتفتحه والتي تدخل في العقل وتحركه.

سلمية الحوار

وإذا دخلت في صراع الأفكار، ليكن للآخرين فكرهم الذي يختلفُ عن فكرك، إذا أردت أن تحاور الآخرين وتجادلهم، والجدال أكثر عنفاً من الحوار، ففي الحوار هناك كلامٌ يصدرُ من إنسان، وكلامٌ يصدر من آخر، دون أن تفرض أن هناك شيئاً من الصراع بين كلامٍ وكلام، ولكن الجدلية تفرض أن يكون هناك نفي وإثبات، سلب وإيجاب، أن يكون هناك تصادمية فكرية، فعندما يكون ذلك (وجادلهم بالتي هي أحسن)، اخترِ الأسلوب الأحسن، الفكر الأحسن، الجوّ الأحسن، البسمة، اللفتة، الإيماء، الإيحاء، حتى تستطيع أن تفتح قلبه، وبعد ذلك أنت لست مسؤولاً عن هداه وعن ضلاله (إن ربك هو أعلمُ بمن ضلَّ عن سبيله وهو أعلمُ بالمُهتدين)^(٣)، خذ

تجربتك من خلال ما يتصل الأمر بك في حركة الفكر، ويبقى للهداية والضلال، عناصرهما التي قد تلتقي بأسلوبك، وقد لا تلتقي به.

وإذا أردنا أن نستوضح الفكرة أكثر، فإننا نواجه حركة الصراع، المشكلة التي تثور، الصراع الذي يتحرك، كيف نعالجه؟

(ولا تَسْتَوِي الْحَسَنَةَ وَلَا السَّيِّئَةَ)^(٤)، و«الحسنة» هي الأسلوب، الأسلوب السلمي، الأسلوب الذي يجذب الآخر، ولا ينفيه. و«السيئة» هي أسلوب العنف والقسوة وما إلى ذلك (ولا تستوي الحسنَةُ ولا السيئةُ ادْفَعُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)، بالطريقة التي هي أحسن.. ويعرفنا تعالى ملامح هذه الطريقة (فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)^(٥)، اختر الطريقة التي تحوّلُ أعداءك إلى أصدقاء، أعداء قضيتك إلى أصدقاء لقضيتك، أعداء فكرك إلى أصدقاء لفكرك، فيما هي مسألة الدعوة، وفيما هي مسألة الفكر، وفيما هي مسألة الخلاف الفكري؛ قل التي هي أحسن، جادل بالتي هي أحسن.. إن القرآن عندما تحدّث عن أهل الكتاب، كيف تحدّث إليهم؟ (ولا تجادلوا أهلَ الكتاب إلا بالتي هي أحسنُ إلا الذين ظلموا)^(٦).. الذين لا يريدون أن يدخلوا معك في حوار، وأنما يريدون أن يفرضوا عليك قوتهم فيظلموك، هؤلاء لهم حساب آخر (ولا تجادلوا أهلَ الكتاب إلا بالتي هي أحسنُ إلا الذين ظلمُوا منهم، وقولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)^(٧)، أن تبحث عن مواقع اللقاء مع الآخر، ليكون ذلك هو القاعدة التي تقف عليها لتعالج الخلاف من مواقع الوفاق لا من مواقع الخلاف.. هذا هو الأسلوب الإسلامي.

(٦) العنكبوت: ٤٦.

(٤) فصلت: ٣٤.

(٧) العنكبوت: ٤٦.

(٥) فصلت: ٣٤.

■ ماذا لو أسقط الطرف الآخر لغة الحوار، وفرض عليّ القتال والعنف؟

* العدوان ليس مجرد أن تتحرك يدُ الآخر في مواجهتك،
ولكن أن تتحرك خطة الآخر في مواجهة واقعك، ونحن بذلك
نعيش الخطة العدوانية.

* العنف هو العملية الجراحية التي لا نلجأ إليها إلا إذا
انطلق المرض ليقتل الحياة.

* أنا لا أقول لا تحذروا، ولكن أقول لا تخافوا، الخوف
يُسقط إنسانيّتكم، والحذر يغني واقعيّتكم لتعرفوا كيف
تتحركون في الطريق.

عدوانية الآخر

□ عندما تكون المسألة أن هناك مَنْ يفرضُ عليّ القتال، ومَنْ يظلمني (وقاتلوا في
سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ)^(١)، قاتلوا في سبيل المستضعفين، قاتلوا الذين
يظلمونكم، قاتلوا الذين يُخرجونكم من دياركم بغير حق.. وهل هذا عنفٌ ضدّ الحياة أو
هو عنفٌ لحماية الحياة؟ هل تقدّم وردة لمن يوجّه إليك صاروخاً، وتحدّث له عن السلام؟
بعض الناس في حالة الخدرِ الفكريّ الذي يعيشون فيه، قد يحدثونك عن ذلك، لأنهم لا
يعيشون التجربة، ومنهم المثقفون الذين يجلسون في أبراجهم العاجية، لينظروا للذين

(١) البقرة: ١٩٠.

يعيشون في قلب المحرقة.. إنهم يحدثونك عن النار في عمقها الفلسفي، ولا يحدثونك عن لذعات النار لأنهم لا يعرفونها، لأن النار لم تلذعهم.. بعض الناس لا يعرف أن يحدثك عن الألم ولا يفهم أن يحدثك عن الحرمان.. قد يقرأ عن الألم كما يقرأ الأعمى عن جمال الورد، وقد يقرأ عن الموسيقى كما يسمع الأصم الموسيقى، بعض الناس هكذا يفلسفون لك الفكرة ولا يعيشونها، ونحن نعرف أن الذي يعيش الفكرة يفهمها أكثر من أي فيلسوف يفلسفها.

جربوا أن تقرأوا كل القصائد عن جمالات الورد، وعن العطر، ولكن اذهبوا إلى أي حديقة، وتطلعوا إلى جمال الورد في شمة عطر، إنكم تفهمون جمال الورد، وتفهمون معنى العطر أكثر من ألف قصيدة تتحدث عن جمال الورد وعن عذوبة العطر.. بعض الناس لا يعيشون الواقع ويحاولون أن ينظروا لك في الواقع.. هذه هي المسألة.. نحن عندما نعيش في كل هذا الذل الذي نواجهه، الذل المفروض علينا من خلال الاستكبار العالمي، الذي يعتبر أن ثرواتنا ثرواته، وأن مواقعنا الاستراتيجية هي مواقعه، وأن بحارنا بحارُه، وأن أمننا على هامش أمنه، فإن سياستنا لا بد أن تكون جزءاً من سياسته.. هل هذا واقع نتحدث فيه في الخيال، أو أنه يجرحنا في كل يوم، ويدمرنا في كل يوم؟ إن الإسلاميين يقولون: عندما تكون القضية قضية شعب يُضطهد، وقضية أرض تُستلب، وقضية قرار يُصادر، وقضية حرية تُخنق، وقضية مستقبل يُراد إسقاطه قبل أن يأتي، عند ذلك لا بد لنا من أن نختار المنهج التصادمي، لأن الآخر هو الذي صدمنا، ولا بد لنا أن نرد الصدمة.. إننا نعتبر أن «إسرائيل» هي معتدية علينا بمجرد احتلالها لأرض فلسطين حتى لو لم تطلق رصاصة، فكيف وهي تدمر لنا كل واقعنا؟ إننا نعتبر أن الاستكبار العالمي يعتدي علينا، لأنه يفرض علينا سياسته وأمنه واقتصاده، ويوظف لنا حراساً لمصالحه ليكونوا ملوكاً ورؤساء وأمراء، وما إلى ذلك، هو يعتدي

علينا بذلك.. والعدوان ليس مجرد أن تتحرك يدُ الآخر في مواجهتك، ولكن أن تتحرك خُطّة الآخر في مواجهة واقعك، ونحن بذلك نعيش الخُطّة العدوانية.

إننا ننطلق في هذا المجال من مسؤولياتنا الإسلامية، ونرى أن مواجهة المستكبرين تمثل صلاتنا وصومنا، ونحن نفهم الصلاة حركة في خط حرية الإنسان، فنحن عندما نقول «الله أكبر»، إننا نقومُ بجولة في العالم ونحن نصلي، لنرى كُلّ هؤلاء الطغاة، ولنتحسّس بالكلمة، أنهم صغار، لنوحي إلى أنفسنا بصغرهم يوماً حتى ننزع هذه الهالة التي تُطَبِّقُ على كياناتنا فتحطمنا نفسياً أمامهم.. وهكذا نحنُ عندما نقول «لا إله إلا الله» إننا نستوحي سقوطَ الآلهة الذين يعيشون مواقع الآلهة، وإن لم يُعطوا أنفسهم هذا الاسم.

في مواجهة مَنْ يَقْتُلُ الحياةَ

وبعد ذلك يحدثونك عن علاقة الدين بالسياسة، وعن ضرورة فصل الدين عن السياسة، إننا لا نستطيع أن نفصل السياسة عن الصلاة، لأنها تفرضُ علينا سياسة إنسانيتنا وحرّيتنا، وحتى الصوم، نحن نصوم في مفردات الصوم، لنعرف كيف نصوم عن كل بضائع المستكبرين والصهاينة، ونعرف كيف نصوم عن حاجاتنا التي يستغلها المستكبرون من أجل أن يفرضوها علينا.. والسياسة ليست هي هذا الاستهلاك الذي نعيشه، هذا ليس سياسةً، هذه لعبة، فرقٌ بين أن تلعب وبين أن تسوس.. أن تسوس الناس، أن تسوس الحياة، أن تتطّلع إلى كُلّ قضاياها لتعرف كيف تنظّمها، وكيف ترتبها، وكيف تنطلقُ بها من أجل أن تقف في المواقع التي تُغني الحياة وتغني الإنسانية.. هذا الذي يستعمله الناس ليس سياسة، هذه لعبة سياسية، وليست سياسة وطنية أو قومية أو إسلامية.. هناك فرق بين أن تلعب، وبين أن تتحرك في القضايا الكبرى.

لذلك نحن لا نفصل الدين عن السياسة، أتدرون لماذا؟ لأن السياسة تنطلق من العدل، والدين كله حركة عدل، ليس في الدين شيء إلا العدل، عدل مع الله، عدل مع النفس، وعدل مع الإنسان، وعدل مع الحياة، أتريدون شاهداً من كتاب الله؟ (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ، وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ)^(٢)، كل الرسائل، كل الرسل، كل الكتب، كل البيّنات، هي قضية أن يقوم الناس بالقسط، وأن يقوموا بالعدل. لذلك نحن مع الإنسان كله حتى الذي نختلف معه في فكرنا، نحن نحمي حرية الفكر الآخر، لأن ذلك هو الشرط لحماية حريتنا.. لسنا ضد حرية الآخر، لذلك عندما تكون المسألة مسألة صراع فكري، أو مسألة حوار حضاري، أو عندما تكون المسألة مسألة يمكن للإنسان أن يمارس فيها إنسانيته، فنحن مع الإنسان كله، وربما نتجاوز كلمة الاستيعاب إلى كلمة الاحتضان، نحن نحضن الفكر الآخر والإحساس الآخر، ونحضن الواقع الآخر، عندما يحضنك الآخرون أو تحضنهم في حركة الواقع وفي حركة الفكر، لكن عندما يصدك الآخرون، وعندما يقتلك الآخرون، ويحاصرك الآخرون، عند ذلك تحتاج المسألة إلى عملية جراحية، والعنف هو العملية الجراحية التي لا نلجأ إليها إلا إذا انطلق المرض ليقتل الحياة.

نحن نحب الحياة، ولذلك نحن نعمل ضد الذي يقتل الحياة، نحن نحب الإنسان، ولذلك فنحن ضد من يضطهد الإنسان ومن يصادر حريته، ولذلك نحن ضد هذا الواقع الذي نعيشه في منطقتنا، لأنه واقع لا مكان للإنسان فيه، ولا حركة لعظمة الحياة فيه، إنه الواقع الذي يريد أن يحدثنا عن سياسة الأمر الواقع، ونحن نريد أن نحدثه عن حركة الواقع في تغيير الواقع.. الأمر الذي لا يسقطنا لأننا نغيره، وإن لم نستطع أن نغيره الآن، فسنغيره غداً (إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ

نُداوِلْهَا بَيْنَ النَّاسِ^(٣). (إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ، وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ)^(٤).

وأخيراً (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ، إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا، وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ، وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ، إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَخُوفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)^(٥). سياسةُ الخوف من الناس، سياسة شيطانية، وسياسةُ القوة هي سياسة رحمانية، أنا لا أقول، لا تحذروا، ولكن أقول، لا تخافوا، الخوف يُسقطُ إنسانيتكم، والحذر يُغني واقعيتم لتعرفوا كيف تتحركون في الطريق.

(٣) آل عمران: ١٤٠.

(٤) النساء: ١٠٤.

(٥) آل عمران: ١٧٣ - ١٧٤.

■ ما موقف سماحتكم من مسألة العنف في العالم العربي؟

بين الفعل وردّ الفعل

□ أنا أنكر أن العنف وكّد، أو امتدّ مع الحركات الإسلامية، بل إنّ الغرب، هو الذي بدأ العنف.. الغرب هو الذي خاض الحروب الصليبية ضدّ الشرق الإسلامي، وهو الذي استعمر البلاد الإسلامية، وبلدان العالم الثالث وأفقرها.

ولذلك فإنّ الحركات الإسلامية كانت تتحرّك دفاعياً، ولكنّ الغرب الذي يملك إعلاماً متقدّماً في المواقع الفكرية والسياسية وغيرها، حاول أن يُسلّط الأنظار على العنف، الذي هو ردّ فعلٍ ليقدمه كفعل، ولم يسَلْط الأنظار أو الضوء على العنف الذي بدأه.

أما في مسألة التاريخ، فإنّ من الطبيعي، أن العنف كان يتحرّك في البلاد العربية من خلال طبيعة التقاليد العربية في العرف.. ولكنّ الإسلام شرّع الجهاد، وعندما نقرأ الجهاد في الإسلام نقرأه جهاداً في سبيل المستضعفين الذين يقولون: (وَبِنَا أَخْرَجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا)^(١).

ونقرأه جهاداً ضدّ الذين يقاتلوننا (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ)^(٢)، وضدّ الذين يفتنوننا عن ديننا (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً)^(٣).

إنّ الجهاد الإسلامي هو جهادٌ وقائي في بعض مواقعه، ودفاعي في مواقع أخرى، وليس عدوانياً.. الإسلام هو دين الرفق، الرفق الذي ينتهي عندما يفرض الآخرون عليه

العنف. وهذا قولُ الله تعالى: (وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ، ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)^(٤).

وهكذا نقرأ في حديث رسول الله (ص): «إِنَّ الرَّفْقَ مَا وُضِعَ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَمَا رُفِعَ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ، وَإِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرَّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعَنْفِ».

■ منذ مؤتمر مدريد، نحن أمام ظاهرتين مميزتين: ظاهرة التركيز على أن الإسلام هو العدو، وهو الذي يهدد صراع الحضارات اللاحقة، وظاهرة اتسام العمل الإسلامي السياسي بالعنف.. هل يمكن إدراج هاتين الظاهرتين بمفهوم المؤامرة، أم أن ثمة أسباباً أخرى؟

* إن الغرب يتعامل معنا كتاجرٍ في المسألة الاقتصادية، وكطاغية في المسألة السياسية، وكحركة من أجل إبقاء كثير من عناصر التخلف في واقعنا.

* إن هناك تصادماً بين الخط الغربي في الاستكبار، وبين الخط الإسلامي في احترام إنسانية الإنسان.

مشروع الضياع

□ عندما نريد أن ندخل في تحليل هاتين الظاهرتين، نقول: ماذا يريد الغرب من العالم الثالث، وفي داخله العالم الإسلامي.. هل هناك حركة حضارية غربية، تعيش اهتمام الحضارة في حركيتها الإنسانية في العالم الثالث؟ هل هناك حركة إنسانية غربية تعمل على أساس تعميق حقوق الإنسان في العالم الثالث؟ هل الغرب، صاحب رسالة؟ أم أنه صاحب مصلحة؟

عندما ندرس حركة الغرب في المسألة الحضارية، باعتبار أن الغرب يمثل حضارة، فإننا نجد أنه ممنوعٌ على العالم الثالث أن يتمثل قيم الحضارة الغربية في العمق.. فالديموقراطية عنوان الغرب، عنوان الحضارة الغربية، نلاحظ مثلاً، أنه منذ بداية هذا

القرن، الذي كان بداية دخول الاستعمار الغربي - بصيغته المعروفة - للعالم الإسلامي والعالم الثالث، نلاحظ أن الغرب كان يعمل على المزيد من التخلف، والمزيد من فرض الأنظمة الديكتاتورية التي تضطهد شعوبها، بحيث أنه، كان يقف ضد أي حركة كانت تعمل على أساس إيجاد حالة شعبية منفتحة على قضايا الحرية والعدالة، لأنه كان عليه أن يستنزف ثروات هذه الشعوب من خلال الحكام الذين جعلهم وكلاء عنه هنا وهناك.

ولذا كان همّ الغرب في العالم الثالث أن يعيش هذا العالم الضياع، فلا يرتبط بأصوله وجذوره التي تمثل شخصيته، ولا يرتبط بالعمق العميق للمعنى الإنساني في الحضارة الغربية.. لذلك، لو فرضنا أن العالم الثالث يعيش الديمقراطية، فإن الغرب لن يسمح له باستغلال ثرواته، وبالسيطرة على مقدراته، بل على العكس كان يعمل على إلغاء إرادته السياسية، ومحاصرة كلّ تطلعاته.. من هنا نفهم أيضاً أن المسألة الغربية ليست مسألة حضارة، وليست مسألة إنسانية تحاول أن تركز حقوق الإنسان، لأننا عندما نقوم بإجراء عملية إحصائية لكل الأنظمة المتحالفة مع الغرب، نجد أن هذه الأنظمة أكثر اضطهاداً للإنسان وأكثر إهداراً للحرية، في الوقت الذي نرى فيه، أن أية حركة متحررة تحاول أن تعطي الإنسان حقوقه في الحرية والعدالة في عالمنا، فإن الغرب يقف في مواجهتها من جوانب كثيرة، لهذا نرى أن الغرب صاحب مصلحة في العالم الثالث والإسلامي، لأنه يعتبر أن هذا العالم، عالم الثروات الطبيعية التي تمنح الغرب رخاءه، وأنه يمثل المواقع الاستراتيجية التي يستخدمها في صراعاته مع بعضه البعض، كالصراع الأوروبي - الأميركي. لذلك فإنه يتعامل معنا، كتاجر في المسألة الاقتصادية، وكطاغية في المسألة السياسية، وكحركة من أجل إبقاء كثير من عناصر التخلف في واقعنا..

خوف من الإرادة

ومن خلال ذلك نفهم طبيعة موقفه من الإسلام الحركي الذي يسمّيه «بالإسلام الأصولي» باعتباره عدواً أوحد للغرب بعد سقوط الاتحاد السوفياتي.. أما لماذا يعتبر الإسلام عدواً؟ فلأن الإسلام يحررُ وعي الإنسان من الخضوع لأي إنسان، ولأي وضع كان، إلا لله تعالى.. إذ العقيدة الإسلامية تقول لك، إنك كإنسان تملك حريتك التي لا يستطيع أن يلغيها أي إنسان آخر، فأنت عبدٌ لله، وحرٌ أمام العالم، ولك أن تمارس حريتك، فأنت مُسلِّط على نفسك ومالك، وليس لأحد أن يلغي إرادتك، إلا ضمن الخط الذي أراده الله للحياة، هذا الخط الذي تنتظم فيه، وللناس أن يعيشوا فيه بسلام..

إنّ الإسلام يرفض سيطرة المستكبرين على المستضعفين، ويحذّرهم من أن يسقطوا تحت تأثير الضعف، بل أن يعملوا على أن يحولوا ضعفهم إلى قوة، ولو بالانتقال من موقع إلى آخر: (إنّ الذين توفاهمُ الملائكةُ ظالِمِي انْفُسِهِمْ، قالُوا فِيمَا كُنْتُمْ قالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ، قالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهاجِرُوا فيها^(١)، إنّ الله يقول لك، إنك إذا كنت ضعيفاً في موقع، وكان ضعفك يفرضُ عليك أن تلغي نفسك تجاه المستكبرين، هاجرَ إلى مكانٍ آخر، لتأخذ القوة منه، ثم ترجع من موقع القوة.. ونقرأ كذلك في نهج البلاغة للإمام علي (ع): «ليس بلدٌ أولى بك من بلد، خيرُ البلاد ما حملك»، يُفيد هذا، أنك إذا لم تجد الحرية في مكان، فإن عليك أن تطلبها في مكانٍ آخر.. لذلك، فإنّ معنى أن تكون مسلماً، هو أن تواجه كلّ المستكبرين في طغيانهم وظلمهم وسرقاتهم لثرواتهم، وإلغائهم لإنسانيتك. ومن هنا، فإنّ هناك تصادماً بين الخط الغربي في الاستكبار، وبين الخط الإسلامي في احترام إنسانية الإنسان وتوجيهه لأن يعيش إنسانيته.

(١) النساء: ٩٧.

أما مسألة ثورة الإسلاميين ضد الأنظمة، ومسألة معارضة أيّ خط سياسي لأيّ نظام، هي قضية حضارية إنسانية.. فعندما ندرس حركة الإسلاميين في مواجهة الأنظمة الجائرة، فإننا نجد أنّ حركة العنف لدى الإسلاميين في مواجهة هذه الأنظمة لا تمثل واحداً بالمئة، من حركة العنف التي قادها الاستكبار الغربي، سواء كان عنفاً اقتصادياً ضد هذا النظام أو ذلك، أو عنفاً سياسياً أو عسكرياً أو أمنياً... وعلى هذا، فالغرب هو الذي يقود حركة العنف في العالم، وهذه «إسرائيل» تمثل أقسى حركة عنف ضد الشعب الفلسطيني.

ولو أردنا أن ندرس طبيعة حركة العنف لدى الإسلاميين، نرى أنها ردة فعل للعنف الذي تقوم به الأنظمة، من خلال إلغاء حرية الإسلاميين في أن يعبروا عن رأيهم السياسي، لذلك نحن لا نحترم السلبيات التي يثيرها الغرب بهذه العناوين ضد الحركة الإسلامية في العالم.

■ لم يعد أمر «الأصولية» مقتصرًا على المفهوم الديني، ويبدو أن الأصوليات كثيرة، سياسية، اقتصادية، اجتماعية، وكل طرف يقف خلف نظريته، والإنسان في هذا العالم يُعاني القلق من الأصوليات بسبب ما تفرضه من «حتميات» معينة، و «الأصولية» الإسلامية ليست بعيدة عن التساؤلات الاتهامية.. ولو راجعنا المعاجم اللغوية، وخاصة الغربية لوجدنا أن الأصولية متهمة بالتحجّر، وأنها ضد كل تطوّر وانفتاح، ما تعليقكم على ذلك؟

* نحن لا نعتبر أننا معنيون بالأصولية بالمفهوم الغربي، لأننا لا نُلغي الآخر، ولا نعتبر العنف أساساً في حركتنا.
* إن طرح مسألة «الأصولية» كفرّاعة ثقافية وسياسية واجتماعية في المرحلة الحاضرة، ليس عملاً ثقافياً، ولكنه عملٌ سياسي يحاول أن يستلب فكر الإنسان ليقوده ويخضعه.

ضبابية المصطلحات

□ ربما كانت مشكلة بعض المصطلحات أنها لا تتحرك في الجانب الفكري الثقافي، لتبحث في العمق عن قاعدتها الفكرية، وفي الأفق عن امتداداتها الإنسانية، بل إنّها تحولت إلى عنوان سياسي استهلاكي، يحاول أن يفرض المصطلح على موقع هنا، وموقع هناك، من أجل تجميع كثير من الإيحاءات السلبية حول خطأ هنا أو خطأ هناك، معتمداً على أن الاستهلاك السياسي بوسائله المتنوعة، ولا سيما الإعلامية، يعمل على

استلاب التفكير، فيما هي العلاقة بين المصطلح في خط النظرية والتطبيق. وبذلك فإننا عندما تُطرح مسألة الأصولية، لا نجد أن هناك فكراً يتوقف عند عناصرها الذاتية وبداية انطلاقها في التنظير لكثير من الاتجاهات، ولا سيما الاتجاهات الدينية، ليُغلب المسألة على الواقع كلّهُ.

ونبدأ بالمسألة: إننا إذا أردنا أن نتحدث عن «الأصولية» في معناها الاشتقاقي في لغتنا العربية، نجد أنها تعبر عن حركة تنطلق من جذر في التاريخ، يختزن في داخله معنى فكرياً، أو معنى دينياً، يتحرك الناس نحوه في امتداد الزمن ليرجعوا إليه دائماً، بعيداً عن طبيعة هذا «الأصل»، هل هو أصل متحرك أم جامد، هل يحبس الإنسان داخل زنانة فكرية، لا تسمح له أن يتنفس الفكرة في الهواء الطلق، أم أنه يمكن أن يختزن في داخل مضمونه الحيوية التي تجعله يتحرك مع الزمن، بحيث يكون «الأصل» نقطة الانطلاق لا نهاية المطاف؟

من هنا، فنحن عندما نريد أن نتبنى المصطلح من خلال إحياء لغتنا العربية، فإننا لا نجد فيه أية إيجابية مطلقة ولا سلبية، لأن مسألة أن ترجع إلى «الأصل»، هي مسألة مدلول هذا الأصل، ومسألة تعاملك معه.. فربما يتعامل بعض الناس مع «الأصل» على أساس أن يكون نقطة البداية، لا أن يكون البداية والنهاية معاً، وقد يتحرك الناس في داخل «الأصل» على أساس أنه يختزن في داخله حيوية تمنحهم حرية الحركة في كثير من جوانب حياتهم، لأن طبيعة المفردات التي يحركها في مفهومه الفكري أو الشرعي قد تكون مفردات تطوّر الواقع بدلاً من أن تجمّده.. هذا في الأفق العام.. أما إذا أردنا أن ننطلق من الأصولية فيما تتحدّث عنه المعاجم الغربية، فإننا نتصوّر أن الأصولية نشأت في الغرب، فقد عاش الغرب الكثير من مشاكل الأصولية في المسألة الدينية، التي كانت تتمثل في التجربة المسيحية باعتبار أنها كانت تتخذ موقفاً سلبياً من التطوّر العلمي،

وكانت تتخذ موقفاً متحجراً من قضايا حقوق الإنسان.. وهكذا انطبعت مسألة الأصولية في ذهنية الغربي، من خلال التجربة التي عاشها في المسألة الدينية.

لسنا معنيين بالأصولية

أما نحن كمسلمين، فإننا لا نعاني - فيما هو المفهوم الإسلامي للحياة - شيئاً من ذلك، لأننا نتصور أن الأصولية تحولت في الخطوط الحركية للإنسان إلى أن تتمثل في نقطتين بارزتين، هما اللتان يتعامل معهما الواقع السياسي المضاد للخط الإسلامي، وهما، مسألة إلغاء الآخر، ومسألة اعتبار العنف أساساً في الحركة الفكرية والسياسية والاجتماعية، وما إلى ذلك.. ونحن في مفهومنا الإسلامي لا نعاني من ذلك، لأننا عندما نقف أمام مسألة إلغاء الآخر، نجد أن القرآن تحرك على أساس احترام الآخر، لأنه يطرح الحوار، ويُقرُّ بالوجود المميز للآخر: (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ)^(١)، إنه يتحدث عن أهل الكتاب، اليهود والنصارى، بحيث يُقرُّ بوجود شخصية يهودية لا يطردها من الواقع، وشخصية مسيحية لا يطردها من الواقع، بل يعيش معها ويحاورها، ويأمر أتباعه إذا أرادوا أن يجادلوها، فليجادلوا بالتي هي أحسن.. حتى أنه عندما يتحدث عن المشركين والكفار فإنه يعترف بوجودهم الفكري، ولذلك يدخل معهم في حوار (قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)^(٢) فليست هناك مسألة إلغاء الآخر.

أما مسألة العنف، فإننا نجد أن الإسلام يطرح أمام كل حركة الصراع الإنساني قوله تعالى: (وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ، ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)^(٣) إن عليك أن تدخل مع الآخر في المشاكل التي

(١) آل عمران: ٦٤.

(٢) البقرة: ١١١.

(٣) فصلت: ٣٤.

تحدث بينك وبينه، باعتمادك الأسلوب الذي تحول فيه عدوك إلى صديق، ومعنى ذلك، أن الإسلام يعتبر الصداقة الإنسانية هدفاً من أهداف الحركة في خط الصراع الإنساني في مشاكل الإنسان الفكرية والثقافية والسياسية..

وعندما تحدث الإسلام عن الجهاد، فإنه لم يتحدث عنه، على أساس أنه حركة من أجل إسقاط حرية الإنسان، ولكنه تحدث عنه كحركة وقائية لدفع العدوان ولمنعه.. ولهذا رأينا أن الإسلام عندما يتحدث عن القتال، فإنما يتحدث عن القتال في سبيل الله والمستضعفين، وفي سبيل الأيضطهد الإنسان إنساناً آخر.. وبذلك نعتبر أن عملية القتال - العنف - لا تختلف عن أية عملية عنف أو قتال في أية حضارة أخرى، وأي نظام آخر.. فليس هناك حضارة تطرد العنف تماماً من قاموسها الحركي، لأن قضية حماية الحضارة من الذين يريدون إسقاطها، تفرض أن تدخل الحضارة في صراع قد يؤدي إلى قتال.. لذلك نحن لا نعتبر أننا معنيون بالأصولية بالمفهوم الغربي، لأننا لا نلغي الآخر، ولا نعتبر العنف أساساً في حركتنا. ومن هنا نقول: ليس هناك «أصولية» إسلامية.

إسلام واحد

ونحن لا ننكر من خلال المفهوم الإسلامي الذي ندرسه في حركة القرآن والسنة، أنه من الممكن أن يكون بعض ممن فرض تخلفه على المفهوم الإسلامي، حاول أن يفهم القضية بشكل آخر، انطلاقاً من أن الواقع الإسلامي خضع في القرون المظلمة للكثير من حالات التخلف والجهل التي فرضت نفسها على كثير من التصورات الإسلامية للقيم أو للشريعة، وإن هذا لا يمثل كل الحركة الإسلامية. تماماً كما هي الحركات الأخرى، فنرى حركات قومية متعصبة كتلك التي عشناها في الأربعينات، كانت تضع «العرب فوق الجميع»، بينما نجد أن هناك قومية إنسانية تفتح على الإنسان كله، لتعتبر أن

خصوصية العرب تتفاعل مع الخصوصيات الأخرى، وهكذا عندما نتحدث عن الديمقراطية.. وهناك فرقٌ بين أن تتهم الخط، وبين أن تواجه الذين يفهمون الخط، فليس هناك «إسلامان»، هناك اختلاف في فهم الإسلام، تماماً كما هي الاجتهادات القانونية، التي يختلف رجال القانون في فهمها.. وأعتقد أن اختلاف الفهم للفكر والقانون الواحد، ليس سلبياً دائماً، باعتبار أنه يمثل غنى في الاحتمالات التي ينطلق فيها هذا النصّ أو ذاك.

إذاً، إن طرح مسألة «الأصولية» «كفرّاعة» ثقافية وسياسية واجتماعية في المرحلة الحاضرة ليس عملاً ثقافياً، ولكنه عمل سياسي يحاول أن يستلب فكر الإنسان ليقوده ويخضعه، ولا سيما أننا نعرف أن الاستكبار العالمي - الغربي، حاول أن يُقنع الرأي العام عنده بكلّ العمليات التي يقودها للضغط على هذا الموقع السياسي أو ذاك، فيختار الكلمات التي يعيش الرأي العام الغربي حساسية تجاهها.

□ الإسلام والحريات :

- * أي حرية؟
- * دولة بلا دين.
- * حرية الباطل.
- * آيات شيطانية والحرية.
- * حرية المعتقدات والمفاهيم.
- * الحرية الجنسية.
- * حرية الزواج.

■ برأيكم أية حرية نريد حتى نبدا ونطور الحياة، وما هي ضوابط الحرية؟

* لا بد من حوارٍ دائمٍ متنوعٍ الأبعاد حول الحرية، حتى نستطيع أن نحمي الحياة من بعض الحريات.

* بالحرية نبدأ، وبالحرية نعطي، وبالحرية نطور الحياة ونغني إنسانيتنا.

□ إن هناك أبعاداً للحرية.. فأنت عندما تفكر وتتحمس وتهفو وتتألم وتشتاق، هذا الجو الذي تعيشه لا يمكن أن يفرض عليك أحد قيوده، لأن ذلك هو أنت، هو إنسانيتك، هو فكرك، وهو إحساسك، ولذلك فإنك تستطيع أن تفكر في كل شيء، وتتحدث عن كل شيء.

ولكن عندما نريد أن نواجه مسألة الحرية في حركة الكلمة المعلنة، أو المتحركة، أو في نطاق الحركة الحرة للإنسان، في هذا المجال، هناك سؤال لا بد أن نسأله لأنفسنا دائماً: هل هناك حرية مطلقة للحياة، وللإنسان في الحياة؟ هل للإنسان أن يلهو كيفما كان، ويعبت كيفما كان، ويحطم أي شيء كان، ويمتهن أي مشاعر وأي أحاسيس؟

الحرية والفوضى

إننا نقول: إن الناس كلهم، حتى دعاة الحرية يقولون: إن الحرية شيء، والفوضى شيء آخر، وإنني أتساءل محاكاة لهذا السؤال: من الذي يحدد هذا الشيء حرية أو فوضى؟ ما هو أساس أن تكون فوضوياً أو حرراً؟ قد يقال لك لا بد أن تكون منظماً في عائلتك، وإن عليك أن تراعي الجو العائلي، فلا تجعل حريتك تسيء إلى نظام العائلة، أو

نظام المجتمع، لا تجعل حريتك تسيء إلى حياتك بأن تقتل حياتك، لا تمارس حريتك في أن تكون نصيراً للذين يدمرون بلدك.. مَنْ الذي يحدّد أن هذا دمار، أو أن هذا بناء؟ مَنْ الذي يحدّد أن هذا فوضى، أو أن هذا نظام؟ وَمَنْ الذي يمكن أن يُوجد الضوابط؟

قصة الحرية في ضوابطها، قصة تتحرك في كل تاريخ الإنسان، إن تاريخ الإنسان كلّ في كل معاركه في مسألة الحرية فلسفياً واجتماعياً وسياسياً وما إلى ذلك، إن كل هذا التاريخ يختصر المعركة فيما هي الحدود التي تفصل بين الحرية والفوضى، ولذلك من الصعب جداً أن تجعل هناك خطأ مطلقاً يفصل بينهما، ومن الصعب أن تجعل هناك سلطة معينة تفصل بينهما، هذه السلطة قد تكون المجتمع، أو الخطوط الفكرية التي يلتزمها الناس، وقد تكون المقدسات التي تختزنها مشاعرُ الناس بحيث يكون اقتحامك لها اقتحاماً لمشاعر الناس..

إنني لا أريد أن أتحدّث عن ضوابط جاهزة للحرية، ولكنني أقول: لا بدّ من حوارٍ دائمٍ متنوع الأبعاد حول الحرية، حتى نستطيع أن نحمي الحياة من بعض الحزبات، ونحمي الحريات من بعض ما يمكن أن تتحرك به بعض الجهات في الحياة، أو بعض الأوضاع.. قد يكون هذا كلاماً غيرَ محدّد.. ولكن ماذا نصنع إذا كانت الحرية نسبية، وليست مطلقة، والنسبيّ يخضع دائماً للأجواء التي تُحيط به تماماً كما هي نسبة وجودنا.

نحن نعيش الحرية، لكن هل نملك حرية أن ننتفض على أجسادنا؟ هل نملك حرية أن نتجاوز حياتنا، بمعنى أن نتجاوز عناصر الحياة؟ إن هناك شيئاً في حركة الإنسان فيما ترتبط به قضية الحياة، تماماً كما هي الأشياء التي تعيش في تكوين الوجود فيما ترتبط به حركة الوجود.. وهذه حركة طوعية يحددها الإنسان ليضبط حياته، وتلك حركة جبرية انطلق بها الكون في كلّ عناصر وجوده، لذلك لا أجدُ هناك جواباً محدداً يُرضي

الفضول، ولكنني أقول: الأصلُ في الإنسان أن يكون حُرّاً، بالحرية نبدع، وبالحرية نعطي، وبالحرية نطوّر الحياة، وبالحرية نُغني إنسانيتنا، ولكنّ السؤال الكبير: أية حرية هي التي تغني، وأية حرية هي التي تُفقر؟ هل الحرية قيمةٌ فوق القِيم؟ أم الحرية قيمة في داخل القِيم؟ هذا سؤال لا بُدّ للناس أن يثيروه في كلّ زمان ومكان.

■ ألا يتوافق الطرحان التاليان مع بعضهما: الدعوة إلى إقامة دولة بلا دين، والتعايش مع الباطل دون الاعتراف بشرعيته؟

- * التحصن بالفكر الإسلامي يمنع اختراق الفكر الآخر.
- * قد لا نستطيع أن نُغيّر الواقع، ولكن نستطيع أن نُخفّف من انحرافاته وظلمه.
- * الدعوة إلى دولة الإنسان، تحطّم الحواجز في طريق الدعوة إلى الإسلام.
- * نستفيد من الديموقراطية ولكن لا نعطيها الشرعية الفكرية.
- * دولة بلا دين، تُخرج الدين من داخلها.
- * الدعوة إلى بعض العناوين الفكرية تُوجب الانحراف الفكري في الواقع.

عدم الانسحاب من شرعيتنا

- لا أعتقد أن هناك تنافياً بين الموقفين.. ولكن نحن نرفض العلمانية، لأنّها بحسب مفهومها، تمثل رفضاً للخط الدينيّ في تفاصيله العقائدية والشرعية.
- ومع ذلك نحن لا نقول: إنّ العلمانية إلحاد، وقد لا تكون كذلك، ولكنّ ما نُشكل عليه، أنّ العلمانية تنطلق من عزل الدين عن حركة الواقع وحركة المجتمع.
- وبصفتنا أصحاب مشروع إسلامي كبير، وهذا المشروع، هو الدين، يُحتم علينا أن نعتبر أنّ على المجتمع أن يلتزم الإسلام فكراً وشرعية ومنهجاً وسلوكاً، وإن أي التزام آخر، هو انحراف عن الالتزام الإسلامي.

من هنا، فإنك عندما يكون فكرياً إسلامياً، فلا يمكن أن تُفسح المجال لأيّ فكر آخر أن يخترق مواقعك، ولا يُمكن أن تجمع بين خطابك الإسلامي والخطاب الذي يقف في الاتجاه الآخر في عرض واحد، لأنّ أيّ واحدٍ منهما لا بدّ أن يتنازل للآخر، ما دام متناقضين أو متضادين.

وهناك مسألة أخرى، وهي أنّك عندما لا تستطيع أن تحرك الإسلام في الواقع، مع ملاحظة أنه لا بدّ لك أن تعيش في هذا الواقع، إنّ عليك في هذه الحالة أن تخفّف من انحرافات الواقع، أو تخفّف من تأثير الباطل، إذا لم تستطع أن تطبّق الإسلام جملة وتفصيلاً.

فنحن نتبنى قضية العدالة، ولكنّ إذا لم نستطع أن نحقق العدالة الإسلامية ضمن الدائرة الواسعة، علينا أن نعمل للتخفيف من مفاعيل الظلم أو من واقعه، وفي أسوأ الحالات إذا لم نستطع أن نُغيّر شيئاً، علينا ألاّ نعزل أنفسنا عن المجتمع، بل نتعايش مع الباطل دون أن نعترف بشرعيته، لأنّ الاعتراف بشرعيته يُمثل انسحاباً من شرعيتنا. لهذا نقول: إنّ المسألة الذهنية هي مسألة أساسية في عملية الانتماء، ومسألة الخطاب كذلك هي مسألة أساسية في عملية الانتماء.

لماذا دولة الإنسان؟

ولذلك عندما طرحتُ في وقت من الأوقات مفهوم (دولة الإنسان) في لبنان إذا لم نستطع أن نطبّق دولة الإسلام لم أكن أطرح بديلاً، بل إنني في الحوار الذي جرى بيني وبين بعض المثقفين في بعض الصحف، قلت: نحن نطرحُ دولة الإنسان، بمعنى أن يكون الحكم في لبنان غير طائفي، حتى يتسع الواقع السياسي في لبنان للجميع، عندها ينطلق الإسلاميون كما ينطلق غيرهم ليترحموا أفكارهم، وتكون الساحة للأقوى، وهذه وسيلة من وسائل تحطيم الحواجز في طريق الدعوة إلى الإسلام.

لذلك إن بعض علماء الدين الذين يتبنون طرح الدولة العلمانية أو الدولة الديمقراطية المدنية - وهذا الطرح عندما ينطلق من خلالهم - فمعنى ذلك أنهم يُشرعون هذه العناوين للمجتمع، وتكتسب هذه العناوين شرعية معينة.

لهذا نقول: نحن لا نستطيع من موقعنا الشرعي أن نتبنى ذلك ولا أن نُسوق له، ومع يقيننا أننا نستفيد من الديمقراطية، ولكن لا يمكن أن نعطيها الشرعية الفكرية، ويتجاوز الأمر حتى لو قلنا بالشورى بشرطها وشروطها، أو بالاستفتاء الشعبي، وحتى لو كانت الأمة لها ولاية على نفسها، لا تستطيع الأمة مثلاً أن تتجاوز حدود الله، ولا تستطيع أن تُصوّت على قوانين غير إسلامية، وبالتالي لا تستطيع أن تُعطي بيدها إعطاء الدليل، لأنه لا بدّ لها أن تسير حسب المنهاج الشرعي الذي رسمه الله.

وصولاً للانحراف الفكري

ولذلك أيضاً نقول: هذه الطروحات حول هذه العناوين (العلمانية، المدنية، دولة بلادين) يمكن لإحياءاتها أن تُوجد نوعاً من أنواع الضبابية في التصورات الإسلامية، وبالتالي تُوجب الانحراف الفكري في الواقع.

وعلى هذا فإنّ العلمانيين يرقبون بكثيرٍ من الاهتمام عندما يُقال: «نحن نريد دولة بلادين» أو «نريد للبلدان أن يكون علمانياً» أو «دولة مدنية» عندما يُقال ذلك، معناه الالتزام بقوانين الدولة المدنية، التي هي في المصطلح القانوني، ترفض بشكلٍ قاطع دخول الدين إلى داخلها، لذلك لا يمكن أن نطالب بدولة مدنية، ونطالب ببقاء الأحوال الشخصية، لأنّ الدولة المدنية تنطلق في كلّ تشريعاتها من خلال الواقع المدني الذي لا يستهدي الدين في الجانب القانوني، ومن هنا عندما تلتزم بمفهوم الدولة المدنية، يجب أن تلتزم بقانون الأحوال الشخصية المدني، وبأن لا تنوع ولا فرق بين المواطنين، وعندها لا يصح أن

تُشرع تشريعاً يمنع زواج المسلمة من المسيحي، أو أن المسلمة محرّم أن تتزوج ملحداً، لأنّ الدولة المدنية تعتبر المواطنين سواء في الحقوق والواجبات.

نخلص إلى القول: إنك عندما تطرح وجود دولة بلادين، يعني ألا يكون للدين دخلٌ في كلّ تشريعاتها القانونية، ومعنى ذلك انتفاء وجود دين في الأحوال الشخصية، وهذا ما يُوقع في التناقض، ويكون الأمر كمن يطرح الشيء وضده.

ما أجده أن هناك نوعاً من الفوضى في المفاهيم التي يطرحها البعض، والتي قد تؤدي إلى نتائج سلبية على مستوى التصوّر الإسلامي لدى المسلمين، ونتائج سلبية على قوة الموقف الإسلامي أمام العلمانيين.

أنا لا أتصوّر أنّ الذين يطرحون هذه العناوين من علماء دين يقصدون ذلك، ولكنهم يقعون في ذلك حتى ولو لم يقصدوه.

■ ماذا لو أعطينا للباطل حريته في التعبير؟

* نحن نعطي الباطل قوته عندما نمنعه حريته، ولكننا عندما نعطيه الحرية، ثم نأخذ حريتنا في مناقشته بالأساليب العلمية الموضوعية، فإنه إذا لم يبتعد عن الساحة تماماً سينكمش ويأخذ مكاناً صغيراً له في الساحة.

كي لا يتحول الباطل «شهاداً»

□ أعطِ الحرية للباطل تحجّمه، وأعطِ الحرية للضلال تحاصرهما، لأن الباطل عندما يتحرك في ساحة من الساحات، هناك أكثر من فكرٍ يواجهه، ولا يفرض نفسه على المشاعر الحميمة للناس، يكون فكراً مجرداً فكرياً، قد يقبله الآخرون، وقد لا يقبلونه، ولكن إذا اضطهدته، ومنعت الناس من أن يقرأوه، ولاحتت الذين يلتزمون به بشكلٍ أو بآخر، فإن معنى ذلك، أن الباطل سوف يأخذ معنى الشهادة، وسيكون «الفكر الشهيد» الذي لا يحمل أية قداسةٍ للشهادة، لأن الناس تتعاطف مع المضطهدين، لا الناس المضطهدين، حتى مع الفكر المضطهد، مع الحب المضطهد، ومع العاطفة المضطهدة، لذلك نحن نعطي الباطل قوته، عندما نمنعه حريته، ولكننا عندما نعطيه الحرية، ثم نأخذ حريتنا في مناقشته بالأساليب العلمية الموضوعية، فإنه إذا لم يبتعد عن الساحة تماماً، سينكمش وسيأخذ مكاناً صغيراً له في الساحة.. بعضُ الناس سواءً كانوا سياسيين، أم كانوا علماء دين، أم كانوا مثقفين، لا يُحبون أن يتعبوا في مواجهة الفكر الآخر، ولذلك فإنهم يحبون أن يقمعوا الفكر الآخر ليرتاحوا من الجدل والمجادلين، ومن الحوار والمحاويرين.. بعض الناس لا يحبون أن يدخلوا في مواقع الحوار، ولذلك فإنهم يضطهدونك لأنهم لا يريدون أن يتعبوا في مناقشتك.

إنني أتصور أن الإنسان الذي يملك قوة الانتماء لفكره هو إنسانٌ لا يخاف من الفكر الآخر.. الذين يخافون من الفكر الآخر، هم الذين لا يثقون بأفكارهم، وهم الذين لا يستطيعون أن يدافعوا عن أفكارهم.. لذلك، لينطلق كل إنسانٍ ليدافع عن فكره في مواجهة الفكر الآخر، ولن تكون النتيجة سلبية لصاحب الفكر في هذا المجال.

الإمام زين العابدين (ع) في فقرة من بعض أدعيته يقول في خطابه لله: «وقد علمتُ أنه ليس في حُكْمك ظلم، ولا في نَقْمَتِكِ عجلة، وإنما يعَجَلُ مَنْ يَخَافُ الفوتَ، ويحتاج إلى الظلم الضعيفُ، وقد تعاليتَ يا إلهي عن ذلك علواً كبيراً»، إنه (ع) يريد أن يقول: الأقوياء لا يَظلمون، لأنَّ القويَّ يستطيع أن يصلَ إلى ما يريد من خلال حركة قوته التي تمثل غناه فيما هي مسألة مشاريعه في الحياة، إنَّ الذي يظلمك هو الذي يخاف منك، الدولة تظلم شعبها لأنها تخافُ من شعبها، الظالم يظلم الناس لأنَّه يخافُ من ثورتهم عليه.

■ قلتُم يجب أن نُعطي الحرية للباطل كي نحجّمه ونحاصره، هل معنى هذا أنه يجب أن نُطلق كتاب «آيات شيطانية»، وأن نعفي كاتبه من خطئه؟

□ هناك فرق بين الفكر، وبين الشتيمة والسخرية.. إن مسألة «آيات شيطانية» هي مسألة إنسان يشتم ويسخر.. وإذا كان بعض الذين يتعاطون الفن، يقولون إن في السخرية إبداعاً، وإن في الشتيمة فناً، فإننا لا نظن أن هذا الإبداع يخدم الحياة، وأن هذا الفن يمكن أن يركّز الواقع.. لو أن سلمان رشدي تحدّث عن مناقشته لفكر الإسلام، وحتى عن مناقشته للنبي الإسلام، لأمكنا أن نناقشه، لأننا نجد أن القرآن الكريم خلّد لنا الكلمات السلبية التي قيلت في النبي.. من عرفنا من قال عن النبي إنه ساحر وكذاب وكاهن وشاعر (وقالوا أساطيرُ الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً)^(١) أو مسألة (إنما يعلمه بشر)^(٢). كل هذه القضايا حدّثنا عنها القرآن.. القرآن لم يخف من النقد الذي وجه إلى النبي بالذات، والقرآن بالذات.. فلا نخاف نحن من أيّ نقدٍ جديد يوجّه للنبي.. هناك فكر يُراد أن يصارع فكراً، أما فكرٌ يصارع شتيمة، أو يصارعُ سخرية، ذلك أمرٌ لا يدخلُ في حسابات الحوار الفكريّ.

■ برأيكم هل أن هناك أنظمة إسلامية تحترم الإنسان في مفاهيمه ومعتقداته، وكيف نستطيع التوفيق بين حرية الإنسان في المعتقدات والمفاهيم، وبين نظرية الفرقة الناجية؟

□ لا أتصور أن هناك أنظمة إسلامية بالمعنى الإسلامي في الواقع الذي نعيش فيه في العالم الإسلامي، باعتبار أن أغلب هذه الأنظمة أنظمة علمانية، قد يكون فيها روحية إسلامية، أو فيها شيء من الإسلام، كما في العبادات وفي الأحوال الشخصية.

فليست هناك في عالمنا الإسلامي دولة إسلامية - بالمعنى الإسلامي الحركي - ما عدا الجمهورية الإسلامية في إيران والسودان إضافة إلى بعض الدول الأخرى التي تحكم بالشرعية الإسلامية مع بعض التحفظات. وبشكل عام، الأنظمة الموجودة في بلاد المسلمين، هي أنظمة علمانية فيها شيء من الإسلام.. ومن هنا، فإننا لا نستطيع أن نعتبر حركة هذه الأنظمة عنواناً للإسلام، ولذلك فإن خطوطهم السياسية - سواء بالنسبة إلى شعبهم أو بالنسبة إلى الواقع المحيط بهم - تتحرك من خلال السياسة الغربية والأميركية بالذات. وفي هذه الأنظمة علماء دين يحاولون أن يستصدروا فتاوى لمصلحة هذه السياسة أو تلك.

وبالنسبة للجمهورية الإسلامية في إيران فهي تحاول من خلال التشريعات الصادرة عنها، ومن خلال خطوطها السياسية، أن تنطلق في الخط الإسلامي، ونستطيع القول - بدون تعصب - إن هناك حرية للإنسان في أن ينقد الحاكم والسياسة، سواء على مستوى المنابر، أو على مستوى الصحف، أو على مستوى الواقع العام، فلا يُضطهد إنسان لأن له فكراً معيناً، نعم، قد يضغطون على حرية بعض الأفكار الإلحادية، لأنهم

يعتبرون أنّ هناك حالة طوارئ، يعيشونها بالنسبة إلى تركيز الفكرة الإسلامية.

أما مسألة الفرقة الناجية فهي مسألة التزام، وهي تعبر عن الفرقة التي تلتزم الإسلام من وجهة نظر الإسلام، أن المسلمين هم الفرقة الناجية، أو أنّ هذا الخطأ في الإسلام هو الفرقة الناجية، هذا لا يختلف عن الحرية، لأنّ قضية الالتزام في دائرة خاصة، بحيث يرى الإنسان الملتزم أنّ رأيه هو الرأي الحق، لا يمنع هذا من إيمانه بالحرية، بل هذا يُعتبر التزاماً بالحرية، لأنه اختار هذا.. فهو أعمَلَ حريته فيما يريد، فاختره على أساس أنه يمثل الحقيقة.

■ يأخذ البعض على الإسلام أنه لا يبيح نشر الكتب الجنسية.. وهذا مخالفٌ لقواعد الحرية، ما قولكم في هذا؟

* الإسلام يؤمن التوازن الجنسي في المجتمع، حتى لا يقع هذا الأخير في الفوضى العمياء.

بعيداً عن العقدة

□ إنَّ الحُرْمَ الذي يُفرض على بعض المؤلفات العربية في الجنس، لا يدلُّ بالضرورة على أن هناك سلبيةً إسلامية حول الجنس.. وعندما نطالع كتب العلماء الأقدمين نجد كتاب «الكشكول»^(١) وكتاب «زهر الربيع»^(٢)، ولعلك لا تجدُ هناك أيَّ كتاب أدبي من كتب الأقدمين، إلا وتعثّر فيه على حديث جنسي بالتعبير الصريح، اقرأ «الأغاني»^(٣)، وكلّ الكتب التي ألّفت في ذلك العصر تقف على صحة الأمر.. إنَّ الشعراء الذين كانوا يتحدثون بطريقة إباحية، نقل شعرهم إلينا العلماءُ والأدباءُ والكتّابُ المسلمون الذين عاشوا في القرنين الثاني والثالث الهجري إلخ..

ولهذا فإنّي لا اعتبر أنّ مسألة الجنس من حيث المبدأ مسألة محرّمة إسلامياً، ولكنّ هناك ناحية لا تتصل بالموقف الإسلامي، وهي وجود كتابة جنسية رخيصة لا تمنحك أية قيمة فنية أو قيمة إبداعية، بل إنّها تصيبك بالغبثان في كثير من الحالات.. وقد تجد مثلاً، كتباً جنسية مؤلفة من قبل علماء مسلمين، ولكنك تجدُ الشعرَ الذي فيها، شعراً غير موزون، وتعثّر فيها على كلماتٍ غير دقيقة من حيث التركيب اللغوي العربي، وهذه

(١) مؤلفه الشيخ البهاني. (٢) مؤلفه السيد نعمة الله الجزائري. (٣) مؤلفه أبو الفرج الأصفهاني.

الكتب وغيرها تؤثرُ سلباً في الوجدان العام باعتبار أنها تُسيء في كثيرٍ من الحالات إلى البُعد الأخلاقي، خصوصاً في أوساط المراهقين والمراهقات.

تساؤلات

إنني أتساءل في سياق النبذة الصارخة بالحرية، لماذا لا نُبَيح المشاهد الفاضحة في التلفزيون؟ لماذا لا نُبَيح العُري الذي يمثل الجمال الجسدي للإنسان؟ لماذا لا نُبَيح الكتب الرخيصة التي كُتبت للإثارة؟ ثم أُجيب، إننا لا نستطيع التحدّث عن مادة ثقافية بالمطلق خارج نطاق التوازن الاجتماعي. لذلك فإنّ الإسلام هو كالمسيحية وكأيّ نظامٍ آخر يؤمن التوازن الجنسي في المجتمع، حتى لا يقع هذا الأخير في الفوضى العمياء..

أما الكتب التي تتحدّث بشكلٍ علنيٍّ عن الجنس، فلا مشكلة معها، فهناك بابٌ في الفقه الإسلامي، يتحدّث عن الحيض والنّفاس، وتعيش من خلاله في أجواءٍ جنسية، إنما بطريقة معينة.

لنتحدّث الآن كإناسٍ مسؤولين في مجتمعاتنا الحالية، هل نقبل أن تُنشر الكتب الرخيصة بين المراهقين والمراهقات؟ هل أسمح لولدي ولولديك بقراءة هذه الكتب في سن الخامسة عشرة؟ إنّ المسألة تقتصر على الجانب الاجتماعي والجانب الأخلاقي، ولا تقتصر بالمطلق على المسألة الثقافية. لقد عاش الإسلام في الشرق وانطلق منه، حتى أنّ النبيّ (ص) حين كان يُؤتى إليه بإنسان زانٍ، كان يسأله عن خصوصيّة الحادثة بالفاظٍ نعتبرها فاحشةً في هذه الأيام، مما يدلّ على أنّ الناس كانوا يتحدّثون عن الجنس بشكلٍ طبيعيٍّ، تماماً كما يتحدّثون عن الطعام والشراب.. نقرأ في التراث الإسلامي أنّ امرأةً جاءت إلى النبيّ (ص)، وهو جالسٌ بين أصحابه وقالت: يا رسول الله، زوجني. فالتفت النبيّ وقال: مَنْ لها؟ فقال رجلٌ: أنا، فسأله النبيّ: هل معك شيء (فراش وغير

ذلك)، قال الرجل: كلا، ثم قال النبي: مَنْ لها؟ فقال الرجل: أنا، فسأله النبي: هل عندك شيء من القرآن؟ قال: نعم. فأجابه النبي: زوجتك إياها. أما الآن، إذا وقفت امرأة في المسجد وقالت زوجني أيها العالم، يقول الناس: إن «شرش» الحياء قد انقطع.. إذاً هناك ظروف اجتماعية ذات طابع قهري.

بعض الكتاب، مثل إحسان عبد القدوس يُقحمون المسألة الجنسية إقحاماً في أقاصيصهم، وهناك كتاب غربيون يتناولون الجنس بطريقة علمية طبيعية وفنية راقية، وهناك كتبٌ تتخصص بالقبيل لمزيد من الإثارة، وأنا لا أستطيع كإنسان، من خلال توازني الواقعي والاجتماعي أن أفسح المجال أمام كتب الإثارة، فيتحول البيت إلى حالة طوارئ جنسية.

ضرورة الضوابط

إذاً، القضية ليست قضية مواقف علماء، أو تحريم، أو منع، فإذا جربنا على سبيل المثال عزل العلماء، فلم نستأنس برأيهم أو إشاراتهم، وأطلقنا الكتاب الجنسي والإباحي في المجتمع المحافظ، وحتى غير المسلم، فماذا تكون ردة فعل المجتمع؟ إنذهب إلى أي قرية من القرى المسيحية في البقاع، وانشر كتاباً جنسياً ستري نفسك مواجهاً بالرفض والإدانة.. القضية إذاً منطلقة من اختلال علاقة النصّ الجنسي بالواقع الاجتماعي في تقاليده وعاداته بعيداً عن حد المسألة الدينية، فالمجتمع غير المتدين يحمل بدوره أفكاراً أخلاقية بطريقة تقليدية.

في سياق تطورنا الفكري يجب أن نواجه الأسئلة المباشرة بصراحة، هل نحن مع الحرية المطلقة للإنسان؟ وهل اللاأخلاقية تعني الحرية؟.. حين نحلّ هذه المسألة الفكرية تصبح باقي الأشياء تفاصيل.. عندما نتحدث من خلال الفلسفة التي تؤكد الحرية

الجنسية، علينا أن نعتبر أن العُريَّ حالة طبيعية، وأن نمارس الجنس في الشوارع، كما الأكلُ والشراب، وإذا لم نفعل ذلك نكون قيّدنا الحرية الإنسانية بالضوابط الأخلاقية الموجبة.

في مجتمعاتنا، ثمة ازدواجية بين الفكر والواقع.. فنحن كشرقيين نعيش واقعياً حالة الشرف والعفة، وفكرياً نسير في عدّة اتجاهات، فلماذا مثلاً: لا يسمح مثقف علماني لشابٍ يأتي لينام مع شقيقته في المنزل، كما هو حاصل في الغرب؟ ألم يتعاون ذلك الرجل الفلسطيني في أميركا مع زوجته على قتل ابنته لأنها انحرفت؟ نحن نشعر أن في داخل كلِّ منا بدوياً يتحرك في كلِّ القيم المختزلة سواء كانت شعورية أو لا شعورية.

■ ما دمتم تؤمنون بالحرية، فللمسلم أن يتزوج باليهودية أو النصرانية.. أما المسلمة فليس لها هذه الحرية، فلماذا؟

* المسلم لا بد أن يعقد قلبه على الإيمان بكلّ كتب الله فلا ينكر واحداً منها، وعلى الإيمان بكلّ رسل الله.

بين إيمان المسلم وإيمان غيره

□ للإجابة عن هذا السؤال، لا بد أن نُظِلَّ على الآية القرآنية الكريمة التي تقول:
(أَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)^(١).

في هذه الآية حديثٌ عن طبيعة الإيمان الذي يلتقي فيه إيمان النبي (ص) وإيمان المؤمنين معه، فليس هناك فرقٌ بين إيمان النبي فيما كُلِّفَ به من قضايا الإيمان، وإيمان كلِّ مؤمنٍ فيما كُلِّفَ به من ذلك. فالنبي انطلق في إيمانه من دعوة الله سبحانه بأن يوحدّه ولا يشرك به شيئاً، كما يؤمن بملائكته الذين اختارهم تعالى ليسبّحوه ويقدّسوه، ووظّفهم في شؤون الكون والإنسان بما نعلم من غيبه الذي لا نستطيع الإتصال به، ولكننا نعرف ذلك من خلال ما أخبرنا به سبحانه عن طريق رسله.

وهكذا، فإنّ إيمان الرسول (ص) كما هو إيمان المؤمنين ينطلق من الاعتقاد بكلّ كتب الله.. فالمؤمنون والرسول قبلهم ومعهم، يؤمنون بالتوراة والإنجيل كما يؤمنون بالقرآن،

فليس هناك فرق بين كتاب وكتاب.. فالمسلم لا بُدَّ أن يَعْقِدَ قلبه على الإيمان بكلّ كتب الله فلا يُنكر واحداً منها، وعلى الإيمان بكلّ رسل الله منذ آدم (ع) وحتى نبينا محمد (ص)، لا يفرّق بين أحدٍ من رسله. فنحن نؤمن بهم جميعاً، لأنهم يمثلون الحقيقة الرسالية التي انطلقت من الله سبحانه.

ومن الطبيعي أنّ الإيمان باليوم الآخر ينطلق من خلال كلّ هذا الإيمان، فنحن عندما نؤمن بالله، وأنّ الله لم يخلق الخلق عبثاً، فلا بُدَّ من يومٍ يحاسبُ الناسُ فيه على ما قدّموا. وعلى هذا الأساس نعرف ما هو الفرق بين إيمان المسلم وإيمان غير المسلم.. فإنّ المسلم يؤمن بالكتاب كلّهُ، لأنه كما قلنا لا يفرّق بين كتاب وكتاب، ونحن نعرف أنّ الله حدّثنا في القرآن عن بعض ما في الإنجيل، وعن بعض ما في التوراة، وأنّ القرآن نزل لا ليُلغِي التوراة، ولكن ليكمل ما لم تبيّنه التوراة، ولا ليُلغِي الإنجيل، ولكن ليبيّن ما لم ينزل في الإنجيل، ولكلّ رسولٍ مرحلته. وعلى هذا، فإنّ المسلم يؤمن بالكتاب كلّهُ، وبالرسل كلّهم، لذلك لا يستطيع أن يُسيء إلى مقدسات دين آخر، فنحن لا نستطيع الإساءة إلى التوراة والإنجيل، إذا أساء اليهود والنصارى إلى القرآن، ولا نستطيع الإساءة إلى موسى وعيسى (ع)، إذا أساء اليهود والنصارى إلى محمد (ص)، ولا نستطيع أن نسيء إلى رسالة عيسى وموسى، إذا أساء النصارى واليهود إلى رسالة الإسلام، لأنّ الإسلام يتضمّن في داخله كلّ الحقائق الثابتة، وكلّ العناصر الحيوية في الرسالات.

تباين في احترام المقدسات

ولعلّ هذا، هو الذي جعل التشريع الإسلامي، يركّز على أنّ المسلم يجوز له أن يتزوج اليهودية حتى ولو بقيت على يهوديّتها، ويجوز له أن يتزوج النصرانية حتى ولو بقيت على نصرانيّتها على الرأى الأغلب الذي يُفتي به الفقهاء المسلمون، وإنّ كان البعض

يتحفظ في ذلك أو يحتاط، لكنّ الرأي الأغلب هو الجواز.. أما بالنسبة للمسلمة، فإنّ التشريع لا يُجيز أن تتزوج من يهوديٍّ أو نصراني، ولعلّ الأساس في ذلك أنّ المسلم إذا تزوج الكتابية (يهودية أو نصرانية) فإنّه لا يملك أن يُسيء إلى مقدساتها التي تلتزم بها، فإذا حدثت مشكلة بينه وبين زوجته يهودية كانت أم نصرانية، فإنه لا يستطيع أن يسبّ لها السيد المسيح (ع) أو النبي موسى (ع)، أو يسبّ التوراة أو الإنجيل.. بينما لو أنّ اليهودي أو النصراني تزوج مسلمة، فإنه لا يملك أن يحترم إسلامها، لأنّ اليهودي أو النصراني لا يؤمن بالقرآن ولا بنبوّة النبي محمد (ص)، فهو يعتبره شخصاً كبقية الأشخاص، ويعتبر القرآن كتاباً كبقية الكتب فلا يشعر بتقديسه.

ومن هنا، فإنّ الكتابية إذا عاشت مع المسلم كزوجة، فإنها تستطيع أن تشعر باحترامه لمقدساتها، بينما المسلمة إذا عاشت مع شخصٍ غير مسلم، فإنّها لا تستطيع أن تحمي نفسها من إساءته إلى مقدّساتها.

□ الإسلام والعلم :

* علم السماء أم علم الأرض؟

* التعليم عبادة.

* رسالية وتربّية.

* الاسلوب.

* المسؤولية.

* نصيحة.

* المدرسة الاسلامية.

■ ما هو العلم، هل هو علم السماء، أم علم الأرض، وما هو الفارق بينهما، هل يستطيعان أن يلتقيا؟

* العلم، هو نورٌ يُطلَّ على كُلِّ شيءٍ يمكن للإنسان أن يفتح عليه، ليتحوَّل إلى وعيٍ في كيانه بحيث يمكنه من خلاله أن يوازن بين الأشياء.

□ العلم هو إشراقة الوعي، أو العقل بما هو احساس إنساني، وبما هو حركة التمثل للأشياء في داخل الإنسان.. العلم هو وعي الأشياء، وعي الله بما نستطيع أن نعرف من خلاله الله تعالى.. ووعي الغيب للمضمون الضبابي للغيب من حيث هو مفردات ضبابية قد لا نتحسَّسها، ولكن نتصورها، هو علم.. وهكذا عندما ننطلق إلى مفردات من الوحي، إلى المفردات التي تتحرك فيما يحسَّ به الإنسان بحواسه، أو فيما يستنتجه من خلال تصنيع هذه الحواس في «المطبخ» العقلي، أو ما إلى ذلك. العلم هو نورٌ يُطلُّ على كُلِّ شيءٍ يُمكن للإنسان أن يفتح عليه، ليتحوَّل إلى وعي في كيانه، بحيث يمكنه من خلاله أن يوازن بين الأشياء، ويقارن بينها، وأن يحرِّكها وينطلق بها في غاياته الإنسانية في وجوده على الأرض، أو فيما يتطلَّع إليه من وجوده الثاني بعد هذه الحياة. لذلك، لا نستطيع أن نحصر العلم كمصطلح أو كمفهوم عقلي في السماء أو في الأرض.

السماء، هي موقع من مواقع العلم، كما هي الأرض، موقع من مواقع العلم، وقد يختلف علم السماء عن علم الأرض.. إنَّ علم الأرض، يمكن أن تتصل به مباشرة، لأنَّه يدخل في تجربتك العقلية وفي تجربتك الحسية، بينما علم السماء - إذا صحَّ هذا

التعبير - لا تملك فيه أية تجربة حسيّة، ولكنك تنطلق به من خلال التأمّلات التجريدية التي قد تُطلِّ بك على بعض مواقع العلم فيه، أو من خلال التقائك بصاحب تجربة بشكلٍ وبآخر في هذا الموضوع، كما هي حالة النبيّ في تلقي الوحي، فيما يعتقد به المؤمنون بمسألة انفتاح النبيّ على الوحي. ولذلك، فمسألة العلم، هي مسألة حاجة التمثّل الإنساني في وعيه واحساسه الداخلي للأشياء، ولكلّ شيءٍ يُمكن أن يُطلِّ على احساس الإنسان، أو يُطلِّ على جانب التأمّل أو التجريد فيه.

■ التعليم عبادة.. ما رأي سماحتكم بذلك؟

* قبل أن تاتوا إلى الصف لا بدّ أن تعيشوا تقوى الدرس.

* إن في المعلم شيئاً من عمق النبوة.

* انفتحوا على الله، وليكن الصف محراباً، ولتكن المدرسة

مسجداً.

نداء العقل

□ إنكم في عملكم كمعلمين ومعلمات في عبادة، عملكم صلاة وعبادة، عملكم حركة في خطّ التقوى، لذلك أنتم تستحضرون في أنفسكم كيف تُصلّون، وكيف تتوضّأون، وكيف تغتسلون وكيف تحافظون على اتجاه القبلة، وكيف تدقّقون في الكلمات التي تتلونها ذكراً أو آية، وكيف تركزون إحناءة الركوع وانحناءة السجود.. في الصف أنتم تُصلّون لله، لا بدّ أن تتوضّأوا قبل أن تدخلوا الصف، لا أن تغسلوا وجوهكم وأيديكم وتمسحوا رؤوسكم وأرجلكم، بل أن تتوضّأ عقولكم وقلوبكم وأسننتكم وأيديكم التي قد تضربون بها الطالب أو الطالبة، لا بدّ أن توازنوا أرجلكم لا لتمسحوا عليها، ولكن لتعرفوا كيف تركزونها في موقع العطاء..

لا بدّ لكم أن تدقّقوا من موقع المسؤولية في كلّ المعلومات التي تعطونها لأطفالكم كي تكون صحيحة، لا أن تكون فاسدة، أن تكون صواباً لا أن تكون خطأ..

تقوى الدرس

قبل أن تاتوا إلى الصف، لا بدّ أن تعيشوا تقوى الدرس، أن تراقبوا الله، أن تُحسنوا أسلوب العطاء، فالمفتّش إذا لم يكن يراقب عطاءكم، فإن الله يراقب عطاءكم قبل المفتّش

والمفتشين (ما يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةِ إِلا هُوَ رَابِعُهُمْ، وَلَا خَمْسَةَ إِلا هُوَ سَادِسُهُمْ
وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلا هُوَ مَعَهُمْ)^(١)، ويقول سبحانه: (يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ
وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)^(٢).

فتقوى الدرس أن ينطلق المعلم به وهو يتقنه جيداً، قبل أن يطلب من الطلاب أن
يتقنوه، فالخطأ في الفكرة يعني أنكم تُرَبِّونَ عقولاً على الخطأ، وتُرَبِّونَ طلاباً على الخطأ،
وأنتم تعرفون أن البداية عندما تكون خطأ، فإن الخطأ يُمَثِّلُ الخط الذي سوف يحكم
حياة هذا الإنسان، وبذلك فإنكم تتحملون كل أخطائه، عندما تكونون أول مَنْ بَدَرَ بِذَرَّةٍ
الخطأ في عقلِ هذا الإنسان.

لذلك، راقبوا الله في عملكم، راقبوا الله في التزامكم بالوظيفة، في الوقت، في أداء
الدرس، في الانضباط التربوي والتعليمي والتوجيهي.. إنكم قد تدخلون الجنة بعملكم
هذا عندما تخلصون فيه، لأنكم تأخذون شيئاً من دور الأنبياء، لأن الأنبياء جاؤوا ليعلموا
الناس الكتاب والحكمة، وأنتم عندما تبدأون طريقكم في خلق أرضية العلم والحكمة في
عقل هذا التلميذ وقلبه، فأنتم تمهّدون الأرض للأنبياء ولرسالات الأنبياء، ولذلك فإن في
المعلم شيئاً من عمق النبوة.. ليس نبياً يُوحى إليه، ولكنه يتحرك في خط النبوات، وذلك
شرفٌ كبير.. إنه أعظم من أن يرتفع الإنسان درجة فيما هي الدرجات القانونية التي
يكتسبها، إنه يرتفع إلى الله، يحصل على محبة الله، ينطلق إلى مواقع القرب منه
سبحانه، يتحسّس رضوان الله في قلبه، وتلك هي السعادة كل السعادة.

عندما يحصل الإنسان على الإطمئنان الروحي، بأن الله راضٍ عنه، وأنه أدّى ما عليه
لله، فإنه يسمع الهمسة الروحية الحلوة اللذيذة تهمس في آذان كل الناس المؤمنين
المنفتحين السائرين في رضى الله (يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ)^(٣) المطمئنة بروحيتها،

(١) المجادلة: ٧.

(٢) غافر: ١٩.

(٣) الفجر: ٢٧.

المطمئنة بقيامها بمسئوليتها، المطمئنة باستقامتها، المطمئنة بحبها لربها، وبخوفها منه.. فتعيش كل هذه السكينة الروحية لأنها عاشت الأمن مع الله، ولم تعيش أي حرب معه (إِرْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً)^(٤) راضية بعباء الله، مرضية عند الله بعملها، ثم (فَادْخُلِي فِي عِبَادِي)^(٥) في فريق الله (وَادْخُلِي جَنَّتِي)^(٦).

انطلاق الروح وجمود الوظيفة

لعلّ مشكلتنا نحن الذين نقول عن أنفسنا بأننا مؤمنون، أننا نفكر بالله قليلاً.. لعلّ مشكلتنا أن دور الله عندنا، هو دورٌ وظيفي رسمي، فالله تعالى لا يعيش إشراقه في عقولنا، بحيث نحرك عقولنا تحت رعايته تعالى، لتسير عقولنا في الخط المستقيم.. الله لا يعيش في قلوبنا ليشرق عليها كي تستقيم عواطفنا، فلا تنحرف، لنحبّ عدواً لله، ولنبغض ولياً لله.. والله لا يعيش في بيوتنا وفي نوادينا وساحاتنا.. بل هناك الشيطان يفترسُ العقل والقلب والحياة في كثير من الحالات.

ولذلك نحتاج دائماً إلى أن نستذكر الله، لا كلمة في اللسان، ولكن وعياً في العقل، ونَبْضَةً في القلب، وحركة في الواقع «ثلاث يُظَلِّهِمُ اللهُ تَحْتَ ظِلِّ عَرْشِهِ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ، رَجُلٌ أَعْطَى النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ مَا هُوَ سَائِلُهُمْ، وَرَجُلٌ قَالَ الْحَقَّ فِيمَا لَهُ وَفِيمَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ لَمْ يُقَدِّمِ رَجُلًا وَلَمْ يُؤَخَّرْ أُخْرَى حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ فِي ذَلِكَ لِلَّهِ رِضَى».. أن يكون رضى الله هو كل شيء، أن يكون رضى الله هو الهدف، وهو الحياة، وهو الحركة، وهو الاحساس والعقل والقلب، لأنّ الله هو الذي يبقى لنا.. لن يبقى لنا أبائنا ولا أمهاتنا ولا أولادنا، ولا الناس من حولنا، ولكننا سنلتقي الله وحدنا (وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا)^(٧).

(٦) الفجر: ٣٠.

(٤) الفجر: ٢٨.

(٧) مريم: ٩٥.

(٥) الفجر: ٢٩.

صلاة العلم

إنفتحوا على الله، وليكن الصف محراباً، ولتكن المدرسة مسجداً.. محراباً للعمل تحت رعاية الله، نُصَلِّي فيه صلاة العلم نعطيها للآخرين، ونتصدَّق فيه صدقة العلم نعطيها للآخرين، ومسجداً نتطهَّر فيه من كلِّ نقاط الضعف التي تُسْقِطُ إنسانيتنا.

وأنا أضمن لكم، أنكم إذا وضعتم الله في حساباتكم، وأنتم تعملون فستشعرون بالرضى والطمأنينة والسكينة والسعادة الروحية، حتى لو زحفت الألام إلى كلِّ عَصَبٍ من أعصاب أجسادكم، ولو واجهتم كثيراً من المشاكل.

فالإنسان عندما يُحدِّق بالنَّاسِ وبالزوايا، تضيق عليه الدنيا، ولكنَّه عندما يرفعُ رأسه، رأسَ عقله وقلبه إلى الله تُشرق عليه كلُّ الشُّموسِ، وكلِّ الأَقمارِ، وكلِّ مجالات السعادة.

■ كما أنّ التعليم رسالة للمعلّم، هو أبوة وأمومة للتلميذ، كيف توضحون ذلك؟

* عندما تنظرون إلى تلامذتكم، انظروا أمامكم أبناءً في الروح.

* عندما يكون العلم مغسولاً بكلّ مزيج القلب يعرف طريقه إلى العقل ليغنيه بالفكر.

* مَنْ كان لديه مزاجٌ حاد عليه أن يضعه في الخزانة قبل أن يأتي إلى المدرسة.

* لا تنقلوا عقدكم النفسية إلى الصف، خبئوها في بيوتكم، جمدوها في نفوسكم.

نظرة الرحمة

□ .. قبل أن تدخلوا أيّ صفٍ في أيّ مدرسة، ادرسوا ما معنى حركة الأبوة التي تعيشونها تجاه أبنائكم في البيت، ومعنى حركة الأمومة التي تعيشونها تجاه أبنائكم في البيت.. هل تتحرك أبوتكم وأمومتكم عشوائياً؟ هل تمنعون أية نبضة قلب، وأية انطلاقة في العقل، وأيّ انفتاح في الشعور، وأي جهد؟ هل تمنعونه عن أبنائكم؟ أو أنكم تحاولون أن تضاعفوا ذلك كله من أجل أن تُعطوا كلُّكم لهذا البرعم الذي يتفتّح، لينطلق، ليتنفّس، وليمتصّ النورَ القادم من الشمس؟

عندما تنظرون إلى تلامذتكم، انظروا أمامكم أبناءً في الروح.. لذلك لا بدّ أن تعيشوا الأمومة والأبوة مع تلامذتكم، بنفس القوة التي تعيشون فيها مع أبنائكم في الجسد،

وذلك بكلّ العقل والعاطفة، بكل الإحساس والجهد، لأنّ أية حركة تثقيفية توجيهية تربوية، إذا لم تُفسَل بالعاطفة والإحساس، فإنّها لا تملك أن تتعمّق في داخل الإنسان الآخر.

وتبقى إنسانيتنا تبحث عن قلب يحتضنّها بالعاطفة، وتبحث عن عقل يضمّها إليه ولا يطلق الأفكار إليها بشكل تلقائي.. تبقى إنسانيتنا ظامنة لكل ينابيع الإحساس والشعور التي تعيش داخلنا.. علمٌ بلا قلب هو حجر، هو حديد.. وعندما يكون العلم مفسولاً بكلّ مزيج القلب يعرف طريقه إلى العقل ليُغنيه بالفكر، وطريقه إلى القلب يُحوّل الفكر إلى إيمان..

هناك فرق بين أن نفكر وبين أن نؤمن.. التفكير معادلة، أما الإيمان فهو نبضة قلب واحساس وشعور، يُحوّل الفكر إلى حالة في الروح كجزء من الروح، لذلك لن يكون الفكر إيماناً إلا إذا انطلق الإحساس مع الفكر ليفتح له الطريق إلى القلب..

لا بدّ أن نعيش روحية الأبوة والأمومة مع تلاميذنا، حتى نندمج فيهم، ويندمجوا فينا، لا شكّ أنكم رأيتم أطفالكم عندما يشعرون بالخوف، كيف يلجأون إلى أحضانكم، أو عندما يشعرون بالألم كيف يأتون إليكم ليحصلوا على ضمة عاطفية أبوية أو أمومية لتخفّف عنهم ذلك الألم وذلك الخوف.. أطفالكم أحلامكم في الحياة، لأنّ الإنسان عندما يصبح أباً أو أمّاً يشعر بأنّ ذاته انتهت لتذوب في ذات أولاده.. لا شكّ أنّ من الصعب أن تختزنوا ذلك كلّهُ في تلاميذكم، ولكن، عندما يعيش الإنسان روحية المسؤولية، ويتطلع إلى عيون الأطفال الحائرة التي تحدّق فيه بخوف أو بحنان أو بوداعة أو برغبة، لا يعود ينظر إلى تلاميذه في الصف من خلال ضجيجهم، أو من خلال «شيطنتهم»، بل إنّهُ يُحدّق في عيون الأطفال ليجدَ فيها الوداعة كلّ الوداعة، والصفاء كلّ الصفاء، والبراءة كلّ البراءة..

وبذلك يدخلون في قلوبكم من خلال عيونهم، لا تنظروا إلى حركاتهم كيف تُزعجكم،

ولكن انظروا إلى عيونهم كيف تتوسل إليكم، كيف تحتضنكم، وكيف تتلهف إليكم.

فالأبوة والأمومة عنوان عملكم لتنجحوا في الدخول إلى عقل هذا التلميذ الذي لم يفتح عقله حتى الآن، ومسؤوليتكم أن تفتحوه، ولتنجحوا في الدخول إلى قلبه الذي لم يفتح حتى الآن، ومسؤوليتكم أن تفتحوه، ولتنجحوا في الدخول إلى حياته، لتخططوا له الطريق الذي يؤدي به إلى السعادة.

براعة التوجيه

حاولوا ألا تجعلوا اليأس يدباً إلى قلوب هؤلاء التلاميذ.. إذا فشلوا حدثوهم عن النجاح، ولا تعمقوا في أنفسهم الحديث عن الفشل.. ربما يكون من الضروري أن تحدثوهم عن الفشل في طريق النجاح، لا أن تحدثوهم عن الفشل لتسقطوهم.. عندما يفشل الطفل يسقط، لذلك لا بدّ أن تعينوه على الوقوف.. الكبار عندما يفشلون قد يأخذون من تجاربهم شيئاً، يُوحى إليهم بأنّ الفشل تجربة، وأنّ التجربة عندما تفشل لا تعني فشل الفكرة.. ولكنّ الطفل لا يملك تجربة، أعطوه تجربتكم، لا تسخروا من الامه، ولا من أخطائه، لا تستهزؤا ببعض ملامح السذاجة فيه.. لا تعطوا أنفسكم حرية أن تحركوا مزاجكم مع هؤلاء الأطفال.

من كان لديه مزاج حاد عليه أن يضعه في الخزانة قبل أن يأتي إلى المدرسة، ليصنع المعلم لنفسه مزاجاً رقيقاً.. من كانت لديه عقدة في بيته، أو زوجة تعيش عقدة مع زوجها، أو زوج يعيش عقدة مع زوجته، أو إنسان يعيش عقدة مع أهله.. فليترك ذلك في البيت.. لا تنقلوا عقدكم النفسية إلى الصف، خبئوها في بيوتكم، جمّدوها في نفوسكم، وانطلقوا من دون عقدة، بقلوب مفتوحة، ومزاج منفتح على الإنسان الآخر من موقع المسؤولية.

■ أسلوب المعلم.. وصناعة الإنسان، ما رأي

سماحتكم في هذه المسألة؟

* لا أعتقد أن المبدعين يفوقونكم عقولاً، ليست عقولهم من ذهب، وعقولنا من فضة، وليست أفكارهم من ألماس وأفكارنا من حجر، لكنهم انفتحوا على روحية الإبداع ليكتشفوا المجهول، ونحن عشنا اللامبالاة أمام المجهول.

إبداع الذات

□ إن عملكم علمٌ وفنٌ، من هنا انطلقوا لِتَتَّقِنُوا ما تعلّمتم ولتراجعوا ما تعلّمتم.. لا تتجمّدوا حول ما درستموه لتستظهِروه كي تعلّموه.. ليكن علمكم الذي تعلمتموه جزءاً من ذاتكم، حاولوا أن تفتشوا عن الجديد في كلّ يوم.. ربما درستم مناهج التربية، ولكننا نعرف أن هذه المناهج تتطور، فلاحقوا في قراءاتكم كلّ ما يُمكن أن تنطلق فيه العقول في تطوير مناهج التربية ثم ادرسوا وانقدوا أساليبكم.. إذا أعطيتم درساً، ورأيتم أن الطلاب لم يفهموه لا تتهموا الطلاب بالغباء، ولا تسارعوا إلى اتهامهم بذلك، فربما يكون أسلوبكم غيباً وأنتم أنكياء، لأنّ مشكلة الكثيرين من الأنكياء أنهم لا يستعملون ذكاءهم.. من هنا فنحن نجد الكثير من الأغبياء ينجحون، وكثيراً من الأنكياء يسقطون، لأنّ الذكي يعتمد على ذكائه، فلا يحفظ ولا يدرس ولا يتعمّق، ولذلك عندما يأتي إلى الامتحان يشعر بأنه لا يملك أية إمكانيات.. ولكنّ الغبيّ يحاول أن يصنع لنفسه ذكاءً جديداً.

وفي كثير من الحالات قد ينجح الممثل بما لا ينجح به البطل الحقيقي، لأنّ البطل قد تفتح بطولته في نفسه، فيفقد حركة البطولة في حياته، وقد ينطلق الممثل ليتقمّص شخصية البطل فتتحول إلى طبيعة فيه، وكثيراً ما يغلب التطبع الطبع.

روحية الإبداع

لذلك إذا رأيتم فشلاً، كرّروا التجربة وطوّروا الأسلوب، أنقدوا أساليبكم وفهمكم.. ولا تعتمدوا على أنكم درستُم هذه المادة، وأنكم تستظهرونها. في كلّ ليلة حضّروا مادّتكم حتى ولو كنتم تعرفونها، فلعلكم تكتشفون شيئاً جديداً، لعلكم تكتسبون أسلوباً جديداً، لعلكم تفتحون أفقاً جديداً، لتكن لديكم روحية الإبداع، في أن تُبدعوا لا أن تُقلّدوا.. ولا اعتقد أن المبدعين يفوقونكم عقولاً، ليست عقولهم من ذهب وعقولنا من فضة، ليست أفكارهم من الماس وأفكارنا من حجر، لكنهم انفتحوا على روحية الإبداع ليكتشفوا المجهول، ونحن عشنا اللامبالاة أمام المجهول.

من الممكن لكلّ إنسان يملك فكراً إذا عاش مسؤولية فكره في إنسانيته، ومسؤولية فكره في حركة أمتّه، أن يُبدع. وهكذا حاولوا أن تطوّروا أفكاركم، وأن تقرّأوا وتجاوزوا وتساءلوا دائماً، لا تستغرقوا في كلمة «المعلم» يطلقها الناسُ عليكم لتعتبروا أن دور «التلميذ» عندكم قد انتهى ليبدأ دور المعلم.. حاولوا أن تعيشوا روح التلميذ دائماً، لأنّ الإنسان كلما انفتح له بابٌ من العلم اقتنع بجهله أكثر، وعندما يفتح له أفق في العلم، فإنّه يعرف كثيراً من الآفاق التي يجهلها من خلال ذلك.. لا بدّ للإنسان أن يكون تلميذ الحياة..

درسٌ من الطفولة

إنّني في كثيرٍ من أحاديثي كنت أقول ومن دون تواضع، إنني أتعلّم من الأطفال. أعطيتكم مثلاً وجربوه، ربما يأتي الطفل إلى أبيه أو أمه يطلب حاجة فلا يُعطِيانه، يذهب ويضرب رأسه بالجدار، ويهدّد يأتي إلى أحضان أمه يبكي، يصرخ، يُوجد إرباكاً في البيت، وعند ذلك تنهار مقاومة الأب والأم، وعندها يُعطِيانه ما يريد.

هل فكرتُم كيف استطاع هذا الطفل الذي لم يتعلم في مدرسة، أن يُحطِّمَ مقاومتك كأُم أو مقاومتك كأب بأسلوبه. لقد رأى أنَّ الأسلوب المباشر لا يكفي، وهو يدرس باحساسه نقاط الضعف في أمه، ونقاط الضعف في أبيه، كيف يتأثر أبوه بالبكاء، وكيف تتأثر أمه، وبذلك انطلق في أسلوبه ليحطِّمَ مقاومتنا فيما كنا نمنعه. الطفل يتحرك باحساسه، يمتصُّ ما حوله.. قد تتصورون وأنتم من الكبار، أن أطفالكم لا يفهمون شيئاً.. إن أطفالكم يدرسونكم، وقد يجلسون ليضحكوا من بعض حركاتكم فيما بينهم، وقد يجلسون لينقدوكم، لأنَّ الطفل يعيشُ بصفاء فطرته، والفطرة هي المعلم الأول للإنسان (فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ)^(١).

كونوا في حالة طوارئ علمية، في الفكرة، في الأسلوب، حتى تستطيعوا أن تنجحوا في أدائكم في صنع الإنسان الجديد.. أبوة، أمومة، تقوى، عبادة، علمٌ وفن... جميعها تنطلق لتعطينا عمق المسؤولية ومعناها وانفتاحنا على الله وعلى الإنسان لِنُبْقِيَ إنسانيتنا في إنسانية الآخرين.

آمال المستقبل

نحن لا نبقي بعدما نموت في الجسد، ولكن نبقي في أولادنا بالروح، هناك أولادٌ صنعنا وجودهم المادي، وهناك أولاد صنعنا وجودهم الروحي، كلهم أبناؤنا، فلنعشُ في هذا الأفق وفي هذا الجوِّ، ولنتحسَّس قبل ذلك وبعد ذلك مسؤوليتنا عن أمتنا، مسؤوليتنا عن صنع الإنسان الفنَّان، العالم، المخترع، المكتشف، المبدع، وذلك بأن نلقي في داخله بذورَ ذلك كلِّه.

(١) الرعم: ٣٠.

إنَّ مرحلتنا كأمة، مرحلة صعبة، العالم يتحرك الآن ويتقدّم ويستكبر ويستعمر ويحارب ويسالم بالعلم.. حتى السلاح ليس بندقية، وليست مدفعاً وعِلْم المدفع.

مستقبلنا هو العلم، فالذي ينطلق بالعلم ليؤسس نفسه، ويؤسس الآخرين، فإنه ينطلق في صنع المستقبل.. كونوا صنّاع المستقبل، كونوا صنّاع حركة الإبداع في الأمة، كونوا صنّاع النصر، صنّاع الفتح المبين، صنّاع الإنسان، كونوا ذلك كلّ لتجدوا في خطّ هذه الاستقامة رضوان الله ومحبهته (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا)^(١)، قالوها بعقولهم، بقلوبهم، بحركتهم، بعلاقاتهم، بمواقفهم، بمواقفهم (تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ الْأَتْخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ، نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ، وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ نُزُلًا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ)^(٢).

(٣) فصلت: ٣٠ - ٣١ - ٣٢.

(٢) فصلت: ٣٠.

■ كيف تحددون مسؤولية الطالب الجامعي في إغناء المجتمع علمياً وتربوياً..؟

* أنت لست مجرد كتاب علمي تجمعه في فكرك عندما تنال الشهادة، أنت حياة متحركة تترك تأثيرها في مصيرك ومصير الآخرين.

* الجامعة ليست ساحة للعبث وللعلاقات غير الأخلاقية، وليست ساحة لأي وضع عبثي يشغل الطلاب عما يعيشونه في مسؤوليتهم العلمية.

* لا يكن نقدك للآخرين نقداً مُتربفاً، ولكن ليكن نقداً تثقف فيه نفسك لتجتنب ما يثقلها في حياة الآخرين.

حياة تُغني الحياة

□ أن تكون طالباً جامعياً، معناه ألا يكون عقلك العلمي وحده معك، بل لا بد أن يكون إلى جانب مسؤوليتك في تربية عقلك العلمي، أن يكون لك الإحساس بالمسؤولية في تربية عقلك الأخلاقي، وفي تربية عاداتك الحركية، وفي تحديد نهجك في النظرة إلى الآخر، وفي النظرة إلى الحياة، وإلى الواقع.

أنت لست مجرد كتاب في الفيزياء والكيمياء تضعه في عقلك، بل أنت حياةً متحركة تترك تأثيرها في كل ما حولك وفي كل من حولك، حتى المادة العلمية لها أخلاقيتها في أسلوب الطرح، ولها أخلاقيتها في طبيعة نظرتك لمن تعطيه العلم، ولها أخلاقيتها في حركيتك الدائمة في الاطلاع على نتائج العلم.

لذلك، أنت لست مجرد كتاب علمي في فكرك عندما تنال الشهادة، أنت حياة متحركة تترك تأثيرها في مصيرك ومصير الآخرين.. كم من الجامعيين دمّروا الدنيا؟ وكم من الجامعيين استطاعوا أن يرفعوا مستوى الإنسان في الدنيا؟ فقد تكون أنت خطراً عندما تأخذ بأسباب العلم وتوجّهه في الاتجاه المضاد للعلم.. وقد تكون ضرورة عندما توجّهه في الاتجاه الذي يغني الحياة ويبنيها.

لذلك، أنت كطالب جامعي، لا بدّ لك أن يكون لك فكرك حول الفساد والصلاح، وأن تعتبر أنّ الجامعة ليست مجرد ساحة يجتمع فيها الطلاب، بل هي ساحة يعيش فيها الكثيرون حالة الانضباط في الفكر، والانضباط في حركة العاطفة، والانضباط في العلاقات.. هي المحضن الذي يجعل الإنسان يتحسّس إنسانيته في الآخر، بالطريقة التي لا يُفكر فيها باستغلال الآخر وخداعه..

في حضن الجامعة

لا بدّ لنا أن نعتبر الجامعة مسؤوليتنا، ومسؤوليتنا في أن نصلح أنفسنا فيها من خلال ما نجده في مواقع الصلاح في داخلنا، وأن نبتعد عن عناصر الفساد، من خلال ما نتجنبه من ذلك. ليكون وجودنا في الجامعة وجوداً واعياً، يتعلّم فيه الإنسان من الآخر، ويعمل على أن يغني تجربة الآخر.

من هنا، فالجامعة ليست ساحة للعبث وللعلاقات غير الأخلاقية، وليست ساحة لأيّ وضع عبثي يشغل الطلاب عما يعيشونه في مسؤوليتهم العلمية.

إنكم سوف تتخرّجون مدراء ومعلمين ومسؤولين.. لذلك فإنّ أيّ فساد تختزنونه في شخصياتكم سواء كان فساداً اجتماعياً أو سياسياً أو جنسياً أو اقتصادياً أو أمنياً... سوف يُثقل أمتكم من خلال المواقع التي تحصلون عليها من شهادتكم الجامعية.

عندما تريدون أن تعرفوا مستقبل الأمة معكم، ادرسوا حاضر الأمة مع غيركم، مع كل هؤلاء الذين تنقدونهم سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وأمنياً.. عندما تحاولون أن تفهموا ما هو المستقبل فيكم، ادرسوا أنفسكم في عملية مقارنة مع الآخرين، وقد جاء في كلمة للإمام علي (ع) «كفاك أدباً لنفسك اجتناب ما تكرهه من غيرك».. لا يَكُنْ نقدك للآخرين نقداً مُتَرفِئاً، ولكن ليكن نقداً تُنَقِّفُ فيه نفسك لتجتنب ما يثقلها في حياة الآخرين.

■ من خلال خبرتكم الاجتماعية، ما نصيحتكم لطلاب كلية الطب، أطباء المستقبل.

* إنَّ أيَّ ضعفٍ في الدراسة، وأيَّ ضعفٍ في التجربة والخبرة، وأيَّ ضعفٍ في الممارسة الدائمة، يعني ضعفاً في مداواة المريض.

* إذا لم تكونوا طلاباً مُتقنين كافضل ما يكون الاتقان، ناجحين كأعلى ما يكون النجاح فإنكم تمثلون خطراً على الأمة.
* نريدكم أن تكونوا خطراً على المرض، لا أن تكونوا خطراً على الصحة.

تحذير من التهاون

□ نحن نتعلّم من طلاب الطب، ونستشفي بهم، لكن هناك نقطة أحبّ أن أثيرها، وهي إذا كنتم في فرعٍ آخر، فمن الممكن للإنسان منكم أن يتهاون في بعض دراسته، يمكن أن يغش في الامتحانات، يمكن أن يُوكّل شخصاً، كما جرت هذه العادة المحرّمة شرعاً في أن يمتحن عنه.. لكنّ عملكم أنتم يتعلّق بحياة الناس. ولذلك، أنتم تعملون على أن تشاركوا في حيويّة هذه الحياة، أو في إسقاطها.

لذلك، إنَّ أيَّ ضعفٍ في الدراسة، أو في التجربة والخبرة، أو في الممارسة الدائمة، يعني ضعفاً في مداواة هذا المرض، أو ذاك المريض. فأنتم إذا لم تكونوا طلاباً مُتقنين كأفضل ما يكون الاتقان، ناجحين كأعلى ما يكون النجاح، فإنكم تمثلون خطراً على الأمة.. ونحن نريدكم أن تكونوا خطراً على المرض، لا أن تكونوا خطراً على الصحة،

هذا جانب. أما الجانب الثاني، وهو ما كنتُ أتحدّثُ به مع كثير من إخواني الأطباء، أن كثيراً من اكتشافات الطب تأتي بالصدفة، في عالم الأدوية، نقرأ أن التجربة كانت تتجه إلى شيء، وإذا بالإنسان الذي يجلس أمام المختبر يكتشف شيئاً آخر، من أين نستطيع الاكتشاف؟ أن تكون لنا ذهنية إنتاج الفكرة، ذهنية الإكتشاف، ألا نكون عندما نصبح أطباء، مجرد أشخاص يريدون أن يفحصوا فحصاً سريعاً حتى يقبضوا «المقسوم» وحتى يمارسوا عملهم بطريقة روتينية.. إدرسوا كل حالة تأتيكم، كما لو كنتم في المختبر، أو في قاعة الدرس، وسجّلوا ملاحظاتكم عن أي شيء جديد ترونه في فحوصاتكم، لعلّ هذه الملاحظة الطارئة، أو هذا الشيء الجديد، الذي تتحدثون عنه مع أساتذتكم، أو مع رفقاءكم، لعله يكشف لكم مرضاً، أو يكشف لكم دواءً لمرض.

إنّ المكتشفين ليسوا من المريخ، ولا من القمر، ولا من الشمس، ليسوا من ذهب لتكونوا أنتم من تراب، كلنا من تراب، وكلنا يملك فكراً، ويملك عيناً وسمعاً، ولكنّ القضية أن هناك أناساً يعيشون اللامبالاة أمام الأسرار الخفية في الواقع، وهناك أناساً يعيشون مسؤولية اكتشاف الخفايا في الواقع.

ليس من الضروري أن يكون أرقى الأطباء هم الذين يكتشفون، بل قد يكتشف الحقيقة طبيبٌ عادي، يمكن أن يلتقي بالسرّ الخفي من خلال تجربة جديدة، أو ملاحظة جديدة.

■ **الهمّ الرئيسي لدى الأسرة المسلمة هو تنشئة**
أولادها تنشئة إسلامية وروحية وثقافية، وبحمد
الله قد أصبح لدينا مدارس إسلامية. ولكن بعض
هذه المدارس قد لا تكون منسجمة مع الواقع
التربويّ بنسبة عالية، وهذا ما دفع البعض إلى
تسجيل أولادهم في مدارس علمانية، هل يشكّل ذلك
مسوّغاً لدخول الأولاد مدارس غير إسلامية؟

* علينا بدلاً من أن نشوّه صورتها، وننشر سلبياتها، أن
نتعاون معها، لأن تشويه الصورة يمثل خطيئة كبيرة،
ويسقط تجربتنا.

تجربة حديثة

□ الواقع أنّ المدارس الإسلامية تمثل تجربة حديثة لا تزال في دور البداية من ناحية
المستوى العلمي، أو من ناحية أسلوب التربية.. ولعلّ المشكلة التي تواجهنا هي أنّ أغلب
المعلمين أو المعلمات أو المربين أو المربيات، الذين يُختارون لهذه المدارس، هم جزءٌ من
مجتمعنا، والمجتمع لم يبلغ رشده الأخلاقي بعد، لذلك من الصعب جداً أن تجد معلمين
أو معلّّّات يملكون الأسلوب التربويّ الجيد، من هنا لا بدّ أن تحدث أخطاء، وأعتقد
بحسب خبرتي في حركة المدارس الإسلامية، أنّ هذه المدارس بدأت تتقدّم في أساليبها،
وعليّنا العمل على التعاون مع هذه المدارس الإسلامية، بحيث لا نتعقّد من السلبيات التي
تحصل للأطفال، ونتابع المسائل مع المسؤولين عن هذه المدارس حتى نتكامل معهم، لأنّنا

عانينا الكثير، ولا نزال نعاني من المدارس التبشيرية والعلمانية التي إذا لم تُوجَّه الطالب توجيهاً منحرفاً، أو تُلقَّنه معلومات منحرفة، فإنَّها تجعله يعيش في جوِّ الانحراف.. وهذه هي المشكلة التي عشناها، لأنَّ أغلب المسلمين يضعون أولادهم في مدارس غير إسلامية، مع العلم بأنَّه أصبح عندنا مدارس إسلامية، يمكن أن تكون بديلة ولو بنسبة معينة، ونحن نعرف مدى الرعب الذي يشعر به الآخرون حين يرون إقبال الناس على المدارس الإسلامية، وهذا يدلُّ على أنَّ هناك نجاحاً في هذه المدارس الإسلامية، قد لا يكون بالمستوى الذي نريد، ولكنَّه نجاح جيّد. طبعاً المدارس الموجودة الآن غير كافية حتى تستوعب أطفالنا.. وعلينا بدلاً من أن نُشوِّه صورتها، وننشر سلبياتها، ونهتك حرمتها، أن نتعاون معها، لأنَّ تشويه الصورة يمثِّل خطيئة كبيرة، ويُسقط تجربتنا.. وفي الحديث عن الإمام الصادق (ع): «إذا أردت أن ترفع مؤمناً فارفعه إليك برفق ولا تكسره، فإنَّ مَنْ كسر مؤمناً، فعليه جبره». وأنا لا أشجع على إدخال الأولاد إلى مدارس غير إسلامية، ولا سيما إذا كان الأهل لا يقومون بتربية الأولاد في البيت تربية إسلامية.

□ الإسلام والفن :

* القيمة.

* المساهمة في الدور.

■ ما رأيكم بالفن عندما يتحول إلى هدفٍ غير نبيلٍ، وانعكاس هذا الفن على إنتاج بعض الأفلام الإباحية، ومدى تأثير ذلك على أخلاقية المجتمع؟

* الأفلام اللاأخلاقية تمثل سياسة لا نستطيع أن نصفها بانها سياسة بريئة، ولكنها سياسة تريد أن تجعلنا أمة بلا قيم وبلا أخلاق.

القيمة في الالتزام

□ إننا نعتبر الفن سواء، كان فناً في رواية أو فيلم، أو مسرح، أو قصة، أو في أي جانب، هو قيمة إنسانية ثقافية.. وقيمة الفن تكمن بما يختزنه من فكرة أو حركة أو إيحاء، حيث يمكن أن يبني للإنسان الجانب الطيب من شخصيته ومن حياته، وذلك عندما تنطلق الأفلام التي استوحيت من روايات وقصص إنسانية في كل المجالات التي تُعني تجربتنا.. فعندما تشاهد هذا الفيلم في السينما أو في التلفزيون، فإنك تشعر أنك في حلقة دراسية بأسلوب يمتاز بأنه لا يُثقل عقلك، وإنما يُدخلُ الفكرة بطريقةٍ مُحببة.. وهكذا عندما ينطلق الفيلم من أجل أن يُثير فينا احساساً بقضية وطنية أو قضية دينية إسلامية اجتماعية.

مخاطر واستلاب

لكن، عندما نلاحظ الكثير من الأفلام التي أصبحت تُصنع من أجل خدمة الإعلان، نرى أنها تجتذب الناظر، ولا سيما الناس الذين يعيشون الانفعال السطحي بالأشياء، ولنا أن ندرس المسألة بشكلٍ عقلاني بعيداً عن خطابات الجمعة، وعن عظات الأحد،

لنسال عن هذه الأفلام وعن رسالتها، فنرى أنها تُثير في الإنسان غرائزه، لأنها تمثل ٩٠٪ من عناصر الإثارة، وتمثل ١٠٪ مما يمكن أن يكون فكرة طاهرة أو إحياء إنسانياً.

هنا نقول: عندما تُقدّم هذه الأفلام، فإنني أحبّ أن أعبر تعبيراً قد يكون مثيراً، ولكنه يُجسّد الواقع: إنّه يُحوّل الشباب وحتى المراهقين من «الشيوخ»، إلى حالة طوارئ جنسية، بحيث يفقد الإنسان توازنه، لأنه قد يسيطر الإنسان في بعض الحالات على حالة الجوع في جسده، ولكن عندما تُقدّم له التوابل التي تُثير شهوته للطعام، فمن الطبيعي أن يشعر بالجوع كشيءٍ يسحق جسده.. لذلك كيف نُفسّر حوادث الإغتصاب في أميركا، التي أخذت الحرية الجنسية فيها مداها الواسع، فأفلام الجنس وأفلام العنف معاً هي المسؤولة عن ذلك، لأنها تمنع الإنسان أن يفكر، بل وتثير فيه غرائزه، لا بالطريقة الإنسانية للغريزة، ولكن بالطريقة الوحشية الحيوانية للغريزة.

عندما تُقدّم هذه الأفلام في مجتمع شرقي له تقاليده وعاداته في قضايا الشرف والعفة فإنها سوف تخلق في نفوس الشباب ذكوراً وإنثاءً أزماتٍ نفسيةً معقدة، باعتبار أنّ هذا النوع من الإلحاح في الإثارة الدائمة، سوف يُحوّل المسألة إلى عقْدٍ نفسية، وعند ذلك يُصبح دور هذه الأفلام إرسال شبابنا وشاباتنا إلى المصحّات النفسية.. هذا واقع نعيشه.. قلت لكم مراراً: فكّروا معي، وليس من الضروري أن تستمعوا إلى كلامي لتقبلوه بلا مناقشة، لا تفكّروا في حجم اللحظة في حركة غرائزكم، ولكن فكّروا في النتائج السلبية التي تتحرّك تأثيراتها على قواعدكم النفسية والواقعية والعملية.

هذا بالإضافة إلى أننا بشكلٍ عام، شعبٌ متدين.. قد لا يكون أحدنا متديناً مئة بالمئة، ولكننا شعبٌ متدينٌ في قيمه الأخلاقية على الأقل، ولو في الجانب التصوّري لهذه القيم.. إنّ هذه الأفلام تدمر التزامنا الديني، وتدمر إحساسنا.. ثم عندما يتحوّل الجنس إلى

قيمة في خطه الغرائزي، فإنه سوف يترك تأثيراته على كل حركة الفعاليات في المجتمع، وأنتم تعرفون أن الجنس كان في الحرب العالمية الثانية، وفي غيرها من الحروب، كان العامل الفعّال في مسألة التجسس.. لذلك عندما تضبطون غرائزكم تسيطرون على أنفسكم، ليكن كل واحد منا سيد نفسه، ولا تكن غرائزه سيده مصيره.

إن الأفلام اللأخلاقية تمثل سياسة لا نستطيع أن نصفها بأنها سياسة بريئة لمجرد الإعلان والإثارة، ولكنها سياسة تريد أن تجعلنا أمة بلا قيم وبلا أخلاق، أمة تحكم غرائزها مصيرها، ولا تحكم أخلاقها حركتها.

■ ولكن كيف يمكن للفن أن يلعب دوراً حضارياً، في إبراز قوة الإسلام الفكرية؟

□ نحن نعتقد أن التطور الفني، وتأثير الفن، سواء كان الفن السينمائي أو التلفزيوني، أو حتى الفن التصويري^(١)، أصبح الآن من أكثر الوسائل تأثيراً في تقديم الأفكار، وتقديم القضايا، وإبراز التاريخ والأشخاص.

ونلاحظ في هذا المجال أن فيلم «الرسالة»، بالرغم من وجود الفجوات الكبيرة فيه، نلاحظ أنه أعطى للإسلام دعايةً بشكلٍ فوق العادة.. ولذلك أعتقد أننا إذا استطعنا أن نحول ذكرى عاشوراء إلى عملٍ سينمائي أو مسرحي، تتوفّر فيه كلّ العناصر الفنية، ففي ذلك خدمة للإسلام.. «فعبد الرحمن الشرقاوي» الذي كتب في الحسين (ع) «ثائراً شهيداً» يمكن لروايته أن تُحوّل مسرحية رائعة، فإذا حدث ذلك.. فإنها تستطيع أن تهزّ العالم.

وأنا أعتقد أنه إذا توفّر مثلُ هذا، قد يكون من أفضل موارد صرف الإمام (ع)، لأننا أصبحنا بحاجةٍ إلى إعلام عالمي، وإلى إعلام يُقدّم القضية الحسينية في صورتها الإسلامية الثورية من خلال روحية الحسين (ع) وأصحابه وأهل بيته، لذلك، يجب في الدعوة إلى الإسلام، اتباع الوسائل الفنية المتطورة التي تخاطب عقل الإنسان وقلبه، من خلال الصورة والقصة، ومن خلال الأجواء العاطفية، وما إلى ذلك. إنني أقول دائماً، ينبغي أن نطوّر أساليب التعبير، كما نطوّر أساليب البحث، وأساليب الإخراج.

(١) التصوير الفوتوغرافي.

□ الإسلام والفكر الآخر :

- * الديمقراطية والتعددية.
- * الدين والقانون.
- * اسلام سياسي واسلامي تقليدي.
- * ثنائيات.

■ ما رأيكم بالديموقراطية والتعددية الحزبية، هل يقبل الإسلام بهذه العناوين؟

- * الإسلام في الجانب الشرعي المتعلق بالله والرسول ليس منطلقاً من رأي الأكثرية في شرعيته.
- * الإسلام ليس غريباً عن اللقاء بالأسلوب الديموقراطي، وإن كان بعيداً عن الخلفية الفكرية للديموقراطية.

□ الديموقراطية، مفهومٌ غربيّ، ولذلك فنحن لا نستطيع أن نفرضه على الإسلام بمفهومه الفكريّ، الذي يتلخّص في أنّ الشعب هو مصدرُ السلطات، وأنّ الشعب هو مصدرُ شرعية القانون، كما هو مصدرُ شرعية الحكم..

ونحن عندما نلتقي مع هذا المفهوم في هذا الخطّ الفكريّ، فإننا لا نستطيع إلا أن نناقشه، لأنّ الإسلام في الجانب الشرعي المتعلق بالله والرسول، ليس منطلقاً من رأي الأكثرية في شرعيته، بل هو يُمثّل الشرع الحاسم حتى لو رفضته الأكثرية، أو حتى لو كان هناك إجماعٌ عالميٌّ ضده.

لكن، يمكن أن نلتقي بالديموقراطية في بعض الأساليب التي تتصل بالحكم وبالحاكم، وبكثيرٍ من القضايا.. ونحن نعتبر أنّ التجربة الإسلامية في إيران هي تجربة رائدة في اعتماد رأي الأكثرية الشعبية في كلّ القضايا العامة.. فالإمام الخميني (قده) الذي يرى ولاية الفقيه العامة، لم يتخذ من هذه الولاية عنواناً للحكم بشكلٍ استبدادي، باعتبار أنه هو الذي يملك الشرعية، بل إنه أراد للفقيه أن يرجع إلى الشعب في كلّ القضايا العامة، لينطلق رأي الفقيه في خطّ الرأي الشعبي العام.. فالفقيه يستشير الشعب كله، ويأخذ

برأي الأكثرية فيه، ولهذا كانت الشورى أساساً لشرعية الدستور، أو للشرعية الواقعية للدستور، وإن كان الدستور يأخذ شرعيته من خلال انطلاقه من المصادر الشرعية ومن اجتهاد المجتهدين..

وهكذا كانت الشورى، أساس اختيار رئيس الجمهورية، حتى اختيار الوزراء ورئيس الوزراء، الذي لا بُدَّ أن يرجع إلى مجلس الشورى ليوافق عليه، وفي اختيار مجلس الخبراء، ومجلس صيانة الدستور، وفي كثيرٍ من القضايا.

وفيما يختص بالتعددية الحزبية، فلا بُدَّ أن نخضع للمصلحة العامة، لأنَّ قضية الحريات هي قضية تتصل بالمصلحة العامة، ولا بُدَّ أن نفرِّق بين دولة تقوم على أساس الالتزام الفكري، وبين دولة لا تقوم على هذا الأساس، كالدول الغربية التي لا تقوم على أساس التزام إيديولوجي، بينما الدولة الإسلامية تقوم على أساس أيديولوجي.

إنَّ الدولة الإسلامية تمنح الحريات الثقافية والفكرية في رأينا، وقد تمنح الحريات السياسية بما لا يُهدد القاعدة التي ترتكز عليها الدولة، وهي الالتزام الأيديولوجي. ومن هنا، فإنَّ المسألة مسألة متحركة تتبع عناصر المصلحة العامة في جميع هذه الحالات.

■ ما هو مفهوم الدين، وما الفرق بينه وبين القانون؟

□ الدين هو عبارة عن الالتزام العقيدي والشرعي والمفاهيمي والحركي الذي ينطلق من خلال الرسالة التي يُوحى بها من قِبَل الله سبحانه، طبعاً، الدين الحق. والدين ليس مجرد عقيدة، بل عقيدة وعبادة، والدين الإسلامي يُعتبر حالة مدنية أيضاً، باعتبار أنه يشتمل على القانون الذي يُنظم للإنسان كلّ شؤون حياته العامة والخاصة.

أمّا ما هو الفرق بين الدين والقانون؟ الواقع أنّ القانون هو جزءٌ من الدين، ولكن قد يكون هناك قانونٌ من الدين الإسلامي، وقد يكون هناك قانون غير إسلامي.. فالدين ليس شيئاً بعيداً عن القانون، لأنه يختزن القانون في داخله، كما يختزن العبادة، ويختزن العقيدة.

■ بدأنا نسمع في الآونة الأخيرة مصطلحات عديدة في الساحة الإسلامية، منها «الإسلام السياسي» و «الإسلام التقليدي» ما رأيكم بهذه المصطلحات؟

* إنّه إسلام واحد، تتعدّد اجتهادات المجتهدين حوله، وتختلف مفاهيمهم في معرفته.

□ ربما، كانت هذه المصطلحات منطلقاً من الواقع المتخالف في مقابل واقع يريد أن يتخلّص من هذا التخلف، لأنّه ليس عندنا إسلامان، إسلامٌ سياسي، وإسلام بعيد عن السياسة، أو إسلام تقليدي، وإسلامٌ منفتح..

إنّ الإسلام هو دين الله، الذي أنزله على رسوله في كتابه، والذي حركه رسولُ الله في سنّته، والذي عاش الأئمة والصحابة والعلماء حركيته في تجاربهم بطريقة وبأخرى، مع اختلاف مواقعهم التي قد تلتقي في العصمة في بعضها، وقد لا تلتقي.

والمسألة، هي أنّ المسلمين عاشوا فترةً من الزمن، انعزلوا فيها عن مواجهة القضايا العامة، وانكفأوا فيها، في عباداتهم وطقوسهم وأوضاعهم الأخلاقية الخاصة، بعيداً عن كل التحديات.. وهكذا نشأ واقع يبتعد عن السياسة، ولا يريد للمسلمين أن يفتحوا على القضايا السياسية في مواجهة التحديات الكبرى، لأنّ هناك مفاهيم فرضت نفسها على المسلمين، فجعلتهم يُفكّرون أنّ مواجهة القوى المتحدية يمثل إلقاءً للنفس في التهلكة وذلك في ظلّ عدم وجود تكافؤ بين حجم القوى لدينا، وحجم القوى لدى الآخرين، أو جعلتهم ينتظرون آخرَ الزمان، حتى يمكن للعدل والصلاح أن يأتي، وهم في يأسٍ

عقيدتي، حيث لا يمكن - برأيهم - أن يكون هناك إصلاح قبل آخر الزمان، وما إلى هنالك..

إذاً، هناك واقعٌ متخلفٌ، انطلق المسلمون الواعون المثقفون المنفتحون على قضايا الإسلام من أجل مواجهته، لأنهم رأوا خطأ ذلك المفهوم. وبهذا وجد فهم متقدماً للإسلام في مقابل فهم متخلف.. فالقضية، ليست قضية أن هناك إسلامين، بل إن هناك فهمين للإسلام.

وهكذا نجد أن حركة الإسلام التقليدي، والإسلام المنفتح، تتحرك في هذا الاتجاه، فالإسلام التقليدي يمثل حركة ثقافية في فهم الإسلام في الدوائر الضيقة التي لا تنفتح على الحياة ولا تعالج مشاكلها، بل تظلّ قابعة تجترّ المفردات الفقهيّة، أو المفردات الفكرية بصيغتها التاريخية، ولا تحاول أن تجتهد كما اجتهد الأقدمون، وأن تُغيّر في الأساليب والأشكال كما غير الآخرون، لذلك نحن نقول: إن المسألة هي مسألة، كيف نفهم الإسلام؟ قد نجد فهماً متقدماً للإسلام في صدر الدعوة الإسلامية ولدى علماء سابقين، وقد نجد فهماً متخلفاً لدى علماء محدثين.. القصة ليست قصة القديم والجديد، وليست قصة إسلام هنا وإسلام هناك.. إنه إسلامٌ واحدٌ تتعدّد اجتهادات المجتهدين حوله، وتختلف مفاهيمهم في معرفته.

■ كيف نرد كإسلاميين على ثنائيات تُطرح بقوة في هذه الأيام، كالإسلام والعلمانية، والإسلام والديمقراطية، أو أسئلة على غرار، هل الإسلام ليبرالي، أو الإسلام يساري؟

إسقاطات العقدة وفرادة النهج

□ الواقع أن بعض الناس عاشوا الإنبهار أمام الغرب، فشعروا بأن عليهم أن يتقربوا إلى هذا الغرب وبأن يُخضعوا الإسلام للمصطلحات الغربية وللمفاهيم الغربية، حتى يُقال عنا: بأننا عصريون وتقدميون وإلى آخر الكلمات. ليس عندنا عقدة، نحن نقول: الإسلام، إسلامٌ فقط، ولا يمكن أن نقبل للإسلام أيَّ عنوان كان، علمانياً أو ديموقراطياً، أو ليبرالياً أو يسارياً. هذه كلمات وُلدت في بيئة ثقافية وفكرية بعيدة عن كلِّ المواقع الإسلامية.

ولكن، نحن لا نقول، إنَّ العلمانية إلحاد، الكثير من العلمانيين، يقولون إننا مؤمنون بالله، ولكنهم يقولون، إ عزلوا الدين عن الحياة وعن القانون وعن السياسة وعن حركة حياتنا، ليبقى الدين علاقةً بين الإنسان وربِّه، ليبقى في المسجد إن كان إسلامياً، وفي الكنيسة إن كان نصرانياً، ولِنُقنن لأنفسنا، ولا ننتظر من الشريعة أن تضع لنا القوانين، لنمنهج خطوطنا السياسية والاقتصادية وليس من الضروري أن نستوحي الدين في ذلك.. العلمانية في نهجها الفكري تعتبر أنه يجب عزلُ الدين عن كلِّ ما يتصل بالحياة العامة للناس، في التشريع والتخطيط والحركة السياسية، وليبقى الدين حالةً روحية نفسية ابتهالية عبادية.. ولكنَّ الدين في فهمنا ليس كذلك: (اليومَ أكملتُ لكم دينكم

وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا^(١). ويقول سبحانه: (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ)^(٢)، وذلك في كلِّ الخلافات الفكرية والاجتماعية والسياسية والواقعية (ثمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)^(٣). وعلى هذا نحن معتقدون أن «حلال محمد حلالٌ إلى يوم القيامة، وحرام محمد حرام إلى يوم القيامة». والإسلام يناقض التفكير الذي يقول: «ما لله وما لقيصر لقيصر»، الإسلام يقول: أنا القيصر، ويقول أيضاً: كلُّ شيءٍ هو لله. والله أراد للإنسان أن يكون خليفته في الأرض ليحكم بين الناس بالحق وبما أَرَادَهُ اللهُ.. الإسلام، ضدَّ العلمانية وهو دينٌ عباديٌّ مدني، وكلُّ الشريعة الإسلامية تتضمن قوانين تعالج حياة الإنسان المادية والمدنية. وهنا، كيف نوفِّق بالقول: إسلامي وعلماني؟ إنَّه لا يمكن ذلك، إسلامي، معناه أن تعتقد بأنَّ الإسلام مسؤول عن الحياة كلِّها، أما علماني، يعني أنَّ الإسلام لا دخل له بالحياة، فكيف يمكن أن تجمع بين هذا وذاك؟

سقوط آخر لتنائية أخرى

أما موضوع الإسلام والديمقراطية، فالديمقراطية تحمل جانبين، جانب البعد الفكري للديمقراطية، وجانب الديمقراطية كوسيلةٍ من وسائل العمل السياسي، فهي كمفهوم فكري لا يلتقي بالإسلام، وبالتالي فهي تعتبر أنَّ الأكثرية تمثِّل أساس الشرعية، فالحاكم يأخذ شرعيته من الأكثرية، وهكذا الدستور.. ولكنَّ لو أنَّ الأكثرية تبدَّلت إلى أكثريةٍ أخرى، ارتضت دستوراً آخر، فإنَّ الدستور الأول يفقد الشرعية. ومن هنا نحن لا نعتبر الديمقراطية أنها أساسُ الشرعية، بالعكس، الإسلام يقول: (ولكنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)^(٤)، ويقول أيضاً: (وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ)^(٥)، فالأكثرية في الإسلام، ليست هي

(٥) التوبة: ٨.

(٢) النساء: ٦٥.

(٤) هود: ١٧.

(١) المائدة: ٢

(٢) النساء: ٦٥.

الحق، حتى الديمقراطيون أنفسهم يقولون، هي أقلّ الوسائل سوءاً، وليست هي الأحسن. إذاً، المفهوم الفكريّ الذي تنطلق منه الديمقراطية هو أنّ الأكثرية أساس الشرعية، ولكن، نحن نقول، إنّ الإسلام في بدايته، كانت الأكثرية ضده، النبي (ص) انطلق لوحده يقول للناس: «قولوا لا إله إلا الله» حتى أنّ الإسلام بقي لفترة زمنية معينة، وبقي النبي (ص) وجمع من المسلمين وحدهم في الساحة، ومع ذلك كان الموقف: إنّ الإسلام هو الحق ولو رفضه كلّ الناس، وليس هو الحق لأنّ الناس قبلته..

نعم، لا مانع من أن نستخدم الأسلوب الديمقراطي في القضايا السياسية، كما في الجمهورية الإسلامية في إيران اليوم، حتى أنّ البعض يقول، الوليّ الفقيه يُنتخب ديموقراطياً، الوليّ الفقيه الآن لم يُعيّن تعييناً، وإنما انتخبه مجلس الخبراء، ومجلس الخبراء انتخبه الشعب الإيراني، وكذلك رئاسة الجمهورية، والدستور يخضع كذلك للأسلوب الديمقراطي، ولو أنّ البعض يناقش في هذه المسألة بطريقة أخرى، ولكن لا مانع من أن نستخدم الأسلوب الديمقراطي، ولكن لا على أساس أنّ هذا الأسلوب هو الأسلوب الشرعيّ.

بعيداً عن الاهتزاز

كذلك، موضوع الإسلام والليبرالية، فنحن لا نحتاج أن نستعين بالليبرالية ونضعها في الإسلام.. الإسلام دينٌ يدعو للحرية: «لا تكن عبدَ غيرك وقد جعلك الله حُرّاً» ومفهوم آخر: «إنّ الله فوّض إلى المؤمن أمورَه كلّها، ولم يفوّض إليه أن يُذلّ نفسه». الإسلام مع الحرية، مع المستضعفين، ومع العدالة، لذلك، فهو أكبر من هذه الكلمات، لأنّ له قاعدته الفكرية المستقلة، وله خطوطه الفكرية البارزة والواضحة، ولا يحتاج إلى أن يكمله الآخرون، وإلى أن نستعير له أيّ مصطلح من مصطلحات الآخرين.

علينا أن نقدّم الإسلام كما هو (وقلِ الحقُّ من ربِّكم، فمَنْ شاءَ فليؤْمِنْ، ومَنْ شاءَ فليكْفُر)^(٦).

على هذا الأساس ننتقل، وليست المشكلة أن يقبل الناس أو لا يقبلوا، علينا أن نثق بإسلامنا.. مشكلتنا أننا أصبحنا نهتزّ أمام كلمات نسمعها: الإسلام رجعي ومتخلف، الإسلام لا يعيش في هذا العصر.. علينا أن نعرف (إنّما ذلكم الشيطانُ يُخَوِّفُ أوليائه فلا تخافوهم، وخافون إن كنتم مؤمنين)^(٧).

(٦) الكهف: ٢٩.

(٧) آل عمران: ١٧٥.

□ الإسلام والمرأة :

- * القويّة الشخصية.
- * ارتباط المثقفة بمن دون مستواها.
- * محاكمة لتصور خاطيء.
- * الإختلاط.
- * تفوّق أم تكامل؟
- * مؤتمربكين.
- * إقصاء عن الموقع.
- * الحجاب.
- * تقصير اعلامي.
- * المودة والرحمة.
- * سفر الفتاة للتخصّص.
- * جيل خالٍ من التعقيدات.
- * كيان المرأة.
- * الزواج الثاني.
- * تقاسم العمل المنزلي.

■ هناك مَنْ ينظر إلى المرأة القويّة الشخصية على أنّها «شيطان».. كما ونشهد في الوقت نفسه قتلاً لفتاة من أبيها أو أخيها حفاظاً على الشرف.. ماذا تعلقون على ذلك؟

* ليس مفهوماً دينياً أن تكون المرأة ضعيفة الفكر، بل هو مفهومٌ جاهلي.

* إن إساءة أيّ إنسان لشرفه لا تعني الإساءة إلى شرف الآخر، فلا معنى أن يكون شرف العائلة مربوطاً بشرف البنت أو بشرف الولد.

خطأ المفهوم ، والنموذج القرآني

□ أولاً، هذه الفكرة ليست فكرة دينية بالمطلق، وعندما نتناول المسألة الأولى، وهي أنّ المرأة القويّة الشخصية شيطان بنظر البعض.. فإننا نجد أنّ القرآن الكريم، حدّثنا عن امرأة قويّة كانت في قمة السلطة، وقد قدّمها إلينا كما لو كانت نموذجاً حياً للمرأة.. إنها «ملكة سبأ»، التي عندما جاءها كتاب سليمان (ع)، جمعت قومها واستشارتهم، وبهذا كانت المرأة المسؤولة التي لا تستبدّ برأيها، بل تحاول أن تتفهم النتائج من خلال الشورى، وعندما واجهها الرجال بعرض عضلاتهم أمامها، واستعدادهم للدفاع عنها، بدأت تتكلم معهم بلغة الفكر: (قالت: إنّ الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها، وجعلوا أعزّة أهلها أذلّة، وكذلك يفعلون)^(١)، فكانوا يعرضون عضلاتهم الجسدية، وكانت تعرض عضلاتها الفكرية.

(١) النمل: ٣٤.

ثم عندما انطلقت مع سليمان وبعثت (وإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ، فَنَاطِرَةٌ بِمَا يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ)^(٢)، حتى تعرف، هل هو ملك أم هو نبي؟ عندما انطلقت بهذا أسلمت من موقع قناعتها.. لقد صور لنا القرآن هذه الملكة، امرأة قوية في فكرها، تبعث على الإحترام.. وهكذا صور لنا القرآن «امرأة فرعون»، هذه الإنسانة التي كانت أقوى من حالة الإغراء، وأقوى من فرعون (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأةَ فِرْعَوْنَ، إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ، وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)^(٣)، وبذلك نلاحظ أنها كانت تمثل المرأة القوية.

وربما كانت مسألة الحديث عن الشيطنة في المرأة الذكيّة القوية، منطلقة من أن الواقع الذي أريد له أن يحيط بالمرأة على مدى التاريخ، كان يُفجّر لها عبقريتها في الكيد والمكر والحيلة والدهاء، من أجل أن تحمي نفسها من هذا الواقع.. وهكذا جاء في القرآن الكريم، وليس حديثاً عن الرسول، ولكنه حديث عن عزيز مصر (إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ)^(٤).. وهناك تفسيرٌ لمسألة كيد المرأة، وهو أن المرأة تملك عبقرية، ولكن عندما لا يُسمح لها أن تُفجّر هذه العبقرية في الجوانب العامة، فإنها تُفجّرُها في حماية نفسها في هذا المجال.

إنّ هذا المفهوم ليس مفهوماً دينياً، أن تكون المرأة ضعيفة الفكر، بل هو مفهومٌ جاهلي، لا بد لنا من أن نقوم بالتوعية لإنقاذ الناس منه.

حدود السلطة الذكورية

أما المسألة الثانية، مسألة سيطرة الأب أو الأخ أو الزوج أو الإبن على المرأة فهذا أيضاً ليس له أساس في التشريع الإسلامي، فالأب لا يملك سلطة على ابنته عندما

(٤) يوسف: ٢٨.

(٣) التحريم: ١١.

(٢) النمل: ٣٥.

تكون بالغة رشيدة، إلا في بعض التحفظات الفقهية التي تشترط إذنه في زواجها - إذا كانت بكرًا - وذلك لحمايتها من الخديعة، ولكن إذا مات أبوها أو جدّها لأبيها على حسب النظرية الفقهية، فلا يملك أحدٌ أن يمنعها، وهي حُرّة في كلّ شيء، وليس لأحدٍ سلطة عليها، والسلطة الأبويّة العاطفية من حيث الإحسان إلى الأب، هي نفس سلطة الأم العاطفية في مسألة الإحسان للذكر والأنثى على حدّ سواء.. أما الأخ فليست له أية سلطة، أما الزوج فإنّ سلطته تقف عند حقوقه الزوجية الخاصة، ولا تتسع لحياتها العامة. ومن هنا، فإنّ لها أن تتصرف بأموالها، وبشؤونها الخاصة التي لا علاقة لها بالحقوق الزوجية، من دون أن تستشير زوجها، أو حتى لو منعها زوجها من ذلك، ولذا، فليست هناك بالمعنى الشرعيّ سلطة ذكورية للرجل على المرأة من الناحية القانونية في مفردات حياتها الخاصة.

تقليدٌ جاهليّ

وفيما يختصّ بمسألة الشرف، فإنّ نظرة الإسلام للشرف، هو أنّ شرف كلّ إنسان يخصّه.. إنّ شرف الإنسان الذي ينطلق من خلال ممارساته الجسدية يخصّه (ولا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)^(٥).. إنّ إساءة أيّ إنسانٍ إلى شرفه لا تعني الإساءة إلى شرف الآخر، ومن هنا، فلا معنى أن يكون شرفُ العائلة مربوطاً بشرف البنت مثلاً، كما ليس شرف العائلة مربوطاً بشرف الولد في هذا المجال، وإنما هي أمور انطلقت فيها التقاليد الجاهلية التي اعتبرت عارَ المرأة في ذاتياتها عار العائلة كلّها، ولا بدّ أن يُغسَلَ هذا العار بالدم.

وإنّ الإسلام عندما تحدّث عن الزنا، فإنّه ساوى بين الرجل والمرأة (الزَّانِيَةُ

(٥) الأنعام: ٦٤.

وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ^(٦)، لم يفرِّق بين رجل وامرأة، ليس هناك خصوصية لزنى المرأة كأنثى، أو زنى الرجل كرجل. المسألة تتصل بالجريمة، ولا تتصل بالشخص الذي يمارس الجريمة.. ولذلك فإن هذه الأمور لا بد أن تتوفر الفعاليات الفكرية والاجتماعية والدينية على محاربتها، واقتلاعها من نفوس الناس لتتحرك الحياة في سلوك المرأة وسلوك الرجل على أساس الطبيعة القانونية المتميزة بالعدالة في حياة هذا، أو حياة تلك.

■ لأنها «بربع عقل»، على حدّ قول البعض، فالمرأة غير جديرة بالقيام بالمسؤوليات، ردّكم على ذلك؟

مسؤولية واحدة

□ الله يقول، غير ذلك، لو كانت المرأة ناقصة العقل، لما حملها سبحانه المسؤولية في انحرافها، كما حمل الرجل، وهناك حديث شريف يفيد: «إنّ الله يعاقبُ الناس على قدر عقولهم ويثيبهم على قدر عقولهم»، فلو كانت المرأة برقع عقل، كما يقولون، إذًا، تُحاسب برقع جزاء.. إذًا فما معنى (السَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا)^(١)، فلو كانت برقع عقل، لكان القول بقطع إصبع أو ربع مثلاً (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ)^(٢) الرجل والمرأة على حدّ سواء في هذا.. فالله تعالى، عندما تحدّث عن المسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات، جعلهم سواء في الثواب، كما في العقاب. (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)^(٣) لا فرق بين الرجل والمرأة.. أما (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ)^(٤) فذلك في الحياة الزوجية، الزوج هو مدير الحياة الزوجية، ولذا قال سبحانه (بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)^(٥)، في بعض الطاقات (وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ)^(٦).

نموذج كامل

وأعطيكُم مثلاً آخر.. ألا يُقال: إنّ الرجل أَعْقَلُ من المرأة.. هل قرأتُم سورة النمل عن «ملكة سبأ»، وكيف قدّم الله لنا هذه المرأة؟ قدّمها لنا على أنّها أَعْقَلُ من الرجال: (يا

(٥) النساء: ٣٤.

(٣) الحجرات: ١٣.

(١) المائدة: ٣٨.

(٦) النساء: ٣٤.

(٤) النساء: ٣٤.

(٢) النور: ٢.

أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي، مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونُ^(٧)، صحيح أنني ملكتكم، لكنني غيرُ مستعدة أن أقطع بأي أمرٍ يهَمُّ الناسَ حتى استشيركم بأمرِي (إنِّي أُلْقِي إِلَيْ كِتَابِ كَرِيمٍ، إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ، وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، أَلَا تَعْلَمُونَ عَلِيٌّ وَاتُّونِي مُسْلِمِينَ)^(٨)، طلبتُ منهم الرأي، وأن يحركوا عضلات عقولهم.. لكن الرجال حركوا عضلاتهم (قالوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأَوْلُو بِأَسِّ شَدِيدٍ، وَالْأَمْرُ إِلَيْكَ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ قَالَتْ، إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً، وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ، وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَظِرَةٌ بِمَا يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ)^(٩)، فلنجرب حتى نعرف مَنْ هو سليمان؟ هل هو ملك؟ هل هو نبي؟.. وبعد ذلك عرفت ملكة سبأ الحقيقة، وتحدت سليمان معها وقالت (أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ)^(١٠)، لم تستسلم إرادتها، بقيت ثابتة بقوتها (أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)^(١١).. امرأة كانت كافرة وتعبد الشمس ثم أسلمت، قدمها الله لنا صورة للمرأة الأكثر عقلًا من الرجال..

ونموذجٌ آخر: (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةً فِرْعَوْنَ، إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ، وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)^(١٢)، ونموذجٌ آخر كذلك: (وَمَرْيَمُ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَوَاتِلِ)^(١٣).

هذه نماذج قدمها الله مثلاً للرجال والنساء.. ولو كان نقصُ العقل من طبيعة المرأة، ومن عناصر شخصيتها كامرأة، فماذا نقول بالنسبة لخديجة الكبرى والسيدة الزهراء والعقيلة زينب (ع)؟

(١٣) التحريم: ١٢.

(١٠) النمل: ٤٤.

(١١) النمل: ٤٤.

(١٢) التحريم: ١١.

(٧) النمل: ٣٢.

(٨) النمل: ٢٩، ٣٠، ٣١.

(٩) النمل: ٣٤ - ٣٥.

تبيان

ولكن ربما مَنْ يقول: ماذا ترى في الأحاديث التي تقول عن النساء: «إنهن ناقصات العقول» «ناقصات الحظوظ» «ناقصات الإيمان» كما ورد في «نهج البلاغة».. هنا لو كانت هذه الكلمات متروكة لوحدها يمكن أن نفهمها على حرفيتها، لكن التعليل يقتضينا أن نردَّ علمَ هذا إلى أهله، لأنَّ التعليل لا ينسجم مع طبيعة الحكم، لماذا؟ أما «ناقصات العقول» فشهادة امرأتين بمثابة شهادة رجل واحد.. هذا التعليل لا نقدر أن نفهمه على نحو الحقيقة، لأنَّ الشهادة ليست مرتبطة بالعقل، الشهادة مرتبطة بأمانة النقل، ثم إنَّ الله علَّل المسألة في القرآن (أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى) (١٤)، المرأة تُسد امرأة، فهل يمكن للصِّفر أن يطوِّر صفراً، أبدأً، الصِّفر لو جتته بألف صفر يبقى صفراً، فلو كانت المرأة صفراً، فإضافة صفر لها لا ينفع شيئاً، لكن إن نسيت أو انحرقت، فتذكر إحداهما الأخرى، هذا مثل الحاجة إلى شهادة عدلين في البيئة.. هذا احتياط للعدالة، وليس انتقاصاً من شخصيتها.

أما مسألة «ناقصات الإيمان»، وذلك في قعودها عن الصلاة والصيام أيام الحيض.. هذا زيادة إيمان، وليس نقصان إيمان، لأنَّ المرأة لو ترك لها الأمر لصامت.. أليست بعض النسوة يأخذن حبوب منع الحمل حتى لا تأتيها العادة الشهرية في شهر رمضان، أو وقت الطواف في الحج، حتى تستطيع الصيام وتستطيع الطواف.. فهي تقعد عن الصلاة بأمر من الله، وتقعد عن الصوم بأمر من الله.. وإلا فنحن عندما نسافر يقتضي أن ينقص ديننا لأننا نقصر في الصلاة.

أما «ناقصات الحظوظ» باعتبار أن للذكر مثل حظ الأنثيين.. في الإرث وهذا صحيح..

المرأة أخذت نصف حصة الرجل، والرجل أخذ ضعف حصتها.. ولكن، المرأة تريد أن تتزوج، والرجل أيضاً.. المرأة تبقى حصتها عندها، وتأخذ فوق ذلك مهرها.. الرجل أخذ الحصة، ولكن دفع كل حصته في المهر.. دخلت المرأة إلى الحياة الزوجية، أخذت المهر، وحصتها من الإرث وحافظت عليهما، وكذلك الرجل دخل إلى الحياة الزوجية، يجب عليه أن يُنفق عليها، وقد يحتاج لأن يستدين فلا تكفيه حصته من الإرث.. رزقاً بأولاد يجب على الرجل أن ينفق عليهم ولا يجب على المرأة.. فمن حصته صارت أكثر، الرجل أم المرأة؟ في هذه الحالة، وكما قلت في بعض المقابلات الصحفية - على سبيل الضرافة -: على الرجال أن يطالبوا بالمساواة مع النساء..

إذاً كيف نفهم هذا التعبير في موضوع النقصان؟ أتصور أن هذا التعبير هو من التعبيرات التي تلاحظ الجانب الشكلي في القضايا، ولا تلاحظ عمق الموضوع، باعتبار أن عمق الموضوع لا يتناسب مع التعبير.. وأمير المؤمنين عليّ (ع) أعظم من ذلك، لذلك نقول: إن الروايات التي لا نفهمها، يُردّ علمها إلى أهلها، خاصة أن القرآن لم يتحدث عن المرأة بأية سلبية.

■ من الطبيعي أن التنوع يفرض وجودَ خصائص في الرجل تختلف عن وجود خصائص في المرأة، فما هي خصائص كلّ منهما، وهل تؤدي بالضرورة إلى تفوق أحدهما على الآخر؟

* الإنسان - الذكر والأنثى - هو إنسان المسؤولية في الحياة، على الذكر أن يعطي من خصوصيته للمرأة لتقوى به، وعلى الأنثى أن تعطي للذكر من خصوصيتها ليقوى بها.

إنسانية واحدة

□ عندما ندرس المرأة والرجل لنكتشف خصائصهما، فلا بدّ أن ندرس أساس وحدتهما في إنسانيتهما، لأنّ الخصوصية هي حركة في النوع وليست شيئاً مستقلاً.. إنّ الرجل والمرأة يمثلان الإنسان، ويمثلان النفسَ الواحدة، التي تجعل الرجل وجوداً في المرأة، كما تجعل المرأة وجوداً في الرجل، من خلال أن إنسانيتها تبحث عن إنسانيته والعكس صحيح.

فعل وانفعال

ومن الطبيعي أن الإنسانية الواحدة في هذا التعدد الوجودي، يفرض أن تكون للتعددية خصائصها التي ترتفع بهذه الإنسانية، ليعطي كل واحدٍ منهما شيئاً للآخر.. الرجل إنسانٌ بدأ وجوده، فاكتشف بفعل الذات، أو بفعل ما يُحيط به، أو ما أُعدّ له... أنّه العنصرُ الفاعل، وبذلك حاول أن يُوحى إلى نفسه من خلال بعض الخصائص المادية الحسية التي يملكها، وتملكها المرأة، أن المرأة كائنٌ منفعل.. وبهذا اختزن الرجل جانب

الفعل في موقعه من المرأة، واختزنت المرأة جانبَ الإنفعال في موقعها من الرجل، ولكنَّ الفعل والانفعال هما مسألتان مشتركتان في إنسانية كلِّ واحدٍ منهما، لأنَّ القصة الإنسانية، هي قصة حركة هذا الموجود في الوجود، ولذلك، فإنَّ من الطبيعيَّ جداً أن يكون لأية حركة محدودة جانب سلب وجانب إيجاب.

تجاذب السلب والإيجاب

من هنا، نؤمن بأن في المرأة إيجاباً وسلباً، كما أن في الرجل إيجاباً وسلباً، وقد تضعفُ إيجابية هذا أو سلبية ذلك بفعل الظروف والأوضاع المتراكمة، التي قد تفرضُ على الرجل أن تختفي خصوصيته أمامها، وقد تفرض على المرأة كذلك. ومن هنا، فقد كانت حركة الذكر والأنثى في كلِّ هذا التاريخ الإنسانيَّ حركة تجاذب بين السلب والإيجاب، ولكنَّ كان الرجل هو العنصر الموجب في غالب مظاهر هذه الحركة، كما كانت المرأة العنصر السالب.

وإذا كنا لا نرى فيهما هذه الذاتية في السلبية المطلقة هنا والإيجابية المطلقة هناك، فإننا نستطيع أن نؤكد أن من الممكن جداً أن تقوى الإيجابية في المرأة، كما يمكن أن تقوى السلبية في الرجل. وعندما ننظر إلى العنصر الديني القرآني في هذا المجال، فإننا لا نجد حديثاً عن المرأة كموجودٍ ضعيف، بل نجد الحديث عن الإنسان، الرجل والمرأة، كموجود يختزن في داخله عنصر ضعف (وخلق الإنسان ضعيفاً)^(١)، (خلق الإنسان من عجل)^(٢).. وهكذا نلاحظ أن الله تعالى عندما تحدت عن قوامة الرجل على المرأة، قال سبحانه: (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض)^(٣)، فالكلمة (قوامون) لا تعني الفوقية، ولكنها تعني تفوق بعض الخصوصيات

(١) النساء: ٢٨.

(٢) الأنبياء: ٣٧.

(٣) النساء: ٣٤.

في العنصر الإداري على الخصوصيات الأخرى. مما يمكن أن يُعطل دور المرأة في أن تكون بيدها إدارة البيت من خلال بعض الخصائص السلبية في حياتها، ويقوّي دور الرجل من خلال الخصائص الإيجابية الموجودة لديه.

غنى في حركة التنوع

وهكذا، نجد أن الله سبحانه يتحدث في القرآن الكريم (خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا)^(٤)، فعنوان الزوجية، عنوان ينطبق على الرجل وعلى المرأة. ومن خلال ذلك نقول: إن الرجل والمرأة وجودان يتكاملان من حيث وحدتهما، ويتحركان نحو غاية واحدة في بناء الحياة على أساس مسؤولية الإنسان في الحياة، من خلال تكامل عناصرهما الذاتية التي تُغني الوحدة، بقدر ما تُغني حركة التنوع في الوحدة. ومن هنا، فالإنسان، الذكر والأنثى، هو إنسان المسؤولية في الحياة، وعلى الذكر أن يُعطي من خصوصيته للمرأة لتقوى به، وعلى الأنثى أن تُعطي للذكر من خصوصيتها ليقوى بها، وليكون كل واحدٍ منهما قوةً للآخر، لأنه ليس هناك قوة مطلقة لدى الذكر، وليس هناك ضعفٌ مطلق لدى الأنثى، فالضعف نسبيٌّ هنا، كما أن القوة نسبية هناك.

■ إستناداً إلى القرآن الكريم، إنَّ للمرأة دوراً كبيراً في المجتمع، وإذا أردنا محاكمة الحركة الإسلامية المعاصرة نرى غياباً كبيراً لدور المرأة، فهي مقصية عن موقع القرار، فما ردكم على ذلك؟

* على المرأة أن «تقاتل» من أجل أن تجعل من عقلها عقلاً يحتاجه الناس.

* الإنسان الذي يجعل من نفسه حاجة لمجتمعه هو الذي ينحني له مجتمعه.

* مشكلة المرأة في كثير من مواقعها أنها لا تثق بنفسها حتى ولو أعطاه الرجل الفرصة، ولذلك قد تعيش الإهتزاز أمام الحرية المعطاة لها.

خطوات رغم العوائق وبعض التخلف

□ إنَّ الحركة الإسلامية في الواقع المعاصر، وكُدت في قلب المجتمع الإسلامي، وانطلقت في بداية نشوئها لتواجه التحديات، سواء كانت تحديات أمنية أو سياسية أو ثقافية أو اجتماعية.. ولذلك فإنَّها لم تحصل على فرصة واسعة، لتقوم ببرنامجه في إعطاء المرأة دورها الطبيعي في حركة قيادة المجتمع، أو أن تكون عنصراً فاعلاً في هذا المجتمع. هذا من جهة.

من جهة ثانية، نعتقد أنَّ الحركة الإسلامية استطاعت أن تقدم المرأة عدة خطوات، إذا لم نقل عدة أشواط عندما دفعت بها لكي تمارس دورها السياسي والاجتماعي وبعض الدور الثقافي - ولو بدرجة محدودة - انطلاقاً من طبيعة الظروف التي عاشتها المرأة

المسلمة، وانطلاقاً من «عمر» الحركة الإسلامية الذي لا يزال في بداية «مراهقته»، ولا أقول في بداية شبابه في هذا المجال.

ومن جهة ثالثة، فإن الحركة الإسلامية ليست واحدة.. هناك حركات إسلامية لا تزال تحمل الكثير من أفكار التخلف.. لا تزال خاضعة للمفاهيم «الدارجة» في المسائل التي تتصل بالعرف والتقاليد، ولذلك فإن هناك معاناة للمرأة مع بعض الحركات الإسلامية، تماماً كما هناك معاناة من جهات أخرى..

وحدها تتحمل مسؤولية الدور

وهناك نقطة مهمة، وهي أنني أعتقد أن الموقع يؤخذ ولا يُعطى، وعلى المرأة أن تثق بنفسها وتفجر طاقاتها، وأن تتصدى للتحديات، وتعمل على تنمية نفسها، وعلى أن تقاتل من أجل أن تجعل من عقلها عقلاً يحتاجه الناس، ومن جهودها جهداً يحتاجه الناس.. إن الإنسان الذي يجعل من نفسه حاجة لمجتمعه هو الذي ينحني له مجتمعه بفعل إغنائه لمجتمعه.

لذلك لن تستطيع حركة إسلامية ولا غير إسلامية أن تصنع للمرأة دورها.. فقط، يمكن لها أن تعطيها إشارة الإنطلاق، أو تُهيئ لها ظروفاً ملائمة، ولكنها لا تستطيع أن تجعل من المرأة قائداً.. المرأة هي التي تحاول أن تعيش في نفسها مشروع قيادة اجتماعية أو سياسية أو ثقافية... وذلك بتنمية طاقاتها التي قد يرفضها المجتمع، ولكنها عند ذلك تملك القوة التي تستطيع من خلالها أن تواجه ضربات التيار.

المسألة تحتاج إلى التحرك في خطين: الخط الأول، توعية الرجل فيما هو الدور الإنساني للمرأة في النظرية الإسلامية، والخط الثاني، هو أن تبادر المرأة لأن تستفيد من الثغرات الموجودة.. فعندما نكون في سجن، علينا ألا ننطح رؤوسنا بجدران السجن، أو

أن نعيش الحالة المساوية التي تجعلنا نسقط نفسياً وروحياً، علينا أن نبحث عن آية ثغرة في السجن، عن أي شيء، سلك حديدي صغير، حجر صغير، نعمل من خلاله على أن نفتح نقطة للضوء هنا، ونقطة للضوء هناك.. ومن هنا نفهم قول الله تعالى (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً)^(١)، باعتبار أن الذي يتقي الله يُحَرِّك إرادته، وينطلق في مسؤوليته، ولا يسقط أمام التحديات، ولا يضعف أمام الضغوط... وعندما يبدأ في اكتشاف المنفذ، فإن الله يُعينه على ذلك.

إن علينا أن نريد حتى يُعيننا الله فيما نريد (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)^(٢).. مشكلة المرأة في كثير من مواقعها أنها لا تثق بنفسها حتى ولو أعطاه الرجل الفرصة، أو تخاف أن تؤمن بنفسها، ولذلك قد تعيش الاهتزاز أمام الحرية المعطاة لها، تماماً كأي شعبٍ من الشعوب يعيش مدة طويلة تحت سلطة جهة أخرى، فإنه لا يُطيق الحرية بل يخاف منها، بل ربما يطلب من الذين كانوا يضغطون على حريته أن يعودوا للضغط من جديد. بعض الناس يخاف من القوة، في أن يكشف نفسه قوياً، لأن القوة قد تفقده بعض راحته، وتفقده بعض امتيازاته.

■ ألا تعتبرون أن هناك تقصيراً إسلامياً عالمياً في توضيح مكانة المرأة وحقوقها في الإسلام، وما هي برأيكم أبرز المهمّات الإعلامية المطلوبة لكشف مساوئ الحياة التي تعيشها المرأة الأجنبية وماذا قدّمنا كمسلمين للمواجهة؟

* إن المسألة فيما أتصور، هي مسألة اختلاف موازين القوة في وسائل الإعلام.

إعلامٌ ظالم

□ لعلّ المشكلة التي تواجهنا أمام تحديات الإعلام العالمي، هي صورة المرأة المتخلفة في واقعنا الإسلامي، لأنّ الإعلام العالمي يلتقط الكثير من السلبيات الموجودة في كثيرٍ من واقعنا الإسلامي، مما نعترف بأنّها سلبيات حقيقية، وليست سلبيات مُدعاة.. هذا من جهة..

ومن جهة ثانية، فإنّ المشكلة هي أنّ الإستكبار والكفر العالميين يملكان وسائل الإعلام بالمستوى الذي لا تمثّل وسائل الإعلام الإسلامي شيئاً في مقابله، كما أنّ المشكلة هي أنّ الإعلام الذي يُسمّى إسلامياً باعتبار وجوده في بلاد المسلمين، ليس إلاّ صورةً مُشوّهة للإعلام الغربي، لأنّه من الممكن جداً أن نجد أنّ الإعلام الغربي يمثّل في كثيرٍ من حالاته صوراً إنسانية علميّة ثقافية، ولكنّ الإعلام الموجود في العالم الثالث، وفي بلاد المسلمين، وفي البلاد العربيّة بالذات يمثّل تخلفاً حتى في دائرة التخلف عن الجانب السلبيّ من الإعلام الغربي في هذا المجال.. أما الإعلام الإسلامي للذين يؤمنون

بالإسلام، فإنهم يعيشون ضغوطاً فوق العادة، سواء من مجتمعاتهم في الداخل، أو من خلال الحرب المعلنة عليهم من الخارج تحت عنوان الأصولية والتطرف والإرهاب، وما إلى ذلك، مما يمنع صوتهم من أن يصل، سواء كان ذلك في شرح الجوانب الإيجابية في النظرة الإسلامية، أو في بعض الواقع الإسلامي للمرأة المسلمة، أو في مواجهة النقاط السلبية للمرأة غير المسلمة، وفي المرأة الغربية، باعتبار أن الواقع الذي تعيشه المرأة في العالم يتحرك نحو الخطوط المرسومة له بالرغم من كل المشاكل الموجودة، سواء مشاكل تفكك الأسرة، أو مشاكل الانتحار، أو مشاكل الجرائم والاهتزاز الاجتماعي، أو ما إلى ذلك، لأنهم يعتبرون أن هذه مشاكل لا بد أن تُعالج.

إختلاف الموازين

إن المسألة فيما أتصور، هي مسألة إختلاف موازين القوة في وسائل الإعلام، وفي أساليبه وفرصه الموجودة في الواقع الخارجي، ونتصور أن الإعلام الإسلامي لا يزال في بداياته الأولى، ولذلك فإن القليلين يملكون ثقافة واسعة منفتحة على العصر ويعيشون روحية العصر.. هناك الكثيرون ممن يملكون الثقافة الإسلامية، لا يملكونها مُعاصرة، ولكن يملكونها كما لو كانت ثقافة القرون السابقة بأساليبها وبطريقة تفكيرها.. إن هناك مشاكل كثيرة في ذاتيات الإعلام الإسلامي، كما أن هناك مشاكل كثيرة في الجوانب العامة الموجودة في حركة الإعلام الإسلامي في الواقع.

■ **ساحتنا تفتقد إلى طاقات علمية نسائية، ذات مستوى عالٍ، مثل شهادة «الدكتوراه» وغيرها، ولتحصيل هذا المستوى يترتب سفر الفتاة إلى الخارج، ومواجهة صعوبات نفسية كبيرة. فإلى أي مدى تعتبرون السفر لمثل هذه الغاية من الأولويات، وإلى أي مدى تنصحون أو لا تنصحون؟**

لا فرق بين شاب وفتاة

□ الواقع، إن مسألة سفر الفتاة كسفر الشاب، نحن نشجع الشباب على السفر لطلب العلم وللتجارة، مما يرفع مستواهم، وذلك عندما يأمنون على أنفسهم من الإنحراف، وعندما يُحصنون عقولهم وأخلاقهم ودينهم.. فلذلك، الفتاة والشاب في هذا على حدٍ سواء.. ونحن عندما نريد للفتاة أن تتعلم في جوٍّ أخلاقي يحمي لها دينها وأخلاقها وشخصيتها، فإننا كذلك نريد للشاب أن يكون بهذه المثابة، وفي الجانب الأخلاقي لا تمييز بين رجلٍ وامرأة، بل هناك إنسان، إنسانٌ منحرف، أو إنسانٌ مستقيم. لذلك، نقول، عندما تريد الفتاة أن تسافر إلى فرنسا أو بريطانيا، وعندما يتوفر لها الجوُّ الذي يمكن أن تعيش فيه وتتعلّم، وتأمين على نفسها، فليس هناك مانعٌ شرعي.

استضعاف عالمي

أما التركيز على أن المرأة لا يمكن لها السفر من أجل هذه الغاية، باعتبار أنها وبحسب واقع المجتمع، هي العنصر الأضعف، وهي التي يُعتدى عليها.. ويوجد هناك استضعاف عالمي للمرأة حتى مع التطور الذي وصلت إليه، وأصبحت مسؤولة وحاكمة ورئيسة وزراء، ومع ذلك بقي المجتمع يختزن في شخصيته حالة استضعافها، لهذا

صارت المرأة تعيش القلق الدائم والخوف من الرجل، ثم إن الرجل يحاول أن يستقوي على المرأة.

ونحن نتساءل، لماذا الخوف على المرأة أكثر من الرجل؟ الشاب إذا خرج من البيت وسهر حتى منتصف الليل، فليس هناك من مشكلة، أما الفتاة إذا خرجت فإن «الفأر يلعب في عبهم» لماذا ذهبت، وأين ذهبت، ومتى تعود؟ فألى جانب وجود ما يسمى بالتقاليد، هناك واقع موجود يضطهد المرأة كشيء طبيعي، لأن المجتمع الآن هو مجتمع الرجال، لذلك وفي نظر هذا المجتمع فإن سفر الفتاة للخارج وحدها ولا أحد معها يحميها ويرعاها يشكل خوفاً عليها ويوجب القلق.

موانع الطموح

ولكن، لو أخذنا المسألة بعقل بارد، بعيداً عن كل هذه التحفظات، فإن المرأة التي تشعر بأنها قادرة على أن تحمي نفسها من خلال ظروف موضوعية، فإنها تستطيع أن تسافر، ولا من مشكلة. وفي الفقه، أنها تستطيع أن تذهب إلى الحج من دون محرّم، إذا أمّنت على نفسها من الاعتداء عليها.. وليس عندنا جانب فقهي شرعي بالمعنى الأولي لا يجوز أن تسافر المرأة وحدها، أو لا يجوز أن تسافر لتتعلم.. لكن التعقيدات أتت من خلال الطوارئ والعوارض الخارجية.. ونحن يلائمنا جداً أن تبلغ المرأة أعلى درجات العلم، ولكن العقلية الموجودة عندنا تمنع ذلك، حتى أنها إذا تزوجت، فالعرف يرفض أن تتابع تعليمها، والمجتمع لا يتقبل ذلك، فكيف تكون متزوجة، وفي الوقت نفسه تكون على مقاعد الدراسة؟ مجتمعنا يتقبل فكرة أن يتزوج الشاب ويكمل تعليمه، حتى ولو بلغ الثلاثين، أما الفتاة فقد لا تقدر أن تتزوج إذا بلغت الثلاثين، وعلى هذا، تكون فرصها أقل، وهذا الاتجاه، يُعتبر عنصراً عائقاً يمنع من هذا الطموح.

■ هل يدعو الإسلام إلى ذوبان كيان المرأة أمام

زوجها؟

□ إن الإسلام لا يريد لإنسان أن يذوب في إنسانٍ آخر، بمعنى أن يلغي رأيه وعقله وإرادته.. ولكن، هناك مسألة ذوبان في المحبة، في طاعة الزوج «جهاد المرأة حُسْنُ التَّبَعْلِ» وفي الحديث «لو جاز السجود لرجل لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها»، هذا هو الذوبان الذي يُراد من خلاله أن تعيش الزوجة في حياتها الشعورية، حياةً منفتحة على زوجها، حيث تخضع لزوجها وتطيعه، وذلك في معاملتها معه.. أما أن تُلغي المرأة عقلها، فتعتقد كما يعتقد زوجها بشيءٍ مُعَيَّن، أو أن تؤيد إنساناً يؤيده زوجها، وهي غير مقتنعة، أو تنتمي إلى خطٍّ سياسيٍّ أو فكريٍّ ينتمي إليه زوجها، أو تبغض مَنْ يبغضه زوجها، أو ترضى على مَنْ يرضى عنه.. فلا، المرأة مستقلة في ذلك مئة بالمئة، وليس للرجل عليها من ناحية شرعيةٍ إلزامية إلا ما يفرضه الإسلام من الحقوق الإلزامية، كقضية الخروج من بيتها بغير إذنه مع اختلاف الفتوى، وأن تمكّنه من نفسها كلما أراد، وما عدا ذلك فليس للرجل أن يلزمها بما لا تقتنع به، والله سبحانه أكّد على ذلك في القرآن، ولم يُلغ شخصيتها: (وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ، هُنَّ لِبَاسٍ لَكُمْ، وَأَنْتُمْ لِبَاسٍ لِهِنَّ)، فليس وارداً أن تذوب الزوجة في زوجها، بمعنى أن تفقد شخصيتها وإحساسها بعقلها وإرادتها وموقفها وحياتها... حتى أن لها شخصيتها القانونية، فلو كانت تملك مالاً، فليس لزوجها أن يتصرف بمالها، ولها الحرية أن تتصرف بمالها كما تشاء، أن تتاجر، أن تهب، أن تعطي مَنْ

تريد، أن تبيع وتشتري، أن تؤجّر من دون أن يكون لزوجها دخلٌ في ذلك.. فهي شخصية مستقلة. وبعبارة أخرى، الحياة الزوجية حياة تعاقد، هناك إثنان يتعاقدان، فلا يجب على كلّ واحد منهما من ناحية الإلزام إلا ما يفرضه العقل.. نعم، هناك جانبٌ أخلاقي إنسانيّ، باعتبار أن الله جعل الزواج قائماً على «المودة والرحمة» يعطي الواحد منهما الآخر على أساس المحبة والرحمة.

■ بعض الرجال لا يسمح لنفسه أن يتقاسم العمل في المنزل مع المرأة، ويعتبر ذلك من العيب، ما ردّ سماحتكم؟

* العمل شرف في كلّ مواقعه، وليس هناك فرق بين عمل وعمل.

عليُّ والزهراء (ع)

□ جاء هذا من التخلف.. وإلّا فنحن نجد في تاريخنا مثلاً حياً عن حياة السيدة الزهراء (ع)، والإمام علي (ع).. نقرأ أنهما التقيا عند رسول الله (ص) ليقسّم بينهما العمل، لأنّ الزهراء (ع) كانت مثقلة بالعيال، وبالأشغال، وكان عليّ (ع) أيضاً مثقلاً بمسؤولياته، فجعل (ص) للزهراء أن تطحن وتعجن وتخبز، وجعل لهلي (ع) أن يكنس البيت ويحتطب ويستقي، مما يدلّ على أنّ عمل عليّ (ع) مع الزهراء (ع) لم يكن يحتمل أية سلبية، فيما هي ذاتية الرجل أمام المرأة.. وأنّ تصوّر رجلاً يكنس البيت هذا أمرٌ قد لا يقبل به أكثر الرجال، ولكنّ علياً (ع) كان يقبله بشكلٍ طبيعيّ جداً، كما لو كانت المسألة مسؤوليته الذاتية في تقاسمه شؤون البيت.

عادات موروثة

إنّ هناك نظرةً شرقيةً منطلقة من العادات الموروثة، ليست في هذه الحالة فقط، حيث نجد أنّ هناك كثيراً من الناس يعتبرون أنّ هذا العمل لا يناسبهم، وأنّ ذاك العمل لا يناسبهم، وأنّه عيبٌ عليهم أنّ يعملوا في هذا الحقل أو ذاك، في الوقت الذي نعتبر أنّ

العمل شرفاً في كلّ مواقعه، وأنه ليس هناك فرقٌ بين عمل وعمل.. وهذه أمورٌ قد تحملها المرأة في تخلفها الذهني، وقد يحملها الرجل في تخلفه الذهني.. إن المرأة في كثيرٍ من الحالات لا تقبل للرجل أن يقومَ بشؤون البيت، وتعتبر هذا تدخلاً في شؤونها، وإهداراً لكرامتها في البيت، وما إلى ذلك.

■ كيف تنظرون إلى ارتباط الفتاة الجامعية على مستوى الزواج بشباب دون مستواها الثقافي؟

علم وخبرة

□ الواقع أن العلم ليس كل شيء في حركة العلاقة، قد تكون الفتاة حازت على شهادة متقدمة، لكن الشاب قد يملك خبرة متقدمة. فالعلم لا يُعطي أحياناً خبرة. ولنفرض أن هناك فتاة مهندسة، وشاباً تاجراً عرَكَ الحياة، قد نراه متفوقاً عليها، لأنه يملك فهماً اجتماعياً ووعياً مسؤولاً.

لذلك، ليس من مشكلة أن تتزوج المتعلمة والحائزة على شهادة في الهندسة أو الكيمياء أو الفيزياء مثلاً من رجل يملك فهماً اجتماعياً ووعياً للواقع ويمتلك خبرة وتجربة، ويصبح هناك تكامل بين الإثنين، هي تملك ما ليس يملك، ويمتلك ما ليس تملك..

حتى نتوازن

ولكن، هناك تعقيدات كثيرة في مجتمعنا، ومن عُقدِهِ، أن الشاب الجامعي، يعتد بنفسه، ينظر إلى الفتاة من فوق، وتنظر هي إلى مَنْ هو أقلّ منها ثقافة علمية من فوق.. هذا غير واقعي، علينا دائماً أن ننظر إلى مَنْ تحت، لا إلى مَنْ فوق، حتى نتوازن ولنرى ماذا عندنا، وماذا عند الآخرين، فليس هناك إنسان متفوق على إنسان بالمطلق.. وليس التفوق العلمي عند الزوج أو الزوجة هو الذي يحقق السعادة.. والسعادة لا تحصل من خلال المعادلات الفيزيائية أو الكيميائية، ولا نستطيع أن ننقل الجامعة إلى البيت، وفي كل إنسان مناً بدوي يختفي في داخله، وهناك حيوانٌ داخلي في كل فرد، فالإنسان يجب أن يعيش حياته العادية في البيت، واختلاف المستوى أحياناً يمكن أن يجعل اختلافاً في التفاهم، لهذا، أنا أقول دائماً: الزواج ٧٥٪ عقل و ٢٥٪ عاطفة، ولكن نحن نعمل على أساس أن يكون هناك نسبة ٩٩.٩٩٪ عاطفة، والفاصلة الوحيدة عقل.

■ كيف تنظرون إلى مسألة الاختلاط بين

الجنسين؟

□ الاختلاط بما هو لقاء الرجل بالمرأة، أو لقاء الرجال بالنساء ليس محرماً في ذاته.. نعم في بعض الحالات، إما أنه يُكره أو يحرمُ اختلاء الرجل بالمرأة، لأنَّ «الشیطان يكون ثالثهما»، باعتبار أن طبيعة الخلوة، وطبيعة الأجواء المحيطة بذلك، ربما تؤدي إلى نتائج سلبية.

أما في الحالات العامة، لا مانع من أن يختلط رجالٌ ملتزمون بنساءٍ ملتزمات أو غيرهن، سواء كان من خلال المناقشة الفكرية أو الدينية أو السياسية، أو تحت عنوان هداية فريق لآخر.

لكن في مثل هذه الحالة، لا بدُّ أن يتَّمت الاختلاط في أجواءٍ جديَّة بعيدة عن الأجواء الحميمة أو اللاهية، أو في أجواء المزاح والعبث، لأنَّه قد تؤدي هذه الأجواء بين الجنسين إلى مشاعر أخرى غير المشاعر الطبيعيَّة التي تكون بين إنسان وآخر. ويجب على الإنسان أيضاً أن يكون حذراً، يراقب نفسه، حتى لا تقوده إلى بعض الجوانب التي تمثل الإنحراف.

فالاختلاط إذا توفَّرت له ظروف جديَّة، وظروف الجوّ الإيماني أو العلمي الثقافي الخالص، فلا مشكلة من هذه الناحية. إنَّما المشكلة في الأجواء اللاهية العابثة التي تؤدي إلى نتائج ليست في مصلحة العفَّة، أو في مصلحة الإيمان.

■ بمناسبة عقد مؤتمر المرأة في بكين الذي نظمته الأمم المتحدة في أيلول ١٩٩٥م.. ندّد شيخ الأزهر بهذا المؤتمر، مشيراً إلى أنه يرمي إلى إلغاء الفوارق بين الذكورة والأنوثة.. برأي سماحتكم كيف ينظر الإسلام إلى دعوات المساواة بين المرأة والرجل وهل يرى الإسلام في المساواة بين الجنسين معياراً للعدل؟

* زوجتك أختك في الإيمان وزوجتك في الجسد.

* هناك مساحة كبيرة، بين ما هو التشريع الإسلامي وبين ما هو الواقع العملي لدى المسلمين.

لكلّ دوره

□ ما معنى المساواة؟ هل هو أن نُلغِي عنصرَ الذكورة في الذكر، فيما هي خصائصه النوعية في مسألة ذكوريته؟ وهل نُلغِي أنوثة الأنثى، فيما هي عناصر الشخصية في أنوثيتها، لنعتبرهما عنصراً واحداً.. هذا لا معنى له، حتى عند النساء أنفسهنّ، والرجال أنفسهم..

هل يمكن أن نساوي في القيمة بين العالم والجاهل؟ وهل يمكن أن نساوي في المسألة العملية، في المسؤوليات العملية بين القوي وبين الضعيف؟ هل يمكن أن نساوي بين الناس الذين يملكون اختصاصاً معيناً والذين يملكون اختصاصاً آخر، بحيث تلغي التمايز بين الإختصاص فنساوي بين المهندس والطبيب، لنراجع المهندس في صحتنا، ونراجع الطبيب في هندسة بيوتنا؟

الحياة قائمة على التنوع، الربيع له دور، والخريف له دور، والشتاء له دور، والصيف له دور. الله جعل وحدة في التنوع، تنوع يتمثل في وحدة الكون، فتتكامل الأشياء، لذلك إذا كانت المساواة، أن يكون دور هذا هو دور ذاك، ودور ذاك هو دور هذا.. هذا خلاف الطبيعة، وهو أمر غير ممكن أن تعطي لشخص دوراً يملكه الشخص الآخر.

ولذا، فإن من عناصر المرأة الأساسية أنها تحمل وتكون أمّاً، وأمومة المرأة في داخل جسدها، في رحمها عندما تحمل بالجنين، وفي أحضانها وعلى صدرها عندما تلده، وفي كل رعايتها الأمومية عندما تتحرك في تغذيته وإطعامه وتربيته. والأمومة ليست مجرد حمل، الأمومة كيان يتحرك في كل مراحلها، من أجل أن يصنع للطفل - الإنسان - قاعدة حياته التي تُطلُّ على إمكانات المستقبل، فهي تهيبُّ أرضية شبابه، وتُعدّه لكهولته وشيخوخته من خلال كل العناصر المادية والشعورية التي تفرضها في نفسه.

ولذلك يقول الكثيرون: إن الإنسان الذي لا يعيش معنى أمومة أمّه، هو كمن يفقد أمّه، حيث يعيش فراغ الحنان والعاطفة وهو كبير.

من هنا، نستوحي حديث رسول الله (ص) عن ابنته السيدة المعصومة العظيمة فاطمة الزهراء (ع): «إنها أم أبيها»، لأنه فقد أمّه، كان (ص) يعيش كبشر وكإنسان هذا الفراغ العاطفي، وجاءت فاطمة (ع) فملأت كل هذا الفراغ بحنانها الأمومي الذي أعطته لرسول الله (ص)، كما لو كانت أمّاً له، في الوقت الذي كانت بنتاً له، وتلك هي عظمة هذه العاطفة الفاطمية التي غذت إحساس رسول الله وحاجته البشرية إلى العاطفة.

إحساس دائم بالطفولة

ولذلك أيضاً، يقول الكثيرون: إن الإنسان يبقى يُحسُّ بطفولته ما دامت أمّه معه.. جرب ذلك.. عمرك مثلاً، أربعون سنة، خمسون سنة، تأتي أمك، لتقول لك: لا تخرج ليلاً،

لا تتعرض لكذا، تخاطبك، كما لو كنت طفلاً صغيراً.. لأنّ الأم لا تعرف أن تفكر أنّ ولدها صار شيخاً كبيراً، بل تعيش أمومتها دائماً. ولذلك، قال البعض: إنني عندما فقدت أمي - وهو كبير - فقدت طفولتي، أحسست بشيخوختي وكهولتي عندما فقدتها، لأنني بوجودها، كنت أعيش أجواء الطفولة.

فقضية الأمومة، ليست من القضايا التي تنطلق تحت عنوان الحسابات المادية $2=1+1$ ، ليست من القضايا التي يمكن أن ترتبها كما ترتب قالب الباطون، أو أي قالب من القوالب.. لا، هي شيء إنساني يدخل في كل إنسانيتك.

أما أبوة الرجل فليس لها علاقة بجسده، وإنما يتحرك بالعمل من خلال تهينة شؤون الأولاد، وهكذا.. لذلك مسألة الأمومة في الأم، مسألة لا يستطيع الرجل أن يأخذ دورها، مهما أعطى الأب ولده من عاطفة، فإنه لا يستطيع أن يعوّضه من حنان أمه ليلة واحدة من ضمة أمه، من احتضانها له، من وضعه على صدرها، وهي تلقمه ثديها وتناغيه.. هذا جانب.

وجانب آخر، هو أنّ للمرأة في عناصر أنوثتها إبداعاً معيناً، لا يستطيع الرجل أن يتحرك فيه.. وهكذا بالنسبة للرجل، هناك إبداعات معينة.. ولذلك نقول: إنّ الحياة تكامل، هناك تكامل بين المرأة والرجل، هذا التكامل أوجد حركة استمرار النوع الإنساني. والتكامل موجود في المسائل العلمية، والعقلية والحياتية.. ولهذا فإن معنى المساواة أنّ تُعطي لكل نوع دوره كاملاً غير منقوص..

بين القومية والقيمة

وهكذا نجد الحياة الزوجية.. فالله قال: (الرجال قوامون على النساء)^(١) ليس في

(١) سورة النساء: ٣٤.

شؤون الحياة كلّها، بل في الحياة الزوجية، فلا قِوامة للرجل بعنوان أنه رجلٌ على المرأة بعنوان أنها امرأة.. الأنبياء قوَّامون على الرجال والنساء، الأئمة قوَّامون على الرجال والنساء، الوليُّ الفقيه - إذا قلنا بولاية الفقيه - قوَّام على الرجال والنساء، الأب في ولايته قوَّام على الذكر والأنثى.. ليس هناك حالة يكون فيها الرجل قوَّاماً على المرأة إلا في الحياة الزوجية. والحياة الزوجية لا يمكن أن تكون برأسين، فالرجل حُمِّل مسؤولية الإنفاق من خلال طبيعة الحركة التي تسمح له بالحرية أكثر من المرأة (الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا)^(٣).

وعندما نقف عند الجانب القيمي، فالإسلام ساوى في القيمة (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ، وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ)^(٣) لا فرق.. (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)^(٤) لا فرق (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)^(٥) (أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ)^(٦)، هذا كلّهُ للرجال والنساء.. وهكذا في القيمة السلبية: (الرَّانِيَةُ وَالرَّانِي فَاجْلِدُوا كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ)^(٧)، هناك في الإسلام مساواة بين الرجل والمرأة في المسؤولية، وهناك تنوع يتحرك في خط التكامل في الدور.

أمّا ما تعارف عليه الناس أنهم يدفعون أجرة أقل للمرأة في عملها، فهذا ما ليس بالإسلام مسؤولاً عنه.. هذا عُرِفُ نتيجة التمايز الموجود والفوارق. الإسلام لا يجدُ فرقاً بين عمل المرأة وعمل الرجل، فالمرأة تستحق جهدها بما تبذله، كما يستحق الرجل جهده بما يبذله، ولو كان جهد المرأة أكثر لكانت تستحق من الأجر أكثر..

لم يُفرِّق الإسلام بين المرأة وبين الرجل في فرصة العلم، للمرأة أن تتعلم أعلى درجات

(٦) السجدة: ١٨.

(٧) النور: ٢.

(٤) سورة الحجرات: ١٣

(٥) سورة الزمر: ٩.

(٢) سورة النساء: ٣٤.

(٣) سورة الأحزاب: ٣٥.

العلم، وللرجل أن يتعلم أعلى درجات العلم، ولكن كل ذلك في النطاق الأخلاقي للرجل والمرأة على السواء، لا أن تفرض على المرأة الأخلاقيات دون الرجل..

الإسلام شيء والممارسة شيء آخر

في الحياة الزوجية، هناك رجالٌ يضطهدون زوجاتهم.. الله تعالى لم يُسلط الرجل على المرأة، أن يتكلم معها كلمة سوء. لا فرق بين أن تشتم زوجتك، أو تشتم زوجة جارك.. لا فرق. حتى ليس لك أن تضرب زوجتك.. النقطة الوحيدة التي ذكرها الله في هذا المجال، هي إذا منعت الزوجة زوجها حقّه الجنسي (فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ)^(٨).. فالموعظة أولاً، ثم الهجر في المضاجع، وأخيراً، الضرب غير المبرح، لا يدمي لحماً ولا يكسر عظماً، ضرباً تأديبياً خفيفاً لطيفاً، يُثقل النفسية ولا يؤذي الجسد كثيراً.

لذلك، فإنّ العنف المستعمل ضد المرأة هو غير إسلامي، والذين يستعملون العنف ضد المرأة في أية حالةٍ من الحالات التي لا يملكون فيها أي حق، هم عصاة مأثومون ظالمون.. فزوجتك أختك في الإيمان، وزوجتك في الجسد.. هما أخوان في الإيمان، وإن كانا زوجين في الجسد.. كل حقّ المؤمن على المؤمن ثابت للزوجة، كما هو ثابت للزوج.. الزوجية جعلت حقوقاً (ولهنّ مثلُ الَّذِي عَلِيهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وللرجالِ عليهنّ درَجة)^(٩)، فالعنف الذي يمارسه كثيرٌ من الناس ضد زوجاتهم، هذا ليس إسلامياً، بل الإسلام يحرم على الرجل أن يضرب زوجته، أو يشتمها أو يطردها من البيت.. بعض الرجال إذا اختلف مع زوجته يطردها إلى بيت أهلها، هو بذلك يفعل حراماً، كما هي تفعل حراماً عندما تخرج من بيتها إلى بيت أهلها، مع عدم وجود ضغط فوق العادة.

(٩) سورة البقرة: ٢٢٨.

(٨) سورة النساء: ٣٤.

الإسلام راعى الجانب الإنساني، ولذلك نقول، لا نحتاج في الإسلام إلى مؤتمرات للمرأة في هذا المقام، نعم، نحتاج إلى مؤتمرات حتى ندرس الواقع. لأنَّ هناك مساحةً كبيرة بين ما هو التشريع الإسلامي، وبين ما هو الواقع العملي لدى المسلمين: «الإسلام شيء، والمسلمون شيء آخر».

■ هناك مزجٌ في الدوائر الغربية بين الشأن السياسي والأحكام الدينية، بحيث أصبح الحجاب يرمز إلى موقف سياسي، برأيكم ما هي خلفيات هذا المزج؟

ضغط على المشاعر

□ من الطبيعي أن نعرف حقيقة، وهي أن الغرب في سياسته، وفي إعلامه، يعمل على أن يصوغَ لنا المصطلحات الفارقة التي تصدم الرأي العام العالمي، فهو يصوغ لنا كلمة «الأصولية» كعنوان للحركة الإسلامية، وهي مصطلح غربيّ يعتبر أن إلغاء الآخر والعنف هو الوسيلة الأولى والأخيرة لهذه الحركة، مع أننا في الإسلام لا نؤمن بإلغاء الآخر، ولا نؤمن بالعنف كوسيلة.. وقد أطلق الغرب كلمة «الأصولية» ليستعيد ذاكرة العالم الغربي في الأصولية التي كانت موجودة، سواء كانت أصولية مسيحية، أو أصولية يهودية، أو أصولية أخرى علمانية، إذا صحَّ أن تكون لبعض ألوان العلمانية أصولية معينة، وهكذا كلمة «التطرف» أو «التعصب» و«الإرهاب»، فهو يلتقط المفردات التي تعيش في ذاكرة الإنسان في العالم بشكلٍ سلبيّ ليطرحها في هذا الاتجاه، أو ذاك الاتجاه.. وقد رأينا أنه عندما كانت الحركة الشيوعية في العالم، كان الإعلام الغربيّ يطرح مفردات معينة تستثير مشاعرَ الناس المتدينين أو غير المتدينين، وعندما انطلقت حركة القومية العربية، كان يحاول أن يستثير مشاعر المسلمين في أن القومية العربية ضدَّ الإسلام، أو ضدَّ مشاعر الإقليميين.. وهكذا عندما انطلقت الحركة الإسلامية، فإنَّ هذا الغرب يحاول أن يستثير مفردات في هذا المجال، حيث يلتقط من الواقع بعض المسائل التي هي غير مألوفة لدى الإنسان الغربي، وأصبحت غير مألوفة لدى الكثير من

المجتمعات الشرقية، وهو صورة الحجاب، لا سيما الحجاب الكامل الموجود في أكثر من موقع، لي طرح الإسلام من خلال هذه الصورة، ومن خلال هذا المفهوم.. هذا من جهة.

تأكيد الإرادة في مواجهة التحدي

ومن جهة أخرى، فإن الصراع الذي بدأ بين الحركة الإسلامية في العالم، وبين الإستكبار العالمي، ولا سيما الاستكبار الغربي الأميركي، أصبح يتحرك في ساحاتٍ متنوّعة، وصار الغرب يحاول الضغط على كلّ موقعٍ من مواقع الالتزام الإسلامي، حتى أننا نرى أنّ الدول التي تتحدّث باسم الإسلام، تعمل على أساس أن تضطهد الشباب الملتزمين بالإسلام، إذا رأت أنّ إسلامهم يتحرّك في دائرة الحرية والعدالة، وما إلى ذلك. لذلك أصبح الحجاب سلاحاً موجّهاً ضدّ الاستكبار العالمي، لأنه يؤكّد إرادة المرأة - لا سيما في الغرب - في التزامها بإسلامها، الذي يمكن أن يتحرّك ليقفَ ضدّ المصالح السياسية والاقتصادية الغربية، وأصبح عنواناً سياسياً حركياً يعبر عن إصرار المسلمين بالوقوف في مواجهة التحدي.. كما أنّ مسألة إطلاق اللحية لدى الشباب تمثّل عنواناً من هذه العناوين في الوقت الذي نعرف أنّ الكثير من الذين يُطلقون لحاهم قد لا يصلّون ولا يصومون، أو قد لا يؤمنون بالله، ونحن نعرف أنّ كثيراً من الحواجز كانت تُوقِف الإنسان وتتهمّه لمجرد أنها تراه مُلتحياً.

من الطبيعي عندما يكون هناك صراع سياسي حاد، فإنّ كلّ العناوين والصور التي تُعبّر عن موقفٍ صلّب في أيّ جانب، يمثّل تحدياً للجانب الآخر، ومن هنا نعتقد أنّ مسألة الحجاب التي أثارت دولةً كبرى مثل فرنسا - وهي من أطلقت حرية الإنسان من خلال مبادئ الثورة الفرنسية، ومن خلال المفكرين الفرنسيين - وهي الدولة الغربية الأولى التي بادرت إلى منع الطالبات من ارتداء الحجاب في المدارس، باعتبار أنّ الحركة

الإسلامية أصبحت تهدد كثيراً من مصالح فرنسا في المغرب العربي، في الوقت الذي تخوض فرنسا صراعاً مريراً مع أميركا في كثير من مواقع العالم، التي تعمل على أن تطرد النفوذ الفرنسي وحتى الثقافي من هذا البلد أو ذاك. كما أن فرنسا أصبحت تضم ما يقارب الخمسة ملايين مسلم من الفرنسيين ومن غيرهم. ومن هنا فقد شعرت فرنسا بالتحدي الإسلامي في داخلها..

وهكذا في هذا البلد أو غيره، أصبحت للحجاب خلفياته السياسية، لأن المطلوب من المسلمين ألا يعيشوا الالتزام الجاد مع إسلامهم، لأن الالتزام الجاد الصلب يعني التزاماً بالمواجهة، ويعني قوة للإسلام والمسلمين، وهذا ما لا يريده الجانب الآخر.

■ في أحاديثكم عن الحياة الزوجية كثيراً ما تقولون، إن الحياة الزوجية لا تحكمها القوانين الجامدة، بل إن نجاحها يتوقف على تركيز مفهوم المودة والرحمة بين الطرفين، نرجو توضيح ذلك.

* الرحمة الزوجية في الإسلام تفرض على الإنسان أن ينطلق مع زوجه في أن يرحم كل نقاط ضعفه، وأن يرحم كل ظروفه، وأن يرحم كل ذهنيته، وبذلك يكون التكامل.

عنصران حيويان

□ قال تعالى: «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً»^(١)، هذان هما العنصران اللذان تقوم عليهما الحياة الزوجية التي تمنح الإنسان السكينة والطمأنينة.. فالمودة، هي التعبير عن المحبة، عن العاطفة، عن الحنان، وعن كل شيء يتصل بما يفتح فيه إنساناً على إنسان ليأخذ منه وليعطيه. وهذه المودة هي التي يمكن أن تجعل للحياة الزوجية حيويته، وبها يتحوّل هذا التنوع الإنساني إلى وحدة إنسانية.. ثم هناك الرحمة، والرحمة ليست مجرد كلمة يقدمها إنسان لإنسانٍ آخر، الرحمة، هي أن يرحم كل واحد الآخر، أن يرحم عقله وظروفه، أن يرحم قلقه النفسي، ويرحم كل ما يحيط به.. هناك شيء في الإنسانية اسمه «الأنانية»، أن أفكر بنفسي، وأفكر بالآخر من خلال نفسي، بحيث أطلب من الآخر، أن يعيش ما أعيشه، وأن يفتح على ما أفتح عليه، باعتبار أنني أتصور نفسي الإنسان

(١) الروم: ٢١.

الذي يدورُ العالمُ حوله.. الأنايون هم النَّاسُ الذين يعيشون وحشيةً إنسانيتهم، لأنهم يتصورون أن العالمَ يتمحور حولهم، فلا بُدَّ للعالمِ من أن ينشغل في توفير كلِّ ما يحتاجونه دون أن يكون لهم أيُّ دورٍ فيما يعيشه الآخر.. هذه الشخصية الأناية.. «أنا لا الآخرون»، هذه الشخصية، هي كما يقول الشاعر:

ما علينا إن قضى الشعبُ جميعاً أفلسنا في أمانَ

أما الرحمة، فإنها تعني أنني أتصورُ نفسي وأتصورُ الآخر، إذا وعيتُ ما عندي من عقلٍ وطريقةٍ تفكير، فإنِّي أدرس ما لدى الآخر من عقلٍ وطريقةٍ تفكير.. ومن هنا فإنَّ عليَّ أن أفكر كيف يُمكن لي أن أُدخلَ الفكرة في عقل الإنسان الآخر على طريقته لا على طريقي، أن أرحمك في المسألة العقلية هي أنني أحاولُ أن أدرسَ حجمَ فكرِك وحجم عقلك، وحجم ثقافتك وتجربتك في الحياة، لأخذَ من هذا كلَّ المفردات التي أستطيع من خلالها أن أُدخلَ إلى عقلك.

ومن الخطأ أن أفكر: أنا لي عقلي، وعلى الآخرين أن يخضعوا لعقلي، الذي لا يفهم فلا داعي لفهمه، والذي لا يعرف فلا داعي لمعرفته.. هناك حديثُ شريف: «إنَّا معاشر الأنبياء أمرنا أن نُكَلِّمَ النَّاسَ على قَدْرِ عقولهم». وحديث شريف آخر بالنسبة إلى الأطفال يقول: «مَنْ كَانَ لَهُ صَبِيٌّ فَلْيَتَصَابَ لَهُ»، علينا عندما نعيشُ مع أطفالنا أن نتقمَّص شخصية الطفل فينا، في حركاته، في لهوه وعبثه ولعبه وكلماته، وفي كلِّ ما يصدرُ منه حتى في مُناغاته، أن نتقمَّص شخصية الصبي، لأننا إذا لم نتقمَّص شخصيته فلن نستطيع أن نفهمه، ولن نستطيع أن نُدخِلَ إلى عقله وقلبه ما نُريد.

أهمية الرحمة

لذلك أن يرحم الزوجُ زوجته، أو ترحم الزوجةُ زوجها، لا بُدَّ من أن يفكر كلُّ واحدٍ

منهما في أن يفهم الآخر قبل أن ينظر أحدهما إلى الآخر في طبيعة تكوينه من الناحية الجمالية، وفي طبيعة تكوين حياته من الناحية المادية، أو الاجتماعية، عليه أن يفكر، ما هو عقله، فإذا فهمت الزوجة عقل زوجها، فإنها تستطيع أن تجعل عقلها يتكامل مع عقله، وإذا فهم الزوج عقل زوجته، فإنه يستطيع أن يجعل عقله يتكامل مع عقلها، لأنّ الإنسجام لا بدّ أن يسبقه الفهم، لذلك لا تحدّقوا - عندما تبدأون أية حياة زوجية - في أشكال بعضكم البعض، وإن كان لكم الحق في ذلك، ولكن حدّقوا قبل كلّ شيء، وقبل أن تبدأ الحياة الزوجية، بأنه لا بدّ أن يرحم أحدهما الآخر ليفهم الآخر، وليفهم ظروفه العقلية والنفسية، فيتعامل معه على هذا الأساس.

ولكن نجد أن بعض الأزواج رجالاً ونساءً - وكلمة الزوج من الكلمات التي تُطلق على الرجل والمرأة، يُقال فلانٌ زوجُ فلانة، وفلانة زوج فلان - مثلاً قد يكون لأحد الزوجين ظروف صحية معينة، أو ظروف عائلية معينة، قد يكون له ارتباطات عائلية، أو مشاكل ظرفية بيئية معينة، هنا قد يطلب أحد الزوجين من الزوج الآخر ألا يذهب إلى أهله، أن يقطع أهله، أو أن يتمرد على هذا الجانب من ظروفه، أو ذاك، هذه قسوة، هذه وحشية، لأنّ الإنسان الآخر، إنسان يعيش في ضغط ظروفه، فعلينا ألا نزيده ضغطاً على ضغطه، بل أن نتعامل معه من خلال أنه إنسان يعيش في دائرة الضغوط، وتتعاون معه على أساس أن نخفّف من هذه الضغوط وتأثيرها على حياته وحياتنا.

أن يرحم إنسان إنساناً آخر، أن يرحم عقله وظروفه ونقاط ضعفه، ما منّا إلا وله نقاط ضعف، ونقاط قوة، ليس هناك إنسان ضعيف بالمطلق، وليس هناك إنسان قوي بالمطلق.. في كلّ إنسان شيء من الضعف، قد يكون قوة عند الآخر، وفي كلّ إنسان منّا شيء من القوة، قد يكون ضعفاً في الآخر. لذلك، الرحمة الزوجية في الإسلام تفرض على الإنسان، أن ينطلق مع زوجه، في أن يرحم كلّ نقاط ضعفه، أن يرحم ذهنيته وبذلك يكون

التكامل، أما أن يُفكر الرجل أن تكون المرأة خاضعةً لكلِّ ظروفه وحياته، من دون أن يكون لها أيُّ حقٍّ في أن يكون لها حياتها وخصوصيتها، أو أن تفكر المرأة، بأن يكون الرجل على صورة ظروفها، هذا ظلمٌ من كلِّ إنسانٍ للإنسان الآخر.

تضحية في خط المعروف

في الآية الكريمة التي يخاطب الله فيها نبيه محمداً (ص): (يا أيها النبي لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ) (٣) ما مناسبة هذه الفقرة من الآية؟ إن النبي كان يعيش إنسانيته، بحيث إذا شعر بأن بعض أزواجه يتفردن من شيء يشتهي، فإنه (ص) يحرم نفسه مما ينفرد منه نساؤه، و (لِمَ تُحَرِّمُ) ليس معناها أنك تُشَرِّعُ التحريم، بل لِمَ تُمَتِّعُ نَفْسَكَ مِمَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ مِنَ الطَّيِّبَاتِ حَتَّى تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ.. وحتى نقيس أنفسنا، هناك حديثٌ عن الفرق بين المؤمن والمنافق: «المؤمن يأكل بشهوة أهله، والمنافق يأكل أهله بشهوته»، يعني أن صاحب البيت المنافق يلزم أولاده وزوجته أن يأكلوا ما يحب، أما الإنسان المؤمن، فهو الذي يذوب بأهله، بحيث إذا أراد أن يتسوق، يتساءل عما يشتهي عياله، فيشتري على أساس ذلك، بحيث يأكل ما يشتهونه، حتى ولو كان على خلاف رغبته في هذا المجال.. هذا ما تمثله الرحمة، أن يرحم كلُّ واحدٍ الآخر، حتى في الخصوصيات الدقيقة، بحيث يدرس كلُّ من الزوج والزوجة حاجات الإنسان الآخر، في كلِّ الشؤون المتعلقة به، وحاجاته في نفسه، ويدرس نقاط ضعفه ونقاط قوته، ويدرس ظروفه، ثم يتعامل معها على هذا الأساس، وهنا تأتي التضحية..

■ برأيكم، ما تأثير المودة والرحمة في الحياة الزوجية على إنشاء جيل خالٍ من التعقيدات؟

* نلاحظ أن كثيراً من الآباء لا يسمحون لأولادهم أن يفكروا، وبالتالي فإنهم لا يسمحون لأولادهم أن يريدوا، وهذا النوع من العاطفة السانجة الفوضوية غير المثقفة وغير الإنسانية، قد يعطل قوة الإرادة عند الولد، وقد يعطل العقل عنده.

جانب موضوعي وآخر عاطفي

□ عندما يعيش الزوجان المودة والرحمة يمكن لهما أن يُنتجا جيلاً ينطلق من خلال المودة والرحمة، وعندما يريد الإسلام للحياة الزوجية أن تنطلق من خلال ذلك، فلكي تكون الحياة خاضعةً للجانب العاطفي، فيما تعطيه المودة، وللجانب الموضوعي فيما تعطيه الرحمة، فإذا أمكن للزوجين أن يُجسدوا هذا، أمكن لهما أن يُنتجا جيلاً منفتحاً على الآخر، وعلى وعي الإنسان الآخر، وعلى حُبِّ الإنسان الآخر، وعلى رحمة الإنسان الآخر..

نحن قد نشكو في كثيرٍ من الحالات من جرائم أطفالنا، أو أجيالنا التي تأتي من بعدنا، ولكننا لو درسنا المسألة، لرأينا أننا المجرمون، لأننا هيأناهم لروحية الجريمة، ولظروفها هنا وهناك، لأنَّ أيَّ خلافٍ يحدثُ بين الزوج والزوجة أمام الأولاد، سوف يعقدهم.. إنَّ كثيراً من الآباء والأمهات قد يُنتجون لأولادهم أن يكونوا أزواجاً فاشلين، أو يَكُنَّ زوجات فاشلات، لأنَّ الولد يمتص أجواء الخلاف والفضل من الداخل.

لذلك، فالمودة والرحمة هما أساس الحياة الزوجية، وعلى الذي يريد أن يبدأ حياته الزوجية، أن يتعمق في هذين العنصرين لأنهما هما العنصران اللذان يُمكن أن تتركز الحياة من خلالهما.

تعقيدات وفوضى

وهناك نقطة لا بُدَّ أن نفتح فيها على مسألة الآباء والأمهات بالنسبة إلى الأولاد.. الكثيرون من الآباء والأمهات يتصورون مسألة الأولاد تصوراً مادياً ولا ينفذون إلى داخل عقل الولد وإلى إدراكه، ولذلك فقد يحطمون أولادهم عقلياً وعاطفياً، أو يمنعونهم من الانفتاح والتطور. عادة الآباء والأمهات - كما يقول البعض - لا يتصورون أولادهم إلا أطفالاً حتى لو بلغوا سنَّ الشباب، لأن هذا الجانب العاطفي الذي ينطلق مع الحالة الطفولية وامتداد العاطفة، يصورُّ للأم أنَّ الولد لا يزال محتاجاً إليها، والأب يتصور أنَّ الولد لا يزال محتاجاً إليه.. صحيح أنَّ الإنسان يحتاجُ إلى العاطفة وهو صغير، وهو شاب، حتى وهو شيخ كبير، هذا انعكاسٌ إيجابي جيد، لأنَّ العاطفة حاجةٌ وحالة إنسانية، لكن في كثيرٍ من الحالات، تعتبرُ الأم أنَّ ابنتها بحاجة إليها دائماً، بحيث أنها لا تستطيع أن تستقلَّ بفكرها، فكما أنها عندما كانت رضيعة لا تستطيع أن تستقل في غذائها وإدارة شؤونها، فهي تتصورُ أنها لو وصلت إلى العشرين أو الثلاثين، لا بُدَّ أن تشاورها في كلِّ شيء، ليس لها أن تفكر بشكلٍ مستقل وليس لها أن تكون إرادتها مستقلة. وهكذا الأب يتصورُ أنَّ كلمته هي الكلمة في البيت، ورأيه هو الرأي، فأنتم لا زلتم أولاداً، ولا تستطيعون التفكير باستقلالية. وبهذه الطريقة نلاحظ الآن أنَّ كثيراً من الآباء لا يسمحون لأولادهم أن يفكروا، وبالتالي فإنهم لا يسمحون لأولادهم أن يريدوا.. وهذا النوع من العاطفة السانجة الفوضوية غير المثقفة وغير الإنسانية، قد يُعطَل قوة الإرادة عند الولد، وقد يعطلُّ قوة العقل عنده، لأننا عندما نُشعرُ الإنسان بأنه لا يفهم ولا

أن يفكر وأن يعرف مصلحته، فمن الطبيعي أن هذا يُشكّل عملية إحياءٍ نفسيّ دائمة تحفر في داخل نفسه، ليتحوّل إلى إنسانٍ ضعيفٍ الشخصية، لا يملك عقله وفكره وإرادته ويظلُّ مشدوداً للآخر، وهذا ما يجعلُ الاستضعاف حالةً في أولادنا.

ربما يقول قائل: إذاً ماذا نفعل؟ هل نترك أولادنا على طفولتهم ليفكروا بطريقةٍ طفولية؟ هل نترك بناتنا على حسب عواطفهن حتى يُفكّرُن بطريقةٍ عاطفية؟ وإذا أردنا أن نعطي لأولادنا شعوراً بالثقة وبالاستقلال، فإنهم قد يضيعون وقد يُخدَعُون لأنهم لا يعيشون أيّ تجربةٍ في الحياة، ولذلك نحن عندما نطلب منهم أن يخضعوا لنا، فلأننا أناسٌ جربنا الحياة من خلالهم، ونريد أن نعطيهم تجربتنا، فإذا انطلقوا من دون تجربة، فإنّ هذه الانطلاقة تجعلهم يعانون في الحياة، وعاطفتنا لا تسمحُ لنا أن يُعانوا في الحياة. قد يقول بعضُ الآباء والأمهات ذلك. لكنّ هناك فرق بين أن نقول لأولادنا: لا تفكروا، ليس لكم حرية في الحياة، ليست لكم إرادةٌ في التفكير بمستقبلكم، نحن نصنع لكم مستقبلكم ونخطط لكم حياتكم، ونضع لكم البرنامج، وبين أن نقول لهم: فكروا في أنفسكم، وفكروا معنا، فكروا وحاولوا أن تُشركونا في تفكيركم لنعطيكم من فكرنا القائم على التجربة، وانطلقوا إلى الحياة..

احترام الإرادة

لذلك، أن نعطي أولادنا الثقة بأنفسهم، وبأنهم قادرون على أن يفكروا، ونعطيهم إلى جانب ذلك الفكرة بأنّ عليهم ألاّ يستبدوا في تفكيرهم، لأنهم قد يدركون شيئاً من الحقيقة، وقد يدرك الآخرون شيئاً آخر.. عندما نربي أولادنا على احترام إرادتهم وعلى حاجتهم لفهم إرادة الآخرين، وعلى احترام تجربتهم، واحترام تجربة الآخرين، عند ذلك تكون الأم صديقة لابنتها، ويكون الأب صديقاً لأولاده لا حاكماً، صديقاً قوياً، لأنّ الأولاد قد يحتاجون لقوةٍ تحميهم من كلّ ضعف.. لكنّ هناك فرق بين القوة التي تُكغيك، وبين

القوة التي تقوي ضعفك، هناك فرقٌ بين أن نكون وحوشاً كاسرة تجاه أولادنا، أو أن يكون كلُّ واحدٍ منا إنساناً يُوحى لولده بأن هناك قوةً تحميه، كما يُوحى له بأن له وجوداً يستطيع من خلاله أن يمارس استقلاليته في الحياة.

من خلال هذا نتفادى الكثير من حالات الصراع بين الجيل القديم والجيل الحديث، بين الآباء والأمهات والأولاد، عندما ينطلق الأولاد ليشعروا بأن أفضل صدرٍ لأسرارهم، هو صدرُ الأم والأب من خلال أن الأب والأم يحترمان أسرارَ أولادهما.. عندما يشعر الولد ذكراً كان أو أنثى بأن أباه يرفع حاجاته النفسية والجسدية والعاطفية، وينظّم له هذه الحاجات، ويمنع الضعف أن ينفذ إلى هذه الحاجات، عندما يعيش الولد هذا الاحساس، عند ذلك يمكن أن ننتج أولاداً أقوياء مستقلين، معتمدين على أنفسهم، منفتحين على غيرهم، وبذلك يمكن أن تكون الأسرة تجربة لا يعيش فيها أحدنا - عندما نكون أولاداً - ضعفه، ولكن يعيش أحدنا تجربة القوة من خلال هذا التفاعل بين الأولاد وبين الآباء وبهذا نستطيع أن نتغلب على الكثير من المشاكل والعقد النفسية التي يعيشها أولادنا، كما أن الأولاد عندما يعون يستطيعون أن يتغلبوا على المشاكل التي ينتجونها لأبائهم.

فالأسرة إذاً، هي المدرسة الطبيعية في الحياة التي قد لا تحتاج إلى قراءة وكتابة بالمعنى المصطلح، ولكنها تحتاج إلى وعي الإنسان لنقاط ضعفه وقوته، وتحتاج إلى رحمة الإنسان، وإلى حبِّ عقلائي، وإلى عقلانية العاطفة.

■ هل الزواج الثاني، ضرورة وكيف تنظرون إلى هذا الموضوع؟

* إن الإسلام لا يفرض على الإنسان أن يوازن بين زوجتيه في العاطفة، ولكن يفرض عليه العدالة والتوازن في المعاملة.

* نقول لكل من يعيش العلاقة الزوجية، سواء على مستوى العلاقة الزوجية، الواحدة أو المتعددة، أن يخضع مشروع الزواج الواحد أو المتعدد، لدراسة موضوعية عميقة تتصل بحياته وبحياة الإنسان الآخر.

ضوابط

□ إن الله شرع تعدد الزوجات للرجل، انطلاقاً من الحيثيات المتعددة التي تجعل من هذا التشريع مصلحةً نوعيةً للإنسان من خلال كثيرٍ من الأوضاع القلقة التي تتصل بواقع الزوج ذاتياً في حاجته إلى التعدد، أو تتصل بالواقع النوعي في بعض المراحل التي قد تحتاج فيه الأمة إلى التعدد نتيجة بعض ظروف الحرب، أو بعض الظروف القلقة.

لذلك، فإن الله تعالى شرع التعدد وقال: (فَانكحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَتْنِي وَثَلَاثَ وَرُبَاعٍ)^(١)، واشترط في التعدد العدالة في النفقة، والعدالة في القصد بين الزوجات، وذلك بالأب لا يهجر زوجةً لمصلحة زوجةٍ أخرى، لذلك قال سبحانه: (فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّةِ)^(٢).

(٢) النساء: ١٢٩.

(١) النساء: ٣.

ومن الطبيعي أن الله لا يفرضُ على الإنسان أن يوازن بين الزوجتين أو الزوجات في العاطفة، لأن ذلك أمرٌ لا يملكه الإنسان، ولكنه يفرض عليه العدالة والتوازن في المعاملة بين زوجتيه، أو بين زوجاته، فلا يجوز أن يعامل إحداهُنَّ نتيجة عقدة، أو نتيجة بعض الأوضاع، أو نتيجة زيادة عاطفته على الأخرى، كالمعلّقة، فيمنعُها حقوقها الزوجية، ويتعسّف في التزامه بهذه الحقوق.

ضرورة الموازنة

وهنا قد يُسأل، ربما يتزوج البعض زواجاً نتيجة مزاجٍ في التعدّد، أو نتيجة إحساسٍ بالحاجة إلى التنوع في العلاقة الجنسية، من دون أن تكون هناك ضرورة مُلحة.. الناس قد يختلفون في حاجاتهم الجنسية، فقد يفضل بعضهم أمامَ تعاطف هذه الحاجة أن يتطلّع إلى تجربةٍ أخرى، فيلجأ إلى الزواج الثاني بدلاً من أن يلجأ إلى العقد المنقطع، أو إلى العلاقات المنحرفة.. قد يسأل الناس، هل يُشرعُ هذا الزواج، أم لا؟

إنّ الشريعة الإسلامية تُعطي للرجل هذا الحقّ من ناحية المبدأ، ولكن يمكن للقائمين على شؤون الشرع أن ينصحوا هذا الرجل بالألّا يستغرق في المسائل من جانبٍ واحد، لأنّ عليه أن يوازن بين ما يحصل عليه من إيجابيات في زواجه الثاني، تلبيةً لبعض رغباته الحسية، وبين ما يُمكن أن يؤديه الزواج الثاني إلى إرباكٍ في الوضع العائلي، أو إلى تعقيدٍ في حياته، أو إلى نوعٍ من أنواع الإساءة غير المتعمّدة للمرأة الثانية، لأنّه بإمكانه أن يعالج حاجاته مع الزوجة الواحدة، بلحاظ بعض التطوير في العلاقة، أو بعض التفاهم معها حول هذا الموضوع، لأنّ الكثير من الناس، ربما يعيشون الوهم في هذه المسألة، فيتصورون أنّ تلبية غرائزهم في التعدّد تُفضّلُ تلبية غرائزهم في الوحدة، ولكن لو ارتبط الإنسان بالواقع لرأى أنّ اللذة الجنسية واحدة في طبيعتها، وإن كان يعيش خيالات الموضوع هنا وهناك.

المهم، أننا لا نريد أن نتحدث عن سلبية تؤدي إلى الحرمة، بل نتحدث عن قاعدة في السلوك الإنساني فيما يحل له باعتبار أن عليه أن يوازن بين السلبيات والإيجابيات، حتى في المباحات. فالإنسان إذا وقف بين مباحين، يحل له الإتيان بهذا أو بذاك، فإن عليه أن يدرس السلبيات الموجودة هنا، والإيجابيات الموجودة هناك، ويختار أكثرها إيجابية وأقلها سلبية.. لا يكفي للإنسان لكي ينطلق إلى ما يحل له في الشرع أن يكون الشيء حلالاً، بل لا بد أن يلاحظ العناوين الثانوية التي قد تجعل هذا الحلال، مستحباً، أو واجباً، أو مكروهاً، أو محرماً، لأن القصد من الزواج، إنما هو الحصول على السكينة والطمأنينة، وتأكيد جانب المودة والرحمة بين الزوجين. ولذلك فلا بد من مراعاة هذه المسألة، لأن الإنسان قد يحصل على رغبة في جانب من جوانب علاقته، ولكنه قد يفقد أشياء كثيرة أكثر أهمية في الموضوع.

إننا لا نريد أن نتحدث عن الزواج الثاني بطريقة تُوحى بالتعقيد، فنحن نعرف أن الزواج الثاني يكون حلاً لكثير من الفتيات اللاتي لا يجدن الفرصة في الحياة الزوجية، مما قد يخلق مشكلة اجتماعية كبيرة، أو يكون حاجة لبعض المتزوجين نتيجة بعض الأوضاع السلبية الموجودة داخل العلاقة مع زوجته.. ولكننا نريد أن نقول لكل من يعيش العلاقة الزوجية سواء على مستوى العلاقة الزوجية الواحدة، أو المتعددة، عليه أن يخضع علاقته الزوجية، أو مشروع الزواج الواحد، أو المتعدد، لدراسة موضوعية عميقة تتصل بحياته وحياة الإنسان الآخر، كما تتصل بظروفه الاقتصادية والاجتماعية التي تنفتح على الثقة بالله، وعدم الاستغراق بالحوجز المادية الخارجية.

بين الغيرة والحق

وهنا قد يطرح البعض سؤالاً: هل من حق الزوجة الأولى، أن تقف حاجزاً بين

زوجها، وبين الزواج الثاني، بحيث تعمل على تعطيله أو تعقيده، أو إثارة المشاكل حول ذلك؟

إننا نقول من موقعنا الشرعي والفقهى، لا يجوز للمرأة أن تقوم بأعمالٍ منافية للحكم الشرعي، بأن تتعسف وتثير المشاكل، أو تسبّ وتشتّم، أو تخرج من بيت زوجها إلى بيت أهلها، مع قيام زوجها بحقوقها الشرعية.. إنّ ذلك محرّم، وهذا ما يفسر أن «غيرة المرأة كفر»، باعتبار أنّ الغيرة قد تفوّدها إلى القيام بكثيرٍ من الممارسات غير الشرعية..

لكنّ لا يمنع أن تعمل على إقناع زوجها، وممارسة كلّ الأساليب العاطفية وغير العاطفية في سبيل أن تُثني زوجها عن ذلك، أو تتدخل مع بعض من يؤثر تأثيراً إيجابياً عليه، لا قناعه بعدم اللجوء إلى الزواج الثاني، أو بأن تطوّر هي طبيعة علاقاتها بزوجها من ناحية حسية، فيما يرغبه زوجها، لتسدّ حاجته عما يُفكر به في الزوجة الثانية.. إنّ لها الحقّ في القيام بكلّ الأساليب المشروعة مع زوجها في سبيل إبعاده عن ذلك الموضوع، ولكن إذا كان زوجها مُصرّاً على ذلك، وتوقّف إبعاده عن مشروعه بالزواج الثاني على القيام بممارسات غير شرعية، فهذا لا يجوز شرعاً بأيّة حالة من الحالات، كما لا يجوز لها أن تخرج من بيت زوجها بغير إذنه بما يُنافي حقّه في الاستمتاع، أو تتمردّ عليه بأن تبتعد عنه، ما دام قائماً بحقوقها الزوجية من دون أي نقصان.

وليس للحاكم الشرعي الحقّ في طلاق امرأةٍ تطلب الطلاق، إلّا إذا امتنع زوجها عن القيام بحقوقها الشرعية من النفقة والعلاقة الجنسية.. فإذا امتنع عن القيام بحقوقها الشرعية وعن الطلاق. فإنها إذا رفعت أمرها إلى الحاكم الشرعي، فإنّ الحاكم الشرعي يُخيّر الزوج بين العودة إلى أداء حقوقها، أو الطلاق.. ومع امتناع الزوج عن ذلك، فإنّ الحاكم الشرعي يُطلقها، وليس له أن يطلقها. في غير هذه الحالة.

تقوى العلاقة

إننا نريد أن نقول للرجال والنساء، وفي مثل هذه التجربة الصعبة التي قد تتصل بالجانب الشعوري للمرأة، وبالجانب العملي للرجل: إن عليهما أن يتقيا الله في ذلك، وإن عليهما أن يسمعا قول الله سبحانه (فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا)^(٣)، (وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ)^(٤).

إن على الإنسان - الزوج أو الزوجة - أن يكون إنسانياً في علاقته بالآخر، وأن يلاحظ شعور الآخر، وألا يعمل على تعقيد الأوضاع في علاقته مع الآخر، وأن يتقبل كل ما أحله الله وما شرعه، فالله سبحانه يقول: (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)^(٥).. والمقصود في ذلك هو ما شرعه الله سبحانه من أحكام وشرائع، وفيما أحله وحرّمه (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِي مَآ شَجَرَ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)^(٦).

إن تقوى الله، هي التي تحقق للإنسان السعادة في ذاته، وفي علاقته بالحياة وبالآخر، وهي التي تحقق له رضى الله والنجاة في الآخرة (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون)^(٧).

(٧) المطففين: ٢٦.

(٥) الأحزاب: ٣٦.

(٦) النساء: ٦٥.

(٣) النساء: ١٩.

(٤) البقرة: ٢١٦.

□ الإسلام والطب الحديث :

- * معالم العلاقة.
- * الإجهاض.
- * جنس الجنين.
- * زرع الأعضاء.
- * إخفاء الحقيقة عن المريض.

■ برأيكم ما هي علاقة الدين بالعلم والطب؟

* إن رسالة الإسلام، هي رسالة الطب في حماية الحياة الإنسانية.

هدف واحد لبناء الحياة

□ أن نتحدث عن الطب والدين، قد يبدو لأول وهلة حديثاً عن شيئين لا علاقة كبيرة بينهما، أبدأ، العلاقة متينة، وذلك عندما نفهم أن الدين جاء لخدمة الإنسان، وأن الطب هو المعلم الذي يتحرك من أجل الإنسان.

فالدين ليس مجرد حالة روحية تفتتح على الغيب، وتعيش في التجريد لتجعل الإنسان في غيبوبة عن الواقع، كما يُخيل للكثيرين عندما يصفون الدين بأنه حالة روحية، وعندما يصفون المقامات الدينية بأنها مقامات روحية.. تماماً كما لو أردنا أن نعزل الدين عن الحياة وعن الإنسان في حركيته الإنسانية.

لا نريد أن نخوض في الجدل الذي يتحدث به الكثيرون من الناس عن علاقة الدين بالسياسة، ولكن هناك شيء أساسي يجب أن نفهمه، وهو أن الدين جاء من أجل أن يجعل حياة الإنسان أفضل، وحياة الإنسان ليست هي المفاهيم التجريدية التي يطلق فيها في الفراغ، ولكن هي التي تتصل بالإنسان، عقلاً، وقلباً، وجسداً. والدين لم يتنكر للجسد، الجسد هو حقيقة، وعندما نتحدث عن روح تتفاعل مع الجسد، فلتعطي الجسد أحاسيسه ومشاعره وتحرك القيمة حتى في حاجاته..

فالمسألة الدينية تتصل بحياة الإنسان، وعندما يحدثنا الدين عن الجنة، يُجرب أن يجعل الأرض جنة يتدرب فيها الإنسان على أخلاقية الجنة (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ

مِنْ غِلٍّ^(١).. ويتدرب على الحالة الصحية التي يعيشها الإنسان في الجنة التي لا مرض فيها، وما إلى ذلك.. حتى أن حاجات الإنسان في المفهوم الديني الأصيل، ليست شيئاً يخل منه الإنسان.. فليس ضد القيمة، أن تعيش حاجاتك، أو أن تمارسها.. فدور الدين عندما يتحدّث عن ضوابط هذه الحاجات، فلأنه يريد أن يحرس هذه الحاجات من الفوضى، ويريد أن يحركها، لا لكي تستغرق في زاوية واحدة من زوايا حركتها في الجسد، بل يريد أن يقول للحاجة، إنّها حاجة في الجسد، قد تتنافر في بعض الحالات مع حاجات أجساد الآخرين، وعندما تتحرك حاجات أجساد الآخرين، فهناك نظام مجتمع الآخرين وتطلعاته..

ربّما يتصوّر بعض الناس أن الدين يتحدّث عن الجنس كشيء معيب، كشيء يخل الإنسان منه.. ولكن عندما ندرس كلّ النصوص الدينية، نجد أن الدين في نصوصه الأساسية، قرآناً وسنة، يتحدّث عن المسألة الجنسية، كحاجة طبيعية جداً، تماماً كما يتحدّث عن الطعام والشراب.

ولذلك نجد أن هذه المفردات تتحرك في تراثنا في القرآن وفي السنة، بشكلٍ لو أردنا أن نأتي ببعض التراث الذي يتحدّث عن هذه المفردات، فإننا قد «نخلج» من صراحة تراثنا حول هذا الموضوع، من خلال ما نعيشه الآن من تقاليد وعادات في تطويق الكلمات على الأتّطلق هنا، لأنّ هذه الكلمة معيبة، أو تلك الكلمة معيبة..

إذاً، إنها حاجة طبيعية جداً تماماً، كما هو الطعام والشراب.. وكما أن الله يقول: **(كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا)**^(٢)، كذلك يمكن أن يتحدّث الإسلام، أن مارسوا غرائزكم ولا تسرفوا إسرافاً من خلال طبيعة الجسد بتجاوز حاجاته، أو إسرافاً من خلال طبيعة

نظام المجتمع في حركة أخلاقياته، وما إلى ذلك.

الإسلام يهتم بالجسد من حيث اهتمامه بالحياة، وله نظرة حول طبيعة هذه الحياة، حول بداياتها ونهاياتها، وحول ما يربط البداية بالنهاية من خلال تركيزه لأحكامه في عالم الحليّة والحرمة على أساس حماية الحياة في حركيّتها فيما بين البداية والنهاية، كما في حال التزاحم بين حياة وحياة، وبالحفاظ على طاقة في مقابل طاقة أخرى.

إنّنا نتصوّر أنّ رسالة الإسلام، هي رسالة الطب في حماية الحياة الإنسانية، وإذا كان الإسلام يتجاوز المسألة إلى الجوانب الأخرى الاجتماعية أو السياسية أو ما إلى هنالك، فإنّه يبقى في حركة الحياة عندما يحارب، ومع الطب عندما يسالم، وعندما يعيش الحياة الطبيعية.

الطبّ جاء لخدمة الإنسان، ولم يأت الإنسان لخدمة الطبّ من حيث الموضوعية في المسألة، وهكذا الدين جاء لخدمة الإنسان، لأنّ الدين ليس شيئاً نخدمه، إنه شيء نعيشه.. والطب ليس شيئاً نخدمه كوثن، ولكنه شيء يتحرك في حياتنا ونغتنى به.

علاقة عضوية

وهناك نقطة أخرى، وهي أنّ الإسلام في تشريعاته يحتاج فيها إلى الطب. فالطبّ يحدّد للأحكام الشرعية موضوعاتها، لأنّ هناك أحكاماً تتصل بمفاهيم الموت والحياة، وأحكاماً تتصل بما هو الأهم والمهم في الحاجات الإنسانية، وأحكاماً يبحث فيها الإسلام عن حدود الموضوعات التي يمكن لنا أن نعيها لنعرف انطباق هذا الحكم على هذا الموضوع وعدم انطباقه.

ومن هنا، فإنّ الطبّ قد يكون مرجعاً للدين في كثير من موضوعاته، وهذا ما يجعلنا نشعر بضرورة أن تكون هناك علاقة عضوية بين الدائرة الدينية في المسألة العلمية

الفقهية وبين الدائرة الطبية.. لذلك لا يجوز للفقهاء أن يُفتوا في أشياء لا يملكون خبرة في موضوعاتها، تماماً كما لا يفتي الأطباء بأشياء لا يملكون الخبرة في مصادرها من الناحية الفقهية.

لذلك نحن هنا(*) في لقاء لا أريد له، كما لا يريد الإخوان، أن يكون رسمياً: هو لقاء المعرفة، لقاء العقل للعقل، والقلب للقلب، وذلك فيما يعيش الدين والطب - من خلال الفقهاء والأطباء - جدلاً حوله، فلعلنا نستطيع أن نخفف من هذا الجدل، أو نصل إلى نتائج حاسمة في هذا المجال.

(*) في الندوة الطبية التي عقدت مع سماحته في مستشفى الشرق الأوسط في بيروت خريف ١٩٩٥.

■ ما رأي سماحتكم بالإجهاض، ومنع الحمل؟

* ليس الإسلام ضدّ تنظيم النسل، بل ضدّ الذهنية التي تنطلق في تنظيم النسل من عدم الثقة بالله ومن اليأس.
* للإنسان أن يفكر بتنظيم النسل إذا خرج عن التحفظين: التعقيم والإجهاض.

ارتباط التنظيم بالقيمة والثقة

□ نحن عندما نعيش في الحياة على أساس أن الإنسان ليس مجرد بضاعة، وليس قطعة من أثاث، ليس صخراً، وليس شيئاً جامداً... وإنما هو شيء متحرك، وهذه الحركة تنطلق من المكونات الفكرية والروحية، ومن المفاهيم التي تفتح على كثير من قيم السعادة في الحياة.. عند ذلك لا بد لنا أن نوازن القضية من هذه الجهة.

وهناك نقطة ثانية، وهي أننا كمسلمين أو كمؤمنين، نؤمن بأن الله سبحانه وتعالى خلق الكون، وخلقنا ولم ينفصل عنا، فهو الرزاق (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ)^(١)، يظل الإنسان يفكر بأن ما حوله ليس كل شيء، فهو عندما يقف أمام المشاكل الصعبة، أو أمام الطريق المسدود، لا يشعر بأنه مسدود أمامه (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً - حيث لا مخرج - ويرزقه من حيث لا يحتسب).

على ضوء هذا، فإن الإنسان المؤمن الذي يؤمن بأن الله هو مدبر الكون وراعيه، وهو الرزاق (وما يكفكم من نعمته فمن الله)^(٢)، والإنسان الذي يختزن هذه الفكرة في داخل شخصيته، من الطبيعي أن تكون نظرتة إلى طبيعة المشاكل الاقتصادية أو غيرها، مختلفة عن نظرة الإنسان الآخر في هذا المجال.

(٢) النحل: ٥٣.

(١) الطلاق: ١ - ٢.

وَأَدْ خَفِيٍّ

ومن هنا، نجد أن الله سبحانه لا يريد لنا في إحياءات القرآن أن نقوم بما عبّر عنه (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ)^(٣)، ربما كان هذا في الواد، أو فيما يعتبره البعض في استعمال وسائل المنع، كالعزل الذي كان موجوداً سابقاً، وهو الواد الخفي، وربما يكون ذلك من جهة أن الإنسان يُقَلِّل نسله بسبب الجانب الاقتصادي.. الله تعالى يقول أنتم لستم مكلفين (نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ)^(٤).. من الناحية الإيمانية عليك ألاّ تحسّم المسألة في هذا الجانب على أساس أن هناك طريقاً مسدوداً لا يمكن أن تخترقه.. لكن لو فرضنا أنك أردت أن تُفكّر في القضية من خلال الأخذ بالأسباب العادية، وربما تفكر في ذلك من ناحية الراحة، أو من ناحية بعض الأوضاع والرفاهية، فإنّ الإسلام لا يُحجّرُ عليك.. وهناك تحفّظات في المسألة التي أُثيرت على أساس أن تنظيم النسل يلتقي بوسائل منع الحمل والإجهاض.

محرّمات

في النظرة الإسلامية، وسائل منع الحمل ليست محرّمة، إلاّ أن هناك تحفّظاً في وسيلتين: الوسيلة الأولى، التعقيم، باعتبار أن التعقيم يُمثّل قتل الطاقة، والله تعالى رخصنا في أن نُنظّم طاقاتنا أو نجمدها، ولم يرخّصنا في قتل الطاقة، لأنّ الطاقة تمثّل جزءاً من الحياة، فقتلها قتلٌ لجزء من حياتك، فأنت قادرٌ أن تغمض عينك مدّة طويلة، ولكن لا يجوز أن تفقأ عينك، أنت قادرٌ أن تُغلق سمعك، ولكنك لست حراً في أن تقتل سمعك. وهكذا، فالتعقيم، سواء كان تعقيم الرجل أو تعقيم المرأة محرّمٌ لأنّه قتلٌ لجزء من حياة الإنسان. والله سبحانه لم يُسلّط الإنسان على أن يقتل نفسه بالتقسيط في هذا

(٣) الإسراء: ٣١.

(٤) الإسراء: ٣١.

المجال، فليس هناك فرقٌ بين أن تقتل العضو، أو تقطع رجلك أو تشلّها، هذا قتلٌ للحياة. ولكن بعض الفقهاء يقولون: إذا كانت المرأة في وضعٍ مرَضِيٍّ صعب جداً، أو ما أشبه ذلك، وليس هناك طريق إلاّ التعقيم، فيجوز التعقيم في هذه الحالة.

المسألة الثانية، هي الإجهاض، البعض يُصوِّر قضية الإجهاض بالنسبة للمرأة بطريقةٍ مأساوية.. هناك حَمْلٌ لا ترغب به المرأة، لماذا تريدون أن تفرضوه عليها؟ أو أن الأبوين لا يرغبان بذلك، لماذا لا تكونون إنسانيين؟ هذا هو الكلام الذي يُطرح لدى هؤلاء، لماذا لا تكونون إنسانيين؟ لماذا تفرضون على المرأة أن تتحمل هذا الولد الذي جاء خطأ، سواء من علاقة مشروعة، أو من علاقة غير مشروعة، لماذا ذلك؟

إنسان ثالث

كأنّ المسألة تتصل بالجانب الذاتي للمرأة، أو للمرأة والرجل في وليدهما! لكن هناك شخصٌ ثالث، وهو الحَمْل.. يمكن للمرأة ألاّ تحمل، هذه حريتها. يمكن أن تستخدم كلّ وسائل منع الحمل، هذا شأنها. ولكن عندما يكون هناك حَمْلٌ، فهناك حياة جديدة، قد تكون هذه الحياة بدأت رحلتها في اليوم الأول، أو في الشهر الأول أو في الشهر الثاني، هناك إنسانٌ آخر، قد لا يكون إنساناً متكاملأً، ولكنه مشروع إنسان.. عندما نُفكّر بهذه الطريقة وأحبّ أن تفكروا معي، إنّ المرأة إذا لم ترغب في حملٍ، فمن حقّها أن تستغني عنه، على هذا الأساس، لماذا لا نقول: إنّ المرأة إذا لم ترغب في الولد بعد ولادتها له، يمكن أن تقتله؟ نفس الجانب الإنساني المأساوي، نفس النظرة المأساوية الشعاعية الخيالية في هذا المجال.. فإذا كان المبرر أن نقتل حياة عمرها شهر، أو حياة عمرها أربعة أشهر، أو أن نقتل حياة عمرها عشرة أشهر، فأبيّ فرق إذا كانت المسألة عدم الرغبة، أو إذا كان الإنسان حرّاً في أن يقتل الجنين الذي لا يرغب به؟

إذاً، عندما نريد أن نفكر في هذه المسألة، علينا ألا نفكر في المرأة الحامل، علينا أن نفكر في الحمل والمرأة الحامل، لذلك نجد أن هناك بعض الاجتهادات تقول: إن الحمل إذا تحول إلى خطر على حياة المرأة، فيجوز لها أن تجهض، لأن القضية تتخذ سبيل الدفاع عن النفس، تماماً كما أن الإنسان إذا هجم عليه إنساناً آخر ليقته، يجوز له أن يدفعه أو يجوز أن يدفعه عن نفسه حتى يقتله.

كما أن هناك بعض الاجتهادات تقول: إذا فرض أن الحمل كان يضر المرأة ضرراً بالغاً جداً، حتى لو لم يصل إلى الخطر على الحياة يجوز ذلك، ولكن حسب التعبير الشرعي، قبل نفخ الروح، أي قبل الأربعة أشهر.

محاكمة الذهنية

فالقضية من الجانب الديني، هي أن الإسلام ليس ضد تنظيم النسل، بل ضد الذهنية التي تنطلق في تنظيم النسل من عدم الثقة بالله، ومن اليأس من وجود أية فرص.. هذا يسيء إلى الروحية الدينية، أما بالنسبة إلى الجانب الآخر، فيمكن للإنسان أن يفكر بتنظيم النسل إذا خرج عن هذين التحفظين: التعقيم والإجهاض مع الملاحظات التي ذكرناها حول الإجهاض.

ومن الطبيعي، عندما نفكر في مسألة تنظيم النسل، علينا ألا نستغرق في هذه المسألة تحت تأثير دعوات لجان تنظيم النسل، بل علينا كشعب، كأمة، كمجتمع... أن نتحرك من أجل مواجهة قضايا التنمية في مجتمعنا، سواء كانت هذه القضايا تتصل بالمسألة الاجتماعية في حركة المجتمع، أو كانت تتصل بالمسائل السياسية الداخلية والخارجية، لا بد لنا أن نوازن، لتكون المسألة، موازنة بين مشاكل السكان ومشاكل التنمية، فلا نعيش الأحكام غير المدروسة، بل نواجه كل موقع من مواقع الواقع تبعاً لطبيعة المشكلة والظروف الموضوعية التي تحيط بهذا الموضوع أو ذاك.

■ **آلات التصوير الصوتي تحدّد بدقة متناهية جنس الجنين، وتحدد دقات قلبه، وقياساته كلها، وحالة نموه، وتُظهر إذا كان هناك تشوهات خلقية مصاب بها.. ولكن بعض الناس لا يريدون تصديق ذلك، على أساس أن الله وحده يعلم ما في الأرحام، ما قولكم في هذا؟**

* كلما تعمقنا بالعلم أكثر، كلما اكتشفنا الله أكثر، وكلما جهلنا أكثر، كلما ابتعدنا عن الله والدين أكثر.. الدين ليس شأن الجاهلين، ولكنه شأن العلماء.

بين علم وعلم

□ بعض الناس يتصورون عندما يكتشف العلم بعض المسائل العلمية، يتصورون أن الإيمان بنتائج هذه الإكتشافات يصادم الإيمان بأن الله وراء كل شيء.. عندما صعد الإنسان إلى القمر لم يصدق البعض، لأنهم يعتبرون أن القمر هو السماء كلها، فكيف يمكن للإنسان أن يصعد ويخترق السماء؟ وهكذا بالنسبة إلى هذه المسألة أن الله تعالى (يعلم ما في الأرحام)، هل هو ذكر أو أنثى، وما هي طبيعته؟

الآية طبعاً تشير إلى أن الله يعلم ما في الأرحام من ناحية ذاتية، هو سبحانه يعلم كل شيء، يعلم ما في أعماق البحار وما في غيرها (يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)^(١). أما نحن فنعلم السر من خلال ملامح الإنسان.. والفرق بين علمنا وعلم الله، أن الله يعلم الأشياء بشكل

(١) طه: ٧.

مباشر من دون حاجة إلى أي وسائل، ولكن نحن نعلم من خلال الوسائل التي ألهمنا الله اكتشافها، ونعلم الأدوات التي عرفنا الله كيفية استخدامها، فالله يعلم ما في الأرحام، لأنه خلق ما في الأرحام (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)^(٢).

لا مبرر للتصادم

فإذاً هناك فرق بين العلم بشكل مباشر، والعلم بشكل غير مباشر، ولذلك لا مشكلة من هذه الناحية^(٣). ولذلك نقول: إن الدين لا يصادم العلم، بل إن الدين يمرّ حلريق العلم.. وما زلت في أكثر من محاضرة أردد: إذا أردتم أن تعرفوا الله، وتؤمنوا به، فافتحوا كتاب علم النبات، وعلم الحيوان، وعلم الإنسان، وعلم الطبيعة، والفيزياء والكيمياء... فإنكم من خلال ذلك تستطيعون أن تكتشفوا أسرار الكون، وعندما تكتشفون أسرار الكون - التي تنطلق من خلال قانون الزوجية، من أصغر ذرة إلى أكبر شيء - تؤمنون عندها بالله بشكلٍ أعمق من إيمان الكثيرين حتى من الفقهاء، لأنه هناك فرق بين أن تؤمن من خلال عمق سرّ الله في خلقه، وبين ما يؤمن به الآخرون من خلال النظريات. ورحم الله المكتشف اللبناني حسن كامل الصباح العامل الذي كان يقول: «إن العلوم الطبيعية إذا عبّت عباً، قرّبت من الله، وإذا رُشفت رَشْفاً أبعدت عن الله».

كلما تعمّقنا بالعلم أكثر، كلما اكتشفنا الله أكثر، وكلما جهلنا أكثر، كلما ابتعدنا عن الله وعن الدين أكثر.. الدين ليس شأن الجاهلين، لكنه شأن العلماء.

(٢) علمنا بجنس الجنين من خلال الصورة الصوتية.

(٣) الملك: ١٤.

■ ما رأي سماحتكم بقضية زرع الأعضاء، واستئصال عضوٍ ما من جثة ميت؟

قيمة حياة الإنسان

□ هذه المسألة لا تزال تتحرك في مجالات البحث الفقهي.. المبدأ في الإسلام، هناك احترام لجسد الميت، كما هناك احترام لحياته.. فحرمة المؤمن ميتاً كحرمته حياً، ولذلك فُرِضت ديةٌ على قطع الأعضاء والتمثيل بالميت، تماماً كما هناك ديةٌ على قطع أعضاء الحيّ أو قتله.. هذا طبعاً في الدائرة الإسلامية.

في الدوائر غير الإسلامية، قد لا يكون هذا المفهوم حيويّاً في الجانب الفقهي، لا سيما أنّ بعض الأديان لا تملك نظاماً فقهيّاً.. ومن هنا، فإنّ الإسلام يتعامل مع الآخرين الذين لا يعتبرون تشريح جسد الميت هتكاً لحرمته، فإنّه يتعامل معهم على أساس أنّه لا يقف عثرة في هذا الموضوع، بل يجيز للطبيب المسلم تشريح جسد وأعضاء مَنْ ليسوا بمسلمين، لا انتقاصاً منهم، ولكن لأنّ في الإسلام قاعدة في التعامل مع الأديان (الزموهم بما ألزموا به أنفسهم) و (جائزٌ على أهل كلّ ذي دين ما يدينون به)، وهذه نقطة انفتاح على الإسلام، لأنّ للإسلام قوانين ونظماً، ولأنّ للأديان الأخرى قوانين ونظماً.. لذلك إذا أردت أن تتعامل مع الآخرين من خلال أن لك قوانينك فحسب، وللآخرين قوانينهم، فستصل إلى طريق مسدود، ولكنّ الإسلام يقول لك: «جائزٌ على أهل كلّ ذي دين ما يدينون به». فأمضى الإسلام الخطوط العامة التي لا تختلف ولا تتنافى بشكلٍ مباشرٍ بينه وبين أديان أخرى.. ولذا للإسلام قوانينه في الزواج، ولكنه يُمضي زواج الآخرين: «لكلّ قومٍ نكاحٍ يحتجزون به عن الرّنا»، ولهذا يُعطيها شرعية.

وعلى هذا، ولأنهم^(١) لا يرون تشريح الجثة ضدّ الإحترام، بل يرونه أمراً طبيعياً. فإنّ الإسلام يعاملهم بحسب التزاماتهم في هذا المجال، ولذلك، فالإسلام يجيز للطبيب المسلم أن يُشْرَحَ الجسد وأن يأخذ من الأعضاء إذا كان مسموحاً له من قبلهم، أما بالنسبة إلى تشريح جثة المسلم، فلأنّ هناك قيمة في مجال احترام الجسد، فإنّه من حيث المبدأ لا يجوز ذلك.

لكن هناك تحفظات يمكن لها أن تفتح الأفق في هذا المجال، عندما يكون هناك ضرورة في مستوى حفظ الحياة لإنسانٍ حيّ تتوقف على أن نأخذ عضواً من أعضاء الميت ونزرعه في جسد هذا الإنسان، فإنّ الكثير من الفقهاء يجيزون ذلك، وبعضهم قد يتحدث عن دية، وبعضهم يقول: إنّ كلّ مشروع لا دية فيه.. كلّ أمرٍ شرعي لا دية فيه..

قاعدة فقهية

وينطلق هذا الترخيص من قبل بعض الفقهاء، ونحن منهم، من أنّ هناك قاعدة في العلم الأصولي تُسمى بقاعدة «التزام» في المذهب الشيعي الإمامي، وتُسمى «بالمصالح المُرسلة» في مذهب المسلمين السُنّة.. وهي أنه إذا وقفنا أمام أمرين، أحدهما يشتمل على مفسدة، والآخر على مصلحة، ولا يمكن لنا أن نجمع بينهما.. في مثل هذه الحالة لا بدّ أن نوازن، لنحدّد الحكم الشرعي النهائي.. المفسدة تقول حرام، والمصلحة تقول حلال، وهناك تنافٍ بينهما، ولكن لا بدّ أن نختار أحدهما لنتحرك. هنا إذا كانت المفسدة أهمّ من المصلحة وقد تغلب المفسدة المصلحة، فالنتيجة تكون الحرمة، وإذا كانت المصلحة أقوى من المفسدة، فإنّ النتيجة هي الحليّة، وقد تكون الوجوب.. ويضربون على ذلك مثلاً: إذا كان هناك غريقٌ في النهر، وتوقف إنقاذه على أن تكسر باباً، أو تهدم غرفة

(١) الغربيون واهل الأديان الأخرى.

لتستطيع الوصول لانقاذ الغريق قبل أن يموت.. هنا يجب إنقاذ الغريق، ولكن يحرم أن تهدم باب أو غرفة الغير.. فإذا وازناً بين الأمرين، بين إنقاذ الغريق وهدم الغرفة، حسب الذهنية الفقهية، فنرى أن إنقاذ الغريق أهم، لأن الإنسان أهم من الحجر، وعندها يمكن أن نقول: حطّم الباب، اهدم البيت، وأنقذ الغريق.. وهكذا في كلّ الحالات.

احترام الجسد وإنقاذ الحياة

صحيحٌ أن السنة النبوية الشريفة ذكرت أن للجسد احترامه، لكن إذا دار الأمر بين أن نمنح هذا الميت الاحترام المعنوي الذي لا يُقدّم ولا يؤخّر بالنسبة إليه شيئاً، وبين أن ننقذ حياة إنسان، فإن من الطبيعي أن إنقاذ حياة الإنسان الذي يمكن أن يموت لو لم نُعطه هذا العضو من الميت، هو أهم في نظر الشرع من أن نحفظ حرمة هذا الميت، وهذا لا إشكال فيه عند الفقهاء جميعاً، إذا ما توقّف إنقاذ حياة إنسان على أن نأخذ عضواً من أعضاء الميت، فإنه يجوز.

وهناك نقطة ثانية، لو توقفت «سلامة» - لا حياة الإنسان - أو توقفت «توازن» حياة هذا الإنسان على عضوٍ يُزرع في جسده، مثلاً لو أمكننا أن نأخذ عين الميت قبل أن تموت خلاياها، لنزرعها في جسد إنسانٍ آخر ليُبصر. فإن هناك تحفظات لبعض الفقهاء.. ولكننا مع فقهاء آخرين نجد أن المصلحة في هذا المجال لتوازن حياة هذا الإنسان الحيّ ليعيش بطريقة أفضل، هي أكثر أهمية من الإساءة لهذا الميت في جانبٍ معنوي لا علاقة له به.

لذلك نحن نقول: كلما كانت «المصلحة» أقوى وأهم من هذه «المفسدة» المعنوية، فإن المصلحة تتقدّم، وبهذا يجوز لنا أن نأخذ من أعضاء الميت حتى ولم يرضَ أولياؤه، لأن الإنسان إذا مات تبطل علاقة كلّ الناس به، لا علاقة لأبنائه وإخوانه، ولا لأحد به، لأن

الميت لا يورث، إنما تُورث تَرَكَتُهُ، أما هو فقد أصبح من هذه الأرض التي لا يملكها أحدٌ إلا بطريقةٍ معينة.

الوصية

وهناك نقطة أخيرة، وهي أن الميت إذا أوصى ببعض أعضائه، كمن يعيش هذه المسؤولية في حياته وأذن بأخذ أي عضو من أعضائه بعد موته لإنسان آخر، فإن هذا يعتبر بمثابة الوصية.. وإذا أوصى الإنسان بذلك فليست هناك مشكلة من ناحية الاحترام، لأن الإنسان يُحترم من خلال الحرمة الذاتية له، فإذا «أهدر» هو احترام نفسه في مقابل أن يمنح عضواً من أعضائه، فمعنى ذلك أنه هو الذي تنازل عن هذه الحرمة، فيجوز ذلك عندها، لأننا لن نكون ملكيين أكثر من الملك.

إذاً، ليست المسألة مُعلقة في هذا المجال، ويجوز لنا أن نأخذ من أعضاء الميت في الحالات التي تتوقف عليها الحياة، أو في الحالات التي يكون زرعُ هذا العضو في جسم الحي له أهمية تتجاوز أهمية المفسدة المترتبة، أو في حالات الوصية.

■ يطلب الأهل دائماً إخفاء حقيقة حالة المريض عنه لأسباب عاطفية، مما يُدخل الطبيب في متاهات الكذب والإزدواجية. ولكن في الغرب يجب أن يعرف المريض حالته مهما كانت يائسة، وإلا تعرّض الطبيب للملاحقة القضائية.. ماذا تقولون في ذلك؟

□ من حيث المبدأ، ومن ناحية أخلاقية، لا يحرم على الطبيب أن يصارح المريض بمرضه بطريقة معقولة إنسانية، تلمح له ولا تصرّح، لأنها لو صرّحت فإنها تغلق عليه أبواب الأمل.. من ناحية المبدأ، ليست هناك مشكلة، لكن هناك مشكلة تتصل بالحرفية التعاقدية.. فهذا المريض جاء به أهله، وتعاقداً مع الطبيب، أو مع المستشفى الذي يعمل فيه الطبيب، وفرضوا شروطهم^(١) «والمؤمنون عند شروطهم»، فالقضية قد يكون فيها تحفّظ من الناحية التعاقدية، لا من الناحية الأخلاقية، ولذلك نقول إنّه يجوز بل قد يحسن ويرجح، بل قد يجب في بعض الحالات أن نخرج المريض من الأمل الكاذب، لأنّه قد يفوت على نفسه وعلى الناس أشياء كثيرة من خلال ذلك، وفيما يعيشه، أو فيما يستقبل به ربّه.

إذاً، من ناحية أخلاقية وشرعية ليس محرماً ذلك، إلا إذا كان إخباره يؤدي إلى التعجيل في وفاته، فمن الطبيعي أن هذا سيكون عملية استعجال لموته، ولو بشكل غير مباشر، وفي غير هذه الحالة لا مشكلة.. وبالنسبة للأهل، فالقضية تخضع للمسألة التعاقدية^(٢) وللشروط في هذا المجال.

(١) من شروطهم إخفاء الحقيقة عن المريض.

(٢) مع الطبيب أو المستشفى.

□ دور الدين في الوقاية من «السيدا» :

* بلاء أم نتيجة أسباب؟

* حدود الخطر.

* الوقاية.

* دور الدين.

■ إلى ما تردون رأي البعض بأن هناك رابطاً بين «السيدا» وبين البلاء الرباني؟

□ في تصوّري أنّ قضية البلاء الرباني في المفهوم القرآني، تنطلق من خلال عمل الإنسان الذي يُنتج مثل هذا البلاء، وذلك عندما تكون المسألة مسألة عضوية بين العمل والنتائج السلبية، وهذا ما نستوحيه من قوله تعالى: (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)^(١)، فليس من الضروري أن يكون البلاء عقوبةً بالمعنى الذي تنفصل فيه الظاهرة عن السبب العضوي، ليكون عقوبة على عملٍ لا علاقة له بالنتيجة، بل إن البلاء قد يكون نتيجةً لأعمالنا. فنحن نصنع بلاءاتنا عندما لا نجتنب الأسباب، أو نقتحم أجواء المرض، فمن الطبيعي أن نمرض فيما خلق الله من قانون السببية في الكون.

ونحن عندما نتحرك في المجتمع بطريقةٍ سياسية أو أمنية معينة، تُنتج الخوف والجوع والاهتزاز النفسي والتعقيدات... فمن الطبيعي أن تنطلق هذه النتائج من خلال هذه المقدمات.. ومن هنا، فإننا نتصوّر أن مسألة البلاء الرباني، إنّما هي مسألة الأعمال التي لا يرضاها الله سبحانه والتي نقوم بها والتي تُنتج هذا النوع من البلاء.

(١) الروم: ٤١.

■ برأيك ما هي حدود الخطر التي يشكّلها مرض «السيدا»، وهل بإباحة «الزواج المنقطع» دورٌ في الحدّ من هذا الخطر. وهل المسلمون بعيدون عن ذلك؟

□ «السيدا»، مرضٌ كأيّ مرضٍ من الأمراض المعدية، ومن الطبيعيّ أن يحتاط الإنسان لنفسه من هذا المرض المميت، كما يحتاط من أيّ مرضٍ مشابه، لأنّه يجب عليه المحافظة على حياته، ولا يجوز أن يُلقي بنفسه إلى التهلكة في أيّ موردٍ من الموارد التي تصل إلى هذه الدرجة.. وعلى هذا فإنّ أية علاقة زوجية، - سواءً كانت دائمة أو منقطعة - يخشى فيها الإنسان على نفسه من ذلك، فإنّه لا يجوز له أن يُقبل على الزواج، إلاّ مع الاحتياطات المانعة للعدوى، ولا يفرق في هذا بين زواج وزواج.. لهذا نحن أيّدنا القرار الرسميّ بضرورة الحصول على الشهادة الطبية قبل عقد الزواج، لأنّ ذلك يحمي الكثيرين من الأمراض الخفية التي لا يكتشفها الإنسان في نفسه، إلاّ من خلال الفحوصات الطبية.

ومن الممكن أنّ الزواج المنقطع الذي يمارسه كثيرٌ من النّاس بحرية من دون أية احتياطات، قد يكون وسيلة «شرعية» لانتشار هذا المرض، باعتبار أنّ هذا الزواج لا تضبطه ضوابط قانونية ولا اجتماعية، فيكون حاله حال العلاقات غير الشرعية في المجتمعات غير الملتزمة. من هنا تُثير هذه المسألة لدى كلّ النّاس الذين يمارسون أيّ نوعٍ من أنواع الزواج، الذي ينتهي إلى علاقة جسدية معينة، من أن يحتاطوا لأنفسهم في ذلك.

أما مسألة أنّ المسلمين بعيدون عن ذلك، فالقضية هي قضية الالتزام والوعي، أو عدم الالتزام وعدم الوعي، والمسألة بالنسبة للملتزمين من المسلمين، هي مسألة وعي، باعتبار

أن الإنسان الذي لا يملك وعياً، قد يتزوج بامرأة مصابة بهذا المرض نتيجة وضع معين، وليس من الضروري أن يكون هذا الوضع انحرافاً جنسياً، قد يكون من خلال «الحقن» أو من خلال نقل الدم، لذلك نؤكد على ضرورة أخذ الاحتياطات من خلال الفحوصات المسبقة.

■ هل ترون في الحملات الإعلامية التي تحثّ على ضرورة استعمال «العازل» الطبّي للوقاية من «السيدا» دعوةً في هذا المجال لارتكاب المحرّم؟

□ ربما لا تكون كلمة الحثّ دقيقة، قد يكون فيها إحاءاً بالرّضا عن العلاقات غير الشرعية الموجودة في المجتمع، فكأن «الإعلان» يريد أن يجنبهم من المشاكل مما قد يحمل بعض الإيحاء، بأنّ هذا شيءٌ طبيعيٌّ لا بدّ للنّاس أن يعالجوه كأيّ حالة انحراف تختزن مشاكل يُراد حلّها من أجل المحافظة على امتداد هذه الظاهرة السلبية... ربما كانت إيحاءات الإعلان في ذلك، ولكن لا أتصور أنّ الذين يُعلنون يقصدون ذلك، إنّما يواجهون المسألة مواجهة واقعية بحيث أنّ هناك واقعاً غير شرعي موجود إلى جانب الواقع الشرعي، يترك تأثيراً سلبياً على مجمل المجتمع.

وأعتقد أنّ الإعلان عن أخطار «السيدا» الذي يصنع للمجتمع ثقافة علمية تنذرهم بالنتائج الخطرة، قد يترك تأثيراً إيجابياً في خط المقاومة للمرض. ولكننا نعرف أنّ الناس قد يندفعون في شهواتهم بالمستوى الذي يفقدون فيه وعيهم للأخطار التي يُقبلون عليها، سواءً كانت أخطاراً جسدية أو أخطاراً اجتماعية.

■ ما هو الدور الذي يمكن أن يلعبه الدين وعلماء الدين في الوقاية من «السيدا»؟

□ إن الدين عندما يحذّر من العلاقات غير الشرعية، سواءً كانت طبيعية أو شاذة، فإنه يساهم مساهمة جيدة في تخفيف هذا الخطر، لأننا نعرف أن هذه العلاقات قد تصنع واقعاً واسعاً في هذا المجال. كما أن بإمكان علماء الدين أن يوجدوا وعياً لدى الناس باجتتاب المهالك، وتنبئهم إلى أن إلقاء النفس في التهلكة محرّم، إلى جانب توعيتهم بالنسبة إلى قضية الزواج، والاحتياطات التي ينبغي لهم أن يأخذوا بها على أساس أن الناس قد يسمعون من العالم الديني مما لا يسمعون من الآخرين.

□ الوحدة :

- * جهود.
- * تقييم للدور.
- * البيت الإسلامي.
- * الحالة الإسلامية والتعبير عن التطلعات.
- * قناعة أم لا؟
- * تقريب.
- * حملات التكفير.
- * الملفات القديمة.
- * المجتمع الإسلامي.

■ هناك بعض الآراء التي تقول، إن ما تبذله الجمهورية الإسلامية في إيران من مساعٍ حول الوحدة الإسلامية، كتأسيس دار التقريب بين المذاهب، وإقامة الندوات والمؤتمرات المختلفة. ما هي إلا جهودٌ ضائعة، حيث أن الوحدة لا يمكن تحقيقها بهذه الأساليب المذكورة، ما هو رأي سماحتكم؟

إزالة الوهم

□ إنني أعتقد أن الجمهورية الإسلامية قد فتحت أفقاً واسعاً في مسألة الوحدة الإسلامية من خلال الجهود التي تبذلها، ولا أقول ذلك من منطلق أنني من الذين يؤيدون خط الجمهورية الإسلامية في فكرها وسياستها، ولكني أقول ذلك بطريقة موضوعية، وهنا أشير إلى عدة نقاط.

النقطة الأولى، هي أن الجمهورية الإسلامية في إيران، وفي مؤتمراتها المتنوعة، استطاعت أن تجمع العديد من العلماء والمفكرين المسلمين وعلى مدى سنواتٍ عديدة، ليتداولوا في القضايا المشتركة، والمختلف عليها، وذلك لتضاء قضية في ذهنية المؤتمرين، أو ليُزال وهمٌ من أذهانهم، وذلك عندما يتحدثون، من خلال أبحاثهم التي يقدمونها، أو من خلال اللقاءات الخاصة والثنائية والشخصية... وهذا ما عمل على إزالة أوهام كثيرة، حيث كان بعض إخواننا السنة يتصور خط الإسلام في خط أهل البيت (ع)، خطأً منحرفاً، يمثل «البعبع»، والذي يجسد الخطر على الإسلام وأهله من خلال الأوهام التاريخية. ومن هنا، استطاعت هذه المؤتمرات أن تجعلهم وجهاً لوجه أمام

الحقيقة، إضافةً إلى ما وجدوه لدى الشعب المسلم في إيران من حماس للإسلام، وما رأوه من أوضاع إسلامية عبادية واحتفالية وعقائدية، وما إلى ذلك، وبهذا أدركوا الجانب المشرق من الصورة.. وإن هذه المؤتمرات استطاعت أن تُهيئ حركةً ذهنية ثقافية جديدة، لدى هؤلاء المؤتمرين عن طريقة الدراسة الميدانية البعيدة عن كل ضباب.

دعوة توحيد وتوضيح

أما النقطة الثانية، فإنّ الجمهورية الإسلامية، استطاعت أن تهيئ مناخاً وحدوياً من خلال لقاء العالم السني بالعالم الشيعي، والمفكر السني بالمفكر الشيعي في إطار جو إسلامي بعيد عن التعصب، أما «مجمع التقريب بين المذاهب الإسلامية» الذي ترعاه الجمهورية الإسلامية، فإنه يمثل الامتداد «لدار التقريب بين المذاهب الإسلامية»، حيث قام بجهود كبيرة في توضيح صورة المسلمين السنة، للمسلمين الشيعة، وتوضيح صورة المسلمين الشيعة للمسلمين السنة، من خلال أبحاث العلماء، وإثارة القضايا المختلف عليها فيما بينهم، ولهذا فإنّ السنين الخمس عشرة التي مثلت دور «دار التقريب» استطاعت أن تؤكد أجواءً وحدوية رائعة، كان في قمّتها فتوى شيخ الجامع الأزهر المرحوم «الشيخ محمود شلتوت» حول شرعية المذهب الشيعي بالإضافة إلى المذاهب السنية الأخرى، إضافة إلى قيام «دار التقريب» بطباعة «مجمع البيان في تفسير القرآن» الذي يمثل التفسير الأقرب إلى أجواء الوحدة، والذي تصدر بمقدمة للشيخ محمود شلتوت، وأعتقد أنّ كثيرين ممن عاشوا أجواء «دار التقريب»، وفي مقدمتهم - من بقي منهم - الشيخ محمد الغزالي*، قد استمروا في هذه الدعوة الوحدوية بطريقة وبأخرى.

ولذلك فإنّ «مجمع التقريب بين المذاهب الإسلامية» - الذي رعته قيامه الجمهورية

(* توفي الشيخ الغزالي في ١١ آذار ١٩٩٦م أثناء طباعة الكتاب.

الإسلامية، بقيادة آية الله السيد الخامنئي (حفظه الله) المنفتح على الواقع الإسلامي كله من موقع وعيه لقضايا المسلمين - قد بدأ رحلته في هذا الاتجاه الوجدوي - ولكنه يحتاج إلى وقتٍ طويل ليؤكد صفته وطروحاته بشكلٍ وبآخر.. وإِنِّي أتصورُ أنَّ الجمهورية الإسلامية قد استطاعت أن تُثير حركة ثقافية نفسية مناخية عملية في اتجاه الوحدة. ونحن نعرفُ أنَّ الوحدة الإسلامية التي عشنا قروناً عديدة بعيداً عنها، قد يمكن للمجمع أو للمؤتمرات واللقاءات والحوار أن يُهيئَ كلُّ ذلك الأجواءَ للتفكير بالوحدة، أو الإحساس بها، أو ضرورة حركة الوحدة في الواقع الإسلامي، ونحن نعرفُ أنَّ الخطوة الأولى في الطريق الصحيح، هي التي تمثل مسافة الألف ميل.

■ ما هو تقييمكم لدور الإمام الخميني (قده) في رسم معالم الوحدة الإسلامية، والأثر الذي تركه في ذلك؟

* كان الإمام الخميني (قده) رائداً في الحديث عن الوحدة في خط الصراحة، بدلاً عن الوحدة في خط المجاملة.

التزام مبدئي بشعار الوحدة

□ إن الإمام الخميني (رضوان الله عليه) هذا الإنسان المنفتح على قضايا الإنسان، من خلال انفتاح الإسلام كله على قضايا الناس في العالم، نجد أنه (قده) درس بوعيه الإسلامي السياسي الواقعي مسألة الاستكبار العالمي، ورأى أنها تتحرك بكل قساوة وقوة لاستغلال نقاط الضعف الموجودة داخل الواقع الإسلامي من خلال المذاهب المتنوعة التي تحوكت إلى عصبية متنوعة يقف فيها المسلم ضد المسلم الآخر، أكثر مما يقف فيها ضد صاحب الدين الآخر أو التيار الآخر، بفعل تاريخ التخلف والجهل، وبفعل الاستكبار الذي كان يعبث بالواقع الإسلامي. لذلك أطلق الإمام الخميني (قده) شعاره المعروف «يا مسلمي العالم اتحدوا» أو «أيها المسلمون اتحدوا»، وانفتح من خلال تجربته على قضايا المسلمين في العالم، ومن هنا كانت قضية فلسطين تمثل القضية المركز في تفكيره والتي أعطاه كل شيء، حتى أنه كان يفكر في وقت من الأوقات من خلال إيمانه بالقضية الإسلامية الواحدة، بتجميد صراعه مع النظام العراقي الذي يمثل النظام المستكبر ضد الجمهورية الإسلامية في إيران، ليدفع بالمسلمين في إيران لأن يأتوا لمقاتلة إسرائيل في فلسطين المحتلة، لولا أن رأى أن المصلحة لا تتوفر في ذلك لوجود بعض المشاكل التي لا توفر نجاح هذه الخطة، وهكذا رأينا أنه تبنى قضايا المسلمين في كل

مكان في العالم، بالرغم من أن هذه القضايا كانت تمثل في مجموعها الصفة المذهبية، وهي قضايا إسلامية سنية، وليست شيعية، ودفع بالجمهورية الإسلامية في مواقع الخطر على مستوى المواجهة مع الاستكبار العالمي.

إختراق الحواجز

ومن هنا، فإن الإمام الخميني (قده) استطاع أن يخترق هذه الحواجز السياسية المنطلقة من خلال حواجز نفسية وعصبية في العالم الإسلامي، بحيث أوجد حالة إسلامية تعبوية في أكثر من منطقة إسلامية، استطاعت أن تتحرك بروح وحدوية شعورية في المسائل الإسلامية المشتركة.

ولذلك، فإننا نتصور أن الإمام الخميني قد ترك تأثيره الكبير في مسألة الوحدة الإسلامية من الناحية السياسية، وهو عندما تحدث عن الوحدة الإسلامية من الناحية الفكرية، فإن منهجه كان يمثل المنهج الذي لا يريد أن تتحول المسائل الفكرية إلى شعارات فضفاضة مائعة، يمكن أن ينطلق بها الإنسان تجاه الإنسان الآخر بوحى المجاملة، تماماً كما يفعل الآخرون عندما يقولون، ليست هناك مشاكل بين المسلمين، وليست هناك خطوط فكرية صعبة، أو قضايا عميقة في هذه المسألة.

خط الصراحة

إن الإمام الخميني (قده) وبطريقته العملية في التفكير، كان يجد أن هناك قضايا أساسية يختلف فيها المسلمون، ويدور الجدل حولها، لذلك لا بد أن يتحرك العلماء ليتحاوروا في هذه القضايا ليصلوا إلى نتيجة حاسمة حول كافة المواضيع، لأن بقاء القضايا الحيوية الفكرية في الذهنية الثقافية التي تتوارثها الأجيال، يمكن أن يؤثر المشكلة في كل وقت من الأوقات، لهذا كان (قده) يدعو إلى وحدة تحسم الجدل، وإلى

وحدة تُسمَّى الأشياء بأسمائها، وحدة بالإخلاص إلى الإسلام في بحث القضايا الإسلامية بطريقة علمية موضوعية تستهدي الأساليب الإسلامية في البحث، كان يريد أن يقول للمسلمين، إنَّ الشيعة والسنة يجب أن يفكروا بأنَّ الإسلام هو هدفهم، وإنَّ وعي الإسلام في عقائده وشرائعه ومناهجه وخطوطه الفكرية، هو الذي يُبْرِئ ذمتنا أمام الله عندما نصلُ إلى الحقيقة في ذلك.

وعندما نتصوّر الإمام الخميني، العالم المجتهد الفيلسوف المنفتح بإخلاص على قضايا الإسلام، نعرف أنه كان يفكر بأننا لا نستطيع أن نصل إلى وحدة في الفكر، إلّا من خلال حركة الفكر بطريقة علمية موضوعية، ولا نستطيع أن نصل إلى تقارب في المسألة الفكرية، إلّا من خلال مناهج البحث، التي تتوقف عند نقاط اللقاء، وتتجاوز في نقاط الخلاف لتقربها من بعضها البعض.

وهكذا أطلق (رضوان الله عليه) المسألة الوجدية في المسألة الثقافية من موقع الفكر والعلم، وإنّني أعتقد أنّ علماء المسلمين لو أخذوا بهذا المنهج، وانطلقوا ليتحاووا فيما اختلفوا فيه ليسمّوا الأشياء بأسمائها، ولتكون الصراحة هي الأساس لتوصلوا إلى نتائج هامة. ومن هنا، فإنَّ مشكلتنا أنّنا عندما نتحدّث فيما بيننا، حتى على مستوى العلماء، فإنّنا نتحدّث بطريقة «النفاق المذهبي» - إذا صحَّ التعبير - ولا نتحدّث بطريقة الصراحة العلمية الموضوعية، وقد كان الإمام الخميني (رحمه الله) رائداً في الحديث عن الوحدة في خط الصراحة بدلاً عن الوحدة في خط المجاملة.

■ إذا أردنا إعادة ترتيب البيت الإسلامي، فما هي الأولويات التي تحظى باهتمامكم؟

* المشكلة التي نواجهها أن كل فريق إسلامي حركي يعيش مشاكله الخاصة.

* علينا في هذه المرحلة أن نعمل على إيجاد تواصل بين الإسلاميين يوحد إعلامهم في مواجهة الإعلام الاستكباري العدواني.

أساس المشكلة

□ في تصوّري، أن المشكلة في البيت الإسلامي، إفتقاده للمرجعية الفكرية التي تلاحق الواقع في جميع مواقعه، وفي جميع تطلعاته ليدرسها ويجمع مفرداتها، وليعمل على أساس إيجاد لقاء فكري بين مختلف أفراد العائلة الإسلامية، ليقدم كل شخص منهم، أو لتقدم كل جهة أفكارها وتصوراتها ومشاكلها وقضاياها، مقارنة بالقضايا التي تقدمها الجهة الأخرى، ليخرج الجميع من خلال هذا الحوار الإسلامي المتميز بدراسة الخصوصيات العميقة التي تمثل تنوع الواقع الحركي الإسلامي، بعيداً عن الأضواء، وعن الشعارات، ليخرج الجميع باستراتيجية واحدة، تتوزع فيها المواقع الإسلامية المتعددة الأدوار، حتى يكون لنا خط إسلامي واضح في مواجهة التحديات التي يطلقها الموقع الكافر الواحد، والمستكبر الواحد.

إذاً، المشكلة التي نواجهها في هذه المرحلة، هي أن كل فريق إسلامي حركي يعيش مشاكله الخاصة بعيداً عن الاهتمامات التي تربطه بالفريق الآخر.

إيجابية التلاقي والتواصل

إنني أزعم أنه ليس لدينا حركة إسلامية واحدة.. هناك حركات إسلامية قد تكون متباعدة في الفكر، أو في الخط السياسي... أو في أساليب العمل السياسي. ونحن نعتقد أن من الضروري لأية قيادة إسلامية أن تعمل على تجميع هذه المواقع وترتيبها، والعمل على إيجاد حالة من التعارف بينها، لأننا فيما عشناه من بعض التجارب، رأينا أن اللقاء بين الإسلاميين يمكن أن يُغيّر الكثير من الأوهام التي يحملها بعضهم عن البعض الآخر، كما يمكن أن يُقارب بين خطوات بعضهم البعض، باعتبار أن هذا اللقاء يُقدّم لكلّ منهم الفرصة التي يمكن أن يستفيد منها فيما يجده عند الآخر من فرص ومواقف ومواقع.

ربما نجد أن علينا في هذه المرحلة بالذات، إذا لم نستطع الوصول إلى الأولوية الاستراتيجية الأولى، أن نعمل على إيجاد تواصل بين الإسلاميين يوحد إعلامهم في مواجهة الإعلام الاستكباري العدوانى الواحد والمتعدد الأصوات، والمتنوع الأدوار، الذي يشنّ حرباً إعلامية عالمية سياسية على كلّ المواقع الإسلامية، وعلى كلّ هذا الخطّ الإسلامي الحركي، الذي حاول أن يطلق عليه اسم «الأصولية»، هذا المفهوم الذي يحمل صورة معقّدة لدى الإنسان الغربي، باعتبار أنه يحمل معنى العنف كوسيلة وحيدة للحركة، ويحمل معنى إلغاء الآخر.

إنّ علينا أن نعمل على إيجاد موقع قاعدة إعلامية موحّدة، يُمكن لها أن تواجه هذه الحرب الموحّدة حتى نستطيع أن نحمي أنفسنا ووجودنا من هذا الهجوم الصاعق، لتبقى لنا مواقعنا في الوجدان العالمي، ولنتمكن بعد ذلك من أن نرتّب أمورنا في وضع طبيعي، أو قريب من الوضع الطبيعي.

■ برأيكم هل أنّ الحالة الإسلامية قادرة على التعبير عن هموم ومتطلبات الناس؟

* إن انحسار الحكم الإسلامي عن ساحة الواقع، لم يعنِ انحسار الإسلام عن هذه الساحة.

* الإسلام يقول للإنسان: إنك عبدٌ لله وحده، وحرّاً أمام العالم.

* لا يكفي لأية حالة إسلامية أو غير إسلامية أن تطرح القضايا الكبرى، بل لا بدّ لها من أن تملك وعيَ تحريك هذه القضايا.

في خطّ الثبات

□ هناك نقطة لا بدّ أن ندرسها قبل أن نُطلّ على مصطلح الحالة الإسلامية، وهي أنّ الإسلام بكلّ ثروته الفكرية على مستوى العقيدة والمفاهيم، وبكلّ ثروته التشريعية على مستوى الفقه، استطاع أن يُثبت حيويته وحركيته وفاعليته وقدرته على البقاء طيلة هذه القرون. وهذا يؤكّد أنّ هناك شيئاً في الإسلام يتمرّد على الزوال والفناء وما شابه ذلك، مما يدلّ على أنه لا يزال يمثل شيئاً في الإنسان، وأنّ انحسار الحكم الإسلامي عن ساحة الواقع لم يعنِ انحسار الإسلام عن هذه الساحة، لأنّ الناس على مستوى الأفراد، وعلى مستوى المجتمعات الإسلامية لا يزالون يطبّقون الإسلام جزئياً في حياتهم. ومن هنا، فإننا نتصوّر أنّ حركة الإسلام في الغدّ هي امتدادٌ لحركته في الماضي والحاضر.

أما عندما نتحدّث عن مصطلح الحالة الإسلامية التي تمثّل الانفتاح الحركي على

الواقع من خلال الإسلام، سواء من الناحية السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو الثقافية العامة، فإنني أتصور أنّ العناوين الكبرى التي طرحها الإسلام للحياة هي عناوين الحياة.

عمق الأسس

عندما نقرأ مثلاً الآية الكريمة التي تُفلسف عمق الأساس الديني في حركة الرسالات فتقول: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ)^(١)، والقسط هو العدل، فإنها تقول، إنّ حركة الرسالات هي في عمقها حركة عدل.. وعندما يطرح الإسلام العدل كأساس لحركيته الفكرية والفقهية، فإنّ معنى ذلك، أنّه يطرح حركة الحياة في حركته، لأن العدل أن يعدل الإنسان مع نفسه وربّه ومع النَّاس، كما يعني عدل الحاكم والمحكوم والقانون، كذلك فنحن عندما نُفكّر بأنّ الإسلام طرح مسألة حرية الإنسان، فلأن الإنسان حرّ في إرادته وأمام الآخرين، وعندما نقرأ الكلمة المروية عن أمير المؤمنين عليّ (ع): «لا تكن عبد غيرك وقد خلقك الله حُرّاً»، فإنّ معنى ذلك أنّ الحرية هي جزءٌ من ذاتية الإنسان، والإنسان لا يملك أن يتنازل عنها، وفي ضوء ذلك فإنّ الآخرين لا يملكون السلطة على الإنسان، ولذلك نؤكد دائماً أنّ الإسلام يقول للإنسان: إنّك عبدٌ لله وحده، وحرّاً أمام العالم. وعندما يطرح الإسلام حرية الإنسان من حيث إرادته وانطلاقة فكره، ومن حيث حركيته السياسية، وعندما يطرح العدالة، فأى شيء في الحياة يمكن أن يبتعد عن قضية الحرية والعدالة؟

شمولية الرؤية والتوجه

لذلك، فإنني أعتقد أنّ الحالة الإسلامية، عندما تطرح قضية حرية الإنسان وعدالة

(١) الحديد: ٢٥.

حركته في الواقع، فإنها تطرح شيئاً للحياة، ولا يمكن أن يسقط هذا أمام أية تطورات وأية متغيرات.. لكنّ هناك نقطة لا بدّ أن نلاحظها، وهي أنّه لا يكفي لأية حالة سواء كانت إسلامية أو غير إسلامية أن تطرح القضايا الكبرى وحسب، بل لا بد لها من أن تملك وعي تحريك هذه القضايا في حياة الناس، وتملك الحكمة في إدارة تفاصيلها، حتى لا تثقل الحياة بالفهم الخاطيء، أو الأسلوب الخاطيء.

إنني أتصور أنّ علينا كحالة إسلامية، أن ننطلق في الواقع من أجل أن نجعل الواقع واعياً للإسلام، وأعتبر أنّ للمسألة الثقافية دوراً كبيراً في حركة الوعي السياسي والاجتماعي، وهي من المسائل الحيوية.. ولذلك فنحن نؤمن بالحوار مع كل الناس، واللقاء مع كل الذين نلتقي معهم في بعض المواقع وبعض الأفكار، لنتحاور معهم، فيما نختلف فيه، ومن الطبيعي أننا عندما نريد أن نركّز حركتنا السياسية، فلا بدّ أن تنطلق الحركة السياسية من خلال الاعتراف بالآخر، وعدم إغائه، لأنّ مسألة إلغاء الآخر تحوّل الحركة في الواقع إلى حركة صدامية، لا يمكن معها للحياة أن تحتضن الجميع.

وإنني أعتقد أن الصراع الفكري القائم على أساس احترام رأي الآخر، وتقديم كلّ المعطيات التي يمكن أن تقنع الآخر بالفكر الذي نلتزمه، هو السبيل الذي يمكن للحالة الإسلامية أن تتجذّر فيه في وعي الناس، لا سيما إذا عرفنا حقيقةً، وهي أنّ الإعلام الاستكباري العالمي يحاول تشويه صورة الحالة الإسلامية، إمّا من خلال التقاط بعض المفردات التي قد تعيش في نطاق الساحة الإسلامية في أوضاع الصراع الحادة حتى يقدمها كنموذج وكمثلٍ لما يمكن للحالة الإسلامية أن تفتتح عليه في قضايا الحرية والعدالة، وإمّا من خلال ما يُشوّه به الصورة في أساليبه المتنوعة.

■ البعض يقول: تدعون إلى الوحدة الإسلامية وأنتم غير مقتنعين بهذه الدعوة.. ردكم على ذلك؟

شهادة الماضي

□ في عام ١٩٥٢م، كنتُ ما زلت طالباً من طلاب النجف الأشرف، وجئت إلى لبنان في أول زيارةٍ لي، وصادف ذلك وفاة المرحوم السيد محسن الأمين (قده) وشاركت في احتفال أربعينته.. مضى على ذلك ٤٣ سنة تقريباً، وكان الاحتفال الذي جرى لتأبين السيد الأمين من أضخم الاحتفالات، حضره كبار علماء لبنان وكبار الزعماء وأبرز المفكرين، وكان من بين هؤلاء المرشد للإخوان المسلمين الدكتور مصطفى سباعي، ألقى قصيدة دعوت فيها للوحدة الإسلامية، وهي مطبوعة في «أعيان الشيعة» وفي ديواني، أذكر مقطعاً منها:

«... والدين وهو عقيدة شعت على أفق الوجود
ومبادئ توحى لنا روح التضامن والصمود
عرفتنا فيه الحياة بما حواه من البنود
وأريتنا أن الإخاء من الهدى بيت القصيد
فالمسلمون لبعضهم في الدين كالصرح المشيد
لا طائفية بينهم ترمي العقائد بالجحود
والدين روح برّة تحنو على كل العبيد

تهفو لتوحيد الصفوف ودفع غائلة الحقوق

عاش الموحدُ في ظلال الحق في أفق الخلود»

في خط عليّ

قلت هذه القصيدة قبل أن تدعو الأحزاب الإسلامية وغيرها للوحدة.. هذا أولاً.. ثانياً، إن الذي يدعو للوحدة الإسلامية، بمعنى الانفتاح على المسلمين لمصلحة الإسلام، موقفه كموقف أمير المؤمنين علي (ع) الذي يقول «فما راعني إلا انثيال الناس على فلان يبايعونه، فأمسكتُ يدي، حتى إذا رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام، يريدون محقّ دين محمد (ص) فخشيت إن أنا لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً تكون المصيبة به عليّ أعظم من فوت ولايتكم هذه، التي إنما هي متاع أيام قلائل يزول منها ما زال، كما يزول السراب، فنهضت حتى زاح الباطل وزهق، واطمان الدين وتنهنه». ويقول (ع) أيضاً: "لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين، ولم يكن بها جورٌ إلا عليّ خاصة".

ثم كلمة الإمام الصادق (ع) تصبُّ في المعنى نفسه: «صلّوا جماعتهم وشيّعوا جنائزهم، وعودوا مرضاهم حتى يقولوا رحم الله جعفر بن محمد، فلقد أدب شيعته». ما معنى «عودوا مرضاهم وشيّعوا جنائزهم» قدّم (ع) تعليلاً «حتى يقولوا رحم الله جعفر بن محمد فلقد أدب شيعته». ويقول (ع): «كونوا زيناً لنا ولا تكونوا شيناً علينا».

الوحدة الإسلامية لا تعني أن يكون الشيعي سنياً.. لكن في أن يلتقي المسلمون على ما يتفقون عليه: دينٌ واحد، وعدوٌ واحد.. فإذا أردنا أن نُثير العصبية ضدّ بعضنا بأساليب انفعالية، فستتور العصبية الأخرى بأساليب انفعالية.

نحن مسلمون شيعة، علينا أن نلاحظ مصلحة الإسلام في حركة الوحدة، نبقى شيعة في كلِّ عقائدنا، ولكن نحن مسلمون نتحرك على أساس الإسلام.

حفظ الوحدة، وبحسب الواقع الذي نعيشه، وأمام التحديات الكبرى ضرورة، لأنَّ الذي يطعنُ بالوحدة الإسلامية، يسير على خط أميركا.. لا نقول هذا شعاراً، فأمركا ممنوعٌ عندها، الوحدة الإسلامية، والوحدة الشيعية، والوحدة الوطنية.

■ برأيكم هل هناك إمكانية تقريب حقيقي بين المذاهب الإسلامية؟

- * إن ما يتحدث به السُّنة والشيعية في خلافاتهم، هو الذي كانوا يتحدثون به قبل ألف سنة.
- * ليست القضية في شعارات الوحدة الإسلامية لنجامل بعضنا، القضية أن هناك جراحاً علينا أن نضمدها، وخطراً علينا أن نواجهه.
- * فلتكن المذهبية مذهبية فكرية لا مذهبية طائفية عشائرية.

بحثاً عن لغةٍ للتفاهم

□ في تصوري أن حركة التقريب تحتاج إلى نوعين من الحركة، النوع الأول: الحركة الفكرية، وهو أن يبحث كل فريق من المسلمين في الدائرة الفكرية العالية، في عقائده وخطوطه الفكرية من جديد، بحيث يعرف الشيعة ما هو خط التشيع في العمق، وذلك بالمعنى العلمي الذي يمكن لهم أن يدافعوا فيه عن أفكارهم وعقائدهم ومذاهبهم الفقهية بطريقة إسلامية منفتحة على كل المصادر الإسلامية، وأن يدرس السنة عقائدهم ومذاهبهم الفقهية ومفاهيمهم الإسلامية من خلال المصادر الإسلامية الأصلية، بحيث يشعرون أن بإمكانهم أن يدافعوا عن المذهب إسلامياً، لأن المشكلة التي قد تواجهنا هي أن كل فريق يحاول أن ينطلق بالحجة مذهبياً لا إسلامياً.

ولهذا لا نجد هناك لغة للتفاهم بينهم، لأن كل واحد يتحدث مع الآخر باللغة الخاصة

التي يحرّكها في دائرته الخاصة بعيداً عن اللغة الإسلامية العامة. من هنا، فإننا نلاحظ أنّ ما يتحدث به السنّة والشيعّة في خلافاتهم، هو الذي كانوا يتحدثون به قبل أكثر من ألف سنة.. لم تتغيّر هناك مفردةٌ واحدة، لا على مستوى الإشكالات التي يوجهها فريقٌ إلى فريق، ولا على مستوى الأسلوب، ولا على مستوى الحجج التي يقدّمها هذا ويقدمها ذلك بالرغم من أنّ الحياة الفكرية تطوّرت ويمكن أن نستخدمها في حلّ الكثير من المشكلات.

عدم التنازل

المشكلة هي، أنّ السنّة لا يريدون أن يتنازلوا عن أيّ شيءٍ مما ورثوه، وأنّ الشيعة لا يريدون أن يتنازلوا عن أيّ شيءٍ مما ورثوه، بقطع النظر عما إذا كان ما ورثوه يخضع للبرهان أو للدليل أو لا يخضع، لأنّ القضية في بعض أوضاعها (إنّنا وجدنا آباءنا على أمةٍ وإنّا على آثارهم مقتدون)^(١).

لذلك لا نجد هناك أية حرية في داخل المذهب السني لمناقشة القضايا السنّية، وليست هناك أية حرية في داخل المذهب الشيعي لمناقشة القضايا الشيعية.. الحرية المطروحة هنا وهناك هي مناقشة الآخر، أما أن نناقش فكرنا في عملية نقدٍ علمي، فهذا ليس وارداً، بل قد نجد هناك إرهاباً فكرياً هنا وإرهاباً فكرياً هناك..

إنني أعتقد أنّ علينا أن ندرس ما عندنا، وأنّ عليهم أن يدرسوا ما عندهم بطريقةٍ علمية موضوعية، بعيداً عما إذا كانت هذه المفردات الفكرية أو الفقهية أو المفهومية، مما التزم به المتقدّمون أو مما لم يلتزموا به، لأنّ لدينا كمسلمين قاعدةً أساسية، وهي أن نرجع في كلّ ما تنازعنا عليه إلى الله، وإلى الرسول (ص). مما يجعلنا نحتاج إلى فهم

(١) الزخرف: ٢٣.

قرآني منفتح، وإلى توثيق لأحاديث الرسول (ص)، وفهم منفتح على هذه الأحاديث. وهذه النقطة التي أعتقد أننا إذا لم نعالجها، فمن الصعب أن يكون هناك تقارب فكري بين السنة والشيعية، لأن التقارب إنما ينطلق من خلال الحركة الذاتية مع النفس، التي تكون أساساً للحركة الذاتية مع الآخر.

دعوة للتلاقي

وأما النوع الثاني، فهو محاولة دراسة القواسم المشتركة التي يمكن للشيعية والسنة أن يلتقوا حولها، ونحن نستهدي القرآن في ذلك (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً، وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ)^(٢).. وهكذا عندما نقرأ الآية الأخرى: (وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ، وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)^(٣).

نحن عندما نقرأ هذين النصين القرآنيين نجد أن القرآن أراد أن يدعو أهل الكتاب من اليهود والنصارى إلى الكلمة السواء، وهي التوحيد والإيمان بالرسالات.. ونحن نعرف كم هي المفردات التفصيلية التي يختلف فيها المسلمون مع اليهود والنصارى في تفاصيل عقيدة التوحيد، وفي تفاصيل عقيدة النبوة.. ولكن الله سبحانه عندما أراد لنا أن نلتقي على الأرض المشتركة، قال لنا، انطلقوا من الخط العام للمبدأ، ولا تدخلوا في التفاصيل، فإذا وضعتم أرجلكم على الأرض المشتركة، وأطلقتكم كلماتكم على أساس الكلمة السواء، فإن بإمكانكم أن تناقشوا المفردات بروح اللقاء، بدلاً من أن تناقشوها بروح الفراق.

(٢) العنكبوت: ٤٦.

(٣) آل عمران: ٦٤.

ولو كانت المسألة هي أن نبحث التفاصيل في البداية، وأن نجعل من التفاصيل حاجزاً بيننا، لمنعنا ذلك عن اللقاء. فأية تفاصيل بين السنة والشيعية، كما هي التفاصيل بين المسلمين وبين أهل الكتاب؟

إننا نستطيع أن نستهدي هذا الأسلوب القرآني في مسألة اللقاء (تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم)، إنه يدعوهم إلى اللقاء، وهذا ليس أسلوباً في الحوار، ولكنه وسيلة من وسائل اللقاء.. إذاً يُمكن لنا أن نلتقي نحن أهل القرآن على كلمة سواء، هي شهادة «ألا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله».

قد نختلف في مسألة توحيد الله فيما يدور به الحوار بين الأشاعرة والمعتزلة، قد نختلف في مسألة الرسول (ص) هل هو معصوم بالمطلق، أو معصوم بالتبليغ، ولكننا نتفق جميعاً أن الله هو الإله الواحد، الذي هو الأحد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.. وملتقي مع بعضنا بأن رسول الله أرسله الله (بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون)^(٤)، وإن علينا أن نأخذ ما آتانا به، وأن نترك ما نهانا عنه.. (وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)^(٥). وهذا ما نتفق عليه، كما نتفق على الإيمان باليوم الآخر، ونتفق على أركان الإسلام من الصلاة والصوم والزكاة والحج والجهاد، وما إلى ذلك..

تحديات

إن هناك قضايا سياسية ملحة صعبة تواجه الإسلام كله والمسلمين كلهم في هذا العصر.. وكلّ قضايا المسلمين تعيش ألف مشكلة ومشكلة، وكلّ ساحات المسلمين مستباحة، وكلّ ثروات المسلمين مسروقة، وكلّ واقع المسلمين ينطلق في خط الفوضى،

(٥) الحشر: ٧.

(٤) التوبة: ٣٣.

وفي خطّ التعقيد والارتباك.. ماذا ننتظر لنلتقي على حماية أرضنا وثرواتنا ومقدراتنا وقرارنا السياسي وأمننا؟ هل أن مسألة الخلافة تمنعنا أن نقف ضدّ الاستكبار الأميركي؟ أو ضدّ الاستكبار الأوروبي، أو ضدّ أي استكبار آخر؟ هل أن خلافاتنا في أننا هل «نتكتّف» في الصلاة أو نُسبل، هي التي تمنعنا من أن نواجه إسرائيل من موقع واحد؟

إنّ الواقع الإسلامي الذي لا يزال يختزن في داخله مثل هذه الأحاسيس المرضية التاريخية، هو واقع متخلف، ويجعل المسلمين متخلفين عما كان عليه المسلمون في بداية الإسلام.

لا أريد أن أتكلّم حماساً وانفعالاً، ولكنني أتكلّم عن واقع مليءٍ بالجراح، وعن ساحة مليئةٍ بالتحديات، وعن مستقبل مليءٍ بالاهتزازات وعن حاضرٍ تنهار فيه الأرض تحت أقدامنا.

إنّ الله حدّثنا عن اليهود (بأسهم بينهم شديد، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى)^(٦)، وحدّثنا عن المسلمين (أشداء على الكفار رحماء بينهم)^(٧)، ولذلك انتصرنا عندما كنا كذلك وانهزموا.. ولكن تبدلت الصورة، فصار بأسنا بيننا شديداً، تحسبنا جميعاً وقلوبنا شتى، وكانوا (اليهود) أشداء علينا رحماء بينهم.

نقول للمسلمين: ليست القضية في شعارات الوحدة الإسلامية لتتكاذب ولتتنافق، ولنجامل بعضنا بعضاً، القضية أن هناك جراحاً علينا أن نضمّدها، وأن هناك خطراً علينا أن نواجهه.

(٧) الفتح: ٢٩.

(٦) الحشر: ١٤.

فلنضمّد الجراح على أساس أن تبرأ، ولنتخفّف من الخطر على أساس أن نأمن تحت أيّ شعار، كي يكون الإسلام كلّ شيءٍ عندنا، وأن تكون المذهبية هنا، والمذهبية هناك مذهبية فكرية، لا مذهبية طائفية عشائرية، حتى تُغني المذهبية الإسلامَ بدلاً من أن تمرّقه وتحوِّله إلى عشائر متناحرة.

■ ألا تعتبرون أن «حملات التكفير» بين المسلمين تقف حاجزاً أمام وحدتهم؟

* إنها لعبة تمارسها بعض الدول، للانطلاق في العالم
كله من أجل عزل بعض المسلمين عن الساحة الإسلامية
العامة.

ذهنية الإنغلاق

□ إن الذين «يكفرون» المسلمين بلا حساب، ويصدرون كل يوم فتوى بتكفير هذا المذهب أو ذاك المذهب، هم فريق متخلف، لا يحاول أن ينظر إلى الأفق الإسلامي الرحب الذي يلتقي عليه المسلمون في الشهادة بوحدانية الله، وبرسالة رسول الله، وبالإيمان باليوم الآخر والكتاب الواحد، وإنما يحاولون أن يتوقفوا عند الهوامش الصغيرة، وعند التفاصيل ليفصلوا مسلماً عن الإسلام، وليكفروا فريقاً، ويعطنوا إيمان فريق آخر.. هؤلاء متخلفون يعيشون ذهنية مغلقة تعيش في زوايا التاريخ المتخلف الدامي، ولا يفتحون على الأفق الواسع الذي يقول (فأينما تولوا فثمَّ وجهُ الله)^(١)، بحيث يجب أن نتوحد بالله، ورسول الله.

وهناك فئات تتسلم سلطات الحكم وتشجع هؤلاء المتخلفين من خلال المخابرات الدولية، ولا سيما المخابرات المركزية الأميركية، أن يجذروا الفُرقة بين المسلمين، وذلك بالإيحاء لهذا الفريق الإسلامي، بأن الفريق الآخر يكفّره، ليعود ذلك الفريق المكفّر برودة فعل ليكفّر الفريق الثاني. وهكذا يشعر كل مسلم أن الطرف الآخر كافر في اللقاء معه.

(١) سورة البقرة ١١٥.

لعبةٌ مكشوفة

إنَّها لعبةٌ تمارسها بعض الدول للإنتلاق في العالم كُلِّه من أجل عزل بعض المسلمين عن الساحة الإسلامية العامة، لأنَّ المصالحَ الغربيَّة تفتضي ذلك. وكُنَّا نجد بعضَ هذه الدول تحارب المسلمين الشيعة، أكثرَ من محاربة الشيوعيَّة، في الوقت الذي كانت تعتبر العقيدة الشيوعية قاعدة للإلحاد.. إنَّ مسألة التكفير بين فئة وأخرى من المسلمين مقصودة من بعض الجهات العلميَّة، لمنع توحيد المسلمين، وإلصقهم ببعضهم البعض. لذلك، علينا أن ندرس هؤلاء الذين يقفون ضدَّ الوحدة الإسلامية لمعرفة كيفية مواجهتهم.

■ بعض الناس يدعون إلى إغلاق الملفات القديمة والتاريخية، كي لا تشكل تفرقة بين الأمة الإسلامية، ما رأيكم بهذه النظرية؟

□ أنا لست ممن يوافقون على إغلاق ملف التاريخ، لأننا صنعُ التاريخ، مفاهيمنا مفاهيمٌ تاريخية، ما نرثه من عاداتٍ وتقاليد هي من خلال التاريخ، وما نتحرك فيه من مواقف وعلاقات هي من خلال التاريخ، لأنَّ التاريخ يعيش في داخلنا.. لكن، أنا مع الذين يقولون، إنه لا بُدَّ من أن نعيد كتابة التاريخ، ولا بُدَّ أن نوثِّقه، لأنَّ الكثيرين عبثوا به، وأدخلوا فيه الكثير من الأكاذيب والخرافات، لذلك لا بُدَّ أن نعرف أين هو التاريخ؟ لأنه ليس شيئاً نقرأه في الكتب، بل لا بُدَّ من توثيقه، حتى نعرف هل حدث هذا أم لا؟ كيف كانت «كربلاء»، و«الجمل» و«صفين»، إنَّ علينا دراسة التاريخ حتى نعرف الصحيح من الفاسد، وحتى نعرف الحقيقة من الخرافة.

ثم إذا أردنا أن نعيد التاريخ، فعلينا ألا نستعيده من موقع العصبية، بل نستعيده من موقع المسؤولية.. علينا قراءة التاريخ، لنقرأ الحقيقة فيه، وعلينا عندما نستعيده، ألا نستعيده عصبيةً وبغضاً وحقداً، وأن نقول، «عليّ وعلى أعدائي»، لأنَّ العالم المستكبر والكافر يعملان على الاستفادة من الخلافات الإسلامية، ليُثير إنساناً هنا، وليكفِّر جماعةً هناك، ولتكون النتيجة، أنَّ المسلمين يقتلون بعضهم بعضاً، ويكفِّرون بعضهم بعضاً، ويبقى المستكبر ضاحكاً يقهقه، معتبراً أنَّه انتصر، من خلال أنَّنا هزمتنا بأيدينا، وعندها كيف يمكن لنا أن نفكِّر بهزيمته؟

■ هل يمكن إقامة مجتمع إسلامي قبل خروج صاحب الزمان (عج)

□ لماذا لا يتحقق؟ التجربة أماننا.. مشكلة بعض الناس أنهم عندما يؤمنون بالإمام (عج)، يقولون، ممنوعٌ على أي شخص أن يقوم بعملٍ إسلامي، حتى أن بعضهم يرى حرمة الإصلاح والموعظة، لأنه كلما وُعظَ الناس أكثر، كلما صاروا مؤمنين أكثر، وذلك يؤخر خروج الحجة (عج).. وكلما - حسب رأيهم - عملت للإسلام وأسست دولة إسلامية هنا، ودولة إسلامية هناك، تكون قد عطلت عمل الحجة (عج).

هؤلاء يجمدون الإسلام.. ولم يتجمد الإسلام في كلِّ أحكامه في أيِّ زمنٍ «حلال محمد حلالٌ إلى يوم القيامة، وحرام محمد حرامٌ إلى يوم القيامة».. فالجهاد لم يتجمد. ولم يتجمد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولم يتجمد شرع الله.. وأما «كلُّ راية تخرج في زمن الغيبة هي راية ضلال»، هذه رواية محل تحفظ كبير.. فالإنسان عندما يدعو للأئمة من أهل البيت (ع) ولخطهم، وللإسلام، ويواجه العالم كله، كالإمام الخميني، هل رايته راية ضلال؟

لا بُدَّ للإنسان من تشغيل عقله حتى يفهم أن هذه الروايات هل هي موضوعة أو أنه يُراد منها شيءٌ آخر.. وهل يُمكن القول: إن الله لا يطالب بتطبيق الإسلام، هل هذا معقول؟

الله تعالى خلق لنا عقلاً، وأعطانا قرناً، وأعطانا ما صحَّ من السنة النبوية، ومن تراث أهل البيت.. فلا يصحَّ لمجرد روايةٍ غير دقيقة أن نُعطَل كلُّ هذا.. مشكلتنا، كما يُقال: الأمة المتخلفة تتصور قيمتها بطريقةٍ متخلفة.. نحن نفرض التخلف على الإسلام، لأنَّ فهمنا متخلف، فنفهم الإسلام بطريقةٍ معكوسة.

□ الثقافة والوعي :

* أنسنة الثقافة.

* رؤية.

* «خوفاً» من الوعي.

* تنوع وواقعية.

■ كيف ترون حركة الثقافة، وتجليات الوعي في واقعنا؟

* نحتاج أن نحرك الثقافة في وجداننا الشعوري وفي وجداننا الحركي، حتى نستطيع أن نُؤسِّن الثقافة، فنجعل هناك إنسان ثقافة، ولا يبقى عندنا مجرد ثقافة إنسان.
* لأبْدُ أن يكون تمازج بين حركة ما هو الفكر في التاريخ، وما هو الواقع في حياتنا.

إنطوائية الثقافة

□ قد تكون بعضُ مشاكلنا، أن مسألة الثقافة عندنا، هي مسألة أن يُحوَّل الإنسان عقله إلى مكتبة، مكتبة تتجمَعُ فيها الكتب بطريقةٍ فنية، ولكنه لا يُحوَّل كيانه إلى فكر يمتصُّ كلَّ ما في هذه الكتب، ليكون الإنسان الذي يعيش الكتاب ولا يستهلكه، تلك هي المشكلة في الثقافة عندنا، لدينا مثقفون كثيرون، ولكن لا نتحسَّس هذه الثقافة في الوجدان الروحي للإنسان، لأنَّ الإنسان يفكِّر بعقله، ولكن يتحرَّك بغريزته، وربما تفرض الغرائزية نفسها على العقل، فيتحوَّل إلى شيء فوضوي، لا تُعرفُ فيه حدودُ العقل من حدود الغريزة. وهذا ما جعل المسألة الثقافية في كثيرٍ من مواقعها، مسألة بعيدة عن إنسانية الإنسان في حركته الإنسانية، لتكون مجرد شيء يختزنه الفكر، ولكنه لا يجري مجرى الدم في العروق.

ربما نحتاج أن نُحرِّك الثقافة في وجداننا الشعوري، وفي وجداننا الحركي حتى نستطيع أن نُؤسِّن الثقافة، فنجعل هناك إنسان ثقافة، ولا تبقى عندنا مجرد ثقافة

إنسان.. وهناك فرقٌ بين أن تكون هناك ثقافةٌ إنسان، وبين أن يكون هناك إنسان ثقافة.. إن مسألة أن يكون الإنسان إنساناً ثقافة، معناه أن الثقافة تتحرك في الأرض، وتمثّل روح الإنسان وفكره ووجدانه وتطلعاته وحتى أحلامه، لأننا قد نحتاج إلى أن تكون لدينا أحلامٌ مثقفة، لأنّ الأحلام المثقفة تستطيع أن توازن تطلعات الإنسان في حركته في الواقع، وفي حركته نحو المستقبل.

تشكّل الوعي

وهكذا عندما نريد أن نتحدث عن مسألة الوعي، الذي هو نتيجة ثقافة علمٍ نقرأه ونسمعه، وثقافة علمٍ نجربُه ونعيشه.. مسألة الوعي، ليست مسألة تُصنع، ولكنها مسألة تُعاش.. قد تجدُ إنساناً تصنعه الجامعات، ولكنه لا يملك أيّ وعي، وقد تجدُ إنساناً أمياً، فيما هي القراءة والكتابة، ولكنه يعيش أعمق معاني الوعي، لأنّه استطاع أن يرتبط بالحياة بشكلٍ مباشر، بحيث يجد في كلّ ما يواجهه في حركة هذه الحياة شيئاً يفتح عقله ويفتح قلبه.. أظن أن أمثالنا يمثّل خلاصة التجربة الإنسانية التي تجمّعت لدى الأجيال من خلال ما عاشته.. هناك مثل عامي يقول: «إسأل مجرباً ولا تسأل حكيماً»، طبعاً يقصدون من الحكيم، المتعلم.. إن المجرب يصنع الفكرة من خلال التجربة، أما الذي يقرأ، فإنّه يقرأ تجربة الآخرين، الفكرة عند هذا الإنسان، هي سمعه وبصره وشمّه وذوقه.. وإنني أتصور لو أننا - فيما هي التجربة والفكرة - لو أننا كتبنا ألف قصيدة في وصف العطر لما استطعنا أن نخترن في داخلنا معنى العطر، فيما إذا انطلقنا من شمة عطرٍ تنفدُ إلى كلّ احساسنا وعروقنا. إن الإنسان في كلّ إبداعه في وصف الحياة، لم يستطع أن يجعل حركة الفن بديلاً عن الارتباط بالحياة، ولذلك فنحن قد نحتاج من أجل أن نحصل على هذا الوعي إلى أن نحدّق بالواقع أكثر مما نقرأ الكتب.

أنا لا أريد هنا أن أهون من قراءة الكتب، فالكتب هي تجارب الأجيال، وهي تمثّل

عمق الإحساس بالقضايا الكبرى في الحياة، ولكننا نريد أن نقول: إنها لا تمثل البديل عن الارتباط بالحياة.. ولعلّ مشكلة الكثيرين منا أنهم يصنعون عقولهم وقلوبهم من خلال ما يقرأون، ثم يحاولون أن يَسْخَرُوا مما يعيشون، إنهم هؤلاء المثقفون الذين ينظرون إلى الحياة من فوق، وإلى الإنسان من فوق، فيُخَيَّلُ إليهم أنهم تفوقوا على هذا الإنسان، ولكنهم في الواقع لم يَكُونُوا صورة حياتهم، بل كانوا صورة الآخرين.. إن المسألة هي أن حركة الوعي لا يمكن أن تنطلق من خلال تراثٍ نقرأه، أو نفكر به، لأنّ مشكلة ذلك التراث أنه كان يمثّل وعي بعض الناس في تجربتهم، وفي الظروف الموضوعية التي تحيط بهم، ولذلك فقد يكون وعينا من خلال ظروفنا، مختلفاً في حركة التجربة. ولو أطلقنا التجربة نحو هذا التراث، يختلف عن وعي الآخرين، لأنّ تجربتهم تختلف عن تجربتنا.. لذلك لا بدّ أن يكون لدينا تمازج بين حركة ما هو الفكر في التاريخ، وما هو الواقع في حياتنا، من أجل أن نصنع في حياتنا شيئاً جديداً ينطلق من خلال تجربتنا الجديدة.

■ كيف لنا أن نوجد هذه الرؤية في حركة الوعي؟

* مسألة الوعي، هي مسألة أفق تنفتح عليه، ومسألة أرضٍ تتحرك عليها، ومسألة جوٍ تعيش فيه أو تصنعه.

امتلاك روح العصر والالتزام بالمنهج

□ لا بُدَّ في قضية الوعي، سواء كان وعياً ثقافياً، أو وعياً سياسياً أو اجتماعياً، لا بُدَّ في حركة الوعي هذه أن تواكب حركة الإنسان المعاصر، ليكون لكل واحدٍ منا في حركته الثقافية حسَّ المعاصرة، ولنعيش إحساسنا بالعصر، وليس من الضروري أن نخضع لكلِّ مسلمات العصر، ولكن علينا أن ننهج لهذا الشيء الذي قد لا نستطيع أن نعبر عنه، ولكننا نحسُّه، وهو هذا الإحساس بروح العصر ويجوِّه، الذي يجعل منك إنساناً تعيشُ في داخله، بدلاً من أن تكون إنساناً تقف لتتفرَّج عليه.. وهذه نقطة في مسألة الوعي.

وهناك نقطة أخرى، وهي أن الوعي قد يحتاج إلى خطِّ التزام، لأنَّ مسألة الوعي هي مسألة أفق تنفتح عليه، ومسألة أرض تتحرك عليها، ومسألة جوٍ تعيش فيه أو تصنعه، ولذلك لا بُدَّ لك من أن تكون لك في الحياة رسالة ينطلق وعيك من أجل أن يتحرك في داخلها، ومن أجل أن يُحركها في واقع الإنسان، لأنك عندما لا تكون إنساناً صاحب رسالة، صاحب التزام بمنهجٍ وبخط، فإنَّ معنى ذلك أن الوعي سوف يكون مجرد فِرَقٍ متناثرة، تلتقط واحداً من هنا، وتلتقط واحداً من هناك، وتلتقط فكرة من هنا، ولا تعرف كيف تجمع بينهم. إنَّ المنهج، الخط، الرسالة، أيّاً كان، هو الذي يربط بين مفردات الوعي، وهو الذي ينظِّم للإحساس حركته، حتى يستطيع أن يحتضن كلَّ مفردات الواقع في فكرة رائدة.

الالتزام والغريزة المعاشة

لذلك، لا بدّ لنا ونحن نُحرِّك هذا الوعي في تجربتنا، في كلّ ما نفكر ونُحس به، لا بدّ لنا من أن نعمل على أن نلتقط منه الخط، وأن نحركه في سبيل هذا الخط. وهنا قد يختلط الالتزام في نفس الإنسان بالغريزة المعاشة، وأقصد بالغريزة المعاشة، الغريزة التي يمكن أن يعيشها الإنسان من خلال وضع اجتماعي معين وبيئة معينة، لأنّ غرائزنا على قسمين: هناك غرائز نخترنها في داخل وجودنا باعتبار أنّها تمثل في حركتها شريط وجودنا، وهناك غرائز نلتقطها من وجود الجماعة التي نحن جزءٌ منها، أو من خلال الظروف التي تفرضُ نفسها علينا. هذه الغرائز اللاشعورية قد تُخَيِّلُ إليك أنّك منسجم مع نفسك، ولكنّ الحقيقة أنّها أبعثتْك عن نفسك، وجعلتك مجردَ شيءٍ من هذا الجو الذي يُحيط بك، وعندها لن تتحوّل إلى ذاتٍ تفكر، ولكنك تتحرّك من خلال ذلك كشيءٍ من أشياء البيئة، وكشيءٍ من أشياء الظروف، ليس لك دخلٌ فيما تتحرّك فيه.. الظروف تدفعك، وأنت تتحرّك، ويُخَيِّلُ إليك أنّك أنت الذي تتحرّك، ولكنّ المجتمع هو الذي يُحرِّكك، والبيئة هي التي تُحرِّكك، وربما هذا هو ما قصده علماء النفس عندما تحدّثوا عن العقل الجمعي، فالإنسان في الجماعة يُصَفَّقُ عندما يصفّقون، ويهتف عندما يهتفون، وربما يبكي عندما يبكون، ولا يدري بعد ذلك، لماذا صفّق، ولماذا هتف، ولماذا ضحك، ولماذا بكى، لأنّ هناك بكاءً اجتماعياً، تصفيقاً اجتماعياً، الجزء من الكلّ في ذاته هو الذي تحرك، وليس كإنسان في إنسانيته هو الذي تحرك.

كن نفسك ليرجع إليك فكرك

وهكذا نلاحظ أنّ القرآن الكريم أطلق فكرته وعالج حركته، فهناك تجربة عاشها النبيّ محمد (ص)، وهي أنّه ابتلي كما ابتلي أكثرُ الأنبياء بمجتمع جاهل، قال عنه إنّهُ مجنون، هذا يصرخ: إنّهُ مجنون، وذاك يصرخ: إنّهُ مجنون.. كيف يمكن أن يعالج القرآن هذه

المسألة؟ هنا جاءت الآية الكريمة: (قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفِرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ)^(١).. إنه يقول لهم: مشكلتكم أنكم تتحدثون بما لا تفكرون، لأن أياً منكم لا يملك فكره في داخل الجماعة، ولا يملك ذاته داخل الجماعة، ولذلك - وحسب الإستيحاء القرآني - فإن عليكم أن تنفصلوا اثنين اثنين، واحداً واحداً، ليرجع إليكم فكركم لتملكوا تفكيركم، وعند ذلك عندما تدرسون: كيف أفكر، كيف أتكلم، كيف أتحرّك، كيف أعيش معكم، عند ذلك ستعرفون النتيجة (ما بصاحبكم من جنّة).

(١) سبأ ٤٦.

■ إن حركة الوعي في الأمة، وخاصةً منذ بدايات القرن العشرين، أدت إلى نتائج طيبة، ومن نتائجها قيام الجمهورية الإسلامية في إيران.. ولكن هناك رأي مطروح في أكثر من مكان، وهو، أن هذه الحركة الواعية أدت إلى أن تقف قوى الاستكبار ضدها، لذلك - وحتى يُحفظ الإسلام - لا بُدَّ لهذه الحركة أن تنكفيء عن مواجهة التحديات. ما رأيكم بهذا الطرح؟

سلبية الفكرة

□ ربما يرى بعض الناس أن مصلحة الإسلام تكمن في «الإخلاق إلى الأرض»، وأن الدخول في ساحة الصراع مع القوى المستكبرة العالمية، يؤدي إلى خسارة الإسلام للكثير من حريته في الدعوة والحركة، وإن ذلك ينعكس سلباً على الكثير من مواقفه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.. إذاً، ربما يرى البعض هذا، ويرى أن مصلحة الإسلام، هي في البُعد عن ساحة الصراع، وفي الانكفاء عن الساحة تماماً.. ولكننا عندما ندرس الواقع المعاصر، نرى أن أي نوع من أنواع الانكفاء عن الساحة، يُفقد المنكفيين قاعدتهم.. نحن نرى الكثيرين من كبار السن يرتاحون في أجواء الدعة والاسترخاء، ويشعرون بأن مصالحهم تسير حتى في الخطر، لكن هذا النوع من الأسلوب، دفع ببعض شباب المسلمين إلى أن يُصبحوا شيوعيين، وإلى أن يتوزعوا على أكثر من تيار من التيارات الملحدة، أو غير الإسلامية الموجودة في الساحة.

حقائق واقعية

لذلك، فالإمام الخميني (قده)، ومعهُ وبعده وقبله كل الذين اتجهوا في اتجاه الحركة

الإسلامية، وباتجاه دفع الإسلام وخصوصاً في خط أهل البيت (ع)، انطلقوا لأن يكون الإسلام عنصراً قوياً في الساحة، وأن يكون للإسلام وهجته، حتى لدى غير المسلمين. وهذه هي الحركة الإسلامية في إيران، استطاعت أن تصنع جمهورية إسلامية تنطلق في الخط الإسلامي والخط الشرعي. وهذه هي الحركة الإسلامية في لبنان، استطاعت رفع مستوى قيمة الإسلام في العالم، وهذه هي الحركة الإسلامية في العراق، التي لولاها لم تجد أي جامعياً متديناً.

ومن هنا، فنحن نعتقد أن الحركة الإسلامية، التي كانت تمثل مواقع صغيرة هنا وهناك، استطاع الإمام الخميني (قده) أن يحولها إلى زلزال، وإلى تيار كبير، ولا إشكال بأنّها استطاعت أن ترفع من شأن الإسلام، بما لا يتمكّن أحد أن يصل إليه.

مشكلة الكثيرين من الناس - وهم قد يكونون جماعة طيبين - أنهم يريدون الإسلام بحجم ظروفهم الصغيرة، وألاً تتعب ظروفهم من خلال الدعوة، ولكن هؤلاء قد يصبحون مشكلة لأنفسهم وللآخرين، ونلاحظ أن بعض هؤلاء فقد أولاده، ولم يستطع أن يربحهم للإسلام، فتحوّل أولادهم إلى ملحدين، نسأل الله أن يكونوا معذورين فيما ذهبوا إليه، ولكنهم ليسوا معذورين في استسلامهم لما ذهبوا إليه، لأنّ عليهم أن يناقشوا الأمور مع الآخرين، لا من موقع العقدة، وإنما من موقع العلم والفكر، لعلهم يصلون إلى نتيجة.

■ فهمكم الحديث للإسلام، هل يُمكن القول: إنه واحدٌ في شرق العالم الإسلامي وغربه.

* إنك إذا بدأت تُفكر، معنى ذلك أنك بدأت في الاتجاه السليم.

* الحركة الإسلامية في لبنان تمثل نوعاً متقدماً منفتحاً واقعياً للتحرك الإسلامي في العالم، وأنها فريدة في ذلك كله.

تنوع الاجتهادات

□ من الطبيعي أن الانفتاح الثقافي على الإسلام في مصادره، وفي حركته وتطلّعاته وأساليبه، هو حركة اجتهادية، ومن الطبيعي أن يختلف المجتهدون في فهم كل هذه المفردات، أو كل هذا التراث، وكلّ حركة هذا الواقع.. وربما يشتطّ بعض المفكرين في هذا المجال، فيحاول أن يفرض على الإسلام صيغة التفكير الغربي ليحمل الإسلام ما لا يتحمل، كالكثيرين الذين كانوا يحملون النصوص الإسلامية ما لا تتحمّله من عقائدهم وأفكارهم، وقد ينحرف بعضهم، وقد يستقيم البعض الآخر، ولكننا نعتقد أن هذا التنوع الذي يختزن بعض السلبيات يحمل الكثير من الإيجابيات.

إنك إذا بدأت تُفكر، فمعنى ذلك، أنك تحركت في الاتجاه السليم. لأنّ الفكر عندما يتحرك، فلا بدّ له أن يصل إلى النتائج الحاسمة وإلى الخطّ المستقيم.

واقعية الحركة

إن قيمة الحركة الإسلامية في لبنان، أنّها حركةٌ عاشت التجارب ولا تزال، إنّها حركةٌ

لم تستغرق في أسلوب واحد، أو في أفقٍ واحد، فهي حركة إسلامية تتحرك في خط التصدي عندما يفرض عليها الآخرون العنف، كما لا تزال تتحرك في خط المقاومة الإسلامية ضدّ الصهيونية، وضدّ الاستكبار العالمي الذي يفرض عليها عنفه، ويفرض احتلاله ووحشيته وهمجيته... وهي في الوقت نفسه واقعية تأخذ بالأسلوب الواقعي السياسي، تُشارك في العمل السياسي.. ولذلك دخلت في المجلس النيابي الذي قد لا تعترفُ بشرعيته من ناحية الخطّ الفكري، ولكنها تجدُ فيه ساحةً للتحرّك الإسلامي على مستوى الإعلام، وعلى مستوى تصحيح المواقع القانونية، وعلى مستوى التواصل والتعارف مع الفئات الأخرى.. كما أنّها حركةٌ منفتحة على كلّ الساحة السياسية، والساحة الدينية في لبنان، فهي منفتحة على المسيحيين، كما هي منفتحة على المسلمين كلّهم، وعلى التيارات السياسية الأخرى، حتى التي تقف وإياها في خطّ التضاد الفكري كالشيوعيين، لأنّها تؤمن أنّ هناك قضايا مشتركة يمكن أن نلتقي فيها مع الآخرين، في الطريق الذي نتحرّك فيه من أجل خدمة قضايانا، وأنّ بإمكاننا أن نفتح على الآخرين دون أن نفقد خصوصياتنا وخطوطنا والتزامنا..

إنني أعتقد أنّ الحركة الإسلامية في لبنان تمثل نوعاً متقدماً منفتحاً واقعياً للتحرّك الإسلامي في العالم، وأنّها فريدة في ذلك كلّها.

□ التراث :

* تلمّس خطوات أهل البيت (ع).

* هل من قداسة؟

* الحداثة.

* أصالة وتبعية.

* العرف والتقاليد.

■ تتلمسون خطوات أهل البيت (ع) في حركتكم العامة، فهل نحن بحاجة للرجوع إلى الماضي، والحاضر يشغلنا في كل يوم بكل جديد، وبكل التحديات التي تقفحمننا فتَهزُّ الأرض من تحت أقدامنا، هل نحن في عودةٍ للماضي لننسى الحاضر؟

* إن لنا في هذا التاريخ خطأ لا بد أن نسير عليه، وإن لنا في هذا التاريخ رسالة ورسولاً وائمة.

* قيمة أهل البيت أنهم انطلقوا بعيداً عن ذواتهم، فعاشوا الرسالة كلها في فكرهم وإحساسهم وحزبتهم وأمالهم، حتى كان كل واحدٍ منهم قرآناً يتحرك ورسالة تتجسد.

* كلما حركنا العقل أكثر، كلما اكتشف الحقيقة أكثر، وكلما جمدناه أكثر كلما خنقنا حركة الإبداع في حياتنا أكثر.

محطات الحقيقة

□ هناك في مدى التاريخ محطات ليس فيها ماضٍ وحاضرٌ ومستقبل، لأنها محطات الحقيقة، ولأنها محطات القيمة، قيمة الحق والعدل، التي ليس لها عمرٌ محدد في الزمن، هي الزمن كله، وهي الحياة كلها، فالحق يعطي الزمن معناه، ولا يعطيه الزمن تاريخاً، لأن الحق لا يُورِّخ، لذلك عندما ننطلق في هذا التاريخ، فلأن لنا فيه أكثر من قيمة، قيمة ترتفع بالروح، فتشعر أن روحاً تحلق معك، فلا تُحسّ بشيءٍ من المادة في حركتها، ولأن لنا في هذا التاريخ خطأ، لا بد أن نسير عليه، ولأن لنا في هذا التاريخ رسالة ورسولاً وائمة ونماذج حية.. لنا أهل البيت (ع) الذين أذهبَ الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً..

وقصتنا مع أهل البيت، ليست قصة نبضة قلب، وخفقة شعور، ولكنها قصة رسالة، قصة أناسٍ يمثلون كلَّ الحقيقة، وكلَّ الطَّهر والنقاء: (إنما يريدُ اللهُ ليُذهِبَ عنكمُ الرِّجْسَ أهلَ البيتِ ويُطَهِّرَكُمُ تطهيراً)^(١)، فليست في شخصياتهم أيةُ قذارة فكر، وقذارة الفكر، هي الباطل، وليست في شخصياتهم أية قذارة حركة، وقذارة الحركة هي الظلم، وليست في شخصياتهم أية قذارة انحراف، وقذارة الانحراف تعني الضلال والكفر والفسق والتمرد على الله. وهكذا يعيشون الفكر الطاهر، فلا يقترب الخطأ والباطل إلى فكرهم، لأنَّ الباطل قذارة، والخطأ فيه شيء من القذارة.. وهكذا يعيشون طهارة الروح، فهم يخلِّقون صوب الله «لو كُشِفَ لِي الغطاءُ ما ازدَدْتُ يقيناً»، يحبون الله حباً يجعلهم يُحسِّون باللوعة عندما يتحدثون عن احتمال الفراق: «فهبني يا إلهي وسيدي ومولاي وربِّي، صبرتُ على عذابك، فكيفَ أصبرُ على فراقك، وهبني يا إلهي صبرتُ على حرِّ ناركَ، فكيفَ أصبرُ على النُّظرِ إلى كرامتك».. هذا عليّ (ع) يعيش حبَّ الله، حتى أنه لا يرى في النَّارِ مشكلة إلا من خلال أنها تمثِّل لمن يدخلها فراق الله، ولا يرى في حرِّها مشكلة إلا من خلال أنها تحجبه عن النظر إلى كرامة الله، فكان عشقه لله، وكانت كلَّ حياته تتمحور في كلمة واحدة، الله. وعندما أحبَّ رسول الله (ص) لم يحبه قريباً أحبَّه لأنه رسول الله، ولذلك تغدَّى من رسالته منذ طفولته، فصاغه رسول الله صياغةً جعله نفسه في الروح، ونفسه في الإحساس والحركة، ونفسه في السلوك، جعله الإنسان الذي يحمل كلَّ علمه، ولذلك قال (ع): «علّمني رسول الله ألفَ بابٍ من العلم، يُفتح لي من كلِّ باب ألفُ باب». عليّ باع نفسه لله (ومن النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابتغاءَ مرضاةِ الله)^(٢)، فقيمة أهل البيت (ع)، أنَّهم انطلقوا بعيداً عن ذواتهم، عاشوا الرسالة كلَّها في فكرهم واحساسهم

(٢) البقرة ٢٠٧.

(١) الأحزاب ٣٣.

وحركتهم وأمالهم، حتى كان كل واحدٍ منهم قرأناً يتحرك، ورسالةً تتجسد، وأفقاً يفتح على كل قيمة، من حيث انفتاح الرسالة على القيم الروحية في الإنسان والحياة.

الضمانة في الخط

لذلك، نحن نريدهم أن يزوروا في حاضرتنا، لا نريد أن نرجع إلى الماضي، لنزورهم فيه، لأنهم لا يمثلون ماضياً، كان وجودهم في الماضي، ولكن كان معناهم سر الحياة.. نحن بحاجة أن يزوروا، أن تزورنا كلماتهم، قيمهم، وصاياهم، مواقفهم، وذلك من أجل أن نتحرك في خطهم. فحب الكبار، وحب الرساليين ليس عاطفة، ولكنه موقف، وهذا هو الفرق بين أن تكون المحب، وبين أن تكون الموالي.. الولاء موقف، أما الحب فعاطفة. ومن الطبيعي أن الموقف لا بد أن يعيش العاطفة، ولا بد أن يتحرك بالعاطفة، ولكنه يتجاوزها ليعيش انفتاحاً على الرسالة كلها من خلال الانفتاح على الذين يحملون الرسالة، ونحن في واقعنا نعيش تحديات كثيرة في ظل كثير من علامات الإستفهام، ونعيش مع كل هذه المتغيرات كثيراً من القضايا التي لا بد أن ندركها، ولا نريد أن نقول: (إننا وجدنا آباءنا على أمةٍ وإننا على آثارتهم مقتدون)^(٣)، فالله تعالى يرفض لنا ذلك، كما رفض ذلك لمن كان قبلنا. قد نلتزم ما التزمه آباؤنا، ولكن على أساس أن نقتنع كما اقتنع آباؤنا. فهناك فرق بين أن تقلد من سبقك في قضايا الفكر، وبين أن تدرس فكر من سبقك، فقد تجد في فكره جديداً، وقد تجد فيه خطأ، لذلك، فالماضون خطئوا من قبلهم، واعترفوا لهم بشيء.. من هنا، علينا أن نعيش المرحلة في معنى الوعي، لكل ما تتحرك به وما تتمحّض عنه المرحلة. إن الله خلق لنا عقلاً، وأراد لنا أن نفقه به، ولم يرد لنا أن نجمده، فليس طبيعياً أن نخاف من حركة العقل في مناقشة الأمور، لأننا كلما حركنا

(٣) الزخرف: ٢٣.

العقل أكثر، كلما اكتشف الحقيقة أكثر، وكلما جمدناه أكثر، كلما خنقنا حركة الإبداع في حياتنا أكثر، لذلك نحن في مواجهة التحديات نحتاج إلى كثير من هذه القيم التي تتمثل في أهل البيت (ع)، لأن قيمة ما يقولونه وما يفعلونه أنه يمثل الشرعية كلها. فأنت عندما تأخذ كلاماً، أو تقتدي بسيرة، قد تخطيء أو تصيب، فإنك قد تظل حائراً بين شرعية ما سمعت، أو شرعية ما رأيت، والموقف في ذلك لن يكون حاسماً، لكن عندما تنطلق مع نماذج معصومة طهرها الله من الرجس، وأذهب عنها الرجس، فليس للباطل وجود فيما تفكر به، وليس للظلم مكان تتحرك فيه. عند ذلك، أنت تأخذ الحقيقة من ينبوع الصافي، وكما قال الإمام الصادق (ع): «حديثي، حديث أبي، وحديث أبي حديث جدّي، وحديث جدي حديث رسول الله».

روالِ أناساً قولهم وحديثهم روى جدنا عن جبرائيل عن الباري

هذا هو الخط الذي لا بد أن تلتزمه لتشعر بالضمانة لكل فكر تأخذه، وكل كلمة

تسمعها.

■ برأيكم، ماذا يمثل لنا التراث؟

- * التراث بمعناه النفسي العاطفي، ليس مقدساً.
- * التراث شيء من الماضي، ونحن لا نريد للماضي أن يُلقي بثقله على المستقبل في إطار ماضويته.
- * القرآن اختصر كل قصة التاريخ (تلك أمة قد خلت، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم).
- * العقل أولاً، بالعقل نؤمن بالله ونعرف الله، ونؤمن بالرسول ونعرف الرسول.

تراث التقاليد وتراث المفاهيم

- التراث هو مجموعة ما تركه التاريخ الفكري، أو التاريخ العملي (العادات والتقاليد) للناس الذين سبقونا.. والإسلام لا ينظر إلى التراث بعنوانه التراثي نظرة مقدسة.. فقد كان الكافرون والمشركون يقفون في مواجهة الإسلام إنطلاقاً من تقديس التراث: (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ)^(١) وكان الجواب: (قَالَ أَوْلَوْا جِئْتَكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ)^(٢) وآية أخرى: (أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ)^(٣). إذاً، التراث بمعناه النفسي العاطفي ليس مقدساً، التراث هو تركة، تماماً، كما تراث أثاث البيت، فإنه لا يمكن أن تقدس هذا الأثاث، بل لك أن تغيره، وتبدله على طبق «الديكور» الذي يتناسب مع طبيعة وعادات العصر، وعلى هذا يمكن أن تحتفظ به كمتحف، أو كذكرى.. هذا شيء يذكر بالماضي..

(٣) البقرة: ١٧٠.

(٢) الزخرف: ٢٤.

(١) الزخرف: ٢٣.

أما قضية الفكر أو العادات أو التقاليد، فإنّ التراث، لا بُدَّ له من دراسة عميقة تنطلق من المعطيات الفكرية التي نؤمن بها. قد يكون في التراث شيءٌ نؤمن به إلى الآن، من خلال معطيات الإيمان، كما يؤمن الكثيرون بالأديان، التي هي ليست تراثاً بالمعنى العميق، وإذا كنا نؤمن بها فباعتبار أنّها وحي الله، لا لأن أباعنا التزموا بالإيمان، بل لأننا اقتنعنا بهذا الإيمان كما اقتنعوا.

موقفٌ من المسلمات

ولذلك، لا بُدَّ لك حتى في الدين أن تنطلق من خلال الإجتهد في فكرك، فمسألة ما في التراث من مضمون، إذا كانت تنطلق من خلال قناعاتي بالمضمون، عند ذلك يكون التراث، تماماً كما فيما يُقدّم إليّ الآن، أن انطلق من قناعاتي، لا من خلال الصفة التراثية التي نقدّسها، أما إذا كان التراث يملك مضموناً خرافياً، أو مضموناً متخلفاً، ولا أجد فيه شيئاً من الحقيقة، فمن الطبيعي أن أرفض هذا التراث، ولا يجوز أن أقتنع به. لذلك، نحن لا نقدّس التراث بالتراث، التراث، شيءٌ جاءنا من الماضي، ونحن لا نريد للماضي، أن يُلقي بثقله على المستقبل في إطار ماضويته.

ولعلّ القرآن اختصر كلّ قصة التاريخ، وكلّ علاقتنا بالتاريخ وذلك من هذه الآية الموحية (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)^(٤)، أولئك عاشوا حياتهم، وصنعوا تاريخهم من خلال ما اكتسبوه من فكر، أو من حركة الواقع، وهم يتحمّلون مسؤوليته، وأنتم لا تتحمّلون مسؤوليته.. إنّ لكم كسبكم، فانظروا كيف يكون الكسب؟ كسبكم الفكري والعملية، وكسبكم في بناء الحياة، وفي التقاليد والعادات، وما إلى هنالك.

(٤) البقرة: ١٣٤.

عقلك مسؤوليتك

فالعقل في الإسلام ينطلق من عمق التجربة الإنسانية، لا من خلال ما قرأه الإنسان، وما سمعه، مما قد يسميه «عقلاً»، ولكن الواقع أنه يمثل ألفة.. فعقلك هو عمق احساسك بالشيء من خلال فطرتك، وما اكتسبته فيما يعيش فيه وضوح الرؤية للأشياء. عقلك هو الذي يحدد موقفك من التراث، ومن الكون والحياة، ومن نفسك أنت.. لذلك نحن نقرأ في تراثنا، أن الله تعالى عندما خلق العقل، قال له: «أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر.. وهذا على سبيل الكناية، لأن العقل ليس جسداً - فبي حلفت، ما خلقت خلقاً أعز عليّ منك، إياك أمر، وإياك أنهى، بك أئيب، وبك أعاقب» فالأوامر والنواهي تتجه إلى العقل، ليتمثلها ويتحرك من خلالها.. أما الثواب والعقاب، فمن خلال حجم وعيك لما تفعله، فقد تفعل خيراً قليلاً، ولكن بوعي كبير، فيكون ثوابه عند الله أكثر مما لو فعلت خيراً كبيراً، ولكن بوعي قليل.. وفي بعض مصطلحاتنا، في بعض تراثنا، يُعبر عن العقل بالرسول الداخلي، وعن الرسول بأنه عقل من خارج. لذلك، العقل أولاً، فبالعقل نؤمن بالله، ونعرف الله، وبالعقل نؤمن بالرسول، ونعرف الرسول، وبالعقل نستطيع أن نؤوّل النص لمصلحة الحكم العقلي القاطع، ونقبل به.

■ ما تقيّمكم للحداثة، وكيف يمكن للإنسان المسلم أن يعيش مع الأديان الأخرى، وهو يعيش تاريخه وماضيه؟

* نعيش «الحداثة» كخيار ينطلق من احساسنا بحيوية وجودنا في هذا الزمن، حيث لا بدّ أن نتخلّص من كثير من أثقال الماضي التي لم تعد تعني لنا شيئاً.

خيار الحاضر وآفاق الماضي

□ كلمة الحداثة ربما يتمثلها البعض كعقدة، ولكن من الطبيعي أن نعيشها كخيار، يعني أن على الإنسان عندما يعيش عصره، أن يفكر في كلّ ما حوله، وفي كلّ من حوله، وفي كلّ ما في داخله كعناوين تعيش في هذا العصر، ولا تعيش في عصر سابق.. فلذلك أنا لا أستطيع أن أفرض أجواء وخصوصيات وظروف العصر السابق على عصري، لأنّ هذه الأمور المتحرّكة في الزمن لا يمكن أن تمدّها إلى زمن آخر، إلا إذا كانت تملك في عمقها بعض الثبات الذي يمكن أن يُطلّ على زمنٍ ثانٍ أو ثالث.. هناك بعض الأشياء التي لا يوطّرها الزمن، فإنك لا تستطيع أن تتحدّث عنها كماضٍ، وإن انطلقت في الماضي.. إنّها القيم الإنسانية الثابتة التي لا يمكن أن تتحدّث عنها كما فات. فالصدق ليس شيئاً من الماضي، والأمانة ليست شيئاً من الماضي وهكذا الحرية والعدالة، هي أمورٌ طرحت في الماضي، ولكن طُرحت في الماضي من خلال أنّ هذا الماضي يمثل منطلق طرحها من خلال وحي، أو من خلال فكر إنسان، وإلا فهي ابنة الحياة.

فلا معنى للحداثة في مسألة الحرية كمبدأ، وإن كان يمكن أن تتدخل الحداثة في

مفرداتها، وهكذا في مسألة العدالة. فنحن إذاً نعيش الحدائق كخيار ينطلق من احساسنا في حيوية وجودنا في هذا الزمن الذي لا بد لنا فيه أن نتخلص من كثير من أثقال الزمن الماضي التي لم تعد تعني لنا شيئاً، لنكتشف ما يعني ذلك مما كان ماضياً، وما يعني لنا مما لا بد أن ننتجه في حياتنا الحاضرة، هذه نقطة. والنقطة الثانية، فأنا لا أميل كثيراً إلى نوع من أنواع الحالة النفسية التي يعيش فيها العالم عندما يتحدث عن بداية قرن ونهاية قرن.. الرقم لا يمثل شيئاً.. هب، لو أننا صرنا في السنة الألفين، إن خمس سنوات تفصلنا، هل يقتضي أن نحدث انقلاباً لحياتنا؟ ماذا يمثل الرقم؟ الدقيقة التي تسبق بداية السنة الألفين، أو بداية السنة الألفين وواحد بعد الألفين، هي لا تختلف عن الدقيقة التي تأتي بعد ذلك.

وإذا قيل، إن الرقم هو لمزيد من الإحساس بالعصر، فإننا نقول، الإحساس بالعصر أو بحركته لا تحدده حدود.. العصر نحن، العصر هو الإنسان، هو إنتاجك، حركتك، هو وعي الإنسان، الإنسان ككل، العصر، ليس الزمن، الزمن ليس شيئاً يشبه الوهم، الزمن، هو نحن.. هو ارتباطنا بالأشياء، وبطريقة علاقتنا بالأشياء.. لذلك، مسألة العصر، هي مسألة الإنسان، والإنسان المعاصر، هو الإنسان الذي يتحرك من خلال حاجات عصره، بإبداعاته في هذا العصر، من خلال أهداف عصره. لذلك، أريد أن أقول، إن هذه العقدة أمام بداية قرن ونهاية آخر، وإن الاحتفال بيوبيل فضي أو يوبيل ذهبي، وهذا التوقف عند الخامسة والعشرين، أو عند الخمسين سنة، هذه أمور نعيشها لنعطي أنفسنا حالة وهمية بإحساس بزمن نضعه حاجزاً بين زمن وآخر، لذلك، أنا لا أؤمن بأن علينا أن نحدق بنهاية قرن، ليكون ما بعد القرن الحالي شيئاً آخر. إن علينا أن نتحرك في هذه الحياة، وأن نبدع في كل لحظة، وأن ننتج في كل يوم، ونطور ما يمكن تطويره في كل وقت، إن كان ذلك في التسعينات، أو في السنة الألفين، أو في الألفين بعد العشرة. إن

حركة الإنسان لا تتوقف أمام الزمن، لأنّ الزمن هو ظرفٌ حركته. ومن هنا، فالمسألة، مسألة الإنسان، ونحن ندعو إلى أن يتطوّر الإنسان، ويعمل على تحسين ظروف الحياة في انفتاحه على آفاقٍ جديدة، وفي اكتشافه لآفاقٍ جديدة ومواقع جديدة.

ارتباط المسلم بتاريخه لا يُغني انفتاحه على الآخر

أما السؤال الآخر، كيف يمكن للمسلم أن يعيش مع الآخرين، وهو يعيش تاريخه وماضيه.. فالواقع أنّ الإسلام يمثّل انفتاحاً في نظرته إلى الأديان، أكثر مما تمثّله الأديان الأخرى في نظرتها للإسلام، فمن مفردات الإسلام، الإيمان بالكتاب كلّ، هناك كتاب الله، تمثّل في صحف إبراهيم، وفي التوراة والإنجيل والقرآن الذي نزل بشكلٍ تدريجي.. وكلّ كتاب جديد يصدّق الذي بين يديه، فالتوراة لم تُلغ صحف إبراهيم، والإنجيل لم يُلغ التوراة، والقرآن لم يُلغ التوراة والإنجيل، وإنّما تعرّض للحاجات الجديدة التي فرضها الزمن الذي جاء بعد عهدَي التوراة والإنجيل، لهذا فالقاعدة الإسلامية، لا تفرّق بين «أحدٍ من رُسُلِهِ».. والحوار الإسلامي مع أهل الكتاب، اليهود والنصارى يتمثّل في تقديم مواقع اللقاء في إحساس المسلم (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً، وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ)^(١) نحن نلتقي في توحيد الله، وفي وحدة الإنسانية، وألا يكون هناك ربٌّ إلا الله، وألا يكون الإنسان ربّاً للإنسان.

وفي آية أخرى: (وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ، وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ، وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)^(٢)، إذأ، من خلال عمق التفكير الإسلامي في النظرة إلى

(٢) العنكبوت: ٤٦.

(١) آل عمران: ٦٤.

الرسالات، نرى أن الإسلام منفتح على كل الرسالات، ولذلك كانت كلمة الإسلام، كلمة لا تؤطر الإنسان في قمم خاص، ولكنها تعني إسلام الإنسان لله سبحانه والإيمان بكلّ رسلّه وبكلّ كتّبه وملائكته. بينما لا نجد هذا في اليهودية التي تلغي الإسلام والمسيحية ولا نجد هذا أيضاً في المسيحية التي تلغي الإسلام كدين، وإن كان البعض لا يُلغيه / كفكر إنسانيّ.

لذلك، فإنني أعتقد أن النظرة التاريخية للمسلم لا تحجزه عن الإنسان الآخر، النصرانيّ أو اليهوديّ، لأنّ المضمون الدينيّ في الإسلام يمثل حالة انفتاح على الآخر. ومن هنا رأينا أن التعايش «الإسلامي - الكتابي»، كان تعايشاً طبيعياً طيلة فترة حكم الإسلام، حتى في بعض المراحل التي كان بعض المسلمين في الحكم لا يوافقون على ذلك، ومع ذلك بقي أهل الكتاب من «اليهود والنصارى» في المجتمعات الإسلامية من دون أيّ إلغاء.

إنسانية وليست دونية

ولكنّ، هناك مسألة تفصيلية، وهي أن هذا الموقع الذي يحتله أهل الكتاب في مجتمع المسلمين، هل هو موقع دونيّ، أو ليس كذلك؟ وهل أن المشاكل التي حدثت بين المسلمين والنصارى أو اليهود، كانت أكثر من المشاكل التي حدثت بين المسلمين أنفسهم؟ إننا نعتبرها مشاكل تفصيلية لا تنطلق من خلال الإنتماء الدينيّ، وإنما انطلقت من خلال مفردات، كان تفرض الخلاف هنا وهناك.. أما مسألة «الدونية»، فإنّ لي فيها رأياً آخر، فبعض الناس يتحدثون عن كلمة «الذمة»، ويرون أنّها كلمة مقبّية، تعني انحطاط الإنسان بإنسانيته، ليكون من الدرجة الثانية. الواقع أنّ المسألة ليست كذلك، فنحن نعرف أن في العالم دولاً تنشأ من دون مضمون، كالدول الديموقراطية، قد يكون هناك دول من دون مضمون فكريّ، الديموقراطية هي مضمونها، ولكن يمكن أن تنطلق من تبنيها للماركسية

اليوم، أو من تبنيها للإسلام غداً. ولكن هناك دول تنطلق من خلال مضمون فكري، كالدولة الإسلامية، أو كالدولة الماركسية، ومن الطبيعي أن يكون هناك فريق من الناس، لا يؤمن بمضمون الدولة، ولا يحترمه فكراً، ولا يعتبر نفسه ملزماً به من ناحية إنتمائه..

هنا تريد الدولة أن تتحرك، فالإسلام قدّم مفهوم «الذمة»، أي أن تكون أنت في حمايتي وإن كنت تخالفني الرأي، فلا أسمح لأحد أن يعتدي عليك، وإذا دخلت في حرب مع أناس من دينك، فانا لا أفرض عليك أن تحاربهم، وليس عليك أن تدفع الضرائب التي تُفرض على المسلمين من ناحية دينية، كالخمس والزكاة، إلا إذا أنت قبلت ذلك. ولكن عليك ضريبة واحدة نتيجة حالة الحماية، ولك الحرية في عباداتك.. ويمكن لك أن تكون جزءاً من الدولة، من دون أن تكون في المركز الأول للدولة، لأن المركز الأول، لا بد أن ينطلق من خلال القناعة بفكر الدولة، وإذا كنت غير مقتنع، فكيف يمكن أن تكون في موقع القرار؟

لذلك، انطلق الإسلام من حالة واقعية إنسانية. وهناك صيغة أخرى للعلاقة مع أهل الكتاب، غير صيغة «الذمة»، هناك صيغة «المعاهدة»، كما فعل النبي (ص)، عندما دخل إلى المدينة، حيث أجرى صيغة المعاهدة مع اليهود، بمعنى أن يدخلوا مع الدولة كأقلية مع الأكثرية، فيما لهم وما عليهم.

من هنا اعتقد أنه ليس هناك دونية بالمعنى الإنساني الأخلاقي.. نعم، هناك فرق بين الأكثرية والأقلية من خلال موقع الأقلية والأكثرية.. وقد لا تكون الأقلية والأكثرية ديناً، قد تكون عرقاً، أو حالة سياسية، وقد يكون في مقابل الأكثرية أقلية سياسية، ولكن لا تستطيع أن تصل إلى مواقع الحكم، لأن المواقع تحتاج إلى أصوات.

■ البعض يرى أن التمسك بما نرثه من أفكار يمثل الأصالة في مواجهة التبعية، ما قول سماحتكم في ذلك؟

* «فكروا لنا» يلغي وجودنا، «لنفكر معاً» يمنحنا عمق هذا الوجود المتفاعل مع وجود آخر.

* لا بُدَّ لجيل الشباب أن يؤصل انتماءه من حيث يؤصل فكره، ليربطه بعقله ووجدانه وبكل ثوابت الحقيقة في الحياة.

محاكمة الماضي

□ ليس من الضروري أن يكون الإرث سلبياً دائماً، قد تكون فيه إيجابيات، لكن لا بُدَّ لنا من أن ندرس سلبياته وإيجابياته، لأن إرثاً تركه لنا أبائنا قد لا يكون له دورٌ في حساب حياتنا، لأنه إرث زمن ماضٍ انطلق من تجربة محدودة، وتحرك في أفق محدود... لذلك ليس من الضروري أن نقسِّم التراث كيفما كان، بل أن ندرس التراث، لأن التراث كان فكرَ أناسٍ جريّوا، وقد تكون تجربتهم خاضعة للظروف الموضوعية التي كان يمثلها زمنهم، ولذلك هم كسبوا فكراً، وعلينا أن نكسب فكراً آخر، ليس هذا حديثي، هذا حديث القرآن: (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ)^(١) لها ما كسبت من فكرٍ خاطيءٍ أو مصيب، لها ما كسبت من عملٍ صالحٍ أو غير صالح، لها ما كسبت من هزائم أو من انتصارات، لها ما كسبت مما يبني الحياة أو مما يهدمها (ولكم ما كسبتم) لكلِّ جيلٍ كسبه، وليس من الضروري أن يكون كسبُ الأجيال السابقة هو كسبنا فيما تعطيه المسألة من إرث الأجيال.

(١) البقرة: ١٣٤.

علينا أن نكسب، وقد نكسب ما كسبوه، ولكن، لأننا اقتنعنا بذلك، ولأننا أردنا ذلك، لا لأن الآخرين تركوا لنا ذلك.. إن القضية في عالم الانتماء، وعالم الفكر، ليست هي أن يكون لك شيء جديد دائماً، ربما يكون لك فكر الآخرين، لكن على أساس أن يتحول ليكون فكرك، أن تقتنع به أنت، لا لأن الآخرين اقتنعوا به، وهكذا تكون المسألة في عملية التفاعل هي لنفكر معاً، ولا تكون المسألة فكروا لنا.. «فكروا لنا» يلغي وجودنا، «لنفكر معاً» يمنحنا عمق هذا الوجود المتفاعل مع وجودٍ آخر..

الأصالة والإرادة

لذلك لا بُدَّ لجيل الشباب أن يؤصل انتماءه، من حيث يؤصل فكره، ليربطه بعقله ووجدانه وبكل ثوابت الحقيقة في الحياة، ليكون الإنسان الأصيل، لأنه اختار فكره، ولم يتبع غيره، حتى ولو كان فكره موافقاً لفكر غيره، ولتكون قضايا الحياة، هي قضايا هذا الفكر، وهذا الانتماء ليتأصل الفكر في عمق الحياة، كما هو في عمق الإنسان، بهذا تكون لنا الأصالة حيث تكون لنا الإرادة، وحيث يكون لنا الاختيار، وعند ذلك تكون الأصالة في مواجهة التبعية.. أن تتبع الآخرين أن تكون مجرد حركة تابعة لحركتهم تتمثلهم، ولكنك لا تعيشهم.. وهذا ما يركز عليه كلُّ المُصلحين، أن تكون لك أصالتك بالأصالة تكون التابع، لأن الوجود التابع، هو الوجود الظل وليس الوجود، هو الصدى، هو الشبح، لا الحقيقة. وهذا لا يلتقي في أي جانب مما استحدثه الناس من العناوين في خصوصيات الإنسان. هذا أمر يتصل بإنسانيتك، والشباب الذي يبدأ الحياة من حيث انتهى الآخرون لا بُدَّ أن يؤصل وجوده، ويؤصل فكره وانتماءه وحركته في الحياة. وبذلك يحارب إن أراد أن يدخل ساحة الصراع كلُّ الذين يريدون أن يفرضوا عليه أن يكون تابعاً لهم، بمعنى لا إرادة له ولا اختيار، عند ذلك تكون المسألة مسألة معركة الحرية في أن نريد أو لا نريد، في أن نكون أو لا نكون.

■ **تنطلق من حين لآخر نقاشات ومحاضرات وندوات، تحاكم العرف والتقاليد على أنها من الإسلام، فما سبب ذلك برأيكم؟**

* لا يزال هناك مفهوم يحاول أن يُنظر للتخلف، ويقَدِّس الأعراف والتقاليد.

* لو أردنا أن نُخلص لأعرافنا وتقاليدنا، فما الفرق بيننا وبين المنطق الجاهلي.

قداسة التخلف

□ في تصوُّري أن المشكلة التي نعيشها هي فوضى المفاهيم، وحتى الآن لم ننطلق في مجتمعنا الذي تسوده أعراف التخلف وتقاليده، لتحديد ما هو المفهوم الإسلامي لدور المرأة والرجل.

فهناك الكثيرون ممن لا نستطيع أن نتهمهم في إخلاصهم للإسلام، يعتبرون أن دور المرأة الأول والأخير، هو البيت، وأنه لا دور لها خارج نطاقه، ويعملون على أن تكون المرأة في دائرة الاتهام المطلق، في أنها عندما تخرج من البيت، وتمارس الأعمال الاجتماعية أو السياسية، أو الثقافية، فإنها تكون عُرضة للانحراف، تماماً لو كانت المرأة إنساناً لا يملك أية مناعة أخلاقية في داخل نفسه، بينما لا يُتحدَّث عن الرجل عندما يذهب يميناً وشمالاً، «ويُشرِّق ويغرَّب» في الأرض، بأنه يمكن أن ينحرف.

لا يزال هناك مفهوم يحاول أن يُنظر للتخلف ويقَدِّس الأعراف والتقاليد، ويحاول أن يستنتق بعض النصوص التي قد تكون منطلقة من خلال ظرفٍ مُعيَّن، أو من خلال

تجربة معينة.. لذلك نحن نتصور أنّ القرآن هو المصدر الأساس لمفاهيمنا الإسلامية، ونحن نعرف أنّ القرآن تحدّث عن العمل الصالح للمرأة والرجل على حدّ سواء وتحدّث عن العمل غير الصالح للمرأة والرجل على حدّ سواء.. وتحدّث عن المرأة كنموذج خير، وكنموذج شرير، كما هو الرجل في هذا المجال، واعتبر القرآن حركة الإنسانية في صراعها ضدّ كلّ انحسار «للمعروف» الذي يعبرّ عما يرفع مستوى الإنسان، أو كل انطلاق لما يُسمّى «بالمنكر» الذي يمثّل كلّ ما يُسقط الإنسان، اعتبره مسؤولية الرجل والمرأة، وتحدّث عن أنّهم أولياء، أي أنّه يدعم بعضهم بعضاً، ينصر بعضهم بعضاً، يعاون بعضهم بعضاً، بمعنى ليس هناك في حركة واقع التحديات، مجتمع الرجل المنفصل عن مجتمع المرأة.. هناك مجتمع يُعتبر بعضه ولياً للبعض الآخر، في حالة المعروف، أو في حالة المنكر..

ومن خلال ذلك، نجد أنّ علينا أن نواجه هذه الأعراف والتقاليد بالطريقة الفكرية، وذلك بأنّ نجرّدها من القداسة التي لا معنى لها. ربما يفهم بعض الناس «النصوص المقدسة» فهماً خاطئاً، أو فهماً صحيحاً.. لذلك، نقول: إنّ علينا، أن تكون لنا شجاعة مواجهة هذه الأعراف والتقاليد بطريقة فكرية أولاً لتوعية واقعنا الإسلامي في وجوه الخطأ والصواب، وأن ننطلق بعد ذلك لمواجهتها ولحاكمتها على مستوى الواقع، لنُبقي الحسن فيها، ونطرّد القبيح منها، وإلّا لو أردنا أن نُخلّص لأعرافنا وتقاليدنا، فما الفرق بيننا وبين المنطق الجاهلي (إنّا وجدنا آباءنا على أمةٍ، وإنّا على آثاريهم مُقتدون)^(١).

□ الإلتفاء الحزبي :

* خطابُ للأمة.

* حركة مع الله.

■ يقولُ أحدُ العلماء: يحرم على أيِّ عالمٍ الإنضواء تحت لواء أيِّ حزب، لأنه عندئذٍ سوف يسخر خطابه الديني لمشروع خاص في حين أنّ الخطاب الديني أكثر اتساعاً وشمولية. ويستحضر هذا العالم كلمة للإمام الخميني (قده) أنّه أصدر فتوى بحرمة انتماء رجل الدين إلى الحزب الجمهوري غداة انتصار الثورة، ما تعليق سماحتكم على ذلك؟

* الأحزاب الإسلامية مضمونها الأمة، وخطابها للأمة.
* القول بأنّ الانتماء الحزبي يُضيق الخطاب قولٌ غير

صحيح.

منطق غير دقيق

□ هناك منطق يعتبر الانتماء إلى الحزب محرماً، لأنّ منطق الحزب - حسب رأيهم - ومنطق الخطاب الحزبي، هو مضمونٌ ضيقٌ.. وينبغي لعالم الدين أن يكون خطابه خطاباً واسعاً على مستوى الأمة..

وإذا أخذنا بهذا المنطق، ينبغي على عالم الدين ألا ينتمي إلى مذهب، لأنّ المذهب أيضاً يمثّل دائرة ضيقة، والمفروض عليه أن يكون لكلّ المسلمين، كذلك يُوحى هذا المنطق أنّ عليه ألا ينتمي إلى دينٍ مُعيّن على اعتبار أنّ خطابه يجب أن يشمل الناس جميعاً، فلماذا يتحدّث باسم المسلمين مثلاً، والمجتمع الذي يعيش فيه مجتمع متنوع مسيحي - إسلامي؟ هذا المنطق غير دقيق.

صحيح أنك مُنتمِر إلى حزب إسلامي معين، لكن المضمون الفكري للحزب مضمون عام، فهذه الأحزاب الإسلامية الموجودة في العالم الإسلامي مع أنها ذات واقع تنظيمي عام، لكن مضمون خطابها لا يخص الحزبيين وحدهم، وإنما يتعدى ذلك إلى كل المسلمين بهدف إقامة حكم إسلامي في العالم كله.

إذاً، الأحزاب الإسلامية مضمونها الأمة، وخطابها للأمة.. حتى أن الأحزاب التحررية بشكل عام خطابها لكل الباحثين عن الحرية، ولا يوجد حزب في العالم ضيق الأفق.

حديث استهلاكي

ونحن في تمذهبنا بمذهب أهل البيت (ع) ليس معناه أن ننقل عن بقية المسلمين، فأهل البيت قالوا لنا: «عُودُوا مَرْضَاهُمْ، وَشَيَعُوا جِنَائِزَهُمْ». وليس معنى ذلك أن ننقل عن المسيحيين (قل يا أهل الكتاب، تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم)^(١).. وربما بحسب بعض الاجتهادات يمكن أن نفتح حتى على غير المتدينين كلية في القضايا المشتركة إستيحاءً من كلمة (السواء). لذلك فنحن نقول: إن هذا الكلام عن منع عالم الدين دخول الحزب وبهذا المضمون هو حديث استهلاكي.

أما رأي الإمام الخميني (قده)، أنه لم يقبل أن يكون العلماء جزءاً من الحزب الجمهوري في بداية الثورة فلكي لا يتأطروا في حالة خاصة، ولكي يكونوا منفتحين على جميع الناس.

إذاً، القول بأن الإنتماء الحزبي يُضيِّق الخطاب هذا غير صحيح، وإذا سلّمنا بصحة هذا القول، فهذا ينسحب على الإنتماء للمذهب، أو الإنتماء للدين، فكأننا نقول للناس: انسحبوا من دينكم وانسحبوا من مذهبكم وهذا ما لا يمكن.

(١) آل عمران: ٦٤.

والذين يحرّمون الإنتماء للحزب الإسلامي، لماذا يقبلون بأن يكون هناك مجلسٌ مليّ؟ وما الفرق بين أن يكون عندك حزب أو مجلس طائفي؟. فالمجلس الملي - على أساس قولهم - يحصر الوضع في الدائرة الشيعية مثلاً أو الدائرة السنية، أو الدائرة الكاثوليكية، وعندها لا فرق بين هذه الدوائر وبين الحزب.

ونقول: إذا أردنا أن نتجاوز المسألة الحزبية فينبغي أن نتجاوز المسألة الإسلامية، وهذا غير طبيعي.

■ سمعنا من بعض الأخوة في الخارج،

أنكم تسعون لإنشاء حزب إسلامي، ما تعليقكم

على ذلك؟

□ أنا أؤمن بحزب الإمام الخميني (قده)، لا على الطريقة الحزبية، وهو أن كلّ المسلمين هم «حزب الله» كلّ المسلمين الذين (لا يُؤادون مَنْ حادَّ الله ورسولَه)، والذين يتحركون في خط الله، كلّ المسلمين، سواءً كانوا في «حزب الله» تنظيمياً أو خارجه، في لبنان وفي غير لبنان، أي «حزب الله» بالمعنى القرآني، ولذلك لا نحتاج أن ننشئ حزباً إسلامياً جديداً، لأنّ كلّ المسلمين الذين يتحركون في العالم، من أجل مواجهة الاستكبار العالمي، ومن أجل أن يؤكدوا شرعية الإسلام.. كلهم هم حزبنا لأننا نتحرك مع الله في هذا.

نحن نؤمن بكلمة حزب بالمعنى الذي أطلقه الإمام الخميني (قده)، والمقصود به كلّ الجماهير المسلمة التي تنفتح على قضايا الإسلام والمسلمين، من موقع الإخلاص لله ولرسوله (ص).. ولذلك أنا لا أحتاج إلى إنشاء حزب إسلامي، بل أعتبر أن كلّ الأحزاب الإسلامية تمثل تطلعاتنا وطموحاتنا، وتمثّل الحُلم الكبير الذي عملنا له منذ أكثر من خمسين عاماً.. لذلك نحن ندعم الجمهورية الإسلامية في إيران، ونعتبر أنها قاعدة الحركة الإسلامية في العالم، وأنها حُلمنا الكبير الذي تحقق، ونحن نعمل على تأييدها، والوقوف ضدّ أعدائها بكل قوة، مهما تحمّلنا من أخطار، وندعمها، وندعم قيادتها الرشيدة المتمثلة بأية الله العظمى السيد علي الخامنئي (حفظه الله)، الذي يملك الرشد السياسي والفكري والفقهية بالطريقة التي تميّزه عن كثيرٍ من القيادات. ومن هنا نحن لسنا في وارد إنشاء حزب إسلامي، بل نحن مع المسلمين جميعاً، مع الحركات الإسلامية جميعاً، ندعمها ونؤيدها فلماذا نجشّم أنفسنا بإنشاء شيءٍ موجود في العالم.

□ الحوزة :

* دور عالم الدين.

* في مواجهة المخاطر.

* الشخصية التبليغيّة.

* التجديد.

■ كيف تنظرون إلى دور عالم الدين؟

* العلم ليس عمامة، وإنّ الموقع لا يمنحك الدرجة العلمية، وإنّ الزّي لا يمنحك الدرجة الدينيّة.

□ إنّ عالم الدين، إنسان يملك ثقافةً دينيّةً مفتوحة على كلّ ما له علاقة بحركة الدين في الإنسان وفي الحياة، من خلال الخطوط التفصيلية في القانون والأخلاق والقيم وما إلى ذلك.. لذلك لا بدّ للعالم الديني من أن يكون مُلمّاً بكلّ ما يتصل بحركة الدين في وجدان الإنسان وفي واقع الحياة.

أما الاختصاصات الأخرى كالكيمياء والفيزياء والهندسة وغيرها، فإنّ عالم الدين لا يدعي لنفسه الإحاطة بذلك، بل إنّ طبيعة أمانته لمسؤوليته، وأمانته على الناس ألاّ يُعطي رأياً اقتصادياً إلاّ بعد أن يرجع إلى أهل الخبرة في الاقتصاد، وألاّ يُعطي رأياً سياسياً إذا لم تكن له ثقافة سياسية، إلاّ بعد أن يرجع إلى أهل الخبرة. لذلك فعالم الدين لا يتصوّر نفسه إنساناً يملك كلّ الخبرات، بل هو إنسان يقف في دائرة الخبرة الثقافية والعملية التي يملكها، حتى أنّ عالم الدين إذا كان اقتصادياً، فإنّه لا يتحرّك في الاقتصاد من خلال أنّه رجلُ اقتصاد، يُعطي لنفسه الخبرة فيما يتصلّ بالمسألة الاقتصادية في الجانب الديني، كما يُعطي لغيره الخبرة في هذا المقام.

لذلك، نحن نقول: إنّ الدين يحترم العلوم الأخرى، ويرى أنّ على كلّ إنسانٍ أن يقف عند حدود معرفته، وأنّ على عالم الدين أن يحترم أهل الخبرة الآخرين، وألاّ يُعطي أيّ رأيٍ في مسألة لا تتصلّ باختصاصه وبخبرته، إلاّ بعد أن يرجع إلى أهل الخبرة، وعليه أن يلتزم برأيهم إذا رآه مُكرّماً، لأنّ عملية الرجوع إلى أهل الخبرة، هي عملية متحرّكة،

لأنك قد ترجع إلى بعض أهل الخبرة ليرى رأياً، وقد يكون هناك بعض أهل الخبرة يرى رأياً آخر، لذلك لا بدّ لك أن تشاور، ثم تحاول أن ترجع إلى نفسك، لتقرّر القرار من خلال ذلك، وهذا ما عبّرت عنه الآية الكريمة في خطاب الله للنبي (ص)، يقول سبحانه (وشاورهم في الأمر، فإذا عزمت فتوكل على الله)^(١).

ومن الطبيعي، أنه ليس كلّ شيخ عالم دين، العلم ليس عمامة، والعلم ليس موقعاً، العلم الديني هو كأيّ علم آخر.. إنّ الموقع لا يمنحك الدرجة العلميّة، وإنّ الزيّ لا يمنحك الدرجة الدينيّة.. عالم الدين كأيّ إنسان، إذا كان له العلم الذي يُمكن أن يجعله في مستوى موقعه، وعلى الناس أن يُقدّروه كتقديرهم لأيّ شخص صاحب علم، وإذا لم يكن له ذلك، ووضع نفسه في موقع، فعلى الناس أن يرفضوه حتى لا يُسيء إلى القيمة الدينيّة، والقيمة العلميّة من خلال جهله، أو من خلال انحرافه.

(١) آل عمران: ١٥٩.

■ في زحمة التحديات الصعبة التي تواجهه واقعنا المعاصر، والمخاطر الكبيرة التي تهدد وجودنا، وفي ظل كل التعقيدات التي تحاصرنا، ما هو دور المراجع والعلماء والحوزات في التصدي لذلك.

* فكروا بروح العصر، وتعلموا لغة العصر وأسلوب العصر، وافهموا إسلامكم جيداً.

* كل من يزرع الخوف في نفوسكم، والخوف في حركة الدعوة إلى الله، والخوف في حركة الموعظة من أجل الله، فإن أسلوبه شيطاني.

* الله تعالى جعل قضايا النصر تنطلق من خلال الواقع.. والتجربة أمامنا.

ماذا لو كان بيننا؟

□ إنني أمام هذا السؤال، أقول: لو كان الإمام الحجة (عجل الله فرجه الشريف) موجوداً بيننا الآن، وكانت له الإمكانيات الإعلامية والثقافية والسياسية والاجتماعية والأمنية... لو كان موجوداً الآن، فكيف يتصرف؟ هل يبتعد عن الساحة؟ هل يقف موقف اللامبالاة أمام التحديات الفكرية؟ هل ينسحب من مواجهة التحدي، أم أنه يتحدى ويقتمح وينطلق ويصارع. ويهيب الأجرء ويحل المشاكل، ويحتوي الواقع؟

فرص للعمل مفتوحة

إنني أعتقد أن المسألة هي مسألة وجود فرص ملائمة للمراجع وللعلماء وللحوزات في اقتحام العالم ثقافياً، إذا لم نستطع أن نقنحه سياسياً أو اقتصادياً.. ونحن نستطيع

إذا أحسننا أسلوبنا السياسي، أن نجعل العالم يحترمنا سياسياً، إذا ما انفتحنا على قضايا العالم في أكثر من موقع.. فلو توزعنا الأدوار، وانطلق كل فريق مسلم في موقعه بمسؤوليته تجاه قضايا الإسلام، ولو أن كلّ الفعاليات سواءً كانت دينية بالمعنى المصطلح، أو غير دينية^(١)، شعرت بالمسؤولية تجاه قضايا الإسلام والمسلمين، لأمكننا أن نعمل شيئاً كبيراً في العالم..

إنّ العالم اليوم منفتح على الإسلام، ولكن علينا أن نعرف كيف نقدّم الإسلام له، ونعرف كيف نفهمه. ونعرف كيف نفهم نحن الإسلام.. إنني من خلال ما ألاحظه من أنّ هناك مفكرين كباراً مثل «روجيه غارودي» - والمعروف بماركسيته - وغيره دخلوا في الإسلام، وأصبحوا من الكتّاب المسلمين، أقول: إذا كان الإسلام يمكن أن يفرض نفسه على مفكر مثل «غارودي»، ألا نستطيع أن نفرض الإسلام على مفكرين آخرين؟

وأنصح كلّ إخواننا من العلماء، ومن طلاب الحوزات الدينية، ومن المثقفين المسلمين، بأن فكروا بروح العصر وتعلموا لغة العصر وأسلوب العصر، وافهموا الناس جيداً، وافهموا حركة الحياة جيداً، وافهموا أنفسكم جيداً، وافهموا إسلامكم جيداً.. فالعالم الآن منفتح على الإسلام، أكثر مما كان منفتحاً في زمن النبي (ص)، لأنّ الكثيرين صاروا يملكون فكراً ويحبون أن يحاوروا صاحب الفكر، ويعيشون كثيراً من المشاكل، ويحبون أن يحاوروا في كلّ تلك المشاكل.

لذلك، لا تعتبروا أنّ العالم معقد، مشكلتنا أننا نحن المعقدون، ونظن أن الناس معقدون، تماماً كما هو قول المتنبي:

إذا ساءَ فعلُ المرءِ ساءتْ ظنونُهُ وصدق ما يعتاده من توهم

(١) من المثقفين المسلمين خارج الحوزات.

مشكلتنا أننا نحبّ الراحة ونحبّ الاسترخاء، ولكنّ المسألة في أن ننطلق، لنكون كما قال الله تعالى: (الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ، وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا)^(٢)، وأن نكون كأولئك (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا، وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ، وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ، إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ)^(٣)، كلّ مَنْ يزرع الخوف في نفوسكم، والخوف في حركة الدعوة إلى الله والخوف في حركة الموعظة من أجل الله، والحركة من موقع الجهاد في سبيل الله.. كلّ مَنْ يزرع في نفوسكم الخوف، فإنّ أسلوبه شيطاني، لأنّ الله يقول: (إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ، فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ، إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)^(٤) (إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ، إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا)^(٥). في أشدّ ساعات الحرج، القوم يقفون أمام الغار، وليس بينهم وبينه إلا أشبار، أو أصابع، ويقتحمون الغار، وصاحبه خائف حزين، ورسولُ الله يعيش الطمأنينة (لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا، فَاَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ، وَأَيْدِيَهُمْ جُنُودٌ لَمْ تَرَوْهَا، وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى، وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا)^(٦).

لنتق بالله أكثر

نحتاج أن نتق بالله أكثر، أكثر مما نتق برؤساء الدول الكبرى.. فبعض الجهات أو الدول تقول، طالما أن أميركا معنا وبريطانيا وفرنسا، فمن يستطيع الوقوف بوجهنا.. ولكن نحن نقول: حسبنا الله، ونعم الوكيل.. لأنّ ذلك يُعمق إحساسنا بقوتنا، ويجعلنا نثبّت وندمناستطيع أن نفكر بكيفية تحريك عناصر القوة.. وليس من الضروري أن

(٦) التوبة: ٤٠.

(٤) آل عمران: ١٧٥.

(٢) الأحزاب: ٣٩.

(٣) آل عمران: ١٧٣ - ١٧٤ - ١٧٥. (٥) التوبة: ٤٠.

تكون قوياً بحيث تهاجم فوراً، بل أن تكون قوياً، بأن تخطط، وتتحرك، بأن تدرس الواقع.. عندما انطلقنا على أساس (أشداء على الكفار رحماء بينهم)^(٧) انتصرنا، وعندما كان اليهود (بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى)^(٨) انكسروا.. ولما تبدت القضية، أصبحوا أشداء على المسلمين رحماء بينهم، وأصبح بأسنا بيننا شديداً، وقلوبنا شتى، لذلك (ولن تجد لسنة الله تبديلاً)^(٩)، لأن الله سبحانه، جعل قضايا النصر تنطلق من خلال الواقع.. والتجربة أمامنا..

ومشكلة بعض الناس أنهم عندما يؤمنون بالإمام الحجة (عج)، يقولون ممنوع أن يقوم إنسان بعمل إسلامي، حتى أن بعضهم يرى أن الإصلاح حرام، وأن الموعظة حرام، لأنك كلما وعظت الناس أكثر، كلما صار الناس «أوادم» أكثر، وبالتالي يتعطل خروج الحجة (عج)، وكلما عملت للإسلام، وأسست دولة إسلامية هنا، ودولة إسلامية هناك، خربت العمل على صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف.

هؤلاء يجمدون الإسلام.. والإسلام لم يتجمد في أحكامه في أي زمان «حلال محمد حلال إلى يوم القيامة، وحرام محمد، حرام إلى يوم القيامة».. لم يتجمد الجهاد، ولا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولم يتجمد شرع الله.. وأما أن كل راية تخرج في زمن الغيبة قبل الظهور فإنها راية ضلال، فهذه رواية محلّ تحفظ كبير..

وعندما يدعو الإنسان للإسلام ولخط أهل البيت (ع)، ويواجه العالم كله، كالإمام الخميني (قده) هل يمكن القول إن رايته راية ضلال؟ لذلك، فبعض الروايات، لا بد للإنسان فيها أن يفهم إما أنها موضوعة، أو أنه يراد منها شيء آخر.. هل يمكن أن يقول الله سبحانه للناس، لا تطالبوا بتطبيق الإسلام، ولا تصلحوا الناس؟ هل هذا

(٩) الاحزاب: ٦٢.

(٨) الحشر: ١٤.

(٧) الفتح: ٢٩.

معقول؟ الله تعالى خلق لنا عقلاً، وأعطانا قرآناً، وأمرنا باتباع ما صحَّ من السنَّة النبوية ومن تراث أهل البيت (ع)، لذلك، لا يصحَّ أن مجرد رواية كهذه، تُعطل لنا كلَّ هذا.

إنَّ الأمة المتخلفة تتصوَّر قيمها بطريقة متخلفة، نحن نفرضُ التخلف على الإسلام، لأنَّ فهمنا متخلف، فنفهم الأشياء بطريقة معكوسة.

■ هل ترون أن الحوزة في برامجها العلمية
تلاحظ بناء شخصية تبليغية أم أن ذلك يتوقف
على طالب العلم نفسه؟

* التبليغ يحتاج إلى نوع من التراتبية في خط
المرجعيات.

* الدعوة تفتقر إلى مُبَلِّغين يحملون همَّ المسؤولية.

□ ليس في الحوزة منهجٌ تبليغي يدرسه الطالب ليتعلّم أسلوب التبليغ وعناصره
وشروطه ويُرَبَّى على روحيته.. ولكن هناك جوٌّ في الحوزة الدينية قد يدفع الطالب في
اتجاه التبليغ، وهذا يتوقف على شخصية الطالب الحوزوي ومدى قراءته ودراسته وسعة
أفقه ومحاولته الحصول على المعرفة التبليغية.

لم نصل حتى الآن إلى مستوى يفرض فيه المراجع على طالب العلم أن يذهب إلى هذا
البلد أو ذاك بقصد الإرشاد والتبليغ، لأنّه ليس هناك نوعٌ من أنواع التنظيم التبليغي
والمسؤولية التبليغية، وقد يُكَلِّف شخصٌ ما للذهاب إلى منطقة بحاجة للتبليغ ولكنه قد لا
يستجيب.

في إيران لا يبعد أن المسألة بدأت على صعيد التبليغ تأخذ الاتجاه التنظيمي. لذلك
فإنّ الأمر يحتاج إلى نوع من أنواع التراتبية التنظيمية في خطّ المرجعيات، عندها يمكن
لجهاز المرجعية أن يفرض على طلاب العلوم الدينية أن يسدّوا مناطق الفراغ.
ونحن في واقعنا الخاص، لا تُقام الحجة بنا على الناس، لأنّ كثيراً من المناطق التي
تخترن إمكانية الاستجابة للدعوة لا يقصدها مبلّغون يحملون همّ العمل.

■ ما هو مفهومكم للتجديد الديني؟

تجديد أم تطوير؟

□ أنا لا أفاعل كثيراً مع كلمة «التجديد الديني».. لأنّ الدين في عمقه لا بدّ أن يبقى كما أنزله الله في صفائه، لكن، ربما علينا أن ندرس الدين من جديد، ولا نكتفي بدراسة الأقدمين، لأنّ الأقدمين كانت لهم ذهنياتهم الثقافية وتأثيراتهم الفكرية، وكانت لهم رواسبهم ونقاط ضعفهم.. نحن نحترم الأقدمين، ولكنهم ليسوا معصومين، كلّ العلماء يُصيبون ويخطئون.. والعلماء السابقون كانوا ينقدون من قبلهم، فلماذا لا يجوز أن ننقد منهم.. وعلينا عندما ندرس القرآن، أن ندرسه دراسةً جديدة، ونعرف كيف نفهمه، وندرس ما فسّر به الآخرون القرآن. لكن، ليكن لنا فهمنا للقرآن، فقد نكتشف خطأً في فهمهم أو نكتشف تخلفاً في بعض الآراء. وليس كبيراً أن يكون بعض الذين يملكون العلم الوفير، يملكون تخلفاً ذهنية. علينا فهم القرآن فهماً جديداً، لا أن نعيش عقدة الجدة، ولكن أن نعيش استقلالية الفهم، بأن نفهم السنّة النبوية الشريفة، والسيرّة النبوية الشريفة فهماً جديداً، وندقق بما يأتينا من أحاديث وننقيها، لأن هناك ركاماً من الأكاذيب والموضوعات التي دخلت إلى واقع الناس وأصبحت حقائق. من هنا، نحن نؤمن بالتجديد بهذا المعنى، ولا نريد أن نجدد الدين، لأن الآخرين يقولون لنا جدّوه. ليست لدينا نقطة ضعف أمام الآخرين، فليقولوا ما يريدون، نحن نقول كما جاء في القرآن: (مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)^(١).

(١) الأحزاب ٣٦.

التمسك بالحقيقة:

لو ثبت عندنا حقيقة قرآنية، وقال الناس كلهم، إنها خرافة، نقف لنقول، إنها حقيقة، لكن، علينا أن نوثق النصوص الدينية، هل صدرت عن المعصوم (ع) وكيف صدرت، وما هو مفهومها؟ لا يكفي أن نقول، قال الشيخ المفيد^(٢)، وقال الشيخ الطوسي^(٣)، بل علينا أن نناقش الشيخ المفيد في فهمه، والشيخ الصدوق^(٤) في فهمه، كما ناقش الشيخ المفيد، الشيخ الصدوق في فهمه، وهكذا. نحن نقول، علينا أن نفهم الإسلام من خلال قناعاتنا وأدواتنا في وسائل الفهم، وأن نفهم روح العصر لنعرف كيف نستطيع أن نحرك الإسلام في عقول وحياة الناس، من خلال الأساليب التي تنسجم مع الجو العام والذهنية العامة.

(٤) ت ٣٨١ هـ.

(٢) ت ٤٦٠ هـ.

(٢) ت ٤١٣ هـ.

□ الحبيب المصطفى ﷺ

* في ذكرى الولادة.

* في ذكرى الوفاة.

* ما أودى نبيّ مثلما أوديت.

■ في كلمة توجيهية لسماحته لطلابه في «بحث الخارج» بمناسبة ذكرى المولد النبوي الشريف.

- * دور العالم الديني دور الرسول عن الرسول.
- * الدعوة إلى الله ليست وظيفة لها دوام خاص.
- * هناك فرق بين أن يعيش الإنسان مسؤوليته بعقله وبين أن يعيش مسؤوليته بعقله وقلبه.
- * علينا أن نهتمّ بمحاسبة أنفسنا قبل اهتمامنا بمحاسبة الآخرين.

الداعية بين مستلزمات الدعوة، ورغبات الذات

□ نحن نسير في خطّ النبي (ص) من حيث أننا نوابُ رسول الله (ص) فيما نريدُ لأنفسنا ذلك، وفيما نعمل في خط الدعوة إلى الله. فدور العالم الديني هو دور الرسول عن الرسول، ودور الداعية عن الداعي الأول، ودور الإنسان الذي يتحمّل مسؤولية حركة الإسلام في حياته.. وعندما نجعل لأنفسنا هذا الدور علينا أن نتعمّق في مخاطبة أنفسنا به. ولكن هل صحيح أننا اخترنا هذا الدور؟

وهل صحيح أننا نريد أن نقف في خطّ الدعوة إلى الله كما كان رسول الله (ص)؟ إننا هنا، لا بدّ أن نشير ونحن في أجواء ذكرى ولادة رسول الله (ص) أن موقع العالم الديني تطوّر في المجتمع، وأصبح الرمز الديني أقصر طريق للحصول على مركز اجتماعي، فحاول البعض أن يعيش هذه الرغبات، تهرباً من وضع معيّن، أو تخلصاً من مشكلة، أو تنفيساً عن عقدة، فابتعد عن أن يكون داعية.

ومن الطبيعي أن الإنسان عندما يفكر بهذه الطريقة، فإنه سوف يوظف الإسلام لخدمة مصالحه وأطماعه. وهذا ما كان في زمن النبي (ص) حيث يقول تعالى: (وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ، فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ)^(١).

وهذا ما يوجبُ دينَ الإنسان لأنه سوف يتخذ ما يُرضي رغبات الحكّام، وسوف يكون أقرب إليهم باعتبار أن الدنيا موفورة لديهم، ويكون قريباً إلى الأغنياء الفسقة، وإلى الأشخاص الذين لا يملكون التقوى، وهو بذلك يخذل الخطّ الإسلامي الأصيل لأنه لا يستفيد منه شيئاً، ويتبنى الخطوط المنحرفة التي توفر له كل شيء، وطريق الشيطان (أوتوستراد) واسع في هذا المقام.

لذلك على طالب العلم أن يدرس هذه المسألة جيداً مع نفسه وبشكل دائم، كي لا يقع كما وقع غيره حيث انطلق في البداية متديناً، يملك التقوى ثم انحرف بعد ذلك، وليقف مع نفسه دائماً على قاعدة «المؤمن لا يصبح ولا يمسي إلا ونفسه ظنونٌ عنده» وقاعدة «لا تُخْرِجْ نَفْسَكَ مِنْ حَدِّ التَّقْصِيرِ». لا بد أن نحاسب أنفسنا دائماً، ونتساءل: لماذا طلبنا العلم؟ هل طلبناه لله، أو لغير الله؟ وإن كان الشهيد الثاني (رحمه الله) في كتابه «منية المرید» متفائلاً جداً، يقول: «طلبنا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلا لله» وهذا تفاؤل جيد إذا حصل الإنسان عليه.

هَمَّ الدَّعْوَةِ

ونعود إلى النبي (ص)، فقد كان يعيش حلم الدعوة، ولم يكن مكتفياً بتكليف الله له في قوله سبحانه: (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ

(١) التوبة: ٥٨.

وَسِرَاجاً مُنِيرًا^(٢). كان (ص) يعيش الألم إذا لم يهتدِ الناس، لا لأنه فشل في هدايتهم من ناحية ذاتية، ولكن لأنه كان يحبهم. ولذلك لاحظوا التعبير القرآني (فلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ)^(٣). كادت نفسُ النبي(ص) تذهب حسرات على الناس لأنهم لم يهتدوا، كان يعيش همَّ الناس في الهداية، كما كان يعيش همُّهم في الفقر والأمور الأخرى (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا)^(٤).

وبعض المفسرين يقول: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ بَعْضَ آيَاتِ تَسْلِيَةٍ لِقَلْبِ النَّبِيِّ تَخْفِيفاً لِلْهَمِّ الَّذِي يَحْمِلُهُ قَلْبُهُ، وَلَكِنَّ هَذَا التَّعْبِيرَ لَا نَعْتَبِرُهُ دَقِيقاً، لِسَبَبِ مَفَادِهِ، أَنَّ اللَّهَ أَرَادَ أَنْ يَخْفَفَ عَنْهُ (ص) ثِقَلُ هَذَا الْإِحْسَاسِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُبَيِّنَ لَهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ النَّاسِ لَا يَسْتَحِقُّونَ حَزَنَكَ وَالْمَلِكَ، لِأَنَّ الشَّيْطَانَ «رَكِبَ رُؤُوسَهُمْ»، وَأَرَادَ تَعَالَى أَنْ يُبَيِّنَ لَهُ أَنَّ عَلَيْهِ (ص) أَنْ يَقْدِمَ مَا عِنْدَهُ وَحَسَبٌ، لِأَنَّ قَضِيَّةَ الْهَدْيِ لَمْ تَنْحَصِرْ أَسْبَابُهَا فِي التَّبْلِيغِ، فَالتَّبْلِيغُ أَحَدُ الْوَسَائِلِ، فَهَنَّاكَ الْجَوَانِبَ الذَّاتِيَّةَ لِلْإِنْسَانِ، وَهَنَّاكَ الظُّرُوفَ الْمَوْضُوعِيَّةَ الْمُحِيطَةَ بِهِ، وَهَنَّاكَ الْمَوَاقِعَ... وَلِذَا يَقُولُ سَبْحَانَهُ: (لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)^(٥). فالإنسان لا يملك كلَّ وسائل الهداية، وإنما يملك بعضها.

ومع ذلك نلاحظ أن النبي (ص) كان ينطلق في خطِّ الدعوة كهَمٍّ من همومه وليس كونها مسؤوليته وحَسَبٌ. هناك فرق بين أن يعيش الإنسان مسؤوليته بعقله، وبين أن يعيش مسؤوليته بعقله وقلبه، بحيث تكون المسؤولية همًّا من همومه، يفكر بالليل والنهار باتهام نفسه بأنه هو لم يستطع أن يهدي الناس لا أنهم لم يهتدوا.

كان (ص) يعيش مع الناس بحيث «إذا سألوه أجابهم، وإن لم يسألوه ابتدأهم». الدعوة إلى الله ليست مجرد وظيفة من الوظائف التي لها دوامٌ خاص، بل كلَّ حياتنا هي

(٢) الأحزاب: ٤٥.

(٤) الكهف: ٦.
(٥) البقرة: ٢٧٢.

(٣) فاطر: ٨.

دوام مفتوح للدعوة إلى الله، على أن تكون أمورنا الشخصية فقط لها دوام خاص.

الإنسان الرسالي مصداق للآية الكريمة: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ)^(٦). علي^ع باع نفسه لله، فكانت حياته خالية من لحظة راحة بالمعنى الإسترخائي للراحة، كانت كلها لله، فبين جهادٍ، وبين استماع للنبي، وبين تعليم للناس.

ومن خلال القرآن، نقرأ سيرة النبي (ص) لنقتدي بهذه السيرة، نقرأ كيف خاطبه تعالى وكيف تحدث عنه.. فنقرأ عن القلب المفتوح، القلب اللين، القلب الحنون، ونقرأ عن اللسان الطيب (فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَبِئْسَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)^(٧).

لنحذر أن يكون شعورنا تجاه الناس شعور صاحب القلب الغليظ أو القلب القاسي، بل ليكن شعور القلب الحنون، الذي يُقدِّر ظروفهم، ويقدِّر ظروف الضلال التي عاشوها، حتى نستطيع أن نقوم بمهمتنا.

نحن نقول: إن الإنسان الذي لا يحب مهمته لا ينجح، فلا بد أن نحب مهمتنا، وأن نحب الناس (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ، عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ)^(٨). هذه هي صفة النبي الرسالية في احتضانه للناس في مشاعره وروحه واهتماماته.

يقظة وحذر

هذه كلمات نقولها، لا بد من إدخالها إلى الوجدان والشعور، وتحويلها إلى أمر متجذّر داخل النفس، وهذا يحتاج إلى جهاد كبير، لأن ما نخشاه على أنفسنا أن نعتقد أننا سائرون في خطّ رضى الله، فإذا بنا مخطئون في سير الطريق، وسائرون في درب

(٦) البقرة: ٢٠٧.

(٧) البقرة: ١٥٩.

(٨) التوبة: ١٢٨.

الضلال (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا)^(٩). ويقول سبحانه أيضاً: (أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا)^(١٠).

لذلك أقول لِنفسي وأقول لكم: إنَّ علينا أن ندخل في حسابات مع الداخل، قبل أن نُجري حسابات مع الخارج، أن نهتمَّ بمحاسبة أنفسنا أمام الله قبل أن نهتمَّ بمحاسبة الآخرين، لأنَّ أنفسنا هي التي تحدِّد كل منطلقاتنا، ثم ننطلق لنحاسب الآخرين في المسؤوليات العامة، وهذا ما يجب أن نستفيده من دراستنا لسيرة النبي (ص) والأئمة الهداة (ع).

علينا دائماً أن نقرأ قوله تعالى: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ، وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا)^(١١).

(١١) الأحزاب: ٢١.

(١٠) فاطر: ٨.

(٩) الكهف: ١٠٤.

■ نص كلمة لسماحته بمناسبة ذكرى وفاة رسول
الله (ص) ألقاها على طلابه في «بحث الخارج».

* ويقهر الله عباده بالموت.

* نعيش الذكرى تأسياً واقتداءً.

* سقط في حروب المسلمين مع بعضهم أضعاف ما سقط

في حروبهم مع الآخرين.

* ليس الانتساب للرسول خصيصة لبعض العباد.

* في الشريعة ليس من وجيه ووضع.

لا خلود في الدنيا لأحد

□ يخاطب الله تعالى رسوله محمداً (ص) بقوله الكريم: (وما جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ، أَلَمِمْ مِتْ فَهُمْ الْخَالِدُونَ، كُلَّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةٌ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ)^(١). وفي المجال نفسه يقول تبارك وتعالى: (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ، ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ)^(٢).

يريد الله سبحانه من خلال هذا الجو القرآني أن يوضح فكرة مفادها، أن رسول الله (ص) ليس خالداً، وأنه يموتُ كما الناس يموتون، وسيقفُ بين يديه مقدماً حسابه ليرفع الله درجته، تماماً كما كلَّ الناس يقدمون حسابهم أمام الله، وسيخاصم (ص) الذين واجهوه بالحق والعداوة والبغضاء، ليشهد عليهم أمام الله أنهم كانوا أعداءً لدينه.

هذه هي أجواء الآيات التي تُوحى للنبي (ص) أن هؤلاء الناس الذين يتمنون موتك،

(٢) الزمر: ٣١.

(١) الأنبياء: ٣٤ - ٣٥.

هل يمكن لهم أن يُخَلدوا إذا مِتُّ أنت؟ أبدأ إنَّهُم سيموتون كما تموت، ويحشرون كما تحشر، وستختصمون عند ربكم، والله هو الحكم في كلِّ ما يحصل بين عباده في الدنيا.

وفاة الرسول امتحان للأمة

نريد أن نعيش هذا الجوِّ، ونحن في ذكرى وفاة النبي (ص) في اليوم الثامن والعشرين من شهر صفر، استلهاماً لما عاشه رسول الله، ولما استعدَّ له من موت محتمِّ، واحتضاناً للأفكار التي أراد أن يُثيرها في أمته قبل أن يفارق الحياة الدنيا، لنستوعب حقيقة هامة، وهي، هل أن الأمة تتنكر للرسالة عندما يغيب وجه الرسول عن دنياها؟ وهل تنقلب على أعقابها لحظة غياب إمامها، أو رحيل قادتها المنفتحين على خط الرسالة عن الساحة؟

هذه تساؤلات لا بدَّ أن نطرحها، من منطلق واضح يحتمُّ علينا أن نتفهَّم ما قاله رسول الله، وما اختطه في حياته، تأسياً واقتداءً به، حتى نتحرَّك حيث تحرَّك، ونقف حيث وقف تنفيذاً لأمر الله.

ومع رسول الله (ص) نقفُ في (منى) في آخر حجة حجَّها إلى بيت الله الحرام في السنة العاشرة من الهجرة، وأمام جموع الوافدين معه للحج، يقف فيهم خطيباً قائلاً: «أيها الناس، إسمعوا قولي، فإنِّي لا أدري لعلِّي لا ألقاكم بعد عامي هذا» قد تكون هذه السنة آخر سنة لي معكم. ثم سألهم:

«هل تدرون أيَّ شهر هذا؟ قالوا: الشهر الحرام. قال (ص): إن الله قد حرَّم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة شهركم هذا، فهل تدرون أيَّ يوم هذا؟ قالوا: يوم الحج الأكبر، قال: إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، وحرمة شهركم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم.. أيها

الناس: ألا لا ترجعنّ بعدي كفاراً يضربُ بعضُكم رقابَ بعض، ألا فليبلغنّ الشاهد الغائب».

هكذا يريد (ص) في آخر كلماته الشريفة أن يُجَنَّبَ المسلمين اتجاه الانحراف، ولكن ما حدث بعد وفاته، أن كثيراً من أوضاع المسلمين تغيّرت، فساهمت الانحرافات التي سلكوا خطوطها، والأوضاع الشاذة التي عملوا على تكوينها في انحرافهم عن الخط، وبعدهم عن أجواء طهر الرسالة. وبذلك تحوّلت حياتهم إلى قتال مشحون بالأحقاد، في شرق الأرض وغربها، فسقط في حروبهم مع بعضهم من الضحايا، أكثر ما سقط من ضحايا بينهم وبين أعدائهم.

الوصية - المنهاج

لذلك، فالله يريد من المسلمين أن يتحملوا مسؤولياتهم في أن يركّزوا قواعد الأمن والسلام في حياتهم، وإن اختلفوا في شيء، فإنّ عليهم أن يُردّوه إلى الله ورسوله. وإذا تنازعا في شيء فإنّ عليهم أن يدفعوا بالتي هي أحسن، وإذا تجادلوا في شيء، فإنّ عليهم أن يجادلوا كما يجادلون أهل الكتاب بالتي هي أحسن، وأن يعملوا على أن يحوّلوا أعداءهم إلى أصدقاء.

وهذه كانت وصية رسول الله الأخيرة، ولهذا يجب علينا أن نتفهّم دوافع هذه الوصية الشريفة في كل الواقع الذي نعيشه، سواء ما نواجهه من فتن ومشاكل على مستوى دائرتنا الخاصة، أو ما نواجهه على مستوى الواقع الذي يتحرّك في كل العالم الإسلامي.

ولأنّ هذه الوصية لم تعش في ضمائر المسلمين وواقعهم، نلاحظ أنّ الأجانب والمستكبرين استطاعوا أن ينفذوا إلى داخل الواقع الإسلامي ويعملوا على إرباكه

مستفيدين من خلاف المسلمين مع بعضهم البعض الذين ابتعدوا عن أن يحلوا مشاكلهم بنهج إسلامي ووسائل إسلامية.

وتحذيراً من سقوط مواقع المسلمين، يقفُ رسول الله (ص) وقفةً أخرى وهو في طريقه إلى المدينة.. ينزلُ عليه النداء من الله (يا أيها الرسولُ، بلغ ما أنزلَ إليك من ربك، وإن لم تفعلْ فما بلغت رسالته، والله يعصمك من الناس)^(٣).

في وسط الصحراء، تحت حرّ الظهيرة، يأمر النبي بأن يُنصبَ له منبر، ويرفع بيده يداً عليّ (ع) حتى بان بياض إبطيهما، وقال: «أيها الناس، أأستأولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: اللهم، بلى، ثم قال: اللهم اشهد.. ألا من كنت مولاه، فعليّ مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله وأدر الحق معه كيفما دار».

وهكذا انطلق رسولُ الله ليؤكد مسألة القيادة من بعده، حتى لا تكون حركة المسلمين في فراغ، بعد أن ينتقل (ص) إلى الرفيق الأعلى. ولكن المسلمين فهموا القضية بطريقة معينة، ففرضت الأوضاع الجديدة نفسها والتي أوجدوها خارج دائرة توجيهات رسول الله (ص).. فأبعد عليّ (ع).

ونعودُ إلى رسول الله (ص) لنؤكد أنه بلغ ما أراد الله له أن يبلغه (اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلامَ ديناً)^(٤).

وهكذا كان (ص) يقفُ مع المسلمين ليحدد لهم خطوطاً أساسية في كل حياتهم، فليس لمن يملك نسباً يتصل برسول الله أن يكون له موقعٌ معين يُدخله الجنة، فالغى من ذهن الناس بأنه لا يرضى (ص) بأن يدخل أحدٌ ممن ينتسب إليه في النار حتى ولو كان ضالاً أو فاسقاً أو ما إلى ذلك.

فأكد في توجيهاته بأنه لا مجال لدخول الجنة والبعد عن النار إلا بالعمل.. ليس بين الله وبين أحدٍ أيّ قرابة: «أيها الناس: لا يَتَمَنَّ مُتَمَنَّ، ولا يدَعُ مُدَعٍ، أما إنّه لا يُنجي إلا عملٌ مع رحمة، أما إنّه ليس بين الله وبين أحدٍ يُعطيّه به خيراً، أو يدفع عنه شراً إلا العمل». توجيهات واضحة: مَنْ تروني؟ مَنْ أنا؟ أَلست أنا رسول الله؟ ومع ذلك أنا قريب إلى الله من خلال عملي القريب من رضى الله.. ولو عَصَيْتُ لهويت، فكيف يمكن أن تعصوا الله، وأنتم تريدون منه سبحانه أن يُبقي كلَّ واحد منكم في موقعه، أو يرعى طموحه بأن يُدخله الجنة.

الله تعالى خلق الناس، حتى الأنبياء والأوصياء على مستوى واحد، فلا يقربُ أحدٌ إلى الله من موقع خلقه، لذلك (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ)^(٥).. هذا هو الخط، فبقدر ما تقرب إلى الله بعملك، بقدر ما تقرب إلى الله بدرجتك، ويرفع مستواك عنده سبحانه.

ويبقى العمل أساساً في القرب من الله

لذلك، رأينا أنّ الله يخاطب رسوله (ولقد أُوحيَ إِلَيْكَ، وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْتُنَّ أَشْرَكَتَ لِيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ)^(٦)، قالها تعالى للأنبياء وللنبي، أَدعوا إلى التوحيد، وحذروا الناس من الشرك، وأكد أنه لو أشرك النبي - والنبي لا يُشرك، لكن لو فرضنا ذلك - فإنّ شركه سوف يسقط كلَّ عمله، فكيف بالناس الآخرين؟ وقد قال سبحانه عن رسوله (ولو تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ)^(٧).

إذاً، العمل هو الأساس، وقد ركّز رسولُ الله (ص) على هذه المسألة، مسألة العمل، حيث في أيامه الأخيرة، اجتمع إليه أقرباؤه، وكان من بينهم عمّه العباس بن عبد المطلب،

وعمته صفية بنت عبد المطلب، وابنته المعصومة الزهراء (ع)، إلتفت إليهم وقال: «يا بني عبد مناف - ومقصوده عائلته - إعملوا لِمَا عند الله، فَإِنِّي لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً.. يا عباس بن عبد المطلب، يا عمّ رسول الله، إعمل لِمَا عند الله فَإِنِّي لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً.. يا صفية بنت عبد المطلب، يا عمّة رسول الله، إعملي لِمَا عند الله فَإِنِّي لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً.. يا فاطمة بنت محمد، يا بنت رسول الله، إعملي لِمَا عند الله فَإِنِّي لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً».

هذا هو الخط، العملُ هو الأساس في أن تقترب من الله وترتفع درجتك عنده، عملٌ مع رحمة من الله.. ركّزْ عملك واطلب رحمة الله.. انطلق في خط العمل، واطلب مغفرة الله إذا أخطأت، أمّا ألا تعمل، أو أن تكون أعمالك أعمالاً سيئة، وتطلب من الله الجنة، فهذا مما لا يكون.

وهذا عليّ (ع) كان يتحدث مع شيعته، الذين هم كبعض شيعته الآن من الذي يشربون الخمر، ويلعبون القمار، ويظلمون الناس، ويتجسّسون لأعداء الله... كان يقول لهم: «أبمثل هذه الأعمال تريدون أن تجاوروا الله في دار قُدّسه.. هيهات لا يُخَدَعُ اللهُ عَنْ جَنَّتِهِ». وهنا كان (ع) يُشير إلى الآية الكريمة (لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلَ الْكِتَابِ، مَنْ يَعْمَلْ سُوءً يُجْزَى بِهِ، وَلَا يُجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً)^(٨).

وهذه نقطة ركّزها رسول الله (ص) في آخر حياته.. وقف (ص) خطيباً بالمسلمين، وكان يتوكأ على عصاه، وقد أخذ الضعف منه كلّ مأخذ، قال لهم: «أيها الناس، قد دنا مني حقوق بين أظهركم، فإنّما أنا بشرٌ أوشك أن أدعى فأجيب، فمن

(٨) النساء: ١٢٣.

اقتصصتُ من عرضه شيئاً - أي تكلمت عنه بكلام جائر - فهذا عرضي فليقتص منه، ومن أخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه، ومن غلبته نفسه على شيء، فليأتني أدع له.. ألا وإن أولكم بي رجل كان له عندي شيء من ذلك فأخذه أو حللني منه.. ألا لا يقولن أحدكم إنني أخافُ العداوة والشحناء من رسول الله.. ألا فإنهما ليستا من خلقي، ألا وإن فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة». وفي الرواية، أن رجلاً بعد أن سمع مقالة رسول الله (ص) قال له: أتاك سائلٌ وطلب منك مالاً، ولم يكن عندك مال، فقلت لي: أعطه ثلاثة دراهم، فأعطيته الدراهم ولم تردّها لي. فالتفت رسول الله إلى الفضل بن العباس وقال له: «يا فضل أعطه ما أراد».

ويقومُ رجلٌ آخر ويقول له: يا رسول الله، إنني مُبتلى بخصال سيئة، وإنني لبخيل، وإنني لجبان، وإنني لنؤوم، فادعُ الله أن يرفع عني ذلك. فدعا له بذلك.

وقام شخصٌ آخر وقال: يا رسول الله لي عليك حق القصاص، فاستفسر الرسول منه ذلك، فأوضح الرجل بأن رسول الله كان يهوي بالسوط على ناقته التي امتنعت عليه، فأصابه بينما كان يقفُ إلى جنب الناقة.

في هذا الموقف، والرسول (ص) متعبٌ مريض، يُرسل إلى منزله من يأتيه بالسوط وسط دهشة الناس واستغرابهم، ووسط استنكارهم لموقف الرجل الذي يطالب بالقصاص تحقيقاً لمبدأ الآية الكريمة: (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ)^(٩). يجتمع الناس، ويُعطي النبي (ص) السوط للرجل طالباً منه تنفيذ الحكم، وينتزهها الرجل فرصة لكي يطلب أن يكشف الرسول عن بطنه، ويكون له ما أراد، يتقدم من رسول الله واضعاً فمه على الجسد الشريف، وهو يقول: «أعوذُ بموضع القصاص

من جسد رسول الله من النار». هي فرصة له أن يُقبَل جسد رسول الله «أعوذُ بالله من موضع القصاص» كأنه يقول: يا رب، كما أن جسدي مسَّ جسد رسول الله فلا تعذبني بالنار، أنا أستجير بموضع القصاص من جسد رسول الله.

وفي لحظة استغراقه في ذلك، يسأله النبي (ص): أتعفو أم تقتص؟ يُجيبه الرجل: بل أعفو يا رسول الله. ويرفع (ص) يديه داعياً له: «اللهم اعفُ عنه كما عفا عن نبيك».

هو درسٌ يعطيه (ص) للمسلمين، فليس هناك شخصٌ أكبرُ من الحق، أو أكبرُ من القانون، ليس هناك شخصٌ أكبرُ من الشريعة، وهي كما تَطالُ أصغرَ مسلم، تَطالُ رسولَ الله. وليس لأحد أن يستنكر على أحد ادعائه على شخص آخر بحجة أنه عظيم، أو أنه فلانٌ الوجيه العالمُ العظيم. في إطار الحق ورحابه ليس هناك كبيرٌ أو صغيرٌ. هذا ما نتعلّمه من رسول الله في آخر أيامه، وهذا ما يجب أن نكون عليه.

■ يقول رسول الله (ص): «ما أُوذِيَ نبيُّ مثلما

أُوذيت» فأين أذيةُ بقية الأنبياء (ع)؟

□ هناك الأذى الروحي.. صحيحٌ أن إبراهيم (ع) أُلقي في النار، وقال الله تعالى للنار: (كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ)^(١)، ولا مشكلة أخرى.. أيوب (ع) أصيب بأهله وجسده، وفرَّج الله عنه.. أما رسول الله (ص)، فقد قُوِّلَ بالاتهامات والسخرية، وكانت مهمته (ص) بحجم العالم، فيُقال عنه بأنه ساحر، كاذب، كاهن (وقالوا أساطيرُ الأولين اکتتبها فهي تُملى عليه بُكرةً وأصيلًا)^(٢)، ثم إنه (ص) عندما كان يعرض نفسه على القبائل في مكة، كان أبو لهب يسير وراءه ويقول، لا تصدقوا ابن أخي، إنه مجنون.. وعندما خرج إلى الطائف لاحقه الناس بالحجارة حتى دميت رجلاه، وكان (ص) تعرّض إلى ما تعرّض وهو في مكة من التآمر على قتله، حتى اضطرَّ أن يهاجر إلى المدينة، وما واجهه بعد ذلك من عدوان المشركين عليه، وعدوان المنافقين، وعدوان اليهود.. لو أردنا أن نجمع كلَّ المشاكل التي عاشها النبي (ص)، والأذى الذي لحقه، بحيث أنه لم يستطع أن يستقرَّ لحظةً واحدة منذ أن بعثه الله بالرسالة حتى اختاره تعالى إلى جواره، نجد أن ليس هناك نبيُّ أُوذِيَ كما أُوذِيَ (ص). وصحيح أن عيسى (ع) اضطهد وأُوذِيَ، وأن موسى (ع) (فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ)^(٣).. ولكنَّ التحديات المتحرّكة التي واجهها رسولُ الله (ص) جعلته لا يرتاح لحظةً واحدة، كانت حياته كلّها حركة دعوةٍ وتربيةٍ وتعليمٍ، وحركة حربٍ وسلمٍ وصراعٍ ومواجهةٍ، وما إلى ذلك... حتى أنه ابتلي في داخل بيته، وأنزل الله سورة يؤنّب بعض نساءه بطريقة وبأخرى.. لهذا عندما ندرس مجموع الأذى الذي أصاب رسول الله، وندرس الأذى الذي أصاب كلَّ الأنبياء، فإننا نجد أن أذى كلِّ واحدٍ منهم كان جزئياً، أما أذاه (ص) فقد كان متنوعاً في كلِّ مواقعه، وفي كلِّ مجالاته.

(٣) القصص: ٢١.

(٢) الفرقان: ٥.

(١) الأنبياء: ٦٩.

□ السيدة زينب (ع) :

- * بين القضية والمأساة.
- * صحة المواقف.
- * تبيان لقول شريف.
- * تحديد للمشهد.

■ لعلّ مشكلة السيدة زينب (ع) معنا، أننا عشناها مأساة، ولم نعشها قضية، عشناها مصيبة، ولم نعشها موقفاً، ولذلك لم نستطع أن نحرك السيدة زينب (ع) في مسيرتنا لتتقدم المسيرة، كما تقدمتها مع الحسين (ع) في كربلاء.. ما تعليقكم على ذلك؟

* تُولد زينب (ع) فينا من خلال ولادة القضية فينا، تُولد بعيداً عن تصفيقتنا، وبعيداً عن أهازيجنا، وعن لهونا.
* زينب كانت قضية.. ونريدها أن تبقى قضية.
* كانت بطلة كربلاء، ونريدها أن تُنتج أكثر من بطلة لأكثر من كربلاء.

الموقف الصلب

□ لقد عاشت السيدة زينب (ع) المأساة كأعمق ما يعيشه إنسان في مأساة.. وقد لا يعيش تجربتها إنسان في التاريخ، ولكنها في كل هذا التاريخ تجاوزت المأساة، وانفتحت على القضية. والحديث عن زينب الباكية التي لا شغل لها في كربلاء إلاّ الدموع، هو حديث غير دقيق، كانت دموعها مع الحسين (ع) عندما كان ينعي نفسه، أما بعد ذلك، فقد تركت دموعها لخلوتها، عندما كانت تعيش المأساة في داخل تجربتها الشخصية، كأبي إنسان يعيش هذا الحجم من المصائب، ولا شك أنها بكت كثيراً عندما كانت تخلو إلى نفسها، والحزن عاطفة مقدّسة، فالأنبياء يحزنون «تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول إلاّ ما يُرضي الله». ولكنها عندما كانت تعيش مع الناس، كانت عيناها

تحديقان بالواقع من حولها، كانت تريد بعينيها الواثقتين إثبات الموقف الصلب، حيث كانت تجفّف دموع الأيتام والثكالي، ولم تكن تعمل على أن تستنزف دموعهم، لأنهم كانوا يعيشون الحاجة إلى مَنْ يكفكف هذه الدموع.

وليست المسألة في ذلك، أن الدموع غريبة عن كربلاء، فنحن نعتقد أنه لا بُدَّ أن تبقى الدموع الكربلائية نهراً يتدفق في كلِّ جيل، لأنَّ كربلاء، يجب أن تبقى في مشاعرنا وعواطفنا، ولا بُدَّ لهذه الدموع أن تكون دموعاً صافية نقيّة مشعّة تغسل العقل والقلب، وتثير الإحساس، وتخدم القضية، وتعدّد المشاعر ضدَّ كلِّ الذين يصنعون المأساة للإنسان، وضدَّ الذين يفرضون المأساة على الإسلام وعلى المسلمين.

كانت زينب القائدة، ولذلك فإننا في التأريخ الجادّ لمسألة كربلاء، قلّما نجدُ زينب باكية، كنّا نقرأها صامتة قويّة، صحيح أنها كانت إلى جانب الحسين (ع) تبكي، لأنها كانت تريد أن تشاركه وتواسيه وتقوي موقفه. ولهذا، فإننا عندما نقرأ في سيرة عاشوراء، أنها عندما أرادت أن تكتشف مصير الحسين (ع)، كانت تمشي بكل هيبة وجلال.. ولذلك فالثاكلة لا تُحسن أن تمشي بهيبة، ولا يمكن أن تعيش العنفوان الكبير من جلال الذات وعنفوان القضية. ومن هنا، كانت روحُ أبيها بين جنبيها، وروح أخيها في عقلها، وروح أمها في موقفها.

وعندما حدثها الحسين (ع) قبل المعركة. وأيقنت باستشهادها، إندفعت لتعطي عاطفتها حريرتها بعد أن سمعت منه: «يا دهرُ أفك من خليلٍ»، أوصاها بالأسمع للأعداء أن يشمتوا بها، فعرفت - وهي العارفة قبل ذلك - عرفت من خلال التعليمات القيادية، أن قائداً يتكلّم مع جنديّة في خط القيادة، ولذلك لم تُشمت الأعداء بها، كانت قوية صلبة، تمشي مشية أمّها حتى خضع العسكرُ أمامها، وعندما وقفت أمام ابن سعد، خضع أمامها، وهكذا عندما ندرس موقفها في الكوفة، فإننا نجدها الإنسانة المسلمة

القائدة التي تقف بكل جلال وعنفوان، وبكل كبرياء الرسالة، وبكل التحدي الكبير أمام ابن زياد، لتقول له: «إنما يُفْتَضَحُ الفاسق، ويكذب الفاجر، وهو غيرنا، ثكلتك أمك يا ابن مرجانة»..

وهكذا عندما وقفت لتحمي بكل شجاعة حياة الإمام زين العابدين (ع)، ولترفض بكاء أهل الكوفة، وترفض إحسانهم وشفقتهم، لأنها كانت تريد أن تقول لهم: إن هذه اللغة البكائية، أو هذا المظهر البكائي، هو مظهر لا ينطلق من عمق العاطفة الحقيقية، لأن العاطفة مع الرساليين، تختلف عن العاطفة مع الناس العاديين، فالعاطفة مع الرساليين هي، أن يخفق الموقف، وأن يتصلب، وأن تكون منطلقاً من ينبوع في الشخصية، تتحرك فيه كل اندفاعات العاطفة، التي تستمد معناها من وعي الرسالة، لا من مأساة الذات. ومن هنا، كانت وقفها وقفة صارخة، كانت تقف موقف الإنسانية الواثقة بحركة الإنسان في المستقبل، ويانهزام كل الذين وقفوا أمام الرسالة.. كانت تذكر «ابن زياد»، عندما قالت له: «يا ابن الطلقاء» أن جدك وقف أمام جدي في البداية وقفة الشرك أمام الإيمان والتوحيد، وهو تحول إلى شخص «طليق» يستعطف صاحب الرسالة ليعفو عنه، لأن الرسالة أكبر من الحقد، وصاحب الرسالة أكبر من الثأر.. وكانت الرسالة تقول لصاحبها، إن على الإنسان، عندما يتحرك في خط الرسالة، ألا ينظر إلى جراحات الذات، بل أن ينظر إلى مستقبل الرسالة، ولذلك فإن الرساليين هم الكاظمون للغيظ، حتى ولو كان غيظهم يمزق كل ذاتهم، وهم العافون عن الناس حتى ولو كان الناس لا يستحقون عفواً، وهم المحسنون للناس من موقع أنهم انفتحوا على الله، الذي هو المحسن لكل عباده ليتحركوا في هذا الخط، وليحسنوا لكل عباد الله، حتى لمن أساء إليهم.

وكانت تقول «لابن زياد» في موقف التحدي: افعل ما تشاء «كد كيدك واسع سعيك،

وناصبُ جهدك، فإنك لن تُميتِ وَحِينَا»، فمن كانوا أكثر قوةً منك، وأكثر شيطنة، وأكثر كفراً، لم يستطيعوا أن يُميتوا الوحي، بل بقي الوحي حياً، يكتسب حياةً بعد حياة، من خلال كلِّ السائرين في خطه، الذين قدّموا حياتهم له، ولذلك فإنك لن «تميتِ وحينا». وهكذا كانت (ع) الإنسانية التي أعطت كلَّ شيءٍ للإسلام، فابتعدت عن زوجها، وقدمت أولادها شهداء بين يدي الحسين (ع)، وعاشت الإسلام وعياً وفكراً وحركة وانطلاقة في خطِّ الله.

وتزداد الحاجة لوعي زينب

زينب (ع) حاضرة بيننا، ونريد لها أن تزورنا، لأننا لا نريد أن نرُور التاريخ، فالذين يُرُورون التاريخ يموتون في داخله، لأنهم ينسون الحاضر، وينسون المستقبل، وهي من الأشخاص التاريخيين الذين لا يمكن للزمن أن يُوطّرهم بإطاره، أو يحبسهم في سجنه، لأنهم انطلقوا من عمق الحياة في كلِّ معانيها الخالدة. فنحن نحتاج إلى زينب (ع) لتزورنا في جبل عامل، حيث يقف المجاهدون الحسينيون في مواجهة «إسرائيل» ولتزرورنا في فلسطين، ولتزرورنا في كلِّ مجتمع تُمنع فيه المرأة من أن تُعبّر عن شخصيتها، لتشارك في حركة القضية، وفي موقع التحديات، لنطرد كلَّ الفكر الذي عشنا تخلفه والذي يقول، إنَّ المرأة لا دور لها في ساحة الصراع، وإنَّ المرأة عندما تتحرك في مواجهة الأعداء، أو في نصرة القضية، فإنها تفقد معناها..

إنَّ فاطمة الزهراء (ع) سيدة نساء العالمين، أكّدت معناها عندما وقفت في مواقف التحدي، وأكّدت معنى عمق الإسلام في شخصيتها، فلم تبق مجرد أنثى، ولكنها عاشت كإنسانة مسلمة في المواقع القيادية التي تدافع عن الحق، والتي تتحدى، وتقبل التحدي، وتواجهه. وهكذا كانت الزهراء (ع) في مواقفها، النموذج الأعلى للإنسانة المسلمة، لا في عبادتها وحسب، ولا في دورها الأمومي والزوجي في البيت وحسب، ولكن في دورها

الريادي في حركة العلم ضدّ الجهل، وفي حركة الإسلام ضد الانحراف.

وهكذا كانت زينب (ع)، فورثت عن أمها عنفوانها، وقوتها، ورسالتها، وشخصيتها، وتحديها وصبرها، لأنّ الزهراء (ع) لم تكن صاحبة مصائب جازعة، كانت (ع) تصبر حتى في عمق المصيبة، وكانت عندما تحرك المصيبة، كانت لا تحركها من موقع سقوط الإنسان أمام المصائب، ولكن كانت تحركها من موقع انفتاح الإنسان على المصائب، من خلال وعي إنسانية العاطفة، ووعي حزن القضية وحركتها.

نحن نحتاج إلى أن تزودنا زينب (ع)، لنزداد وعياً وقوة ومسؤولية في واقعنا الإسلامي، ولنزداد حركية في مجتمعنا الذي يريد الكثيرون من الناس أن يجمدوه. نحن نحتاج إلى أن ينطلق المؤمنون والمؤمنات كما أرادهم الله (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر)^(١). كانوا أولياء بعضهم في عهد الدعوة، فكانت المرأة الواعية إلى جانب الرجل الواعي، وكان المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض في حركة الهجرة، وكانت المؤمنة المهاجرة إلى جانب الرجل المهاجر، وكان المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض في ساحة الحرب، فكان الرجل يقاتل، وكانت المرأة تسقي العطاشى، وتضمّد الجرحى، وكان المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض في خدمة الإسلام، في كلّ موقع فيه للإسلام قضية، وفيه للإسلام معركة.

إنّذاً، لا تبتعدوا المرأة عن ساحة الصراع، حرّروها من جهلها، ومن ضعفها، لأنّه لا بدّ أن تكون المرأة أمّاً للمجاهدين، وأمّاً للدعاة، ولا بدّ أن تكون أمّاً في حركة السياسة العادلة المستقيمة، كما لا بدّ أن تكون أمّاً لبيتها وأولادها، وهي كما تشارك في «الطبخ»

فإننا نحتاج لأن نشارك في «طبخ» القضايا، وانضاج الغذاء الروحي والفكري والسياسي، لا أن تبقى مجرد إنسانة تعيش في زاوية المطبخ..

وهكذا، تُولد زينب فينا من خلال ولادة القضية فينا، تُولد (ع) بعيداً عن تصفيقتنا، وبعيداً عن أهازيجنا، وعن لهونا.. زينب كانت قضية، ونريدُها أن تبقى قضية.. كانت بطلة كربلاء، ونريدُها أن تُنتج أكثر من بطلة لأكثر من كربلاء، وكانت رسالية، ونحن بحاجة إلى الرسائل اللاتي يتكاملن مع الرسالين.

■ نُسب إلى السيدة زينب (ع) مواقف ضعف في كربلاء، كضرب رأسها بالمحمل، وإدماء جبهتها، واتخذ هذا ذريعة لجوان، أو حتى لاستحباب ضرب الرؤوس، ما قولكم بما نُسب إلى السيدة زينب(ع).

* المواسة الحقيقية، هو أن تُجرح في الطريق الذي جُرح فيه الحسين (ع).

مفارقة

□ المفارقة أن الذين يقرأون ذلك على المنابر - مع كل محبتنا لهم - يقرأون أيضاً أن زينب (ع) وقفت على جسد الحسين (ع)، وقالت: «أتينا بالنياق مهزولة لا موطئة ولا مرحولة»، إذًا، أين المحمل الذي ضربت به رأسها، طالما أن «النياق»^(١). ضعيفة هزيلة وغير موطئة، ولا يوجد أي محمل على ظهورها.

ثم، لا نستطيع أن نوازن بين موقف الضعف هذا لزينب (ع)، وبين موقف القوة أمام ابن زياد، وأمام أهل الكوفة.. لا يمكن لزينب أن تُشمت بها الأعداء، وزينب أكبر من هذا.. وعندما ندرس ما نُسب إليها من ضرب رأسها، نرى أن الرواية لم تتبنت بسند موثوق، ويكفي في رفضها، ضعفها، لأنها - هذه الرواية - لا تنسجم مع طبيعة موقف السيدة زينب (ع)، ووصية الحسين (ع) عندما طلب منها ألا تخمش عليه وجهاً، ولا تشق عليه جيباً.

أما أن ما نُسب إليها (ع) أنها ضربت رأسها وأدمته، واتخذ هذا ذريعة لضرب

(١) جمع ناقة.

الرؤوس، إنني مراراً بيّنت، وأحب أن أزيد.. الآن، لماذا نضربُ رأسنا بالسيف، ولماذا نضرب ظهورنا بالسلاسل؟ للمواساة، أليس كذلك؟ لنواسي الحسين (ع)، الحسين جُرح، نجرح رؤوسنا، زينب وأخواتها جُلِدن بالسياط على ظهورهن، نحن نواسيهم في ذلك.. فهل هناك غيرُ هذا؟

المواساة الحقيقية

المواساة الحقيقية، هو أن تجرح في الطريق الذي جُرح فيه الحسين، أن تُجلد في الموقع الذي جُلِدت فيه زينب (ع).. أتعرفون من الذين يواسون الحسين؟ هم الذين في أعالي جبل عامل والبقاع الغربي، وذلك عندما يُجرحون في موقع الحق، وهم الشباب المجاهدون في الأهوار، في العراق.. وهم الشباب والنساء الذين يسجون في سجون صدام و«إسرائيل»، ويُجلدون في السجون..

زينب جُلِدت على ظهرها بالسياط وهي تجاهد، الحسين جُرح، وانطلقت جراحاته، وهو يقاتل في سبيل الله. أما أن تأتي لتلطم وضحكتك «رطل» أو «رطلان» وتقول، جنّت لأواسي الحسين (ع)! تواسي الحسين، وأنت غير مستعد للجهاد، تواسي الحسين، وأنت ضدّ المجاهدين، تواسي الحسين، وأنت تعقّد حياة المجاهدين، وتشوّه سمعتهم، ولست مستعداً أن تتبرّع بأيّ شيءٍ للحسين، فكيف تواسي الحسين؟

وذاك الشاعر يقول:

إذا اشتبكتُ دُموعُ في خُدودٍ تبينُ من بكى ممن تباكى

فالمواساة الحقيقية، هي التي تنطلقُ من العقل والقلب والموقف.

■ كيف لنا أن نفهم قول الإمام زين العابدين (ع) للعقيلة زينب (ع): «أنت فاهمة غير مفهّمة، وعالمة غير متعلّمة»؟

□ من الطبيعي أنّ السيدة زينب (ع) لم تدخل مدرسة بالمعنى التقليدي للمدرسة، ولكنها عندما عاشت مع أمها الزهراء (ع) وجدّها رسول الله (ص)، عاشت الكثير من أجواء المدرسة الإسلامية الأولى، وعاشت في مدرسة أبيها علي (ع)، وعاشت في مدرسة أخويها، الحسن والحسين (ع).. فإذا هي عالمة، لم تتعلّم بطريقة تقليدية.. وبيتها كان موضع الرسالة، ومختلف الملائكة، ومعدن الوحي والتنزيل، وأية مدرسة أعظم من هذه المدرسة؟

وبهذا، أخذت (ع) الفهم من خلال كل ما استوحته وسمعتة، وسألت عنه. قد لا تكون معلّمة من آخرين، هي معلّمة من جدّها وأبيها وأمّها وأخويها، وأيّ أساتذة في العالم أعظم من هؤلاء؟ إنّ علياً (ع)، كان يفخر بأنّه تلميذ رسول الله (ص)، وأنّ كلّ ما حاز عليه من العلم، كان من رسول الله: «علّمني رسول الله ألف باب من العلم، يفتح لي من كل باب ألف باب»، وقول رسول الله (ص) فيه: «أنا مدينة العلم وعلي بابها». وإذا كان عليّ باب المدينة فهل يُغلق أبواب هذه المدينة عن ابنته؟.

■ اختلفت الآراء حول تحديد مكان قبر السيدة

زينب (ع)، فما رأيكم بهذا؟

□ أتمنى أن يختلف الناس حول قبر السيدة زينب (ع)، ليكون لنا آلاف المشاهد في كل البلدان، لأنَّ القبر ليس مجرد مكان يُدفن فيه إنسان، ولكنه رمزٌ يذكّرنا بالإنسان.. وليست مشكلتنا أين دُفنت السيدة زينب (ع)، ولكنَّ مشكلتنا، أين تعيش السيدة زينب فينا؟.. ليكن قبرها في الشام، أو في مصر، أو في المدينة، فنحن نستوحي موقفها، ولا نستوحي قبرها، وإن كنا نجعل القبر مناسبة لأن نتذكّرها.

لذلك لا أجد هناك أية مصلحة في أن ننفذ إلى هذا الخلاف، لتتجادل أين قبرها، لأنّه أمرٌ ليس فيه أية فائدة، إن لم تكن فيه سلبيات.. إنّ قبر زينب (ع) في قلب كلّ محبٍّ لها، وفي قلب كل موالٍ لها، وعندما تُدفنُ في قلوبنا فإنّها تحيا في قلوبنا ونحيا بها.

□ المسجد • حصن و-دور •

■ كيف لنا أن نفهم دور المسجد، كحصن من حصون الإسلام المتقدّمة؟

* إن المسجد هو موقع عزّكم وقوتكم وكرامتكم ورشدكم، فلا تتركوا ذلك.

* إن الله أراد لصلاتنا أن تكون فاعلة في العقل والقلب والحركة، ليكون الإنسان عقلاً يفكر بالخير، وقلباً ينفتح على العاطفة الحق، وحركة تنطلق في دروب المعروف.

* إن ابتعاد المسلم - ولا سيما إذا كان مسؤولاً - عن المسجد، يعني ابتعاده عن ساحة الوعي الروحي.

* إن المسلمين الذين يبتعدون عن المسجد، يبقى الإسلام عندهم مجرد كلماتٍ وصراخات، ومجرد استعراضات وحالة تقليدية لا نبضَ فيها ولا روح.

* إنني أخاف بما يشبه الرعب من هذا الابتعاد عن المسجد، لا سيما بالنسبة للذين يمارسون مسؤوليات إسلامية.

ساحة المسؤولية

□ ربما كانت القاعدة الإسلامية، اعتبارَ المسجد منطلقاً لانفتاح الإنسان المسلم على الله، وساحة لحركته في خط الله، وملتقى للواقع الإسلامي بين المسلمين، ولعلّ ذلك ينطلق من أن المسجد هو الموقع الذي يعيش الإنسان المسلم فيه مع الله شمولية علاقته به.. ونحن نعرف أن العلاقة بالله لا تمثل غيبوية صوفية أو ذاتية، بل تمثل حركة في الإنسان من خلال الله، وانطلاقةً في الحياة على خطّ الله، وانفتاحاً على كلّ حركة

المسؤولية بما يمثل الإنسان من طاقات، تتحوّل كلّ منها إلى قاعدة للمسؤولية، لاز الإسلام يقول للإنسان، إنّ - طاقتك مسؤوليتك - ليست مجرد امتياز تزهو بها وتعلو على الآخرين من خلاله، ولكنّه حركة في الواقع تؤكد فيها عبوديتك لربك من خلال تحريكك لنعمة ربك فيما يرضيه.

إنّ الله يريد لنا أن نعيش الشمولية في إيماننا به، وفي ابتهالنا له، وفي خشوعنا بين يديه، وأراد لصلاتنا أن تكون فاعلة في العقل والقلب والحركة، ليكون الإنسان عقلاً يفكر بالخير ولا يفكر بالشر، وقلباً يفتح على العاطفة الحق لا على العاطفة الباطل، وحركة تنطلق في دروب المعروف، لا في دروب المنكر، لأنّ الله سبحانه أراد منا في المسجد أن نعمّق في صلواتنا إحساسنا به سبحانه، بحيث تتحوّل الصلاة عندنا إلى كلماتٍ نترجم فيها التزامنا بالتوحيد، وابتعادنا عن الشرك، على مستوى الفكر، وعلى مستوى التعظيم.. فنحن عندما نقول «الله أكبر»، فإننا بذلك نحكم على كلّ من في الأرض أنه الأصغر، وعندما نقول «لا إله إلا الله»، فنحن نرفض كلّ الآلهة التي تعبدّها الناس، من ناحية فكرية، أو من ناحية سلوكية من دون الله، ونحن عندما نوحّد الله في العبادة «إياك نعبد»، ونوحّده في الاستعانة «إياك نستعين»، فإن معنى ذلك، أنّ الله هو المقصود الأول والأخير في عبادتنا، وفي كلّ حركتنا في الحياة، وهكذا عندما نستنطق كلمة «العظيم»، صفةً لله، فنحن نشعر بغربة حديثنا عن أيّ مخلوق أنّه العظيم، وعندما نصف الله بأنه «الأعلى»، فإن ذلك يمثل إحياءً داخلياً، مفاده أنّ كلمة «الأعلى»، لا تصلح إلا لله.

إنّني أرى أنّ قيمة الصلاة في المسجد، أنّها تعطي الإنسان جوّ المسجد، بالإضافة إلى حركتها، لأنّ الإنسان يستوحي بأنّ هذا المكان يمثل الأرض التي تسجد لله ويسجد الآخرون على تربتها، والأرض هي مسجد، لا المسجد فحسب، لكن في كلّ الساحات.

خطورة الابتعاد وإيجابية الانتماء

وفي المسجد يلتقي النَّاس، الذين يؤمنون بالله ليتعارفوا، وليتدارسوا، وليتعاونوا، وليتوحدوا، وليشعروا بأنهم يقفون صفاً واحداً أو صفوفاً مترابطة بين يديّ الله، ليشعروا بمسؤولية الوحدة أمام الله سبحانه. لقد أراد الله للمسجد أن يكون ساحة للوعي من خلال خطبة وصلاة الجمعة، ومن خلال المواعظ التي يعظ فيها الواعظون، ويبلغ فيها المُبَلِّغون في المسجد، ونحن نعرف أن رسول الله (ص) أعطانا كلَّ تراثه الرسالي في ساحة المسجد، كما أن علياً (ع) أعطانا أكثر حركته الثقافية الإسلامية من خلال المسجد. وهكذا كان المسجد مدرسة للعلم، وساحة للسياسة، ومنطلقاً للتدريب على السلاح، وكان المسجد كلَّ الحياة الإسلامية، ولذلك فإنَّ ابتعاد المسلم - لا سيما إذا كان مسؤولاً - عن المسجد، يعني ابتعاده عن ساحة الوعي الروحي، وعن ينابيع الروحانية التي يمكن للإنسان أن يغتسل بها وينهل منها، وعن كلِّ الآفاق الروحية التي يمكن أن يعيشها داخل المسجد. ولعلَّ هذا الذي جعل الإمام الخميني (قده) يقول: «متاريسكم مساجدكم» باعتبار أن المسجد هو الموقع الذي يحمي به الإنسان نفسه من الانحراف، تماماً كما يحمي المقاتل نفسه من الرصاص أو القذائف التي تُوجَّه إليه من قبل العدو.

في المسجد يعيش الإنسان مع الله، فيقوم بعملية حساب لكلِّ الأشياء التي اقتحمت عقله واحساسه وشعوره، وفرضت نفسها على لسانه وعلى حركته بعيداً عن الله.. في المسجد، يمكن للإنسان أن يشعر بحالة الصفاء والنقاء، التي يشعر فيها بالطهارة الروحية أمام القذارات.. لذلك، فنحن نعتقد أن المسلمين الذين يبتعدون عن المسجد، يبتعدون عن إسلامهم، ويبقى الإسلام عندهم مجرد كلمات وصراخات، ومجرد استعراضات وحالة تقليدية لا نبضَ فيها ولا روح.. ولعلنا نلاحظ أن الكثيرين الذين يتحركون في خطِّ المسؤولية، بدأوا يعيشون الجفاف الروحي، فلا نبضة روح في

كلماتهم، ولا في مشاعرهم، ولا في علاقاتهم، أصبحت الروح شيئاً مادياً تتحرك به كلماتهم دون أن يعيشوها في الواقع.. ولعلّ هذا هو المسؤل عن قساوة قلب الكثيرين من المسلمين الذين قست قلوبهم وأصبحوا (كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم)^(١).

ومن هنا نلاحظ حالة الانحراف التي بدأت تصيب الجسم الإسلامي، من خلال عدم الوقوف عند حدود الله، ومن خلال كلمات الغيبة والنميمة والسباب والشتم، والقول بغير علم، والتباغض والتقاتل، كل ذلك انطلق من خلال ابتعادهم عن المسجد، فأصبحوا يعيشون أجواء الانحراف.

لذلك نقول: إن المسجد هو الذي يحمي الإنسان من نفسه، ويحميه من غيره، ويحميه من الضلال. فالمسجد هو الذي يمكن أن يجمع المسلمين على الإسلام، ويجمع المؤمنين على روحية الإيمان. إنني أخاف بما يشبه الرعب من هذا الابتعاد عن المسجد، لا سيما بالنسبة للذين يمارسون مسؤوليات إسلامية، لقد أصبحنا نلاحظ أن الإنسان يبدأ في المسجد، ثم عندما يتسلم أية مسؤولية، فإنه يودع المسجد وداعاً أبدياً إلا لمناسبة سياسية يُقيّمها آخرون في المسجد. ولذلك جفت ينبوع الروح في قلوبنا، وانحرفت طريق الأخلاق في مسيرتنا، وتقطعنا فرقاً وجماعات، ولذلك، فإن العدو الكافر والمستكبر قد برز إلى الإسلام كله، وقد هيا كل وسائل الهجوم. ومن هنا، علينا أن نهياً كل وسائل الدفاع، بالعودة إلى متاريسنا، إلى مساجدنا، لنبدأ مع الله من جديد، لنحدثه يوماً بكل سلبياتنا وإيجابياتنا، لنطلب منه أن يكثر إيجابياتنا، وأن يعيننا على سلبياتنا بما يعين به الصالحين على أنفسهم. وقد شبه رسول الله (ص) الصلاة بالماء تكون على باب

الإنسان يغتسل منها خمسَ مرّاتٍ في اليوم، فلا يبقى عليه شيء من القَدَر، ومن الطبيعيّ أن نغتسل بصلّاتنا في المسجد غسلَ الروح والإيمان، ليكون الله أحبّ إلينا من أنفسنا ومن كلّ الناس. فأن ندخل إلى المسجد، فليطلب كلّ واحد منا من الله متواضعاً، ألا يتكبّر على أخيه المؤمن، ندخل إلى المسجد لنعظّم الله وحده، ولا نعظّم غيره، لنتوازن في حديثنا عن الناس، حتى يكون الله هو العظيم، وهو الأعلى، وهو الذي يهيمن على الأمر كله.

إنّ المسجد، هو موقعُ عزّكم وقوتكم وكرامتكم ورشدكم، فلا تتركوا ذلك، لأنكم إذا فعلتم ذلك فسوف تضيعون في متهاتات الكفر والضلال والاستكبار، ولن تنفعكم كلّ الصرخات التي تنطلق من حناجركم، لأنها لا تعيش في قلوبكم، ولن تنفعكم كلّ الكلمات التي تستعرضون بها ثقافتكم، لأنها لاتنطلق من أعماقكم.. ففي المسجد، في الصلاة، في انفتاحنا على الله، في شمولية العلاقة به، نستطيع أن نبقي على الخط، على الصراط المستقيم الذي يربط بين العقيدة وبين السلوك: (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ، ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)^(٢).

وللمرأة مسؤولية

ونحن نعرف أنّ حركة المسجد المعاصرة، تحتاج إلى دور المرأة، وإلى دور الرجل معاً، باعتبار أنّ الله تعالى قال: (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ)^(٣)، ولذلك فإنّ هناك ولاية مشتركة يعيشها المؤمنون والمؤمنات في حركة الدعوة إلى الله والعمل في سبيله، وتركيز المجتمع على أساس المعروف وإبعاده عن المنكر.. وإذا كانت المراحل الماضية بحسب ما

(٢) الاحقاف: ١٣.

(٣) التوبة: ٧١.

فيها من أوضاع وأعراف وتقاليد لا تُفسح المجال للمرأة، لأن تمارس نشاطها المسجديّ بحيوية وقوة، فإنّ المراحل التي نعيشها تفرض على المرأة أن تعمل في المسجد، كما يعمل الرجل، لتجتذب النساء، وليواجهنّ كلّ التحديات المعاصرة التي تريد أن تنحرف بهنّ عن سواء السبيل، وإذا كان بعض الناس يقول، «إنّ مسجدَ المرأة بيتها»، فإنّني أفهم من هذا، أنّ الله يُعطي المرأة في الصلاة، في بيتها، ثوابَ الصلاة في المسجد تكريماً لها، وتقديراً لدورها الزوجيّ أو الأموميّ في البيت. ولكنّ هذا دور المرأة الذاتي، أما المرأة الواعية، المرأة المبلّغة، المرأة الحركية، أما المرأة التي تشعر بأنّ الله يحملها مسؤولية القيام بالدعوة والجهاد بالكلمة والموقف، فإنّ لها شأنًا آخر.

عند ذلك نستطيع أن نقول، إنّ مسجدها بيتها، بيتها المسؤول والمتحرّك والمنطلق.. لقد رأينا الزهراء (ع)، وقفت في المسجد تخاطب المسلمين من موقع المسلمة القيادية، المعارضة، المبلّغة، المنفتحة على قضايا الحق، وعلى قضايا الإسلام، لذلك بدأت الزهراء (ع) تجربة دور المرأة في المسجد بالمعنى الحركي، لتقول لكلّ الفاطميات، إنّ دوركّن ليس بعيداً عن المسجد، كما ليس بعيداً عن البيت، وعن الحياة.

لذلك، نحن نعتقد أنّ دور المرأة في المسجد في الظروف الحاضرة، هو دور لا يبتعد في حكمه الشرعيّ عن دائرة الإلزام والوجوب الكفائي، لأنّ المرأة عندما تبتعد عن المسجد، فإنّنا سنفقد طاقةً حيّة حركيّة، يمكن أن تساهم مساهمة كبرى في حركتنا الإسلامية على مستوى الدعوة والتبليغ والجهاد من أجل النصر المبين.

□ قرآنيات :

- * التربية القرآنية.
- * كتاب حركي.
- * القرآن أولاً.
- * أمانة.
- * وضوح النصوص والتأويل.
- * حمّال ذو وجوه.
- * ترتيب الآيات.
- * المنهج.
- * إلزام أم اجتهاد؟
- * غوامض الألفاظ.
- * المدلول القرآني للإمامة.
- * ربط بين النعيم وذكر الله.
- * مناقشة رأي.
- * إمكانية الجدل في المسلمات.
- * السلم القرآني.
- * تجميد العمل.
- * طاعة الوالدين.
- * حديث قدسي.
- * منزلة ابراهيم الخليل (ع).
- * الاسراء والمعراج.
- * الموت المبكر.

■ برأيكم كيف لنا أن نتربى بالقرآن؟

* إن القرآن لا يحترم أي فكرٍ وأي عملٍ، وأي قناعة، إلا إذا كان ذلك منطلقاً من قاعدة فكرية لا مجال للشك والريب فيها.

* إننا نستطيع أن نتربى بالقرآن في أن نعيش أوضاعنا الفكرية والاجتماعية والسياسية في كل ما تحتاجه هذه الأوضاع من قناعات.

منهج المعرفة والتفكير

□ قد يُراد من كلمة «تربية» الجانب السلوكي، ولكن إذا أردنا أن نُثير المسألة بأوسع من ذلك في المفهوم العام - وإن كان جانب السلوك يتسع لذلك - فإننا نحتاج أن نتربى بالقرآن، بأن نأخذ من القرآن منهج المعرفة والتفكير.. لأن الظاهرة البارزة في واقعنا كمسلمين، هي أننا انفعاليون، أو أننا لا ننطلق في الحياة من موقع الفكر، سواء على مستوى كثيرٍ من القناعات التي نتمثلها، أو كثيرٍ من الأوضاع التي نعيشها.

ربما نحتاج في قراءتنا للقرآن أن نتعرف على المنهج العملي لطريقة التفكير، أو لطريقة تحصيل المعرفة، أو لتكوين القناعة، لأن القرآن أكد على الجانب العلمي كأساسٍ للمسؤولية، بمعنى أن القرآن لا يحترم أي فكرٍ وأي عملٍ وأي قناعة، إلا إذا كانت منطلقة من قاعدة فكرية لا مجال للشك والريب فيها.

مناقشة المنهج

إننا نلاحظ ذلك من الآيات التي تواجه الآخرين الذين يملكون أفكاراً مضادة، فتحاول أن تواجههم برفض طريقتهم بحمل هذه الأفكار، وبأنها ليست طريقة فكرية، بل هي

طريقة تقليدية أو عاطفية، وهذا ما نلمحه في الآيات التي تتحدث عن هؤلاء الذين واجهوا الرسول (ص) في بداية الدعوة، وواجهوا الأنبياء من قبله: (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ)^(١)، فقد كانت الفكرة التي يُثيرها القرآن أمامهم على ضوء الآية: (أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ)^(٢)، أو من خلال الآية: (أَوْ لَوْ جِئْتُمْكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ)^(٣)، إن القرآن يحاول أن يناقشهم في المنهج، ويحاول إثارة المنهج الذي يجب أن يتبعوه في طريقة تكوين القناعات والعقيدة.

وهكذا نجد مثلاً، عندما يواجه الذين يتحدونه: (قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ)^(٤)، أو عندما يدخلون معه ساحة الجدل: (هَآ أَنتُمْ هَؤُلَاءِ حَآجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجِّجُونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ)^(٥). وهكذا نجد القرآن الكريم يؤكد على هذا الجانب، وهو أن الفكرة التي يُمكن أن يحترمها، ويمكن أن يعيش الإنسان فيها من موقع المسؤولية، هي الفكرة المبنية على البرهان، والمبنية على حجة، والمبنية على تفكير، وما إلى ذلك. حتى أننا نجد أن القرآن الكريم يؤكد على أن علاقة الله تعالى بالناس عندما يحملهم المسؤولية تنطلق من موقع الحجة، فإذا كانت له تعالى حجة على الناس وانحرفوا فإنه يعاقبهم، وإذا لم تكن له حجة عليهم فإنه لا يعاقبهم: (وَمَا كُنَّا مَعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نُنَبِّئَ رَسُولًا)^(٦).

الحجة والبرهان

ولذا، فإن القرآن الكريم عندما حدثنا عن عذاب الله للكافرين، لا على أساس أن هناك شبهة انطلقت في تفكيرهم ولم يستطيعوا أن يحلّوها، بل على أساس أن لهم قلوباً لا

(٥) آل عمران: ٦٦.

(٦) الإسراء: ١٥.

(٣) الزخرف: ٢٤.

(٤) النمل: ٦٤.

(١) الزخرف: ٢٣.

(٢) البقرة: ١٧٠.

يعقلون بها، وأذناً لا يسمعون بها، وأعيناً لا يبصرون بها، فهم جحدوا حركة وسائل المعرفة في حياتهم، فإنكارهم لم يكن من موقع أن هناك حجة مضادة على الإنكار، بل كان إنكارهم بتركهم للحجة التي يمكن أن تؤدي إلى الإيمان.

من هنا، نفهم أن القرآن الكريم يتعامل مع كل القضايا الفكرية سواءً كانت قضايا موافقة أو مخالفة من موقع المنهج الذي يمكن أن يوصل إلى فكرة مسؤولة، وهذا المنهج هو منهج الحجة والبرهان، ومنهج الطريقة الفكرية.

وعندما يُثير القرآن المنهج في طريق تحصيل المعرفة، فإننا نجد أنه يتحدث عن العقل كما يتحدث عن التجربة، ويعني أنه يتحدث عن العقل النظري - إذا صحّ التعبير - الذي يستمدّ قناعاته من المسلّمات الموجودة في فطرته، وعن العقل العملي الذي يستمدّ قناعاته من التجربة.

إننا نستطيع أن نتربّى بالقرآن في أن نعيش أوضاعنا الفكرية والاجتماعية والسياسية في كل ما تحتاجه هذه الأوضاع من قناعات.

العقلانية في تكوين القناعات

نحتاج إلى القرآن لنكون عقلانيين في طريقة تكوين القناعات من موقع العقل، لا من موقع العاطفة أو التقليد. وهذا الجانب هو جانب مهم جداً، لأنه الأساس في قوة الإسلام في حركته في ساحة الصراع في العالم، وقد نجد استكمالاً لهذا، الآية الكريمة التي تعطي وتُبرز الخط، حتى في القضايا الصغيرة: (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا)^(٧).

فكلمة (لا تقف)، لا تتبع أي نوع من أنواع الإتياع الفكري والعملي، إذا لم يكن

(٧) الإسراء: ٣٦.

خاضعاً لمنطقٍ علميٍّ يناقش الفكرة ويقتنع بها، ولا يكون منطلقاً من موقع عاطفي، لأنَّ السمع والبصر والفؤاد، هي وسائلُ المعرفة، وسيستنطقها الله سبحانه في يوم القيامة.. البصر، وما رأى، وكيف رأى؟ والأذن، وما سمعت، وكيف سمعت؟ والفؤاد، وما وعى، وكيف وعى؟ وإنَّ الله يستنطق وسائل المعرفة عن طبيعة هذه القناعة التي كونها الإنسان، والتي أخضع حياته لها.. إننا نحتاج أن نتربى بالقرآن في هذا الخط، وفي تعمقنا لدراسة الأسلوب القرآني في مواجهة التفاصيل المضادة التي يأتي بها الآخرون لإثارة مسألة الشرك، نرى كيف واجه القرآن هذه المسألة بطريقة عقلانية، وكيف واجه مسألة الإلحاد وقضية اليوم الآخر بطريقة عقلانية، حتى أنه عندما واجه مسألة الرسول (ص) والكلام عنه، وهل هو رسولٌ من قبل الله أو لا؟ واجهها بطريقة عقلانية، وأكثر من ذلك، فإنَّ القرآن واجه بالطريقة العقلانية، الإتهامات التي كانت تُوجَّه إلى الرسول (ص) في عقله، وذلك من خلال الآية الكريمة: (قُلْ إِنَّمَا أُعْطِيتُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفُرَادَى، ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ)^(٨)، حيث أثار معهم المنهج الذي يستطيعون من خلاله أن يتخففوا من ضغط الشعور الجماعي الذي يضغط على الإنسان فيمنعه من أن يفكر بطريقة سليمة أو هادئة.

وعندما نريد أن نعيش تربية القرآن لنا، فإننا قد نشير أمامنا مسألة الانتماء السياسي، لأنَّ هذه المسألة تحتلُّ حجماً كبيراً في عملية السلوك الذي يعيشه الإنسان، ولا نقصد بالانتماء السياسي، الأطر التي تتحرك في الساحة، بل مقصودنا من الانتماء السياسي، هو الانتماء إلى أيِّ شخص يحرك حياته وحياة الآخرين بطريقة معينة، سواءً كان حاكماً، أو كان شخصية اجتماعية، أو كان حزباً، أو حركة، أو منظمة، أو أيِّ شيءٍ آخر.. إننا قد نعيش في حياتنا الانتماء السياسي بشكلٍ عام، من موقع الانتماء

العاطفي، أو من موقع التعصب.. والقرآن يعالج هذه المسألة، وذلك في كثيرٍ من الآيات التي تتحدث عن الشخصيات الطاغية التي كانت موجودة في المجتمعات السابقة، ويؤكد للإنسان نقاط الضعف الموجودة في داخلهم، ويعمل على أن يُثير مع هذا الإنسان عنصرَ المساواة في الإنسانية، وفي نقاط الضعف الإنساني بينه وبين كلِّ الناس الآخرين، ولا سيما الذين يتبعهم ويؤيدهم.

ونلتقي بالآية الكريمة التي تقول: (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً، وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ)^(٩)، إنَّ هذه الآية تُوحى للإنسان بأن يواجه نقاط الضعف في الأشخاص الذين يملكون مستوىً متقدماً على أكثر من صعيدٍ في الحياة الاجتماعية، ليكتشفها وليفهمها من أجل أن تتوازن النظرة إليهم في وعيه، حتى يستطيع أن يحكم عليهم حكماً لا يجعله خاضعاً لمظاهر القوة فيهم.. فالقرآن يريد أن يوازن بين مظاهر القوة الطاغية في «الشخصيات الكبيرة» في المجتمع، وبين نقاط الضعف الخفية التي يحتاج الإنسان أن يكتشفها بأكثر من وسيلة، حتى تتوازن نظرتَه، فلا يطغى جانب القوة ليعيش في نفسه جانب التآليه لهذا الشخص، أو يعيش جانب الإنسحاق أمامه.

عبادٌ أمثالكم

ونجدُ في آيةٍ أخرى (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ)^(١٠)، يريدُ الله سبحانه أن يربط النظرة الإنسانية «للأشخاص» بالواقع الإنساني، فأنت عندما تنظر إلى هذا الشخص، كيف يأكل ويشرب، كيف يواجه حالات الضعف الذاتية، كيف يمرض ويتألم، كيف يفرح ويحزن، فإنه سبحانه يريد منك أن تتمثل الناس الآخرين بما تتمثل به نفسك، وعند ذلك تشعر أن عناصرَ القوة التي تجعلك مسحوقاً أمامهم، ليست شيئاً في

ذاتهم، وإنما هي أشياء تعيش خارج ذواتهم، وبذلك تكون عناصر طارئة قد يفقدونها غداً.. وهذا التأكيد الدائم على عناصر الضعف في شخصياتهم، يُعتبر منهجاً لمواجهة الواقع السياسي والاجتماعي الذي يضغط على فكر الإنسان وحياته، فيجعله مسحوقاً أمام شخصٍ فينتمي إليه ويخضع له، انطلاقاً من طغيان مظاهر القوة على شخصيته.

ويريدُ الله من خلال رفض واقع هؤلاء أن يؤكد على حرية الإنسان الذاتية في طريقة انتمائه للآخرين، أو تعامله معهم، وأن ينظر إليهم نظرةً متوازنةً مع نفسه.

خُلُقِيَّةُ الْقُرْآنِ

ومن الطبيعي أننا إذا أردنا أن نتحدث عن جانب التربية في القرآن فإنَّ هناك مساحةً واسعة كبرى تتمثل في كلِّ آيات القرآن الكريم في أحكامه وشرائعه، ولكنَّ الأمر الذي نريدُ أن نثيره بطريقةٍ مختصرة، هي الجانب الأخلاقي العملي في علاقاتنا الفردية وعلاقاتنا الاجتماعية العامة.. فالله سبحانه يؤكد لنا في القرآن، أنَّ معنى أن يكون الإنسان إنساناً مسلماً، هو أن يكون إنساناً مسؤولاً عن نفسه، وعن النَّاسِ من حوله، ألاَّ يظلم نفسه، ولا يظلم غيره، وقد وضع سبحانه لنا برامج في العلاقات، ويريدُ أن يعرف كلُّ واحد منا، ما له وما عليه، في حياتنا الزوجية، والأبوية، والعائلية، والاجتماعية.. والقرآن يؤكد في أكثر من آية على هذا الجانب، وهو جانب أن تعرف ما لك، فلا تطلب أكثر مما لك، وأن تعرف ما للنَّاسِ، فلا تحاول أن تأخذ أكثر مما لك..

تكوين الإنطباعات

وعبر القرآن عن هذا بأكثر من آية، وخاصة في الجانب الاقتصادي: (وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ)^(١١)، و (وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ

(١١) الأعراف: ٨٥.

يَسْتَوْفُونَ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ^(١٢).. الله تعالى يريد من الإنسان أن يؤكد لنفسه الشخصية العادلة التي تتوازن في نظرتها للأشياء، وتتوازن في مواجهتها للواقع الذي نعيش فيه.. ونحن نعرف أن مسألة العدل، من المسائل الأساسية على مستوى العقيدة، وعلى مستوى الواقع العملي.. ونحتاج أن نتربى بالقرآن من خلال تكوين الانطباعات عن بعضنا البعض، خاصةً ونحن نعيش الانطباعات السيئة عن بعضنا، نتيجة حالة طارئة أو نظرة عابرة، وما إلى ذلك.. والله سبحانه يقول: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ، إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ)^(١٣).. وإننا من خلال اتصالتنا وتعاملنا مع هذا المجتمع المنحرف، نحتاج إلى أن نُثير الآيات القرآنية التي تتحدث عن العدل في تكوين الانطباعات عن الأشخاص، وعن العدل في إصدار الأحكام على الأشخاص، وعن العدل في قبول الأخبار عن الأشخاص.. إننا نتعامل واقعياً بطريقة غير قرآنية.. لو درس كل واحد منا قناعاته التي يملكها عن الأشخاص، لرأى أن قناعاته قد تتكون من إذاعة تُشرف عليها أجهزة فاسقة أو كافرة، أو من صحيفة تُشرف عليها كذلك أجهزة فاسقة أو كافرة، أو من مجتمع يتحدث بالإشاعات بطريقة عشوائية، ولعل لدى المؤمنين من هذا كما لغيرهم.. فليس هناك تقوى في هذا الجانب، فنحن نحكم على الأشخاص من خلال عواطفنا، ونعمم الحكم الذي قد يكون منطلقاً من حالة فردية خاصة، نعممه على مجتمع بأكمله، أو على جماعة، أو على أي موقع من المواقع، بأكثر من المساحة التي يتحرك فيها..

اختلال المقاييس والموازن

وإننا نعيش في مجتمع يسيطر فيه الكفر على كل أجهزة الواقع، ولهذا فإن علينا أن نعيش دائماً في داخل أنفسنا ومجتمعاتنا في حالة طوارئ على أقصى درجة من الحذر

(١٢) الحجرات: ١٢.

(١٣) المطففين: ١ - ٢ - ٣.

حتى لا يهيمن علينا الواقع، فيدخل إلى أفكارنا على أنه إسلام، ويدخل الانحراف في واقعنا على أساس أنه الاستقامة.. فالمشكلة، كل المشكلة، هي اختلال المقاييس والموازن. ومن هنا أراد القرآن، بأن يجعل المنهج بيدك، وأن يجعل القاعدة بيدك، لتكون التفاصيل عند ذلك مسألة تمارسها من خلال تحريكك للمنهج في حياتك.. إنني أتمثل دائماً هذه الآية، وإنني أخاف كثيراً، لعل أخوف آية تواجهني في كثير من الحالات، الآية التي تقول: (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا)^(١٤)، المشكلة أنك ربما تعتبر نفسك سائراً في أقصى درجات الإيمان، وأنت تعيش أقصى درجات الكفر والنفاق والانحراف... لهذا: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن تُوزنوا».

(١٤) الكهف: ١٠٣ - ١٠٤.

■ تقولون: إن القرآن كتابٌ حركي، كيف لنا أن

نفهم ذلك؟

* إننا نحتاج أن نُثير الواقع الحركي الإسلامي في كلِّ موقع من مواقع الصراع الفكري والسياسي والاجتماعي والجهادي، لنجعل القرآن يتحرك في الساحة.

تصويب مسار التجربة

□ إن القرآن الكريم فيما نستوحيه من بعض آياته، يريد أن يكون كتاب الدين المتحرك، كتاب الحركة الجديد، كان يرافق الحركة، ويطلق الآية في حركة الواقع.. كان الحدث يتحرك، وكان القرآن يرافقه، كانت المعركة تنطلق من خلال الإشارة القرآنية، وكان القرآن يتحرك في وسط المعركة، ثم يأتي بعد ذلك ليقيم المعركة، كما نقرأ في «معركة أحد»، حيث أن الآيات التي نزلت بعد هذه المعركة لو درسناها دراسة جيدة، لرأيناها تتحدث عن السلبيات التي كانت تعيش في داخل المعركة لينتبه إليها المسلمون في المستقبل، وتتحدث عن الإيجابيات التي كانت في داخل المعركة ليعمل المسلمون على الاستزادة منها في المستقبل.. وهكذا رأينا في الآيات التي تتحدث عن «معركة بدر» أنها كانت تُقيم المعركة، وتُقيم المسلمين، وذلك بإثارتها لنقاط ضعفهم، ولنقاط قوتهم، وفي الحديث عن جانب الغيب، كيف كان يتحرك من أجل أن يُعطي قوةً معنوية للمقاتلين، وكذلك في الحديث عن بقية الجوانب.

وهكذا نجد أن القرآن الكريم، كان يواجه الواقع المنحرف ليؤكد القيمة الأخلاقية من

خلال حركة الواقع، كوسيلةٍ من وسائل جعل القيمة الأخلاقية أو الروحية تتحرك من موقع الواقع.. وهذا المعنى هو الذي نستطيع تمثله في أكثر آيات القرآن الذي نزل من أجل أن يلاحق التجربة ليوَجِّهها، ولينقدها، وليعطيها القوة... ونحن إذ نتحدث عن التجربة، نتحدث عن تجربة المسلمين، وليس عن القرآن، لأنه ليس كتاب تجربة يُخطئ ويُصيب، ولكنه كتاب الله، حيث كان يلاحق التجربة الإسلامية فيما تُخطئ به أو تصيب ليقومها، وليدعو المسلمين إلى أخذ العبرة منها، وإلى محاولة دراستها بشكلٍ أساسي.

تمثل النص القرآني

إذاً، القرآن الكريم، كتاب الدعوة، وكتاب الحركة، وكتاب الدين، ولذلك، يجب ألا نفهم القرآن بطريقة تجريدية، كما لو كان كتاباً يطرحُ فكرياً مجرداً ككلّ الكتب التي تطرح فكرياً مجرداً، بل هو كتاب حركي - إذا صحّ التعبير، حتى في الجانب العقيدي، فنحن نعرف أن القرآن عندما يطرح العقيدة، فإنه لا يطرحها بالطريقة الفلسفية، وإنما يطرحها بطريقة تشعرُ فيها أن الواقع يتحرك مع الفكر، وأن الأحاسيس الذاتية، وطبيعة التجارب التي يعيش الإنسان فيها، تتجمع كلها وتجعل من العقيدة شيئاً يتحرك من خلال حركة الحياة في داخل الإنسان، وفيما يُحيط به.. وعلى هذا الأساس، نستطيع القول: إن القرآن لا يمكن أن يُفهم إلا من خلال التجربة الإسلامية الشاملة، ومن خلال الحركة الإسلامية العامة.. وعندما نعتبر أن القرآن كان يتحرك في ساحات الجهاد، فمن الطبيعي أننا لا نستطيع فهم عمق معانيه إلا من خلال تمثّلنا لحركة الجهاد في واقعنا العملي. لهذا، نقول: إن القرآن لا يفهم جيداً إلا الحركيون والإسلاميون الذين يتطلعون للساحة من خلال الوعي الحركي للإسلام، والوعي الحركي للقرآن، والوعي الحركي للتجربة الإسلامية. ومن هنا، فإن المجتمع المسترخي لا يستطيع أن يفهم القرآن، بل ربما استطاع أن يجمّد القرآن، وأن يبعث فيه بعض ملامح التخلف، من خلال أن الإنسان

يتمثل النص انطلاقةً من تجربته، ولا يحاول أن يجعل تجربة النص أساساً لتقييم التجربة في حياته.

إننا نحتاج إلى أن نُثير الواقع الحركي الإسلامي في كلِّ موقع من مواقع الصراع الفكري والسياسي والاجتماعي والجهادي، لنجعل القرآن يتحرك في الساحة. وعلى هذا الأساس، فنحن نحتاجُ في حركتنا الجهادية، أو حركتنا الإسلامية الشاملة، إلى أن نرجع إلى الآيات القرآنية لنرى كيف تحركت مع الحالات المماثلة، فنحاول أن نُثير الآيات القرآنية والنصَّ القرآني في مواجهة أية حالة انحراف، أو في أية حالة اهتزاز، لنأتي بالآية التي تعالجُ حالةً مماثلةً من الاهتزاز في عهد الدعوة الأول، وهكذا يتحرك القرآن معنا كما تحرك مع المسلمين الأوائل، ليكون لنا الكتابُ الذي يلاحق التجربة وينقدها ويقيّمها، ويركّز من خلالها الخطَّ المستقيم للتحرك في الحاضر والمستقبل.

■ كثيراً ما تردّدون: القرآن أولاً، ثم السُّنة،

فلماذا؟

* عندما نعيشُ الفرق بين القرآن كمصدر أساس ليس فيه أيّ شك، وبين السُّنة كمصدر نؤمن به، ولكن طريقة نبوته تحتاج إلى كثيرٍ من الجهد، يفرض علينا أن نلجا إلى القرآن أولاً، لنثبت مصداقية السُّنة على هذا الأساس.

الحقيقة المطلقة

□ عندما يُثار سؤال كهذا، فإننا ندخلُ في خلفيات التصوّر للإنسان المسلم، حيث هناك مسافة في عملية الوعي، بين ما هو الشعار فيما يطرحه الإنسان أمام نفسه وأمام الناس بالطريقة الاستهلاكية للفكرة أو للمقدسات، وبين ما يعيشه الإنسان في خلفياته الفكرية والشعورية التي تتحرك الممارسة من خلالها، لذا نستطيع أن نقول: إن القرآن بالنسبة إلينا يمثل كتاباً مقدساً، نقدّسه بطريقة تقليدية، حتى أننا عندما نستلهمه، نستلهمه بطريقة تقليدية، لأنّ المسألة في الواقع الإسلامي العام، تتمثل في أننا لا نبادر إلى القرآن لناخذ منه الفكرة، ثم نبحث بعد ذلك عن خصوصياتها وملامحها وتفصيلها، فيما بين أيدينا من تراثٍ إسلاميٍّ آخر.. ربما نحن كفقهاء، وفي المجال الفقهي، قد يكون هناك اتجاه بارز، ينفذ إلى السُّنة المروية عن النبي (ص)، أو عن أئمة أهل البيت (ع)، ليستنطقها عن الحكم الشرعيّ، وعن المفهوم الأخلاقي، وعن الخط العملي، ثم بعد أن نستجمع ذلك من السُّنة، ننفذ إلى القرآن، لنرى ماذا يقول، وربما يبادر البعض إلى تأويل المفهوم القرآني، أو إلى تحديده من خلال السُّنة..

وهكذا في الاتجاهات الفكرية، قد لا نجد في الممارسة البارزة، أن القرآن يمثل الوجه الأول الذي نلتقي به، عندما نريد أن نلتقي بالمفهوم الإسلامي، وإنما نأتي به كشاهد بعد استكمال كثير من الدراسات. قد لا تكون هذه الظاهرة ظاهرة شاملة، ولكننا نستطيع أن نعتبرها ظاهرة عامة، ولهذا أصبح القرآن بعيداً عن حالة التمثل الفكري التي نعتبر مفهومها هو القاعدة التي تحكم على بقية المصادر، لا أن تحكم عليها بقية المصادر. ولعلّ هذا الاتجاه، هو الذي جعل الكثيرين من الذين يحملون اتجاهات مذهبية، أو اتجاهات فكرية معينة، يلجأون إلى القرآن ليخضعوه لمذاهبهم، بدل أن يستنطقوه ليعرفوا صحة مذاهبهم أو فسادها، وليخضعوه لاتجاهاتهم الفكرية، لا على أساس أن يأخذوا منه الاتجاه.. ولهذا رأينا أن الثقافة الإسلامية التي تحركت في كثير من العصور، والتي اختلفت في اتجاهاتها الفكرية، على صعيد فلسفي وفقهي، وعلى صعيد روحي - إذا صح التعبير - كانت تجد في القرآن، الكثير مما تحاول أن تجعل منه دعماً لتفكيرها. إن هذا الاتجاه، انطلق مما أُلحنا إليه، وهو أن التراث الآخر - غير القرآن - يُعتبر النقطة الأولى التي ينطلق منها بعض المفكرين..

ولكننا عندما نواجه القرآن الكريم، نجد أنه هو وحده الذي يواجه الحقيقة، وعندما نقول وحده، ليس معناه أن نتحرك بالاتجاه الذي انطلق في بعض الأوضاع القلقة التي أخذت بعداً سياسياً في الساحة الإسلامية، والتي تحاول أن تعزل السنة عن الاتجاه الفكري والفقهي في الإسلام، بحيث يكون القرآن الأول والأخير، وألا يكون للسنة أي مجال. طبعاً نحن لا نميل مطلقاً إلى هذا، لأن الله أكد لنا السنة في القرآن، ولكن المسألة، هي أن القرآن يمثل الحقيقة التي لا ريب فيها من ناحية المصدر، يعني من ناحية السند - إذا صح التعبير - فليس هناك شك في أن القرآن كلام الله، ونحن لا نحتاج إلى أن نثبت النص القرآني كنص صادر عن الله على لسان رسول الله (ص).. ولكننا عندما

نواجه السنة، فإننا نجدُ الكثير الكثير من إمكانات الشك، وإمكانات التساؤل في كثيرٍ مما ينقله الرواة، لأنَّ مشكلة الثقة بالرواة مشكلة كبيرة جداً، لا سيما مع وجود الزمن المتباعد بيننا وبينهم.

الأخذ بما وافقه وترك ما خالفه

لهذا، فنحن عندما نعيش هذه المسألة في الفرق بين القرآن كمصدرٍ أساس ليس فيه أيُّ شك، وبين السنة كمصدرٍ نؤمن به، ولكن طريقة ثبوته تحتاج إلى كثيرٍ من الجهد، يفرض هذا علينا أن نلجأ إلى القرآن أولاً، لنثبت مصداقية السنة على هذا الأساس. وهذا ما قام به أئمة أهل البيت (ع) عندما كانوا يواجهون الكثير من الركام الهائل من الأحاديث الفكرية القلقة التي ارتبكت في طبيعتها من خلال الركام الهائل من الأحاديث المتعارضة والمتضاربة. فالأئمة (ع) في مواقفهم في باب تعارض الأحاديث، وعندما كان يسألهم بعض الرواة عن وجود حديثين متضارين فبأيهما يُؤخذ، كانوا (ع) يُشيرون إلى الأخذ بما وافق كتاب الله، وترك ما خالفه. من هنا نستطيع أن نعتبر أن القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، هو الأساس فيما نريد أن نعيشه من تصوراتنا الفكرية عن الكون والحياة، وما نريد أن نتمثله في وعينا لكثيرٍ من الخطوط العملية التي نريد أن نتحرك فيها كمسلمين.

ومن الطبيعي جداً أن القرآن إذا كان نصاً قطعياً في سنده، فإنه ليس نصاً قطعياً في دلالاته، لأنَّ القرآن يختلف في نصوصه، فهناك من النصوص ما هو صريحٌ لا يقبل التأويل، وهناك ما هو ظاهرٌ يعطي الفكرة بنسبة ٨٠٪ ولكنه يترك مجالاً للاحتمال بنسبة ٢٠٪، وهناك في القرآن ما - ربما - يعتبر مُجمالاً، لا أنه نزل مجملاً، ولكن لأنَّ هناك بعض ما أحاط به جعله مُتشابهاً، لذلك لا بد لنا أن نملك الثقافة القرآنية، الثقافة اللغوية

بمعناها الواسع، أي الثقافة الأدبية التي تنطلق في النص الأدبي، لأنّ القرآن الكريم نصّ أدبيّ إلهي في أعلى مستويات النصوص.. ولا بدّ أيضاً لمن يريد أن يفهم القرآن، أن تكون لديه ثقافة أدبية عالية، لأنّ المسألة، ليست مسألة تفسير اللفظة بمعناها من خلال القاموس، ولكنّ المسألة أن تتمثّل النص من خلال كلّ العناصر البلاغية التي تشتمل عليها «العربية» في طريقة التعبير. وإذا لم يكن للإنسان ثقافة أدبية بمستوى جيّد، وثقافة عامة بمستوى جيّد، فمن الصعب جداً أن يفهم القرآن فهماً حقيقياً بحيث يستطيع أن يستنطقه، ليكون ذلك في مستوى الحقيقة الفكرية، لأنّ القرآن هو الذي يمثّل الحقيقة في طبيعته.

■ يقول الله تبارك وتعالى: (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا، وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ، إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) الأحزاب ٧٢. ماذا نستوحي من هذه الآية المباركة؟

تهيبٌ من المسؤولية

□ قال الله للسموات والأرض والجبال، فيما توحى به هذه الآية، لتتحمل كل واحدة منكن مسؤوليتها، لتحمل مسؤولية حركتها وقرارها، وكل ما يتصل بها في تفاعلها مع الظواهر الأخرى، ليكون الحساب بحجم المسؤولية.. ولكن كل هذه العوالم الكبيرة في حجمها، المتنوعة في طبيعتها، وقفت خائفة مشفقة على نفسها من هول المسؤولية وهول الأمانة، والأمانة هنا تمثل كل حركة الإنسان فيما يمس دور ه في الكون كله، (فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا) قُلْنَ يَا رَبِّ، أَنْتَ حَدَدَ لَنَا ذَلِكَ وَنظَّمْ لَنَا ذَلِكَ، نحن في خطِّ الطاعة نسير..

أما الإنسان، فقد قال له ربه، لقد خلقت لك عقلاً يستطيع أن يجدد وأن يتجدد، وخلقت لك قلباً يستطيع أن يفتح على كل جمالات الحياة، وكل مشاعرها وأحاسيسها، وخلقت لك إرادة تستطيع أن تثبت خطواتك في المواقع التي تريد فيها لحياتك أن تقف وتمتد، وخلقت لك وسائل من عينيك وأذنيك ولسانك وشفقتك، أن تشم كل شيء يُشم، وأن تلمس كل شيء، فما رأيك أيها الإنسان، هل تتحمل مسؤولية نفسك؟ هل تتحمل مسؤولية دورك؟ فهناك دور كبير ينتظر في الحياة، قد تكون مخلوقاً صغيراً في حجم جسدك، ولكنك المخلوق الذي انطوى فيه العالم الأكبر في حجم عقلك وقلبك وحيويتك

وحركتك في الأرض:

وَتَحْسَبُ أَنَّكَ جُرْمٌ صَغِيرٌ وفيك انطوى العالم الأكبرُ

خليفة في الأرض

وأنت، هذا المخلوق المحدود من خلقِ الله، أنتَ في حركة العلم والإبداع والعمل، خليفةُ الله في الأرض.. للأرض برنامجها، وأنت الذي تحركَ هذا البرنامج، فهل تحمل المسؤولية؟ (وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ) ولكنَ هذا المخلوق الذي يتحركُ بشكلٍ حيوي، والذي يتغيرُ من خلال ما حوله ومن حوله، كان ظلوماً لنفسه، لم يُتَقَنَّ حَمَلَ المسؤولية بدقّة، وكان جاهلاً بحجم هذه المسؤولية، ومع ذلك بقي الإنسان الذي يتحركُ من أجل أن يُبدعَ حياةً جديدةً ليعطيَ الكونَ مرحلةً جديدةً تتجددُ في مدى الزمن.

إذاً، نحنُ في هذا الكونِ مخلوقاتٌ تحملُ المسؤولية في الدائرة الصغيرة، وفي الدوائر التي تكبرُ وتكبر حتى تكون الحياة كلها دائرة، وتكون الإنسانية كلها دائرة.

■ كثيراً ما يعمد العلماء إلى حمل نصوص واضحة من القرآن والحديث على غير معناها الظاهر، أو إلى تأويلها وتفسيرها بمعانٍ بعيدةٍ عن دلالاتها الظاهرية، فهل هناك حدودٌ وضوابطٌ لعملية تأويل وفهم النصوص وتحديد مصاديقها؟

* لا بدّ للإنسان أن يكون لديه ثقافة فنية أدبية في قواعد اللغة العربيّة حتى يستطيع أن يوازن بين النص القابل للتأويل، وبين النص غير القابل للتأويل.

حقيقة ومجاز

□ إنّ النصوصَ التي بأيدينا سواء كانت نصوص الكتاب أو نصوص السنّة هي نصوصٌ جاءت على حسب قواعد اللغة العربية في دلالاتها. واللغة العربية تتحرّك بين الحقيقة والمجاز. فالمعنى الحقيقي هو استعمالُ اللفظ بما وُضِعَ له، والمجازي استعماله في غير ما وُضِعَ له لمناسبة بينه وبين المعنى الموضوع له، ويدخل في المجاز، الاستعارة، وتعيش بين الحقيقة والمجاز، الكناية.

هناك قواعد للغة العربية، وأعتقد أنّ هذه القواعد لا تتجمّد عند ما بحثه الأقدمون، فهناك إبداعاتٌ جديدةٌ في طريقة فهم النص وفي طريقة استيحائه، ولذلك لا يمكن أن نُخضع فهم النص لحالات سريعة في الجانب الفكري.

النص والدليل

وأما متى يكون تأويل النص؟ عندما يكون لدينا الدليل العقلي الذي هو على مستوى

الحقيقة باستحالة شيء، ويأتي النص القرآني ليظهر منه أن هذا الشيء المستحيل كما لو كان واقعاً.. مثلاً بالنسبة إلى رؤية الله، هل يرى الله سبحانه أو لا يُرى؟ هذه مسألة عقلية انطلق العلماء في البحث الفلسفي الكلامي، إلى أنه استحيل رؤية الله، لأن الله تعالى ليس كمثله شيء، ليس جسداً حتى يرى كيف هو؟ ليست لدينا أية وسائل نستطيع أن نتعرف بها على حقيقة الذات الإلهية (ليسَ كمثلِه شيء) ^(١) (لا تُدْرِكُهُ الأبْصَارُ، وَهُوَ يُدْرِكُ الأبْصَارَ) ^(٢).

ونلتقي مثلاً بالآية التي تقول: (وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ) ^(٣)، أي تنظر إلى الله سبحانه. وهكذا نجد في أكثر من آية تدلُّ على الرؤية، وهنا في هذا المجال نقول: عندما قام الدليل العقلي القطعي على أن الله استحيل رؤيته، فهذه الاستحالة العقلية تكون قرينة ودليلاً على أن المراد بكلمة (إلى ربها ناظرة) معنى غير معناها الظاهر، بمعنى أن يكون النظر إلى الله، النظر إلى دلائل عظمته، أو النظر إلى مواقع سلطته. وهكذا في الآيات التي تدلُّ على أن الله جسمٌ، والدليل العقلي دلٌّ على أن الله لا يمكن أن يكون جسماً، وهكذا في الآيات الكريمة: (بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ) ^(٤) و (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) ^(٥) (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) ^(٦)، فهنا نقول: لا بدُّ أن نُؤكِّدَ ذلك على أن المراد من الوجه، الذات، والمراد من اليدين، وسيلة العطاء، أو وسيلة القوة، وما إلى ذلك. ومثلاً، عندما نأتي إلى كلمة (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) ^(٧)، المعنى الظاهر أن الكرسي، هو المكان الذي يجلس عليه الإنسان، هنا نستوحي من قوله سبحانه، أن المراد ليس الكرسي المادي، وإنما هو كناية، أو استعارة ذلك للسلطة، لأنَّ الكرسيَّ مكان السلطة، ولذا قيل كرسيَّ العرش، والعرش ليس هو المكان الذي يجلس عليه الله تعالى،

(٧) البقرة: ٢٥٥.

(٤) المائدة: ٦٤.

(١) الشورى: ١١.

(٥) الفتح: ١٠.

(٢) الأنعام: ١٠٣.

(٦) القصص: ٨٨.

(٣) القيامة: ٢٢ - ٢٣.

بل هو منطقة من المناطق التي تمثل أعلى منطقة، وما إلى ذلك.

أما إذا كان هناك نص قرآني، وكان هناك حديث يؤوّل هذا النص، فالمقصود بهذا المعنى كذا غير المعنى الظاهر.. وهنا نلاحظ أنّ هذا النص الذي جاء ليفسّر القرآن بغير ظاهره، هل يستقيم هذا التفسير مع قواعد اللغة العربية أم لا؟ هل يمكن أن يحتفظ القرآن ببلاغته مع هذا التفسير أم لا؟ لذلك ليس كلّ حديث نقبله ولو كان صحيحاً يأتي بتفسيرٍ للقرآن غير التفسير الظاهر، إلاّ إذا كان هذا التفسير يُبقي التعبير القرآني في مستوى البلاغة، لأنّ هذا التفسير عندما يُنزل النصّ القرآني عن مستواه البلاغي، معناه أنّ القرآن يفقدُ بلاغته، وهو قمة الإعجاز في البلاغة. لذلك لا بُدّ للإنسان أن يكونَ لديه ثقافة فنية أدبية في قواعد اللغة العربية حتى يستطيع أن يوازن بين النص القابل للتأويل، وبين النص غير القابل للتأويل. ومع الأسف أنّ الطريقة التي درج عليها الكثيرون من العلماء في استنطاق قواعد اللغة العربية، ربما تؤدي إلى الكثير من تشويه صورة فهم النصّ القرآني، أو فهم النص النبوي، أو أحاديث أهل البيت (ع).

■ **إنكم ترون أن القرآن هو الأساس في التصور العقائدي والفكري، بينما يُنسب لأمير المؤمنين (ع) قوله لابن عباس عندما بعثه لمفاوضة الخوارج ولا تُحاجُّهم بالقرآن فإنه حمال ذو وجوه، ولكن خاطبهم بالسنة ما رأيكم بذلك؟**

□ قد يقول البعض عن معنى قول أمير المؤمنين (ع)، إن القرآن لا يصلح أساساً لتأكيد العقائد والمفاهيم الإسلامية، وأنه ليس الحجّة القاطعة على تأكيد العقائد الإسلامية، أو المفاهيم الإسلامية.. ونحن نقول: إن أمير المؤمنين علياً (ع) لا يمكن أن يقصد ذلك، باعتبار أن القرآن هو الحجّة التي قدّمها الله للناس، وأراد سبحانه من رسوله (ص) أن يبلغها للناس، والقرآن حدّثنا (قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ)^(١)، وقال أيضاً: (يُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)^(٢).

وفيما يختصّ بالجدل، فهناك، حالتان: حالة أن يكون القرآن هو الأساس في تأكيد العقائد والمفاهيم الإسلامية، وحالة أن يكون هناك أمورٌ تحتاج إلى تفاصيل، مثل قضية الخلاف الذي حدث بين الخوارج الذين تمردوا على إمامهم (ع)، وبينه، حيث كان الخلاف ينطلق من مسألة، وهي، هل أن تحكيم الرجال في قضية الحرب يُعتبر مخالفاً للالتزام بحكم الله، وهل معناه أن الرجال يحكمون في مقابل حكم الله؟ أو أن الرجال يكونون في مقام تحديد الجزئيات وتحديد المصداق أمام الخطوط العامة؟ من الطبيعي أنه عندما يُراد البحث في التفاصيل، فمن الصعب جداً الرجوع إلى القرآن الكريم (وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)^(٣)، وهذا تحكيم بغير ما أنزل

(٣) المائدة: ٤٤.

(٢) البقرة: ٢٥٧.

(١) المائدة: ١٥.

الله، لأنه تحكيمُ الرجال. لذلك في القضايا التفصيلية نحتاج إلى السنة الشريفة، لأن السنة هي التي فصلت، بينما القرآن في كثير من الحالات أعطى الخطوط العامة، ولا سيما في مثل هذه المسائل والقضايا، فلا خطوط تفصيلية قرآنية تحدد هذه المسألة بشكل تفصيلي.. لذلك فكلامُ أمير المؤمنين (ع) لابن عباس يتجه اتجاههاً آخر.. أما ما نتحدث به باعتبار أن القرآن هو الأساس الذي يُرجعُ إليه في تأكيد العقائد، وتأكيد المفاهيم الإسلامية شيءٍ آخر.. ومما يؤكد على أن القرآن هو المرجع والحجة، وهو الأساس، والأئمة (ع) أرجعوا كل الأحاديث والمفاهيم إلى القرآن: «ما خالف كتاب الله فهو زُخرف» و«لا تقبلوا علينا ما خالف كتاب ربنا» فأرجاع الأئمة (ع) كل المفاهيم والأحاديث إلى القرآن الكريم، يدلّ على أن القرآن هو المرجع الأول والأخير، حتى في الحكم على السنة في أنها سنةٌ صحيحة، أو أنها سنةٌ غيرُ صحيحة.

■ هناك من يذهب إلى القول: إنَّ القرآن الكريم لم تُرتَّب آياته على الشكل الصحيح، وكدليل على ذلك «آية التطهير»، والأئمة (ع) لم يحاولوا تغيير ذلك خوفاً على الإسلام من الضعف فما رأي سماحتكم بذلك.

* إنَّ القرآن هو هذا القرآن لا زيادة فيه ولا نقصان ولا خلل في الترتيب.

أخطر ضعف

□ إذا كان الأئمة (ع) يخافون من تغيير القرآن على الإسلام من الضعف، أليس هذا الحديث يُوجب الضعف في الإسلام؟ أيّ ضعف أخطر من أن نتحدّث عن القرآن أنّا حرّف؟

نقطة الضعف الموجودة عند اليهود وغيرهم أنّ التوراة والإنجيل حرّفا ألا نقول كذلك؟ الله تعالى تكفل بحفظ القرآن (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)^(١)، ويقول تعالى: (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ)^(٢)، ثم إنَّ أئمة أهل البيت (ع) أمرونا بأن نلتزم هذا القرآن وأن نجعله أساساً للحكم على كلّ التركة من الأحاديث المروية عن النبي (ص) وعن الأئمة (ع): «لا تقبلوا علينا ما خالف كتاب ربنا، و ما خالف كتاب الله فهو زُخرف».

أما مسألة الترتيب، فإنَّ القرآن لم يُرتَّب على أساس تاريخ النزول، بل رُتَّب على أساس المناسبات.. آية التطهير نزلت وحدها، وكلمة «أهل البيت» في القرآن، إنّما هي

(٢) فصلت: ٤٢.

(١) الحجر: ٩.

مختصة بأهل البيت: محمد، وعلي، وفاطمة، والحسن، والحسين (ع) (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)^(٣)، نزلت وحدها باعتراف السنة والشيعنة معاً.

ونحن نروي أن القرآن رُتّب في حياة رسول الله (ص)، وكان يأمرهم بأن يضعوا هذه الآية في هذه السورة مثلاً، أو التي يُذكر فيها كذا وكذا.. ولذلك نعتبر أن القرآن هو هذا القرآن لا زيادة فيه ولا نقصان، ولا خلل في الترتيب.

لا تهاون

مَنْ يَجْرُو أَنْ يَتَصَرَّفَ فِي الْقُرْآنِ^(٤)، والقرآن إمام المسلمين؟ المسلمون موجودون وفيهم القراء والحُفَاط.. ثم كيف يُمكن أن يسكت عليّ بن أبي طالب (ع) عن مسألة تحريف القرآن؟ قد يسكت عن حقّه في الخلافة، ويسكت عن أيّ شيءٍ لمصلحة الإسلام والمسلمين، أمّا أن يسكت عن ذلك، هذا ضدّ الإسلام والمسلمين.. فإذا «لُعِب» بالقرآن ماذا يبقى من الإسلام، وعليّ (ع) ليس جباناً، ولا يعمل بالتقية في هذا المجال.

لا يمكن أن نتصوّر أن أمير المؤمنين (ع) يسكت عن أيّ خلل في القرآن، وإلّا خان رسالته، وعليّ (ع) هو الأمين على الرّسالة، ومبرّر وجود الأئمة (ع) بعد النبي، هو حفظ الرسالة وحمايتها. ولذلك إجماع الشيعة أن القرآن هو ما بين الدفتين، ليس هناك من قرآن ثانٍ..

المسلمون بأجمعهم حافظوا على الضمّة والفتحة وطريقة الكتابة وما إلى ذلك.. وأهل البيت (ع) ليس عندهم إلا هذا القرآن.. النبي (ص) قال: «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ مَا

(٣) الأحزاب: ٣٣.

(٤) المقصود في العهد الأول من الدعوة.

إن تمسكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً، كتاب الله، حبلٌ ممدودٌ من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، إلا وإنّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض».

ولعلّ أفضل دراسة لإثبات عدم تحريف القرآن هي الدراسة التي قام بها السيد الخوئي (رحمه الله) في كتابه «البيان في تفسير القرآن» لأنّه درسها دراسة علمية عميقة في هذا المجال.

■ ما هو منهج سماحتكم في تفسير القرآن الكريم؟

* القرآن الكريم لا يفهمه إلا الحركيون الذين عاشوا معنى الحركية الإسلامية.

□ إنني أدرسُ القرآن الكريم من خلال إحياءاته، حيث أعتبر أن الآية القرآنية تنطلق متحررة من سجن الكلمات، وأعتبر أن كل كلمة تنطلق في أكثر من أفق..

وهذا ما استوحيته من كلام الإمام الباقر (ع) حيث يرى أن «القرآن يجري مجرى الليل والنهار وكما يجري الشمس والقمر»، أو من تفسيره لقوله تعالى (وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً^(١))، قال (ع): «تأويلها الأعظم مَنْ نَقَلَهَا مِنْ ضَلَالٍ إِلَى هُدًى» فالإمام (ع) في ذلك يستوحي الحياة المعنوية من الحياة المادية.

فالمنهج الذي انطلقتُ فيه، هو أن أفهم القرآن من خلال الأجواء التي يعيش فيها القرآن، كونه كتاب الحركة الإسلامية، أي الدعوة الإسلامية، التي كان يُرشدنا الله سبحانه من خلال القرآن.

ولذلك، لا يمكن أن نفهم القرآن ككتاب له معنى لغوي وحسب.. ونحن عندما نقرأ الحركة الإسلامية من خلال كتاب الله إن كان على مستوى الدعوة أو على مستوى الحرب أو السلم، فإننا نحاول أن نفهم القرآن بطريقة حركية.

ومن هنا أقول: إن القرآن لا يفهمه إلا الحركيون الذين عاشوا معنى الحركية

(١) المائدة: ٣٢.

الإسلامية في حيوية الإسلام في انطلاقه مع الإنسان ومع العالم.. والإنسان الحركي يفهم الإسلام بغير ما يفهمه اللغوي أو عالم النفس، أو عالم الاجتماع. ولذا سميتُ تفسيري «من وحي القرآن» لأنه يحاول أن يستوحي القرآن حركياً، ويستوجهه للحاضر والمستقبل.

■ هل تعتبرون أن النصوص القرآنية التي نصّت على حرية الإنسان في المفاهيم والمعتقدات، هي ملزمة أم قابلة للاجتهااد؟

□ بالنسبة إلى النصوص القرآنية تبقى نصوصاً حاسمة، فيما هو ظاهر القرآن، ويمكن أن تتحرك تفاصيلها من خلال طبيعة الواقع الإنساني.. نحن نعرف أن الإنسان يعيش حالة طبيعية في ظروفه تارة، ويعيش حالة طوارئ تارة أخرى.. ومن هنا فإن هذه الخطوط العامة للحرية تتحرك في الحالات الطبيعية للإنسان، أما في حالات الطوارئ فيمكن أن تُجمد الحرية في حالة ما تبعاً لطبيعة الضرورة التي يفرضها ظرف الخاص.. تماماً كما قد يُجمد القانون نتيجة الحالات الحادة، التي لا يمكن للإنسان أن يمارس فيها القانون بشكل طبيعي، لأن الضغوط التي جاءت من الخارج، سواء كانت ضغوطاً سياسية أو أمنية أو غير ذلك، لا تسمح للإنسان بأن يمارس حياته الطبيعية، لأن الآخرين قد يستفيدون من ذلك في حالة الطوارئ بما لا يخدم مصلحة الإنسان.

الخطوط العامة في القرآن، هي خطوط حاسمة، ولكن حركة هذه الخطوط في الواقع هي التي يمكن أن تتغير تبعاً للعناوين الثانوية التي تمثل الضغوط الطارئة على واقع الإنسان والذي يحتاج أن يتخفف فيها من ثقل هنا أو ثقل هناك.

■ بوصفكم من مفسري القرآن المعاصرين، ما هو رأيكم في المجالات التي يتناولها التفسير، وهل يمكن أن يتعدى تفسير غوامض الألفاظ؟

* بقدر ما نُحرك القرآن في الواقع، بقدر ما نستطيع أن نرتفع بالقرآن.

□ التفسير الذي يمكن أن ننطلق فيه أنه إحياءات القرآن.. فالكلمة القرآنية ليست مجرد كلمة لها معنى في القاموس، كل كلمة تحمل في كل تاريخ استعمالها الكثير من الإحياءات. ولذلك تستطيع في كلمة واحدة أن تكتب ما شاء الله من الإحياءات، لأز إحياءات الكلمة غير معنى الكلمة، من هنا أعتقد أنه يجب أن نستوحي القرآن كما كان الأئمة (ع) يستوحونه.

فالإمام الباقر (ع) عندما يتحدث عن الآية القرآنية (مَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً)^(١)، يقول (ع): «تأويلها الأعظم، مَنْ نقلها - أي النفس - من ضلالٍ إلى هدى». وهذا لا يعني أن الإمام (ع) فسّر كلمة الحياة بالهدى، وفسّر كلمة الموت بالضلال، بل استوحى ذلك: إنك إذا أحييت إنساناً من ناحية مادية، ومنعته من الموت وأنقذته، كنت كمن أحيى الناس جميعاً، لأنك ركزت مبدأ الحياة.. والإمام (ع) تجاوز المعنى المادي وانطلق في إحياءات المعنى في الضلال والهدى، في الجهل والعلم.

ولذلك أقول: لا تفهموا القرآن من خلال القاموس، وإن كان للقاموس دوره، إفهمو

(١) المائة: ٣٢.

القرآن من خلال حركة الحياة.. واجعلوا القرآن يتحرك في أسواقكم، في صالوناتكم، في نواديكم، في بيوتكم، حتى تجدوا القرآن يمشي كما تمشون من خلال مفاهيمه المتصلة بالحياة.. بقدر ما نحرك القرآن في الواقع، بقدر ما نستطيع أن نرتفع بالقرآن.. أمّا إذا تجمّدنا أمام معنى الكلمة هذه أو تلك، أو توقفنا عند مجرد تفسير القرآن من خلال القاموس، حوّلنا القرآن إلى شيء جامد.

■ ما المدلول القرآني للإمامة؟

* النبي إمام من حيث هو نبي.

□ بحسب بحثنا للآية القرآنية الكريمة (إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا)^(١)، لعل المقصود بها، ليس الإمامة بالمعنى المصطلح، لأن المعنى المصطلح للإمامة، هو خلافة النبي (ص)، وعلى هذا، فائمة أهل البيت (ع) في عقيدتنا هم خلفاء رسول الله.

عالم الإمامة هو عالم القيادة، فالنبي، هو إمام من حيث هو نبي، وأنا لا أذهب فيما ذهب إليه صاحب الميزان السيد الطباطبائي (قده) من أن هناك مرحلتين: مرحلة نبوة، ومرحلة إمامة.. ولقد ناقشت رأي السيد الطباطبائي في ذلك، حيث أعرض لهذه المناقشة في الطبعة الجديدة من «وحي القرآن الكريم» إن شاء الله.

إذاً، كل نبي إمام، والإمام هو من يجب على الناس أن يقتدوا به سواء كان من أنبياء أولي العزم أو من غيرهم، وعلى هذا فالإمامة تتضمن معنى القيادة التي يجب على الناس أن يخضعوا لها ويسيروا في اتجاهها. ويقول أمير المؤمنين (ع) في هذا المجال: «ألا وإن لكل مأموم إماماً يقتدي به، ويستضيء بنور علمه».

فالإمام بالمعنى القرآني العام وغير القرآني، إنما هو الذي يكون في موقع القدوة، وفي موقع الالتزام بطاعته.. وسُمِّي الأئمة (ع) أئمة بلحاظ أنه يجب الالتزام بقيادتهم وبولايتهم وبطاعتهم في كل ما يأمرون به وما ينهون عنه.

(١) البقرة: ١٢٤.

■ في الآية الكريمة: (يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم، هل من خالق غير الله، يرزقكم من السماء والأرض، لا إله إلا هو فإني توفكون) فاطر ٣. في هذه الآية حث على ذكر نعم الله تعالى، فإلى ما يهدف هذا الحث القرآني؟

□ هذا النداء أراد الله تعالى لرسوله (ص) أن يطلقه للناس كافة من أجل أن يتحركوا في العقيدة، وفي الإيمان من موقع نظرتهم إلى ما يُحيط بهم، ويدخل في حياتهم من نعم الله، فالله سبحانه يطلب من الناس، أن تطلعوا إلى السماء وهي تهطل بالمطر فتحيا به الأرض بعد موتها، فتنبت لكم ما تأكلون، وتفجر لكم ما تشربون.. وتطلعوا إلى الشمس وهي تعطيكم الدفء والحرارة وكثيراً من العناصر التي تجعل الحياة طبيعية..

تطلعوا إلى الأنهار وهي تجري، والبحار وهي تتلاطم بالأمواج، وإلى كل هذه النباتات وإلى ما سخرته لكم من الحيوان.. تطلعوا إلى كل ذلك، واعرفوا أن كل هذا، هو من نعم الله.. وتذكروا خلق الشمس، ونزول المطر، وتفجر الأنهار ينابيع، والنبات، تذكروا من صنع ذلك كله، ومن الذي أنعم عليكم بذلك.. فالذي خلقكم، خلق ذلك، والذي أوجد ذلك أوجدكم، اربطوا بين وجودكم وبين كل هذا الجو الذي يُحيط بكم، وبين هذه النعم التي تحيط بكم.. واعرفوا أن الله عندما أوجدكم في هذا الكون لم يترككم سدى، بل هيأ لكم كل ما يجعل وجودكم غنياً بالنعم، وكل ما يساهم في امتداد وجودكم إلى الأجل الذي أجله الله.. فتطلعوا إلى كل ما حولكم من نعم واشكروا الله (اذكروا نعمة الله عليكم،

هل مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ)، استحضروا في أذهانكم كلُّ مَنْ ترونه عظيماً، وما ترونه عظيماً في الكون، ثم فكّروا مَنْ خلق ذلك.. فكّروا في كلِّ العظماء في الكون، وفكّروا في كلِّ ما هو كبير.. فالكلُّ مخلوقون لله الذي أودع فيهم أسرار عظمتة:

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ تَدُلُّ على أَنَّهُ واحدٌ

فالله تعالى عندما يريد أن يذكرنا بنعمته، يريد منا أن نستحضر في حياتنا كلَّ ما يحيط بنا، فنستحضر نعمته تعالى خالقاً ومنعماً، حتى نرتبط به ارتباطاً وثيقاً، بحيث لا ننفك عن ذكره في وعينا، ولا عن شكره في ألسنتنا، ولا عن طاعته في أعضائنا.

■ في موسوعتكم القرآنية (من وحي القرآن) وفي سورة الإسراء تعارضون صاحب «الميزان» العلامة الطباطبائي الذي يعتبر أن تسبيح السموات والأرض لله، هو تسبيح لفظي، علقتم على ذلك بالقول: بأنه لا دليل على اطلاق الكلام في ذلك، ولكن هناك الكثير من الروايات تؤكد أن للحيوانات تسبيحاً خاصاً، فما هو تعليقكم على ذلك؟

□ كانت مناقشتنا لصاحب الميزان (رحمه الله) تنطلق من أن التسبيح وكل مقولة الكلام لا تطلق على هذه الموجودات، بل ربما نستطيع أن نقول، إن الحجر لا يتكلم، وإن الحيوان لا يتكلم، وما إلى ذلك.

فالقضية كانت تنطلق من خلال الدلالة اللغوية للكلمة، ولذلك اخترنا أن الكلمة واردة على طريق الاستعارة، لا على طريق استعمال اللفظ في المعنى الحقيقي.. فنحن نلتقي مع صاحب «الميزان» في أن المراد من تسبيح السموات والأرض ومن فيهن هو الدلالة على عظمة الله سبحانه.. ولكننا نناقشه في إطلاق كلمة التسبيح، والقول على هذه الدلالة بحسب المعنى المطابق للغوي، ولذلك نختار أنها واردة على نحو المعنى الكنائي، أو على نحو الاستعارة المجازية، لا على نحو الاستعمال الحقيقي.

■ يقف العقل عاجزاً أمام تفسير الكثير من التشريعات الإسلامية فلا يجد أمامه إلا منطق الآية القرآنية (ما كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ) الأحزاب ٣٦، أليس هذا المنطق تعطيلاً لحركة العقل عندما تُفرض الكثير من التشريعات على أنها مسلّمات لا يمكن الجدل حولها؟

□ الواقع أن هذه الآية، تعني اتباع الإنسان للنظام الذي يؤمن به، وأن من واجبه ألا يتمرد عليه.. أمّا أن يحاول الإنسان فهم الحكم الشرعي، أو مناقشة الحكم الشرعي، وأن هذا هو حكم الله، أليس حكم الله؟ فمن حقّ هذا الإنسان أن يطرح تساؤلاته، ومن واجب العلماء الواعين أن يجيبوه على هذه التساؤلات، عندما تكون القضية قضية حكم يريد أن يفهمه أو يريد أن يناقشه.

ولكن، هناك أحكام عبادية موجودة في الإسلام، تماماً كما هناك أحكام تنظيمية موجودة في الأنظمة الأخرى، وهذه الأمور لا يمكن الدخول في جدلٍ حولها، كجدل البعض حول الصلاة، ولماذا هي ركعتان صباحاً، وأربع ركعات ظهراً وعصراً وعشاءً، وهكذا.. فهذه الأمور أمورٌ تنظيمية تنطلق فيها الفكرة العامة من خلال سرّ، وتنطلق التفاصيل فيها من خلال علم الله.

علل التشريع

أمّا بالنسبة إلى القضايا الأخرى، سواء في «المعاملات» وغيرها، فإننا نجد ما يُسمّى «علل التشريع» أو «علل الأحكام»، والقرآن الكريم قدّم لنا الصلاة مثلاً من موقع أنّها

تنهى عن الفحشاء والمنكر، وأعتقد أنّ الجدل حرّ حتى في هذه المسائل.. ولكنّ الإنسان الذي يؤمن بالله، إذا لم يفهم حكماً شرعياً، وعرف أنّه صادرٌ من الله، لا بدّ أن يتعبّد به، تماماً، كما هي الأحكام التي تنطلق من خلال الأطباء، فيما نريد أن نتطبّب به، قد نحاول مناقشة الطبيب لنفهم ذلك، ولكننا إذا لم نفهم وعرفنا أنّه طبيبٌ خبيرٌ بطبّه، فإنّنا نسلّم له بذلك.

■ هناك مَنْ يُفسِّرون التصالح مع العدو
الصهيوني استناداً إلى بعض الآيات القرآنية،
ومنها: (وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا) الأنفال ٦١
فهل هذه التفاسير صحيحة؟

□ إنَّ هذه الآية تتحدَّث عن مسألة إنهاء الحرب، وإنهاء الحرب عندما يكون في مصلحة القوة الإسلامية، أو في مصلحة التوازن الواقعي السياسي والاجتماعي والاقتصادي للحياة الإسلامية من دون أن يقدم المسلمون أية تنازلات حيوية استراتيجية لمصلحة العدو، لأنَّ معنى ذلك، أنَّ العدو سوف يربح بالسلم ما لا يربحه بالحرب. إنَّ السلم مشروع في الإسلام، كعنوان لإنهاء الحرب عندما يكون هناك مصلحة في السلم، لا في وجود مفسدة في السلم، ولا يمكن لأية قيادة إسلامية أن تقدِّم التنازلات للأعداء، حتى أن ذلك كان وعي الصحابة في عهد الرسالة عندما كان النبي (ص) يقدم بعض التنازلات التكتيكية لمصلحة الخطة الإستراتيجية، فإنَّ المسلمين كانوا يقفون ويقولون، إننا لا نعطي الدنية في ديننا، وإننا كنا لا نتنازل لهم قبل الإسلام، فكيف نتنازل لهم بعد أن أعزنا الله بالإسلام. لذلك، فإنَّ هذه المقولة ليست دقيقة في هذا المجال باعتبار أن السلم هنا يعطي «إسرائيل» الحق في امتلاك الأرض الفلسطينية، وفي تشريد الشعب الفلسطيني، وفي الضغط عليه فيما يُسمَّى بالأراضي المحتلة، بالمستوى الذي يبقى فيه هذا الشعب تحت احتلاله من الناحية السياسية والاقتصادية، لتبقى له حرية إدارة شؤونه. لذلك فإنَّ هذا لا يشمل الجنوح في مقابل رغبة الآخرين بالسلم.. إنَّما تكون في الحالات التي يؤدي فيها السلم إلى توازن الحياة الإسلامية من دون تقديم أية تنازلات لمصلحة العدو بالمستوى الذي يمثل هزيمة المسلمين أمام العدو.

■ يقول الله تبارك وتعالى: (مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى، وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ) غافر ٤٠، البعض يجمد العمل، ويستند على حبه أو ولائه لرموز طاهرة على أن ذلك كافٍ، ما رأيكم بذلك؟

القرب بالعمل

□ إن الله تبارك وتعالى ينظر إلى الإنسان من خلال عمله، ويقربه إليه كذلك من خلال عمله، كما يُبعده عنه من خلال عمله.. فالله، ليس بينه وبين أحدٍ من خلقه قرابة، لأنه هو الذي خلق الخلق كلهم، فأية قرابةٍ بينه وبين مخلوقاته؟ الأنبياء وحتى الملائكة المقربين، إنما قربوا إلى الله من خلال إخلاصهم له، ومن خلال عملهم له. وهو سبحانه أراد للناس أن يهتدوا بهداه، وأن يتبعوا رسالاته، وأن يعملوا بأوامره ونواهيه.. ولكن بعض الناس يعتبرون أن إمكاناتهم المادية تقربهم عند الله، وبعضهم يعتبر أن علاقتهم النسبية تقربهم إلى الله، وبعضهم يعتبر أن مجرد حبهم لمن يحبه الله كافٍ في أن يسامحهم الله عن كل جرائمهم التي اقترفوها لحساب من يحبون حتى لو تمردوا على الله في حياتهم.

«احتكار» الإيمان

كان البعض يتحدث ويقول: (لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى)^(١)، هكذا يعتقد اليهود أنهم وحدهم يدخلون الجنة ولا يدخلها غيرهم، وكان النصارى

(١) البقرة: ١١١.

يعتبرون أنفسهم أنهم وحدهم أهل الجنة فليس لغيرهم حصّة فيها، الله تعالى يردّ عليهم (تلك أمانيتهم)^(٢)، هذه أحلامهم، وهذه أمانيتهم، وما أنتم إلا خلقٌ ممن خلق الله (فلم يُعذبكم بذنوبكم)^(٣)، فإذا كان غيركم لا يدخل الجنة، فلماذا يعذبكم؟ أنتم بشرٌ كبقية الناس..

وهكذا يرى بعض المسلمين أنهم لا يدخلون النار، حتى ولو كانوا من أشدّ المفسدين والمجرمين في الأرض. وينطلق بعض الناس أيضاً في الدائرة الضيقة من الدائرة الإسلامية من بعض شيعة أهل البيت (ع) ليقولوا إن النار لا تمسّ جسدَ شيعيٍّ لأنّ حبّ عليّ (ع) حسنة لا تضرُّ معها سيئة يعني حبّ محمد (ص) ليس له دور، وحبّ الله ليس له دور، لكن حبّ عليّ: (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ)^(٤)، ونقولها بالطريقة الشعبية «ليس من أحدٍ فاتحٍ على حسابه»، حتى الأنبياء، والأئمة، والعلماء والمجاهدون «لم يفتحوا على حسابهم»، كلّهم ينطلقون من حسابات الله، وحسابات الله كلّها دقيقة جداً: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)^(٥). الإمام الباقر (ع)، يقول: «أفيكفي من ينتحل التشيع أن يقول: أحبّ علياً وأتولاه، ثم لا يكون فعلاً، فرسول الله خيراً من عليّ، أفحسب الرجل أن يقول: أحبّ رسول الله ولا يعمل بسنته، فمن كان ولياً لله، فهو لنا ولي، ومن كان عدواً لله فهو لنا عدو، لا تنال ولا يتنا إلا بالعمل والورع».

علاقة رسالية

وهناك نقطة أحبّ أن تلاحظوها - لأنّ الناس تأخذ الجانب العاطفي - الله تعالى لم يُنزل الرسالات ويبعث الرسل من أجل أن يحصل الرسل على محبة الناس، وإنما أراد

(٤) آل عمران: ٣١.

(٥) الزلزلة: ٧ - ٨.

(٢) البقرة: ١١١.

(٣) المائدة: ١٨.

من الرسل أن يتحییبوا للناس، ويدعوهم لرسالاتهم، لأن ذلك يجعل الناس يسيرون مع رسالاتهم، فالله أرسل كل الأنبياء، وسار وراءهم الأوصياء والأولياء من أجل أن يبلاغوا رسالات الله، وأن يحولوا حياة الناس كلها إلى أن تكون تجسيدا لهذه الرسالات.. وهذا هو المطلوب، حتى الإيمان بالرسل، ليس شيئا مطلوباً بذاته، بل هو مطلوب، لأن الإيمان بالرسل، يؤدي إلى الإيمان بالرسالة، والإيمان بالرسالة، يؤدي إلى اتباع الرسول.. لذلك ليس عندنا حبٌ لشخص مجرداً عن التحرك في خط هذا الشخص، ليس هناك حبٌ منطلقٌ من حالة ذاتية، نحن نحب رسول الله (ص)، لأنه رسوله وعبدته، نحن نحبُ علياً (ع) والأئمة الطاهرين من أهل بيته (ع)، لأنهم أولياء الله، لأنهم والوا الله، فكيف نكون موالين لهم، وموالين لأعداء الله.. ليس هناك شيء اسمه محبة، هناك شيء اسمه موقف، فالشيوعي، معناه التابع، أن تتبع هدى الله (وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ)^(١)، لذلك ليس هناك أية علاقة شخصية بين الناس وبين الأنبياء والأولياء، وإنما علاقتنا بهم علاقة رسالية، علاقة عمل، وعلاقتنا بهم من خلال الله لا من خلال شخصياتهم.

■ ما رأي سماحتكم في مفهوم طاعة الوالدين من خلال الآية القرآنية (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ، وبالوالدينِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغْنِ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفًّا وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا، وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ، وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا). الإسراء ٢٣ - ٢٤.

* موقع الوالدين من الولد، هو موقعُ الإحسان، لا موقع الطاعة.

* الذلُّ للوالدين، ذلُّ الرحمة، وذلُّ المحبة.

* نحبُّ للأبناء والبنات أن يتكاملوا مع آبائهم وأمهاتهم.

* نقول للآباء والأمهات ألا يتعسفوا فيما ينظرون فيه

إلى أبنائهم.

سرّ الوجود

□ في هاتين الآيتين، يريدُ الله سبحانه أن يحدثنا عن موقف الولد من والديه، وما هي علاقته بهما، وكيف يعيش معهما، هل أن الله جعل للوالدين حقَّ الطاعة على الإنسان، في أن يطيعهما في كلِّ ما يأمرانه به، وما ينهيانه عنه، حتى لو كان ذلك على خلاف مصلحته؟ هل أن الله جعل للوالدين حقَّ الطاعة، كما للرسول ولأولي الأمر حقَّ الطاعة، أو أن المسألة ليست كذلك؟

لوالدين على ولدهما حقَّ الإحسان، أن يُحسِنَ إليهما، أن يرعاهما، وأن يُسرَّهما ولا

يؤذيها، بل يتحمل أذاهما، ويصبر على ثقل المسؤولية التي تترتب عليه تجاههما.. أما مسألة الطاعة فلم يجعلها الله للوالدين معنى قانونياً إلزامياً في ذلك.

وعندما ندرس القرآن الكريم، فإننا نجد أن الله سبحانه، أراد للإنسان أن يحس بقيمة والديه في وجوده بشكل مباشر، إلى جانب إحساسه بسرّ الله في وجوده بشكل أساسي، أو غير مباشر إذا صحّ التعبير.

فالله، هو علّة وجوده، والوالدان، هما الوسيلة الآلية في وجوده، ولذلك قرن سبحانه الحديث عن الوالدين بالحديث عنه (وَأَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ)^(١)، أو (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)^(٢)، فتحدّث القرآن عن الله أولاً في تصوّر الإنسان لوجوده، من حيث أنه تعالى هو سرّ وجوده، ثم تحدّث عن الوالدين من حيث أنهما يمثلان آلية وجوده.

الطاعة لله . . والإحسان للوالدين

وقد فرّق القرآن بين موقع الله من الإنسان، وموقع الوالدين منه. فالله أراد للإنسان أن يعبده، وعبادة الله هي الخضوع له في كل شيء، ويتمثل ذلك بإطاعة أوامره ونواهيه، فعليك أن تطيع الله من حيث أن طاعة الله هي مظهر العبادة، أما الوالدان فإنّ عليك أن تحسّن إليهما.. وهذا النوع من التفريق بين الإحسان إلى الوالدين، والعبادة لله التي تختزن معنى الطاعة، يوحي إلينا بأنّ موقع الوالدين من الولد، هو موقع الإحسان لا موقع الطاعة.

ولذلك رأينا في آيات أخرى (وبالوالدين إحساناً).. وقد حدّثنا الله أنّه لا يجوز إطاعتها فيما لا يرضي الله (وإنّ جاهداك على أن تشرك بي، ما ليس لك به علمٌ فلا تطعهما، وصاحبهما في الدنيا معروفاً)^(٣).. فالمطلوب هو الإحسان للوالدين،

(٣) لقمان: ١٥.

(٢) الإسراء: ٢٣.

(١) لقمان: ١٤.

ولذلك لاحظنا أن هاتين الآيتين تتحدثان عن مظهر هذا الإحسان، وعن الروحية التي ينبغي للولد أن يتحلى بها في نظرته إلى والديه، وفي تطلعاته بالنسبة إليهما وفي إحساسه.

ذل الرحمة والمحبة

(إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا، فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٌ) هنا تحدث القرآن عن حالة الكبر، حالة العجز عند الوالدين، لا باعتبار أنها الحالة الوحيدة التي تفرض على الولد أن يرعى والديه، وأن يحسن إليهما وألا يؤذيهما... بل من جهة أن مرحلة الكبر هي المرحلة التي يثقل فيها الإنسان على من حوله، فيبتلى بالأمراض وضيق الصدر وسوء المزاج... مما يفرض أن تكون هناك طاقة مضاعفة من الإحساس بالمسؤولية، بحيث تجعل الولد قادراً على أن يتحمل هذا الثقل وهذه المسؤولية الصعبة، ولذلك يقول سبحانه: (إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا، فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٌ)^(٤)، إذا أضجرك وأزعجك، وقد ذكر كلمة «أف» باعتبار أنها أقل ما يتصور في الإيذاء، فالمقصود بالآية (فلا تقل لهما أف) أي لا تؤذيهما أية أذية مهما كانت صغيرة (فلا تقل لهما أف) إذا أضجرك (ولا تنهرهما) إذا أغضبك، أي لا تتكلم معهما بصوت عالٍ وبكلام قاسٍ (وقل لهما قولا كريماً) لتكون كلماتك مع والديك، كلمات طيبة حلوة، فيها الكثير من كرم اللطف، وفيها الكثير من كرم المحبة، ومن كرم الإحسان (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة)^(٥)، تواضع لهما، تذلل لهما، لا الذل الذي يسيء إلى كرامتك، ولكنه ذل الرحمة، وذل المحبة.. فالله يريد أن يوحى بهذه الكلمات - والله العالم بحقائق آياته - بأن قضيتك مع أبيك ليست فيها حسابات عزّ وذل.. لأن

(٤) الإسراء ٢٣.

(٥) الإسراء ٢٤.

الإنسان عادة عندما يعيش مع الآخرين، مع إخوانه، مع أقربائه، مع معارفه، مع الناس من حوله... فإنه يشعر بأنّ عليه أن يصون كرامته معهم، وأن يحافظ على عزته معهم، وألا يُذلّ نفسه لهم، ولا يسمح لهم بأن يذلّوه. وهذه الحسابات، حسابات الذلّ والعزّ، ليست مع الوالدين.. مع الوالدين، عليك أن تذلّ لهما، إذا سبّك فلا تسبّهما، وإذا نهرك فلا تنهرهما، وإذا أغضبك فلا تُغضبهما، وإذا أذياك فأحسنْ إليهما.. فعشْ معهما عيشة الإنسان الذي لا يُحسّ بوجوده أمام وجودهما، ولا يُحسّ أنّ له كرامةً أمامهما، ولذلك جمع الله بين كلمة الذلّ والرحمة، ليقول، إنّ هذا الذلّ الذي تمارسه أمام والديك، ليس ذلّ النفس أمام مَنْ يُذلّها، ولكنه ذلّ الرحمة، الذلّ الذي تتواضع وتتنازل فيه لهما، وتتحمّل كلّ ما يأتيك منهما رحمة بهما.

المعاملة بالمثل

ثم انطلق إذا رأيت ثقلاً وإزعاجاً ومشكلة وإساءة منهما، تذكّر كيف كانا يحضنانك، إرجع إلى تاريخك وأنت طفلٌ تتعبهما، فيرتاحان لتعبهما من أجل راحتك، يسهران الليل لتنام، ويتعبان لترتاح، ويُعانيان لتستقرّ، ويتحملان كلّ شيء من أجل أن يُطعماك ويسقياك ويلبّساک ويتعهّدك ويمرضّك وما إلى ذلك.. تذكّر ذلك، تذكّر كيف ربّياك صغيراً، وحاول أن تقارن وتوازن بين جهدهما في تربيتك وأنت صغير، وبين ما تقدمه إليهما وهما كبيران، إنك إذا دخلت في عملية مقارنة، فإنّ النتيجة سوف تكون لحسابهما وليس لحسابك.

وقد ورد أنّ شخصاً جاء إلى رسول الله (ص)، وحدثه كيف أنّه يرعى أبويه بأقصى درجات الرعاية، فهل هو يؤدي حقّهما فيما قام به؟ وكان جوابُ الرسول (ص) أنّ الفرق بينه وبين والديه، أنّ والديه كانا يخدمانه وهما يتمنيان حياته، أما هو فيخدمهما وهو ينتظر موتهما، وهذا هو الفرق بينه وبينهما.

حدود الطاعة الشرعية

ولكن لا بدّ أن نفهم أنّ الحكم الشرعي في إطاعة الوالدين، أنّه لا يجب إطاعتُهما في كلّ ما يأمران به أو ينهيان عنه مطلقاً.. الوالد والوالدة لا يمثلان جهة تشريعية.. بحيث أنّك ملزّم بأن تنفذ أوامرهما ونواهيهما، كما تنفذ أوامر أولي الأمر، وكما تنفذ أوامر الرسول، أو أوامر الله.. ليسا جهة تشريعية يفرض عليك الشرع أن تنفذ أوامرهما، ولذلك لو فرضنا أنّ الأبوين أمرا ولدهما بأن يتخصّص في العلوم، وهو يرغب أو يرى مصلحته في أن يتخصّص في الآداب، لو أمرا ولدهما أن يتاجر بالقماش، وهو يرى أنّ مصلحته أن يتاجر بالكهربائيات، لو أمرا ولدهما أن يهاجر إلى بلد معين، وهو يرى مصلحته، سواء كانت دينية أو اقتصادية أن يبقى في بلده، فلا تجب الطاعة.

ولو أمراه أن يقاطع فلاناً المؤمن، وهو يرى فائدة بصحبة أخيه المؤمن، أو نهياه عن أن ينطلق مع الجوّ الإيماني، كما يفعل بعض الآباء الذين لا يريدون لأبنائهم أن يعيشوا الجو الإسلامي مع المؤمنين العاملين في سبيل الله، أو إذا أمراه أن يعادي بعض مَنْ يعاديانه، وهو لا يرى أساساً للعداء، أو يصادق مَنْ يصادقانه، وهو لا يرى أساساً للصدقة، بل يرى في ذلك إشكالاً، فلا يجب أن يتقيّد بما ينهيانه عنه.

الأب والأم لا يمثلان الجهة الشرعية المسلّطة على حياة الولد من حيث المبدأ، ولكن الواجب على الولد أن يطيعهما في الأوامر الإشفاقية، أي فيما تكون المعصية مؤذية لهما من الناحية العاطفية، مثلاً، إذا أراد الولد أن يخرج في جوف الليل إلى مكانٍ فيه خطرٌ على حياته، أو يذهب في طريق ربما يُواجه فيه ضرراً بالغاً أو ما إلى ذلك، مما يُثقل عاطفة أبويه، هنا عليه إطاعتُهما، وهذا ما يُسمّى بالأوامر الإشفاقية، باعتبار أنّ عدم الإطاعة يُوجب إنقال عاطفتها، وإرهاق نفسيتهما، وإيذاءهما، وهذا مما لا يجوز.

ولكنّ، هناك بعض الآباء يجبر الولد على أن يتزوج بابنة عمه، وهو لا يجد مصلحة في

الزواج من ابنة عمه، أو من ابنة فلان الغني.. بل يرى مصلحته في الزواج من فتاة أخرى.. من الناحية الشرعية إذا رأى الولد أن أباه يفرض عليه زواجا لا مصلحة فيه، فلا يجب عليه طاعة والده، وكذلك الفتاة في هذا المجال لا يجب عليها أن تطيع أمها أو أباهما بالزواج من إنسان تعتقد أنها لا تستطيع أن ترى السعادة معه، لأن الحياة هي حياتها، وليست حياة أمها وأبيها.. حتى أن العلماء الذين يحتاطون بالنسبة لابكر، إذا كان أبوها موجوداً، أو كان جدّها لأبيها موجوداً، يعتبرون أنه لا بدّ من استئذانها في الزواج، وليس هناك مَنْ يقول بأن الأب يجوز له أن يجبر البنت على الزواج من غير رضاها.. نعم، لا يجوز لها احتياطاً أن تتزوج من دون إذن أبيها، لكن لا يجوز لأبيها أن يزوجه من دون رضاها، ولو أن الأب زوج ابنته من دون رضاها، فالزواج باطل، وإذا منعها من الزواج بكفو، ولا كفؤ غير من اختارته فلها أن تتمرد.

توازن التطلعات

طبعاً، نحن نحبّ للأبناء والبنات أن يتكاملوا مع آبائهم وأمهاتهم، وأن يحسنوا إليهم ويتفاهموا معهم، ونقول للآباء والأمهات أيضاً ألا يتعسفوا فيما ينظرون فيه إلى أولادهم وبناتهم، بل على الأب والأم أن يفهما أن الحياة هي لابنتهما، وأن عليها أن تدخل حياة زوجية تقتنع بها، وأن الولد لا بدّ أن يدخل حياة زوجية يقتنع بها.. ولذا فإنّ هناك الكثير من المشاكل تنطلق من ضيق أفق الوالدين، كأنهما يعتبران الولد قطعة أثاث يملكانها.. أبداً، الولد إنسان، كما الأب إنسان، وكما يريد الله للولد أن يتذكر كيف كان صغيراً، وكيف كان أبواه يرعيانه، فعلى الأب والأم أن يفكرا كيف كانا شابين عندما أرادا أن يتزوجا، هل كانا يقبلان أن يفرض عليهما من قبل الأب والأم ما لا يريدانه.

المهم، من ناحية شرعية، لا تجب إطاعة الوالدين فيما يجد الولد أو البنت أن لا مصلحة لهما في ذلك، ولكن إذا أرادا (الولد أو البنت) أن يضحيا فلهما الأجر العظيم..

ومثالُ التضحية، لو أنَ ولدًا غير مقتنع بأنَ هذا الأمر الذي يطلبه منه أبوه أو أمه له مصلحة فيه، ومع ذلك ينزل عند رغبتهما، فله الأجر العظيم.. حتى أن بعض الأحاديث تقول: «أنت ومالك لأبيك»، فإنها تعتبر أن عليك أن تبذل نفسك لأبيك لأنك منه، وعليك أن تبذل مالك لو أرادته منك، حتى في بعض الحالات «ووالديك فبرهما حين كانا أو ميتين، وإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك فافعل».. هذا ليس وارداً على نحو الوجوب.. لكن لتكن لديك الروحية العالية المنفتحة على والديك.. بحيث يكون عندك استعداد، لو أمراك أن تخرج من زوجتك ومالك فافعل.. طبعاً، هذا يمثل أعلى درجات التضحية، ولكن لا يجب عليك ذلك.

وما ذكرناه، ذكره كثيرٌ من العلماء، ومنهم السيد الخوئي (قده) الذي كان يقول في كثير من الاستفتاءات، إن الواجب هو الإحسان إلى الوالدين وليس الواجب هو الطاعة للوالدين، ونحن نوافق السيد (رحمه الله) على ذلك.

■ ما دلالة الحديث القدسي: «عبدى أطعني تكن

مثلي»؟

خصوصية كل لغة

□ إن الأحاديث القدسية قد تكون منطلقة مما بقي لنا من الكتب السابقة، إمّا من الكتب التي بقي لنا بعضها، كالإنجيل، والتوراة، وإمّا من الكتب التي لم تبق لنا في كيانها «الكتابي»، مثل صحف إبراهيم (ع)، أو ما يُقال عن صحف إدريس (ع)، وما إلى ذلك.

ومن الطبيعي أن هذه الأحاديث على تقدير صحتها، تُرجمت من اللغة الأصلية التي نزلت بها إلى اللغة العربية، وقد لا تكون الترجمة دقيقة في الكثير من الحالات، لأن المترجم قد ينقل معنى الكلمة في اللغة، ولكن من الصعب أن ينقل أجواء اللغة، فلكل لغة أجواؤها، ولكل لغة إحياءاتها وطريقتها في التعبير، ولذلك من الصعب جداً أن نجد ترجمة دقيقة لأي أثر فكري، سواء كان دينياً أو غير ديني.

معنى الحديث

وفيما أفهمه من هذا الحديث، فإنّ الله، يقول للإنسان، أطعني، فإنّك إذا أطعنتي، قُربت إليّ، وإذا قُربت إليّ كنتَ مهيناً، لأن أعطيك ما تريد، فأنا على كل شيءٍ قدير.. ومن الممكن أن أجعلك تقول للشيء: كن فيكون، كما جعلت ذلك لعيسى (ع)، عندما أبرأ الأكمة، وشفى الأبرص، وأحيا الميت.. ولكن ليس معنى ذلك أن الطاعة تستلزم هذه القدرة، وليس كل من أطاع الله حصل على هذه القدرة، ولكنها قد تكون كناية على أن الإنسان، إذا أطاع الله كما يجب أن يُطيعه في قدرته، كان ولياً لله، ومن كان ولياً لله فإنّ

الله يمكن أن يعطيه القدرة التي يستطيع من خلالها أن يقول للشيء: كن فيكون.. وليس من الضروري أن يكون تعبير «مثلي» دقيقاً، لأنَّ الإنسان - وحتى الأنبياء - عندما يمارسون القدرة، فإنما يمارسونها بإذن الله (وَأُبْرِيءُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ)^(١)، فالله تعالى ليس كمثل شيء، لذلك كلمة «مثلي» ليست دقيقة، وأظنَّ أنَّها تحملُ خللاً في الترجمة.

(١) آل عمران: ٤٩.

■ ما هي منزلة إبراهيم الخليل (ع) عند الله، وهل نبوته عامة وعالمية؟

إبراهيم (ع) في القرآن

□ عَظَّمَ اللهُ تَعَالَى نَبِيَّ اللهِ إِبْرَاهِيمَ (ع) فَقَالَ سُبْحَانَهُ: (وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا)^(١)، وقال تعالى: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ)^(٢)، هذا هو الجوّ الذي يُضْفِيهِ القرآن على إبراهيم (ع)، وذلك من خلال الروحانية التي عاشها (ع)، ولم يذكر سبحانه لنا أيّ شيء سلبي بالمعنى الذي يُسَيءُ إلى روحانيّته.. وقد ذكر القرآن نقطة سلبية واحدة، عندما جاءت الملائكة التي أرسلت لتعذيب قوم (فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَرَهُمْ وَأَوَّجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً)^(٣). وهذا تعبيرٌ عن الجانب الإنساني في النبي الذي لا يضرّ بعصمته، ولا يُنافي في الكمال، فأن يخاف النبي من عقرب، أو من جماعة فلا مشكلة في ذلك، وغاية الأمر أن هذا الخوف لا يستقرّ في نفسه، وإنما يتبدّل بأمنٍ في هذا المقام.

نبوة عامة

أما مسألة أن نبوة إبراهيم (ع) عامة، فإننا عندما نقرأ القرآن الكريم، نجد أن نبوته ليست فقط عامة للناس في زمانه، بل لكلّ الأنبياء (مِلَّةٌ أَيْكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ)^(٤)، (إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمُ، قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)^(٥).

ويبدو من خلال القراءة القرآنية الواعية، فكرة، أن الإسلام، أنه إسلام العقل

(٥) البقرة: ١٣١.

(٣) هود: ٧٠.

(١) النساء: ١٢٥.

(٤) الحج: ٧٨.

(٢) هود: ٧٥.

والقلب والوجه واليد واللسان لله سبحانه وتعالى، وهذا الإسلام هو اختصاراً لكلّ التفاصيل التي جاءت بعده (مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ) وكأنّه (ع) وصّى بها، مما يدلّ على أنّ الله أراد من إبراهيم (ع) أن يركّز قاعدة الرسالات القادمة، التي قاعدتها الإسلام، ولذا (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ)، وقال سبحانه أيضاً: (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا، فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ)^(٦)، وليس المقصود بالإسلام بالمعنى المصطلح، الدين الإسلامي، أبداً، المقصود هو الإسلام لله (إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمِ، قَالَ أَسْلَمْتُ لربِّ الْعَالَمِينَ).

شمولية

على هذا، فالذين اتبعوا إبراهيم (ع) كانوا مسلمين، لأنّ الإسلام كان يتمثل برسالة إبراهيم، والذين اتبعوا موسى (ع) كانوا مسلمين، لأنّ الإسلام تمثّل بما أنزله الله على موسى (ع)، وهكذا بالنسبة للنبي عيسى (ع) ولرسول الله محمد (ص). فمعنى الإسلام، معنى شامل (قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ)^(٧)، لذلك نحن نفهم أنّ رسالة إبراهيم (ع) هي عنوان كلّ الرسالات، وتختصرُ تفاصيل الرسالات، بحيث تكون الرسالات خطوطاً تفصيلية لهذا الخطّ العام، وهو خط الإسلام.

■ الإسراء والمعراج، هل هي عملية تمت بالروح والجسد بالنسبة لرسول الله (ص)، أم فقط بالروح؟

□ ظاهر القرآن أنها تمّت جسدياً (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا)^(١)، الظاهر أنه أسري به (ص) لا بروحه، والظاهر أيضاً: (لنريه من آياتنا) حتى يعيش (ص) التجربة البصرية، فيتسع أفقه لكل ما أراد الله له أن يعرفه من آيات.

وهكذا، عندما نقرأ السنة النبوية التي تتحدث عن المعراج، فإنها تتحدث عن معراج ماديّ، وهو أمر ليس مستحيلاً، بل هو ممكن في قدرة الله تعالى. أمّا كيف كان ذلك، وما هي المناطق التي استطاع أن يخترق بها السماء، وأي سماء هي؟ هذه أمور لا نعرفها، فالظاهر إذاً أن الإسراء والمعراج، هو ماديّ وليس روحياً، لم يعيش النبي (ص) الإسراء والمعراج في الحلم، ولم يعيش ذلك في تطلعاته وتصوراتهِ وانطلاقة روحه، وإنما عاشها من خلال تجربته الإنسانية، ولا دليل يدلّ على خلاف ذلك.

■ قد يتوفى الله سبحانه إنساناً في عمر معين
وذلك رحمةً به، حتى لا يقع في المعاصي ولا يدخل
النار، لماذا لا يتوفى الله إنساناً آخر، سوف يرتكب
آثاماً في حياته، وبالتالي سيدخل النار.. فهل هناك
شك في عدل الله؟

□ مَنْ قال، إن الله عندما يتوفى إنساناً في عمر مبكر، فإنه يتوفاه رحمةً به، حتى لا يعصي؟ هذا كلامٌ غيرٌ صحيح، الله سبحانه يتوفى الناس من جهة حكمته، وبحسب القوانين التي أودعها في الكون التي قد تؤدي إلى موت إنسانٍ بالأسباب الطبيعية المرتبطة بالله سبحانه. أما مسألة أن الإنسان إذا تقدّم في العمر فإنه يعصي الله، مسألة غير واقعية، لأنه يعصي باختياره، ولا يعني ذلك أن الإنسان كلما طال عمره، فلا بد أن يعصي «غصباً» عنه، لا، بل باختياره ويعاقبه الله على هذا الأساس، لأنه كان قادراً على عدم اقتراف المعصية.

أما قضية عدل الله، فإنه سبحانه عادلٌ في كلِّ شيءٍ، عادلٌ عندما يعطي، وعادلٌ عندما يمنع، وعدالتهُ الله تعني، أنه لا يعاقبك على شيءٍ لم تختره.. ومجرد امتداد عمرك، لا يعني أنك لا بد أن تعصي. فبعض الناس امتدَّ عمرهم، وأطاعوا الله وهم مثلك.. إذاً مجردُ العمر، لا يعني حتمية القيام بالمعصية، حتى يُقال، إن الله أطال عمر فلان فأوقعه في المعصية.. فالطاعة باختيارك والمعصية باختيارك:

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ، إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)^(١).

□ الخلاقيات:

- * الفساد.
- * الفسق.
- * السخرية.
- * السبّ واللعن.
- * الإستقامة.
- * النفس الأمارّة بالسوء.
- * التكبر.
- * الظلم.
- * إفشاء الأسرار.
- * خرق النظام العام.
- * المزاح.

■ برأيكم كيف يرتبط الفساد بالاستعلاء؟

* لا بدّ للإنسان أن يتواضع لله في نفسه ليركز نفسه على مواقع رضا الله.

* ولا بدّ أن يتواضع لله في علاقته بغيره، وفي علاقته بالحياة حتى يستطيع أن يتوازن في حياته.

اختصار المشكلة

□ يجمع الله بين مسألة الاستعلاء ومسألة الفساد، ولذلك جعل سبحانه مشكلة العالم، مشكلة استكبار واستضعاف.. بعض الناس يقول، إنّ المشكلة في العالم هي مشكلة عمال ورؤساء المالين، كادحين وإقطاعيين.. لا، فالقرآن يختصر كل التاريخ، هي مشكلة الاستضعاف والإستكبار.. أن تكون مُسْتَضْعَفًا، وأن يكون هناك مستكبر، يحاول أن يضغط عليك، على عقيدتك، على حركتك، على حريتك، وعلى مواقع العدالة عندك.

وقد ركّز القرآن الكريم، في أكثر من آية على توعية المستضعفين، وبأنّ عليهم أن يعملوا على أساس أن يحرّكوا مواقع القوة عندهم ضدّ المستكبرين، وأنذرهم بالعذاب إذا استضعفوا أنفسهم بالطريقة التي يسقطون فيها تحت تأثير المستكبرين مع قدرتهم على مواجهة ذلك: (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ، قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ، قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ)^(١)، لماذا كفرتم؟ لماذا انحرقتم؟ ولماذا سرتم في الطريق الخطأ؟ كنا مستضعفين في الأرض: (قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً

(١) النساء: ٩٧.

فَتُهَاجِرُوا فِيهَا^(٢)، كان بإمكانكم أن تخففوا من ضغط المستكبرين، فإذا لم تملكوا التخفف من ضغط المستكبرين - الذين يُلغون حريتكم، ويسقطون إرادتكم، ويزورون قراركم، ويبعدونكم عن الحق - هاجروا، وخذوا القوة من الخارج، وارجعوا أخيراً (ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها، فأولئك ماواهم جهنم، وساءت مصيراً).

ويحدثنا الله عما ينتظر المستضعفين في الآخرة، فيقدم لنا مشهداً حوارياً بين المستضعفين وبين المستكبرين، ليعرف المستضعفين أن المستكبرين سوف يخذلونهم ولن ينصروهم، ولذلك عليهم أن يتدبروا أمرهم في الدنيا، في مواقفهم الحاسمة منهم، قبل أن يقفوا ذلك الموقف الحاسم الذي لن يكون في مصلحة مصيرهم في الآخرة.

لاحظوا هذا المشهد (ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم).. الله تعالى يطلّ بعظمته عليهم وهم في موقف الحساب، يستعدون لمواجهة المصير النهائي... وهذا التعبير (موقوفون عند ربهم) يُشعرنا أن كل هذا المجتمع يقف عاجزاً من دون أن يملك أية قوة أمام الله، ربّ السموات والأرض، القاهر فوق عباده. ويرجع بعضهم إلى بعض القول (يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكانا مؤمنين)^(٣)، أنتم ورطتمونا، أنتم أضللتمونا، أنتم انحرقتم بنا عن الطريق، أنتم فتحتم لنا أماكن اللهو والفجور، وعلمتم على أن نعصي الله في خمرٍ نشربه، أو في قمارٍ نلعبه، أو في ظلم نمارسه، لو أنكم تركتمونا على فطرتنا، لانطلقنا في الصراط المستقيم: (لولا أنتم لكانا مؤمنين، قال الذين استكبروا للذين استضعفوا، أنحن صددناكم عن الهدى)^(٤).. هل نحن منعانكم؟ ألم يعطكم الله عقولاً؟ ألم يعطكم وسائل للمقاومة؟ ألم

يعطكم الله فُرصاً لأن تبتعدوا عنا؟ (بل كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ)^(٥)، أنتم مجرمون أساساً، الجريمة متأصلة فيكم، وإلا لو لم تكونوا مجرمين لما اتبعتمونا، وأنتم تعرفون أننا مجرمون، لو لم تكونوا تُحِبُّون الظلم في نفوسكم لما سِرْتُم وراعنا وأنتم تعرفون أننا الظالمون.

هذا هو حال المستكبرين، سواء كانوا رؤساء، أو ملوكاً، أو وزراء أو زعماء، أو شخصيات اجتماعية أو اقتصادية، يقول لك الواحد منهم، أنت اتبعني لمصلحتك، فلا تحملي مسؤوليتك، أنت عندك مشكلة مع صاحبك، تريد أن تستعين بي على صاحبك، فأنت ظالم وتحاول أن تستعين بظالم أكبر، لتظلم إنساناً آخر.

مصير واحد

هذه الآية وغيرها، تحذّر الإنسان عندما يريد أن يرتبط بأي شخص يملك قوة تتحرك في خط الانحراف العقيدي، أو السياسي أو الأمني، أو غير ذلك، بأن عليه أن يحسب حسابه جيداً، وأنّ اتباعه لإنسان، وتعبّبه له، وقتاله من أجله، في الوقت الذي يعرف فيه أنّ هذا كافر بالله، أو منحرف عن طريق الله، وأنه يتحرك في خط استضعاف عباد الله، وفي ظلم الضعفاء منهم... لا بدّ أن يعرف أنّ مصيره هو مصير هذا الإنسان.

وهذا درس قرآني يريد الله لنا فيه أن يعرض الصورة في الآخرة، من خلال الموقف في الدنيا، حتى نستطيع أن نواجه القضية بطريقة واعية جداً. وإذ يتحاجون في النار، (فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا، إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً، فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَدُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ)^(٦)، هل تتحمّلون مسؤوليتنا عن قسم من النار؟ كان الجواب هنا، استسلام المستكبرين (إِنَّا كُلٌّ فِيهَا، إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَّمَ بَيْنَ الْعِبَادِ)^(٧)، فكلّ يتحمّل

(٧) غافر: ٤٨.

(٦) إبراهيم: ٢١.

(٥) سبأ: ٣٢.

مسؤولية عمله، نحن نتحمل مسؤولية ضلالتنا وإضلالكم، وأنتم تتحملون مسؤولية استجابتكم لإضلالنا لكم. وفي آية أخرى: (إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا، وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ)^(٨)، العلاقات الحزبية، والعلاقات السياسية والطائفية، كلها تقطعت (وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبراؤا منّا، كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار)^(٩).

هذه الآيات تمثل أساليب في التوعية الاجتماعية، والتوعية السياسية، حيث أنها تريد للإنسان في الحياة ألا يستسلم للأجواء العاطفية، أو للأجواء السياسية الانفعالية، أو للأجواء العائلية، بل أن يدرس الأمور على أساس حساب الربح والخسارة، لا على مستوى الدنيا وحسب، ولكن على مستوى الدنيا والآخرة.

خوفاً من الاهتزاز

هذا ما يركز لنا الموقف، فإذا انحرفنا عنه، فإن الموقف يهتز، لأن كثيراً من الناس يتحدثون ويفكرون في أرباح الدنيا وخسائرها.. إذا مشيت مع فلان، والدنيا مقبلة عليه، فسأحصل على بعض دنياه، وإذا مشيت مع فلان ومعه الحق، والدنيا مدبرة عنه، فسأخسر ما خسره في دنياه.

لا بد للإنسان أن يفكر، أن هذا الإنسان الذي أقبلت عليه الدنيا، قد تدبر هذه الدنيا عنه، الدنيا «كالدولاب».. في مدينة الألعاب تضع الولد في الأسفل، فيرتفع إلى الأعلى، وبعد ذلك «ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع».. وقول الله أصدق من كل قول: (وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)^(١٠)، لذلك كُنْ مع الله، حيث يبقى «الدولاب» مرتفعاً إلى الأعلى، فالله هو الذي يملك حركة «الدولاب» (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ، تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ

(٨) البقرة: ١٦٦.

(٩) البقرة: ١٦٧.

(١٠) آل عمران: ١٤٠.

تَشَاءُ، وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ، وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ، إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ^(١١)..

لا بُدَّ للإنسان أن يتواضع لله في نفسه، ليركز نفسه على مواقع رضى الله، ولا بُدَّ أن يتواضع لله في علاقته بغيره، وفي علاقته بالحياة، حتى يستطيع أن يتوازن في حياته، نقرأ في دعاء كميل: «وفي جميع الأحوال متواضعاً».. عليك أن تكون الإنسان الذي يتحرك في الحياة، من موقع التواضع لله في كلِّ موقع يريد الله للإنسان، أن يؤمن بالحقيقة، ويقف مع الحقِّ ضدَّ الباطل، وألَّا يستكبر، حتى لا تأخذه العِزَّةُ بالإثم.

(١١) آل عمران: ٢٦.

■ ما موقف سماحتكم من مسألة الفساد الأخلاقي المستشري في بعض المؤسسات الجامعية، والحفلات التي تُقام فيها؟

- * إنَّ بعض الناس يُطلق للمرأة حرية التبرجّ والدخول في المجتمعات الالهية فإذا انحرفت انطلقت مسألة الشرف والعفة.
- * إننا نعيش في فوضى القيم وفوضى المفاهيم، فناخذ شكليات السلوك الغربي المنطلق من قاعدة فلسفية لا نُؤمن بها.

مخاطر التفلّت

□ بالنسبة إلى ما أثير من الفساد الأخلاقي، فإننا نتصوّر أنّ هذا الأسلوب من حركة الحرية في هذه الجامعة أو تلك الجامعة، ينطلق من قاعدة سياسية، ولا ينطلق من قاعدة ثقافية فكرية، لأنني أتصوّر أنّ هناك في بعض الجامعات الموجودة في البلد أو خارجه، خطة من أجل تغيير المناخ الثقافي الأخلاقي للناس، حتى تبعدهم عن أصالتهم وعن خصائصهم الأساسية في هذا المجال. ولو أردنا أن ندرس داخل هذه الجامعة، وندرس المناخ الاجتماعي الذي يمثله طلاب هذه الجامعة، والمناخ الذي يمثله المجتمع كله، والذي ينتمي إليه هؤلاء الطلاب، لرأينا أنّ هذا الأسلوب في الحفلات، لا ينسجم مع الجو الاجتماعي والجو الثقافي الأخلاقي.

أنا أتساءل: لو أنّ مثل هذه الحفلات أدّت إلى علاقة غير شرعية بين شاب ينتمي إلى هذه العائلة، وفتاة تنتمي إلى تلك العائلة العريقة، أو لو حدثت هناك بعض الأوضاع

اللاأخلاقية، فهل أن المجتمع «يهضم» مثل هذا؟ هل أننا نعيش في مرحلة نحتاج فيها إلى أن نقوم بثورة في المسألة الجنسية، وفي المسألة الأخلاقية؟

قاعدتان أخلاقيتان

إنني أتصور أن مثل هذه الحفلات لا تنسجم مع الجو الاجتماعي، ولذلك فإن على المجتمع أن يعمل على حماية نفسه. لقد قلت مرة وأنا أتحدث عن مسألة الحجاب وغير الحجاب: هناك قاعدتان أخلاقيتان، تتنازعان الذهنية العامة في المسألة الأخلاقية، هناك قاعدة تقول: بأن الإنسان حرّ يمارس حريته المطلقة في كل شيء، وهناك قاعدة تقول: بأن هناك قاعدة أخلاقية تمثل التوازن والضوابط الأخلاقية.

عندما نلتزم بالقاعدة الأولى من ناحية فلسفية فإن علينا ألا نطرح أية محرّمات إلا ما يُسيء للنظام العام، علينا أن نُشجّع العري، والإنفلات الجنسي، وألا يحاسب إنسان إنساناً على أي شيء من هذا القبيل، لأن الإنسان حرّ في جسده، من دون فرق بين أن يكون هذا الإنسان مراهقاً أو بالغاً رشيداً.

أما إذا أردنا أن نلتزم وجود ضوابط في علاقة الرجل والمرأة، ووجود ضوابط في حرية الإنسان في جسده وفي حياته، فإن من الطبيعي أن نفرض الخطوط التفصيلية التي تحفظ لهذه الضوابط توازنها. وعلى ضوء هذا، فإن المشكلة التي نعيشها في الشرق، هي أن بعضنا يحاول أن يبقي في التزامه المفاهيم الأخلاقية مثل الشرف والعفة وما إلى هنالك من مفردات في هذا المجال، ويأخذ بالأساليب الغربية المنطلقة من قاعدة الحرية المطلقة. وهذا ما نلاحظه عند بعض الناس عندما يُطلق للمرأة كلّ حرية التبرج والدخول في المجتمعات اللاهية والعاثية والراقصة، حتى إذا انحرفت انطلقت مسألة الشرف والعفة:

لا يسلمُ الشرفُ الرفيعُ من الأذى حتى يُراقَ على جوانبه الدّمُّ

وتنطلق العشيرة والعائلة وما إلى ذلك.. إننا نعيش في فوضى القيم والمفاهيم، فنأخذ
شكليات السلوك الغربي المنطلق من قاعدة فلسفية لا نؤمن بها، ولذلك يكون موقف
الشباب والفتاة كما قال ذلك الشاعر:

ألقاهُ في اليمِّ مَكْتَوْفًا وَقَالَ لَهُ إِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَبْتَلُ بِالْمَاءِ

■ برأيكم، كيف يترك موضوع الفسق تأثيراته السلبية على الإنسان والمجتمع، وكيف تناول القرآن هذه المسألة؟

الفسق العقيدي

□ في أكثر من آية يتحدّث الله سبحانه وتعالى عن الفسق والفاسقين، ويعتبر أنّ الفسق مرفوض من الله بجميع ألوانه، وأنّ الفاسقين لا يهديهم الله ولا ينظر إليهم، ولا يبالي بهم، بل يعذبهم عذاباً شديداً في الآخرة.

وإذا أردنا أن نستنتق كلمة «الفسق» بحسب معناها العميق، فإنّ هذه الكلمة تشمل كلّ موارد الانحراف عن الله، وعن أوامره ونواهيه، وتشمل الانحراف عن الحق في العقيدة والشريعة، وفي المنهج والحركة والعلاقات.. وإذا أردنا أن ندخل في التفاصيل، فإنّ هناك فسقاً في العقيدة، وهو يعني الكفر بالله سبحانه، لأنّ الفسق هو الخروج عن الخطّ المستقيم في الحق، وفي العدل، وفي الواقع، ولذلك فإنّ الكفر بالله يُعتبر مورداً من موارد «الفسق العقيدي» وهذا ما أراده الله بقوله: (أَقَمْنَ كَانِ مُؤْمِنَاتٍ كَمَنْ كَانِ فَاسِقَاتٍ لَا يَسْتَوُونَ)^(١)، فإنّ المقصود بالفسق هنا أنّه ضدّ الإيمان.. وهكذا في الآيات الكثيرة التي وردت: (كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)^(٢)، فالمراد بالفسق في هذه الحالة، هو الخروج عن الإيمان بالله - الذي يؤكد العقل وتؤكد الفطرة - إلى الكفر. وبهذا يمكن أن نطلق على هذا الإنسان الذي يفقد الإيمان بالله كلمة الفاسق، كما أطلقها القرآن عليه، ويمكن أن نطلق عليه كلمة الكافر أيضاً لأنهما يلتقيان في المعنى.

(٢) يونس: ٣٣.

(١) السجدة: ١٨.

الفسق العملي

وهناك فسقٌ آخر، وهو الفسق العملي في خطّ المعاصي الذي يقوم به الإنسان، لذلك، فالذين يتركون الصلاة والصوم والحجّ والخمس والزكاة، وغيرها من الواجبات، يمكن أن نطلق عليهم اسم الفاسقين، لأنهم خرجوا عن طاعة الله إلى معصيته وانحرفوا عن الله سبحانه، فالذي يترك الصلاة فاسق، والذي يترك الصوم والحجّ والخمس والزكاة فاسق، بلحاظ أنّه انحرف عن خطّ الله سبحانه.

وهكذا نجدُ أنّ الله تحدّث عن فعل بعض المحرمات بأنّه فسق، مثلاً، (وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ)^(٣)، فالإنسان الذي يأكل اللحوم التي لم تُذكَرْ، ولم تُذبح بالطريقة الشرعية، أو الإنسان الذي يتجرأ على أكل اللحوم المستوردة من بلدان غير إسلامية، أو مذبوحة على غير الطريقة الإسلامية، هذا يمارسُ الفسق، وبذلك يكون فاسقاً على هذا الأساس. ونحن نعرف أنّ هناك أناساً يجدون اللحوم غير المذكّاة أرخص من اللحوم المذكّاة، فيشترون عُلب اللحم، أو اللحم المجمّد، هؤلاء بحكم القرآن فسقة.. فانت توفّر على نفسك مقداراً من المال، وتمنحُ نفسك عند الله لقب الفاسق، فأيّ ربحٍ ربحته في هذا المجال؟

رهي المحصّنات فسق

كذلك عبّر الله عن الفاسقين بالذين يرْمُونُ الْمُحْصَنَاتِ، من دون أن تكون لهم حجةٌ على ذلك، ككثيرٍ من النَّاسِ الذين يتَّهَمُونَ الْمُحْصَنَاتِ بِالزِّنَا، بحيث لو طُلبوا أمامَ الشرع ليثبتوا ذلك لأقاموا «الحجة» من خلال الظن، أو من خلال الانطباعات، من دون أن يروا الفعل رؤية العين المجردة، فالله عبّر عن هؤلاء بأنهم فاسقون. يقول سبحانه: (وَالَّذِينَ

(٣) الأنعام: ١٢١.

يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ، ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءِ^(٤)، ليس عندهم أربعة شهود رأوا العملية الجنسية بالعين المجردة وبتفاصيلها، بل نتيجة الظن والحدس والتخمين، أو نتيجة وضع يوحى بالريبة، فقالوا، إن فلانة زانية، أو إن فلاناً زانٍ، فإن ذلك لا يثبت شرعاً، ولنسمع ما يقول الله سبحانه، حتى نعرف كم شخص يحتاج إلى الجلد، عندما يتهم الزوج زوجته بالزنا من دون حجة، أو عندما يتهم الأخ أخته بالزنا من دون حجة، أو عندما يتهم الأب ابنته بالزنا من دون حجة، هؤلاء كم جلدة يحتاجون؟ هذا كلامُ الله: (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ، ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءِ، فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)^(٥)، إذاً، كُلُّ إنسان يتهم امرأة مُحْصَنَةً بِالزَّنا من دون حجةٍ شرعية، فالله يقول عنه، إنه فاسق، وإذا كانت يد الشارع مبسوطه، فإن الشارع لا بُدَّ من أن يجلده ثمانين جلدة، وإذا أراد أن يشهد في أية محكمة فلا تُقبل شهادته، لأنه لا تُقبل شهادة الفاسق، ولأن الله لا يريد لأعراض المؤمنين والمؤمنات أن يتحدث الناس عنها بسهولةٍ من خلال ظنٍّ أو وهمٍ أو عقدةٍ أو غير ذلك. ومن الأمور التي تُوجب الفسق (وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)^(٦).

الحاكم المنحرف فاسق

فالحاكم إذا حكم على أساس القوانين الوضعية غير الإسلامية، فهو يُعتبر فاسقاً في هذا المقام لأنه انحرف عن خط الحكم بشريعة الله، ومن هنا فإن القضاء الذي يؤدي إلى حكمٍ بغير شريعة الله، يُعتبر صاحبه فاسقاً. وعلى هذا يقولُ الله تبارك وتعالى عن الفاسقين: (وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ، كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا، وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ)^(٧).

(٦) المائدة: ٤٧.

(٤) النور: ٤.

(٧) السجدة: ٢٠.

(٥) النور: ٤.

■ السخرية، آفة موجودة في المجتمع، من أين تنشأ، وكيف عالج القرآن الكريم هذه الآفة؟

* عندما نفهم أنفسنا جيداً، ونفهم الناس جيداً، لن نحتقر أحداً ولن نسخر من أحد.

* الإنسان عندما يسخر من الآخرين، الذين هم أضعف منه، وعندما يكسر قلوبهم، فإن الله قد ينتقم لهؤلاء، فيدخله في ظروف قد يكسر فيها حياته، لا قلبه، وقد يبنتليه ببلاء أكثر من بلاء الآخرين.

تضخم الذات

□ إن الإسلام يريد للمجتمع الذي يعيش فيه الأفراد مع بعضهم البعض على أساس حاجتهم لبعضهم، وتفاعلهم واستفادتهم من بعضهم، يريد تكامل الأفراد في طاقاتهم وخبراتهم وتجاربهم، بالمستوى الذي يمكن أن يحقق القوة التي هي مزيج من هذه القوى، لذلك أقام الإسلام المجتمع على أساس الاحترام، احترام الأفراد لبعضهم، بحيث يشعر الإنسان بأنه فردٌ يحترم الآخرون مشاعره وأحاسيسه وظروفه وأوضاعه ونقاط ضعفه، ليستطيع التحرك من موقع إيجابي يشعر فيه بأن المجتمع مخلص له، فيزيده ذلك إخلاصاً لمجتمعه.

وهناك في القرآن الكريم عدة خطوطٍ تفصيلية لمبدأ الاحترام الإجتماعي، من بين ذلك، رفض السخرية (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قومٌ من قومٍ عسى أن يكونوا

خَيْرًا مِنْهُمْ، وَلَا نِسَاءً مِنْ نِسَاءِ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ^(١). وموضوع السخرية، هو من الموضوعات الموجودة في تاريخ الإنسانية، ولا يزال موجوداً في زماننا. أما من أين تنشأ السخرية؟ نحن عندما ندرس السخرية، في كل نماذجها الاجتماعية، فإننا نجد أنها تنطلق من احتقار الآخر، نتيجة بعض نقاط ضعفه، وعلى أساس ما يعيشه البعض من الإحساس بضخامة الشخصية، وما يجده من حَلَلٍ في شخصية الآخر في مقابل «الكمال» في شخصيته، وعندها يتضخم شعوره بقوته وبفوقيته، فينظر إلى الآخر ويسخر من أي مظهر قوةٍ فيه، ومن أية حالة توازنٍ ينطلق منها، لأنه يبقى سؤال في ذهنه، كيف يبدو هذا قوياً، وهو يملك نقطة ضعفٍ معينة، كيف يبدو قوياً أمامي وأنا الأقوى، كيف يبدو متوازناً وأنا المتوازن الأوحده؟ إن أعمق السخرية ينطلق من اكتشاف نقاط ضعف الآخر، أو من الاعتقاد بوجود نقاط ضعفٍ للآخر، ووجود نقاط قوةٍ لدى الذات، وهذا ما يبعث الشعور بتضخم الذات، وتقزيم الإنسان الآخر.

الوعي في إصدار الأحكام

القرآن الكريم عالج هذه المسألة بقوله تعالى: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ، وَلَا نِسَاءً مِنْ نِسَاءِ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ)، إن الله تعالى يريد أن يقول، أيها الناس، إنكم تسخرون من بعضكم البعض، لأنكم تعتقدون أنكم خيرٌ من الآخرين، إنكم في مرحلة العُلُوِّ وهم في المرحلة السفلى، إنكم في موقع القوة، وهم في موقع الضعف، ربما تخطئون في ذلك، لأنكم قد تنظرون إلى الجانب البارز من الصورة، وليس من الضروري أن يكون الجانب البارز من الصورة، هو الجانب الحقيقي، أو هو كل الصورة، فقد يكون بعض الصورة، وقد تكون

الملامح الأخرى للصورة مختفية في جوانب أخرى.. لماذا؟ لأنَّ الإنسان ليس شكلاً وحده، هو شكل ومضمون، هو صورة في الجسد، وهو عقل واحساس وخبرة، وقوة في الداخل، وهو ليس مجرد شخص يملك شيئاً مضافاً إليه، ولكنَّه إنسان يملك شيئاً في عقله وفي روحه وحياته... لذلك لا يمكن أن تُدرس القضايا من جانب واحد، ولا يمكن أن يُحكم على إنسانٍ من خلال نقطة معينة.. فلكي نحكم على النَّاس لا بدُّ أن نفهم النَّاس، ولكي نحكم عليهم سلباً أو إيجاباً، لا بدُّ لنا من أن نفهم كلَّ خصائصهم، وكلَّ سلبياتهم وإيجابياتهم، وهذا يحتاج إلى دراسة عميقة، لنعطي الحكم الحاسم، وربما لا نستطيع إصدار حكم حاسم وبشكل شامل على إنسان ما، لأنَّ الإنسان ليس شيئاً مُعلَباً، يمكن أن نحبس شخصيته في مرحلة معينة، أو في دائرة معيَّنة، بل الإنسان وجودٌ متحرِّك، فقد يكون اليوم في صورة، وقد يكون غداً في صورة أخرى، قد يخضع اليوم لنقاط ضعف، وقد تتبدَّل غداً نقاط الضعف إلى نقاط قوة، ولا بدُّ لنا أن نحكم على الإنسان في كلِّ مرحلة، بكلِّ جزئيات هذه المرحلة، وليس لنا أن نقول، إنَّ هذا الإنسان خيرٌ في المطلق، أو شرٌّ في المطلق، بل أن نفكِّر، إنَّ الخير قد يكون شريراً غداً، وإنَّ الشرير قد يكون خيراً غداً، وإنَّ الإنسان قد يكون بعض شرير بلحاظ بعض خصائصه، وبعض خيرٌ بلحاظ بعض الخصائص الأخرى.. لذلك حدِّقوا بأنفسكم جيِّداً، وحدِّقوا بالآخرين جيِّداً لتفهموهم جيِّداً (لا يسخرُ قومٌ من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم، ولا نساءً من نساء، عسى أن يكنَّ خيراً منهن).

ميزان التفاضل

وهناك نقطة أخرى، وهي أنَّ الإنسان قد يُخطيء في فهم القيمة الإنسانية، وقد يُخطيء في موازين التفضيل. فقد يرى أنَّ المال هو كلُّ القيمة، لذا يعتبر نفسه إذا كان

ذا مال أنه أفضل من الفاقد للمال، فتتضح شخصية من خلال حجم ثروته، وتتضاءل شخصية الآخر أمامه من خلال قلة ما يملك.. وهنا نقول: إن المال ليس شيئاً في داخل إنسانيتنا.. فلو ملك الإنسان مال الدنيا كله، لم ترتفع إنسانيته في داخل شخصيته قيد شعرة، ولو لم يحصل من الدنيا على شيء، فإن ذلك لا يُضعف إنسانيته في داخل شخصيته.. فالغني والفقير لا فرق بينهما في معنى الإنسانية، ولو أن الغني يجد حاجته في كل ما أراده، والفقير لا يستطيع أن يلبي حاجته.. فهذه مسألة من الخارج، وليست مسألة من الداخل، فالغني ليس خيراً من الفقير، لأن غناه ليس عنصراً في ذاته.

لذلك على الغني أن يفهم، أن غناه لا يمثّل القيمة، إلا من خلال ما يتحرك في شخصيته من الخبرة، أو ما يُحرّكه في ماله من الخير، فيكون الخير صفته لا المال، وتكون الخبرة صفته لا المال.. فالمال فرصة يمكن أن يحقق فيها ذاته على أساس أنه يملك الخبرة في تحصيله، وعلى أساس أنه يملك الانفتاح على الخير من خلاله.. ثم قد يكون الذي يملك المال غيبياً في إدارة المال، إضافة إلى أنه ليس وحده الذي يُنتج ماله، فالناس الذين يتعاونون معه من الفقراء، عندما يعطونه خبرتهم وعلمهم وحركتهم وحمائيتهم، هم الذين ساعدوه على تجميع المال... وإنه لو انطلق بنفسه لتحصيل المال، لما استطاع أن يحصل على شيء.. فماله ليس إنتاجه، هو إنتاج الفقراء الذين وظفهم عنده، وصحيح أنه أعطاهم الفرصة، ولكنهم أعطوه أكثر مما يعطيهم، لذلك عليه ألا يحتقر الموظفين والعمال عنده، لأنهم هم الذين ينتجون له المال.. ثم قد يكون صاحب المال، جاهلاً، فعندما يجلس مع الناس لا يعرف كيف يتحدث معهم، ولا يعرف كيف يشارك في القضايا الفكرية والسياسية والاجتماعية، لأنه لا يفهم إلا بلغة الأرقام، ولا يفهم بلغة المجتمع، أو بلغة السياسة، أو بلغة الثقافة..

على هذا، فالمال ليس قيمة، لذلك الموظفون والعمال عنده خيرٌ منه، لأنهم يملكون القيمة في أنفسهم، ولذلك يقول أمير المؤمنين (ع): «يا كميل، العلم خيرٌ من المال، العلم يحرسك، وأنت تحرس المال، والمال تُنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق، هلك خُزَّان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون، ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة». لذلك على الإنسان أن يوازن بين قيمة المال في إنسانيته، وقيمة العلم، وعند ذلك سوف يكتشف أن الآخر هو خيرٌ منه، حتى لو كان الآخر لا يجد شيئاً من المال، لأنه لا يجد في نفسه ما عند هذا الآخر من العلم.

وهكذا، ربما يسخر إنسانٌ من إنسان إذا كان هو جميلاً، وكان ذاك مُفْتَقِداً لهذا الجمال، باعتبار أنه يعتبر الجمال قيمة، وعدم الجمال ضدَّ القيمة، هنا عليه أيضاً أن يوازن بين جمال الجسد وجمال العقل والشعور والحركة. فالجمال هو ما يجذبنا في الآخر، ولكنَّ جمال الصورة، ليس شيئاً خالداً في الإنسان، فكلما تقدّم في العمر، كلّما جفَّ جماله، ولكن كلما تقدّم في العمر، كلّما نما عقله، وقويت مداركه، وكلما انفتح على أفاقٍ كثيرة في هذا المجال. وهنا، على الإنسان ألا يستغرق في موضوع الجمال، لأنَّ المجتمع، ربما يعتبر الجمال هو القيمة الظاهرة، كما هو الموجود مثلاً في مجتمعنا الذي يعتبر أنَّ الجمال الجسدي في المرأة هو كلُّ شيء، ولمَّ الجمالُ العقلي والروحي والشعوري والحركي؟

وفي هذه المسألة نقول، قد نرى شاباً جميلاً، ولكنه في الوقت نفسه من أغبي الناس، أو من أسوأ النَّاس أخلاقاً، أو من أقلَّ الناس تجرية. فالجمال الظاهري يجتذبنا للحظات، ولكن نصطدم بالقبح الداخلي، والقبح الروحي والعقلي.. لذلك لا يسخر قومٌ

من قوم، ولا نساء من نساء، لمجرد أن هؤلاء يملكون الجمالَ، ولا يملكه الإنسان الآخر، لأنّ هذا قد يكون جميلاً في الجسد، ولكنّ الآخر يملك الجمال في الروح، وجمال الروح، جمال العقل، وهذا خيرٌ وأفضل من جمال الجسد، لأنّ هذا الجمال يفنى، وذاك الجمال يبقى.

الإحساس بالقيم

وخلاصة الفكرة، أنّه لا بدّ لنا أن ننظر الإنسانَ في كلّ نقاط ضعفه وقوته، ولا نستغرق في نقطة واحدة، ولا بدّ أن ننظر في كلّ نقاط ضعفنا وقوتنا، ولا نستغرق في جانب واحد، ثم لا بدّ أن يكون لنا وعي الإحساس بالقيم، وأنّ نوازن بين قيمة وقيمة، من خلال علاقتها بإنسانيتنا، وعلاقتها بشخصيتنا، لأنّ مشكلتنا - كمجتمع - هي أنّ القيم أصبحت عندنا قيم الخارج، لا قيم الداخل.. أن يكون الإنسان صاحب مال هو إنسان «ذو قيمة» في المجتمع، أن يكون صاحب سلطة هو إنسان «ذو قيمة» في المجتمع، ولكنّ القضية هي أنّ الإنسان يكون ذا قيمة في المجتمع، عندما يكون كبيراً في إنسانيته.

لذلك، علينا أن ندرس أنفسنا من الداخل والخارج، وأن ندرس الناس من الداخل والخارج، ليكون لنا ثقافة فهمنا للناس، وثقافة فهمنا لأنفسنا.. فعندما نفهم أنفسنا جيداً، ونفهم الناس جيداً، لن نحقر أحداً، ولن نسخر من أحدٍ. لأننا إذا اكتشفنا في أنفسنا نقطة قوة، فإننا نكتشف كذلك نقطة ضعف، وإذا اكتشفنا في الناس نقطة ضعف، فقد نكتشف فيهم نقاط قوة. من هنا، يبقى الإنسان في خط التوازن، عندما يقارن بين نقاط ضعفه، ونقاط قوته، وبين نقاط ضعف الآخرين، ونقاط قوتهم.. وعندما نحترم إنسانية الإنسان، فإننا نستطيع أن نعتني به، وننتفع منه، لأنّ فرداً في المجتمع، لا يمكن أن يستغني عنه المجتمع، لأنه ما من فرد إلا وله طاقة يحتاجها المجتمع، ولو بنسبة

صغيرة.. وإننا عندما نواجه الناس الذين يملكون نقاط ضعفٍ معينة، فإنّ ذلك يدفعنا أن نشكر الله على النعمة التي أنعمها علينا، لأنّه لم يبتلنا بنقاط ضعفهم، فنقول: «الحمد لله الذي عافانا مما ابتلى به غيرنا، ولو شاء لفعل».

فالإنسان عندما يسخر من الآخرين، الذين هم أضعف منه، وعندما يكسر قلوبهم، فإنّ الله قد ينتقم لهؤلاء، فيدخله في ظروف قد يكسر فيها حياته لا قلبه، وقد يبتليه ببلاء أكثر من بلاء الآخرين. لهذا على الإنسان ألاّ يشمت بالآخرين، لأنّ الله قد يُوقعه في بلاءٍ قد تكون فيه الشماتة أشدّ مما قام به هو.. علينا أن نحترم الإنسان لأنّه خلّق الله، وأنّه أخونا في الإيمان، وأخونا في الإنسانية. وبذلك تغتني إنسانيتنا على مستوى الفرد، وعلى مستوى المجتمع.

■ البعض يُضمّن أسلوبه العملي سلبيات معينة كالسبّ واللعن تنعكس بما لا يخدم الخط، فما رأيكم؟

حتى لا تُسبّ المقدسات

□ في مسألة اللعن والسبّ بشكلٍ عام، هناك جانبان: الجانب الأول، هل أنّ الظالمين والخائنين والمنحرفين في كلّ الجوانب، هل يستحقّون اللعن أو لا يستحقّون؟ هل يجوز سبّهم أم لا؟ لا شك أنّ الله لعن الظالمين والخائنين.. فالإنسان الذي يخون الله والرسول وأمانة الإسلام في أي جانب - لا سيما في الجوانب التي تتصل بالقضايا الحيوية أو المصيرية - لا إشكال أنّه يجوز لعنه والتشهير به، أيّاً كان وفي أي مجال.. هذا جانبٌ لا يمكن أن ينكره أحد.

وهناك جانب آخر، هو: هل السبّ هو من الوسائل الإسلامية التي يمكن أن يُعبّر الإنسان فيها عن رفضه لشخص معيّن أو جهة معينة؟

نقول: عندما ندرس التربية الإسلامية، سواء ما جاء في القرآن الكريم، أو ما جاء على لسان أمير المؤمنين عليّ (ع)، بلحاظ ما هو موجود في نهج البلاغة، نجد أنّ الله تعالى يقول: (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ)^(١)، الذين يدعون من دون الله هم المشركون، لا تتعاملوا معهم بطريقة السبّ، لأنّ هذا الفعل يؤلّد ردّ فعل (فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ).

ويُعَلّل القرآن الكريم هذه المسألة بقضية تتصل بما جُبل عليه الإنسان فطرياً (كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ)^(٢)، لأنّ كلّ إنسان يرى أنّ ما عليه هو الجيد والحسن والأفضل.

(٢) الأنعام: ١٠٨.

(١) الأنعام: ١٠٨.

فلذلك حتى لا تُجْرؤوا الناس على سبِّ الله لا تسبّوا مقدساتهم. وهذه قضية مطروحة على نحو نوعي، وهي أن الفعل يستوجب ردَّ الفعل، وذلك من جهة الناحية الفطرية.

ذكر حال لا سباً

ونقرأ في نهج البلاغة أن علياً (ع) سمع قوماً من أهل العراق، يسبّون أهل الشام، في موقع كان الإمام (ع) قد دفع بجيشه إلى «صفين» لمحاربة معاوية، والمفروض بالإمام وهو في حالة قتال أن يُحمَس أصحابه ويُشجّعهم على السبِّ، حتى يتأصل البُغضُ في نفوسهم، وكى يكونوا أكثر حماساً للقتال، ولكن الإمام (ع) يريد لجيشه أن يكون جيشاً أخلاقياً، فقال (ع): «إنِّي أكره لكم أن تكونوا سبّابين، ولكن لو وصفتهم أفعالهم، وذكرتم حالهم - من أنهم لم يبايعوا، وأنكروا الشرعية، وتمردوا وما إلى هنالك - لكان أصوب في القول وأبلغ في العذر، وقُلْتُمْ مَكَانَ سَبِّكُمْ إِيَّاهُمْ: رَبَّنَا أَحَقُّنْ دِمَاءَنَا وَدِمَاءَهُمْ وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا وَبَيْنَهُمْ وَاهْدِهِمْ مِنْ ضَلَالَتِهِمْ حَتَّى يَعْرِفَ الْحَقَّ مَنْ جَهْلَهُ، وَيَرْعَوْيَ عَنِ الْغَيِّ وَالْعُدْوَانِ مَنْ لَهَجَ بِهِ».

عندما يمنعهم أمير المؤمنين (ع) من السبِّ لا يعني ذلك أنه يعترف بهدايتهم لأنه يقول: «واهدهم من ضلالتهم»، وكان الإمام (ع) في قوله هذا يشير إلى أنه إذا اختلفت مع إنسان آخر، ووصل الخلاف بينك وبينه إلى حدِّ القتال حاول أن تتحدّث عن أفعاله، وأن تذكر حاله بدل أن تسبّه، لأنَّ السبِّ لا يحلُّ المشكلة بل يُعقِّدها، ويُعقِّد المسبوب تجاه ما تريد أن تهديه إليه.

وهناك حديث عن الإمام جعفر الصادق (ع): «ما أيسر ما رضيَ الناس منكُم كُفُّوا ألسنتكم عنهم»، فالقضية إذاً، ليست فيمن تسبّه هل يستحق أو لا يستحق هذا السبِّ، القضية في ردود الفعل، كما في الآية الكريمة (فَيَسْبُؤُوا اللَّهَ عَدْوًا)^(٣).

■ في زحمة ضغوطات المادة والحياة، تتوه النفس في طرقات شتى، وحتى لا تغرق النفس وتضيع، نعرف أن الاستقامة سبباً في ابتعادها عن بُؤر الضياع، كيف لنا أن نحصن النفس في خط الاستقامة؟

الثبات

□ إن الخط الذي يريد الله للناس أن يسيروا عليه في التزامهم الديني في كل ما يريدون فعله أو تركه، هو خط الاستقامة. والله تبارك وتعالى يقول: (فَاسْتَقِمُّ كَمَا أُمِرْتُ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)^(١)، فالله أمر رسوله أن يستقيم على خط الإسلام والآن ينحرف عنه يميناً أو شمالاً، مهما كانت الضغوط والإغراءات، لأن الكثيرين من الناس الذين يحملون الدعوة إلى الله، أو يلتزمون الإسلام خطأً، تجد الناس من حولهم يأتون إليهم ليُغرَّوهم حتى ينحرفوا، وليضطغوا عليهم حتى يسقطوا، وليثيروا أمامهم الشهوات حتى يضلُّوا. ونحن نقرأ في القرآن الكريم أن الله يخاطب نبيه ليشير إلى الضغوط والإغراءات التي كانت قريش ومن معها توجهها إلى النبي (ص) لترك ما هو فيه، أو ليزيد في كلام الله بما يريدونه، وبما لا يرضي الله، أو لينقص منه ولينحرف عنه.. فقد جاؤوا إليه وقالوا له، فلنعبد إلهك سنة، وتعبد الهتنا سنة، حتى يكون الأمر صلحاً بيننا وبينكم.. هذا منطق التسوية الذي يحاول الكثيرون من الناس أن يخاطبوا به المؤمنين ليسيروا في خط الانحراف قليلاً، وفي خط الاستقامة قليلاً، وأن يؤمنوا ببعض الكتاب ويكفروا ببعض.. بمعنى أن يصلُّوا ويصوموا، وفي الوقت نفسه ليس من مانع أن

(١) هود: ١١٢.

يفشوا ويظلموا. هذا المنطق خاطيء، لأن التسويات قد تكون في القضايا المادية، التي يمكن أن نقول عنها، «الصلح سيد الأحكام»، تأخذ نصفاً، وأخذ نصفاً. لكن، عندما تكون القضية قضية عقائدية، قضية عبادة الله، وعبادة الأصنام، فإن المسألة لا تحتمل التسويات، لأن التوحيد ينفي الصنمية، والصنمية تنفي التوحيد، وعندها لا يمكن أن يكون هناك حل.. وقد كان هم قريش أن تنحرف بالنبي (ص) عن خط التوحيد ليعترف بشرعية ما هم فيه، إن النبي (ص) كان يرفض شرعية الوثنية وشرعية الأصنام. وكان التوجيه الإلهي له (ص): (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ، وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ، لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)^(٢)، فالمسألة عندما تكون مسألة الخط، فلا مجال للمساومات والتسويات لذلك (لا أعبُدُ ما تعبُدون ولا أنتم عابِدون ما أعبُد)، أنتم لستم جادين، لأنكم لو اعتقدتم بالله لعبدتموه ووجدتموه..

في مواجهة الإغراءات

ولذلك، عندما ننتقل نحن على هذا الأساس، على أساس أن نكون حاسمين أمام من يريد لنا أن نأخذ من الكفر شيئاً، ومن الإسلام شيئاً آخر، ولا نختار إلا الإسلام، فمعناه أننا في خط الاستقامة وأنه لا مجال للتسويات عندنا. قد نكون متسامحين بالأسلوب، لكن لا مجال للتسامح في العقيدة، لا نتسامح مع إنسان يدعونا لشرب الخمر مثلاً، أو للعب القمار، هذه معاص لا بد من تجنبها، ولا توجد حلول وسط في هذا المجال.. وهذا رسول الله (ص) تحاول قريش إغراءه، جاؤوا إلى عمه أبي طالب (رض)، وقالوا له، ماذا يريد ابن أخيك، إن كان يريد الملك ملكناه، إن كان يريد المال، هذه أموالنا بين يديه، إن كان يريد الزواج زوجناه أفضل نساننا.. جاء عمه - وكان يكتنم إسلامه - حاملاً إليه

(٢) سورة الكافرون.

الإغراءات، وكان جواب النبي (ص) «والله يا عم لو وضعوا الشمس بيمينني والقمر بشمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته» ما قيمة المال؟ ما قيمة الملك؛ ما قيمة الجمال؟ ما قيمة كل ذلك أمام رحمة الله؟ (قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)^(٣)، (قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي)^(٤)، (فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ)^(٥)، أنا لا يمكن أن أعبد ما عندكم (وإن كادوا ليفتنونك)^(٦)، لينصرفوا بك، وليدخلوك في التجربة الصعبة التي قد تستسلم لها إذا لم تكن واعياً لطبيعتها (عن الذي أوحينا إليك)^(٧)، من التوحيد والخط المستقيم (لتفتري علينا غيره، وإذا لاتخذوك خليلاً)^(٨)، إذا استجبت لهم ومشيت معهم، ودخلت فيما يريدونه منك لاتخذوك صديقاً (ولو لا أن ثبتناك)^(٩)، من خلال ما أودعه الله فيك من عمق الإيمان (لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً)^(١٠)، كان يمكن لهذه الضغوط والإغراءات ولشدتها أن تضغط عليك وتسير كما يسير الآخرون في غير خط الاستقامة، ولكن الله ثبتك وعصمك، وأمدك بقوة منه، ولو لا ذلك لأصبحت منهم ومعهم، وعندها (إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً)^(١١) هذا الأمر، هو تهديد (ولو تقول علينا) إذا انحرف قليلاً (بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين، ثم لقطعنا منه الوتين، فما منكم من أحد عنه حاجزين)^(١٢)، من هنا قال الله لنبيه (ص): (فاستقم كما أمرت) لا تلتفت يميناً ولا شمالاً.. وعندما يقول الله ذلك للنبي (ص)، يقول ذلك لنا (فاستقم كما أمرت ومن تاب معك)^(١٣)، معنى ذلك، من سار في خط الإيمان والتقوى معك، وأمرهم أن يكونوا مستقيمين في خط الله (ولا تطغوا) لا تتجاوزوا الحدود التي جعلها

(٣) الزمر: ١٣.

(٧) الإسراء: ٧٣.

(١١) الإسراء: ٧٥.

(٤) الزمر: ١٤.

(٨) الإسراء: ٧٣.

(١٢) الحاقة: ٤٤ - ٤٥ - ٤٦ - ٤٧.

(٥) الزمر: ١٥.

(٩) الإسراء: ٧٤.

(١٣) هود: ١١٢.

(١٠) الإسراء: ٧٤.

(٦) الإسراء: ٧٣.

الله لكم، لأنه سبحانه جعل لكل شيءٍ حداً فللواجبات حداً، وللمحرمات حداً، وللمحلات حداً، وعليكم أن تقفوا عند حدود الله ولا تتجاوزوها، واحسبوا حساب الله، لأنه سبحانه يُبصر من فوق عرشه ما تحت سبع أراضين، فهل تستطيعون أن تَسْتَحْفُوا الله سبحانه (يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ)^(١٤)، فأين تختبئون من الله؟ (وهو الذي في السَّمَاءِ إِلَهُ فِي الْأَرْضِ إِلَهُ، وهو الحكيم العليم)^(١٥)، وهو سبحانه يأمركم (وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ)^(١٦)، لا تستسلموا لهم، ولا تسيروا وراءهم، ولا تنقادوا إليهم، ولا تدافعوا عنهم، ولا تكونوا منهم، ولا تتجسسوا لهم، كل ذلك ركونٌ إليهم.. (لَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا) أنفسهم بالكفر أو بالفسق، أو ظلموا أنفسهم بالبغي على الناس..

تحذير

فالقرآن يخاطب الإنسان، لا تركز إلى إنسانٍ يظلم نفسه بالكفر بالله، ولا تطمئن إليه، لأنَّ مَنْ لَمْ يَخْلُصْ لِرَبِّهِ الَّذِي خَلَقَهُ، كَيْفَ يُخْلَصُ لَكَ؟ ولأنَّ الذي يخون ربّه، كيف يفى لك؟ إذا، إذا رأيت مَنْ يظلم نفسه بالمعاصي، يشرب خمراً، يلعب قماراً، يزني، يسرق، لا تركز إليه، ولا تجعله صديقك ولا عشيرتك، لا تجعله خليلك أو خليصك، أو مستودع سر، لأنَّ مَنْ لَا يَكُونُ أَمِيناً عَلَى مَسْئُولِيَّتِهِ تَجَاهَ رَبِّهِ، كَيْفَ يَكُونُ أَمِيناً عَلَى مَسْئُولِيَّتِهِ تَجَاهَكَ، وكيف تأمن أن يُخلص لك؟ وهكذا، (لَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا) النَّاسِ بِالْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ، فَمَنْ يَظْلِمُ النَّاسَ الْيَوْمَ سَيَظْلِمُكَ غَداً، وليس للظالمين خطاً إلا مصالحهم وأطماعهم ومواقعهم، فإذا تجنّدت لهم، فقد يحيطونك بالرعاية اليوم، ليتخذوا منك وسيلةً لظلم النَّاسِ الْآخَرِينَ، فإذا تبدّلت الأوضاع ظلّموك غداً، تماماً كما يقول الشاعر:

أَلصِيدُ غَيْرِكَ إِنْ سَهَرْتَ فَإِنْ تَنَّمُ أَلصِيدُ أَنْتَ وَلِحْمُكَ الْمَخْتَارُ

(١٤) النساء: ١٠٨.

(١٥) الزخرف: ٨٤.

(١٦) هود: ١١٣.

لذلك نحن نرى كيف أن الواحد يكون معك اليوم، وغداً عليك، لأن الأساس مصلحته، فهو لا يملك وفاءً ولا خطأً.

هذه التعليمات لها جانبان، جانب للخط الذي ينبغي أن تسير عليه، وجانب يصنع لك وعياً في فهم من حولك.. لذلك إذا أردت أن تطمئن للناس فادرس ذهنيتهم وخطهم وتقواهم.. كن واعياً عندما تختار أصدقاءك، ما هي أفكارهم، وأخلاقهم وخلفياتهم، ما هي علاقاتهم وأفعالهم وأقوالهم، لأن الصداقة تجعل الإنسان قريباً من أفكار صديقه:

صاحب أختة ثقة تحظى بصحبته فالطبع مكتسب من كل مصحوب
والريح أخذة مما تمر به نتناً من النتن أو طيباً من الطيب

فعندما تمر الريح على قذارة، فإنها لا تحمل إلا القذارة، وإذا مرت على الورد لا تحمل إلا العطر، فاحذر من صداقة تندم عليها، ومن موقف تندم عليه، وتقول (لَيْتَنِي لَمْ أَخِذْ فَلَاناً خَلِيلاً)^(١٧)، إن علينا قبل أن نتحرك في أمر، أو نفكر في شيء نريد أن نتحرك من خلاله، فلنضع قضية المصير أمامنا، ولنندقق في الخط الذي نسير عليه، هل هو خطأ الاستقامة الذي يؤدي إلى رضى الله؟ وإذا جاء الشيطان يخدرك، وإذا جاءك نوازك النفسية، وجاءك من يحاول أن يبعدك عن الله، وعشت أجواء الحرمان النفسي، إصبر، وحافظ على الإحسان إلى النفس وإلى الناس، واتق الله فإن الله لا يضيع أجر المحسنين.. قد تتحمل بعض التعب والجهد، قد تتحمل سخرية الناس، وبعض الأوضاع السلبية، ولكن الذي يضحك، هو الذي يضحك أخيراً، وسيبقى الله لك ذلك كله في كتاب أعمالك، وإصبر، فإن الله لا يضيع أجرك وجهدك.

■ ما هي الخطوات العملية التي ترونها لتربية النفس الأمانة بالسوء؟

الخطوة الأولى

□ لا بدُّ للإنسان أولاً، من مراقبة نفسه، وكيف تتحرك في المسألة الفكرية، وكيف هو اتجاه فكره في الأوضاع والأشخاص والمواقف والمواقع وفي الاتجاهات.. ولا بدُّ للإنسان أيضاً أن يراقب نفسه، كيف هي حركة عاطفتها، وعلى أيّ أساسٍ تحب وعلى أيّ أساسٍ تبغض، وهل أنّها تحب في الخط الذي يحبه الله، وتبغض في الخط الذي يبغضه الله، أو أنّ حبّها وبغضها ينطلقان من حالات طارئة في الأطماع والغرائز؟.. وعلى الإنسان أن يراقب نفسه كيف تدفعه في حركة من يصادق ومن يعادي، وأين يقف، وأين يتحرك، وما هي المواقع التي تؤيدها نفسه، وما هي التي ترفضها، وما هو انتمائها، في هذا المعسكر أو ذاك، وما هو دورها في هذا المحور الدولي أو الاقليمي؟

وأن تراقب نفسك، معناه أن تراقبها في حركتها، كيف تتحرك في أفكارها وأحاسيسها ومشاعرها وعواطفها ومشاريعها.

موازنة وخطاب

ثم تعمل على المقارنة بين هذا الواقع النفسي وبين الخطّ المستقيم الذي رسمه الله لك في الفكر والعاطفة والحركة، وفي الموقف والموقع.. ادخل في مقارنة دائمة، أنت مسلم، وللمسلم خطه في الفكر والعاطفة والحياة.. ادرس نفسك، هل هي تفكّر بطريقة إسلامية، تتحسّس الأشياء وتتعاطف معها بأسلوب إسلامي، وتركز خطتها في الواقع على أساس إسلامي أو غير إسلامي؟ إذا استطعت أن تقارن بين ذلك، وأدركت أن نفسك بالسوء أمانة، لا بد من محاسبتها: يا نفس، أنتِ تسيرين في طريقٍ يؤدي بك إلى الكفر

الذي يناقض الإيمان.. أتعرفين إلى أين يؤدي بك هذا الطريق؟ لا شك أنه يؤدي إلى المعصية. حاسب نفسك دائماً بتذكيرها أن هنا هلكة، وأن هناك نجاة، فلماذا تفضلين الهلاك على النجاة؟ ثم حاكمها على أساس أنها نفسٌ ضالّةٌ عاصية، وجاهدها على أن تدخل في حربٍ معها، مستعيناً بكلّ أدوات الرّدع الداخليّة، فتستحضر عذاب جهنم مع ثواب الجنّة، وتستحضر رضوان الله مع سخط الله، مع معرفة ما تواجهه بعد الموت، فإذا جمعت ذلك أمكنك أن تردع نفسك وتخوّفها وترغمها وتدرّبها، واستعن عليها بالله تعالى.. وهذا الذي يُوحى به لنا دعاء يوم الثلاثاء للإمام زين العابدين (ع): «وأعوذ به من شر نفسي، إنّ النفسَ لأمارة بالسوء إلا ما رحِمَ ربّي». استعن بالله على نفسك بعد أن تخضعها للخَطّ المستقيم الذي يأمر به ربك، وهذا هو الجهاد الأكبر.

المهم أن تكون لنا إرادة تصحيح طريقنا، وإرادة أن نرضي ربنا، فبالإرادة تسهل الطريق، ولا نكون كَمَنْ (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة)^(١).

(١) البقرة: ٧.

■ «التكبر مع المتكبر صدقة»، هل من صحة لهذا

الحديث؟

□ الواقع أن التكبر هو قيمة سلبية، سواء كان التكبر على المتكبر أو على المتواضع، لأنه لا يُراد للإنسان أن يكون متكبراً، لأن الكبرياء هو الشعور بضخامة الذات وارتفاعها نتيجة بعض الصفات الموجودة فيها، بنحو تجعل الإنسان يحتقر الآخرين، وهذه صفة لا يريدّها الله من أحد.

ولكن معنى التكبر على المتكبر - إذا صحّ التعبير - ألا تتواضع في المعاملة مع المتكبر، ولا يعني ذلك أن تعيش التكبر ضدّه لتحتقره في نفسه، نعم، احتقر تكبره لا على أساس أنك أعلى منه، أو أرفع منه، والفرق بين أن تتكبر على الإنسان، أو أن تحتقر تكبره مع تواضعك في نفسك، هو أنك تحتقر هذه الصفة فيه.

■ البعض يقول: «بأن الظلم من شيم النفوس الكبيرة»، المنطق الإسلامي، ماذا يقول في هذه المسألة؟

□ هذا قولُ «المتنبي»: :

والظلم من شيم النفوس فإن تجدُ ذا عفةٍ فلعله لا يظلمُ

ولعله ينطلق من عقدة عاشها، وهذا ليس كلاماً منسجماً مع الخطّ الإيماني، لأنّ «كل مولود يولد يولد على الفطرة»، والفطرة تُوحى بالعدل ولا توحى بالظلم، وتوحى بالإيمان أيضاً، والعدل يمثل عمقَ الإيمان وامتداده. ولذلك لا نوافق على هذا القول، لأننا نعتبر أنّ الظلم ليس حالةً غريزية في الإنسان، بل إنّ الظلم ينطلق من خلال الطوارئ الخارجية.

■ كثيرون لا يراعون حُرمة الآخرين، وذلك بإفشاء أسرارهم الخاصة، كيف ترون سلبية هذه الظاهرة؟

□ لعلَّ من أسباب هذه الظاهرة، هو عدم احترامنا لإنسانيتنا، أو لأنَّ الإنسان لا يحترم الإنسان في هذا المجال.. وهذا يعني أنَّ العلاقات لا تخضع لاحترام حرية الإنسان في القضايا الخاصة التي يعيشها.. مجتمعنا مجتمع فضولي، يحاول أن يقتحم على الناس أسرارهم بطريقةٍ غير مركّزة.. طبيعتنا طبيعة فضول، نتدخَّل فيما لا يعيننا، وهذا إنَّما ينشأ من البطالة ومن الفراغ، ومن عدم وجود مستوى فكريّ بشكل عام.. أما الإنسان الذي يملك مستوى فكرياً جيداً، فإنَّه لا يفكر إلاَّ بالقضايا الأساسية..

من هنا، يجب على الإنسان أن يُفكّر دائماً بأنه كما لا يجب أن يتدخل في شؤونه الخاصة أحد، يجب عليه ألاَّ يتدخَّل في شؤون الآخرين، ومنَّ تدخَّل فيما لا يعنيه يجد ما لا يرضيه.

■ البعض يخرق النظام العام، وذلك بعدم مراعاة نظام السير، أو مراعاة وضع الشوارع العامة، وذلك ما يسبب أذية للناس، ما رأيكم بذلك؟

□ إن قوانين السير التي تحدد للسيارات النظام الذي تسير فيه حذراً من إزهاق النفوس، وإتلاف الأموال، وإثارة المشاكل للناس بشكل عام، هو النظام الذي يجب على الناس جميعاً التقيد به، لأن التحرك على أساس الفوضى في السير، يؤدي إلى إرباك الواقع العام لحياة الناس ولكل أمورهم وقضاياهم.. لذلك يحرم على كل إنسان أن يخالف قوانين السير، ويجب عليه التقيد بها، إلا في الحالات الصعبة جداً، التي إذا اضطرت إليها جهة من الجهات، فإنه لا بد لها أن تراعي سلامة المواطنين بما لا يشكل خطراً عليهم. كما أنه لا يجوز لأي إنسان أن يتصرف بالمرافق العامة، ومنها الشوارع بما يؤدي إلى وجود الخطر على الناس، ونشير هنا إلى أنه يحرم على أصحاب المتاجر أن يوسعوا متاجرهم على حساب الساحات والأرصفة المعدة لسير المواطنين خارج نطاق السيارات، حيث لا فرق بأن يغضب الإنسان المال الخاص، فيتصرف به دون رضى أصحابه، أو يغضب الإنسان للمال العام، فيتصرف به خلافاً للمصلحة العامة. كما إننا نحرم على كل الذين يقيمون البنايات أن يحفروا الشوارع لمصلحة ما يريدون وضعه في داخلها من تمديدات، وما إلى ذلك، وإذا اضطروا إلى ذلك، فعليهم إرجاع الشارع كما كان، ويحرم عليهم إبقاؤه بطريقة تنافي حاجة المواطنين إلى السير بشكل طبيعي.. كما إنني أقول: إن الشوارع هي ملك الأمة كلها، فلا يجوز لأحد أن يتصرف فيها بما يربك حركة الناس جميعاً، سواءً بوضع السيارات، لتحويل الشوارع إلى كاراتات، أو بوضع الحواجز، إلا في الحالات الأمنية الطارئة.

■ المزاح، وتمضية وقت الفراغ، ما هي الحدود المسموح بها؟

الحياة: جمال وانفتاح

□ مشكلة الكثير من الناس أنهم يدرسون الحياة من زاوية ضيقة، ويريدون أن يحبسوا الإنسان في قمع.. الله سبحانه وتعالى عندما خلق الحياة، خلقها جميلة وواسعة ومنفتحة تفتح قلب الإنسان على لذاتها المحلّة، وعلى طيباتها، وعلى لهوها البريء... لأنّ الإنسان عندما خلقه الله، خلقه إنساناً يحتاج إلى أن يفتح قلبه لساعة فراغ وساعة لهو لكي يجدّد نشاطه. وهكذا نرى الأحاديث الواردة عن أهل البيت (ع) تدلّ على ذلك، فالحديث المشهور عن أمير المؤمنين (ع): «ينبغي أن يكون للمؤمن ثلاث ساعات، ساعة يناجي فيها ربّه - وهذه ساعة عبادة - وساعة يرمّ فيها معاشه - وهذه ساعة عمل - وساعة يخلي بين نفسه وبين لذاتها في غير محرّم، فإنّها عون على تينك الساعتين».

وسيلةٌ للتجديد

وفي الحديث أيضاً: «إنّ للقلوب إقبالاً وإدباراً، فإذا أقبلت فاحملوها على النوافل، وإذا أدبرت فاقتصروا بها على الفرائض»، وفي الحديث أيضاً: «إنّ القلب إذا أكره عمي»، فلا تدعوا قلوبكم تعمى، بل افتحوها، والله تعالى لم يحرم لعباً ولهواً بريئين، ولكنه لم يرد للإنسان أن يستغرق في اللهو واللعب أي لا يجعل حياته لعباً ولهواً، ولكن ليحفظ اللهو واللعب من غير محرّم وسيلةً من وسائل تجديد روحه وتجديد جسده، حتى يكون أقدراً على مواجهة مسؤولياته العبادية أو مسؤولياته المعيشية أو

مسؤولياته الإسلامية... وذلك من موقع إنسانية منفتحة تتحرك بنشاطٍ وحيويةٍ وبقوة. لذلك نقول: إذا أحسن الإنسان توجيه ساعات الفراغ، ولم يتحرك بها في خطأ الحرام، فإنها تكون نوعاً من العبادة، لأنها تعطي الإنسان حيوية العبادة، وقد ورد في دعاء الإمام زين العابدين (ع): «فإن قدرت لنا فراغاً من شُغْل، فاجعله فراغ سلامة، لا تدر كنا فيه تبعة، ولا تلحقنا فيه سامة».

□ في النفس والوجدان :

- * التأمل.
- * السعادة.
- * غاية الحياة.
- * العزلة.
- * الإستسلام للأحلام.
- * الخوف
- * العاطفة والعقل.
- * تملك المال.
- * الإنهزام الداخلي.
- * علاقة الإنسان بالزمن.
- * شعر الحب والغزل.
- * التمزق النفسي.
- * ردة الفعل.
- * الوسواس.
- * الشخصية المتوازنة.
- * القلق.
- * التكامل مع الآخر.
- * السموّ.

■ في أدبياتنا الإسلامية دعوة إلى «التأمل»،
التأمل في الوجود، والتأمل في الدين، كيف لنا أن
نحرك عقولنا وعواطفنا في هذا الاتجاه؟

دعوة لاكتشاف الذات

□ أن نتأمل، أن ننزل إلى أعماق إنسانيتنا لنجعلها تفتش عن فكرة قد تكون طائفة في الضباب.. أن نتأمل، أن ننطلق لنبحث في زوايا إنسانيتنا عن قيمة ضاعت بين الركام.. أن نتأمل، أن نستعيد إنسانيتنا، لتصفو، وتتبلور في هذا الواقع، الذي أطبق علينا عشائرية منغلقة هنا، وطائفية حاقدة هناك، وزوايا صغيرة هناك تُصغر الإنسان.

أن نتأمل، أن تكتشف إنسانيتك قبضةً من طين، ونفخةً من روح الله، فالطين يربطك بالأرض، لأنك جزءٌ منها، فتعيش همها وجدبها وفقرها، وتعيش هذا الموت في ذراتها، والحياة إلى جانبها، لتنتقل وتعطي الأرض «أنسنة» من إنسانيتك، ليكون للأرض فيها شيءٌ من إنسانيتك، يُعطيها لهباً خصباً، وحياةً متحركة، وبذلك تدخل الأرض في الإنسان حاضراً ومستقبلاً، كما اختصرت كل تاريخه ماضياً.

وأن تتأمل أنك نفخة من روح الله، معنى أنك تحلق من خلالها في كل الفضاء - لا الفضاء المادي - فتتحرك في فضاء الفكر من حيث امتد من أول مفكر في الحياة، ولتحلق في فضاء الروح، مع كل إنسان عاش قيمةً تحتضن الإنسان، وتحتضن الكون كله، لتشعر بالوحدة مع الكون، ولا تعود بذلك مجرد مخلوق يقتحم الكون ليخضعه، بل إنسان يقتحم الكون ليفهمه ويتكامل معه، ويعيش أسراره، ليصنع منه كوناً جديداً.

عندما نعطّل دور العقل فينا!!

ومشكلة الكثيرين من الناس أنهم لا يتأملون ولا يتدبرون، مشكلة الكثيرين من الناس،

هي هذه المسلّمات التي توارثوها دون أن يحدّقوا إلى ما في داخلها من عناصر تقدّم أو تخلف، ومشكلة هؤلاء أنهم يخافون أن يتأملوا، لأنهم يخافون أن يكتشف تأملهم أنهم مزيفون ومتخلفون، وأنهم يعيشون الخطأ الكبير فيما يحترمون من مقدّسات، قدّسوا التخلف في داخلها.. لذلك بعضنا يخاف أن يفكّر، لأنه إذا فكّر، فقد يتبدّل كلّ كيانه الفكري، ويستوحش من كلّ تاريخ التخلف الذي عاشه، على طريقة المتنبي:

خُلِقْتُ ألوفاً لو رجعتُ إلى الصِّبَا لفارقتُ شَيْبِي موجعَ القلبِ باكياً

فإذا كان المتنبي يبكي عندما يفارق شبيهه إلى شبابه، فنحن كالكثيرين منا، نبكي إذا فارقتنا تخلفنا إلى التقدّم، لأننا نستوحش من فقد ما ألفناه.. لذلك، أن نتأمل، أن ننطلق لإغناء إنسانيتنا، وعندما يكون الدين والحياة العنوانين اللذين نريد أن نتأمل فيهما، فإننا نستهدف من خلال ذلك أن نفكّر فيما هو موقع الدين من الحياة؟ هل الدين لما بعد الموت؟ هل دور الدين دورٌ جنائزي، نحدّق في القبور التي نسكن في داخلها في نهاية المطاف؟ أو أنّ دورَ الدين هو الحياة، الحياة بكلّ ما فيها من تنوعات، ومن تغيّرات وإرياقات وتعقيدات؟ هل الدين جاء من أجل الموت، أو أنه جاء ليحوّل الموت في مفهومه إلى حياة، وأن يجعل قصة الموت، قصة جدلية تتجاوز الجانب المادي في شخصية الإنسان، ليشعر أنّ الحياة تعيش في قلب الموت، ليكون الموت جسراً للعبور إلى حياة أخرى؟ وهل أنّ الدين جاء لخدمة الإنسان، أو أنّ الإنسان جاء لخدمة الدّين؟

دعوة للحياة

بعض الناس يتصورون أنّ الإنسان جاء من أجل أن يخدم الدين، وبذلك يحولون الدين إلى ما يشبه الموجود الوثني الذي يتعبّد الناس لاسمه دون أن يفهموا ما في داخله، ولذلك كان الدين اسماً للوثنيين الدينيين، ولم يكن شيئاً في الحياة، ولذلك نحن

عندما نقرأ أي الله في القرآن: (يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)^(١) فهو دعوة إلى الحياة، ومن الطبيعي أن مَنْ يدعو إلى الحياة، أو ما يدعو إليها، يخدم الحياة، ويخدم الإنسان الذي هو عنوان الحياة في حركيتها العاقلة المنفتحة على كلِّ الوجود الذي يعيش فوقنا، أو تحتنا، أو ما حولنا.

والحياة، هي نحن، هي كلُّ الخضرة المعشوشبة، هي كلُّ هذا العشب الأخضر الذي يمثل فراشاً نستروح عليه لنسترخي، ويرتفع في الفضاء من أجل أن يكون شجرةً تُؤتي أكلها كلَّ حين.. الحياة، هي نحن، هي الحياة المتكاملة التي تختزن عقلاً وإرادة وقلباً واحساساً وشعوراً وبذلك يمكن أن تحتوي العالم:

وتحسبُ أنك جرمٌ صغيرٌ وفيك انطوى العالمُ الأكبر

نبضة الوجود في داخلنا

لأنك كإنسان، لست شيئاً، مجرد شيءٍ في هذا العالم، أنت حركت عقلك وقلبك وطاقاتك، وإذا تكاملت مع الإنسان الآخر، ومع الوجود كله، كنت العالم، لأن العالم ليس حجماً في الجبال والسهول، بل هو، هذا المعنى الذي تعنيه حركة الفكر وحركة الواقع في كلِّ ما يُغني للإنسان تجربته، وفي كلِّ ما يُعطي الحياة قوتها وامتدادها ورخاها.

الحياة، هي هذا الوجود المتحرك فينا، وفي كلِّ شيءٍ فيه نبضة حياة، وحتى الصخور، ربما إذا اندفعت إلى داخلها، رأيت حياةً متحركةً قد لا تُبصر حركتها، ولكن قوانين الله التي أودعت فيها، تُشعرك أن هناك حركةً موجبة وسالبة في كلِّ ذرة من ذراتها، يمكن لك أن تُنتج منها حياة.

عالم أكثر إشراقاً

أمّا، لماذا هذه التأمّلات في الدين والحياة؟ فلأننا لم نعش الدين، كما هو الدين، حولناه إلى صنم، ولأننا لم نعش الحياة كحياة، حولناها إلى موت.. والكثيرون منّا حولوا الدين إلى طقوس تختبئ في المسجد، بشرط ألا تُفتح نوافذ المسجد على ما حوله، وبشرط أن تُحكّم إغلاق المسجد عمّاً وراءه.. هذه الطقوس تقول لك: كنّ متديناً، اعبّد ربك بدون وعي، حاول أن تتغزّل بربك، عش الجوّ التجريدي دون أن تكتشف ربك في حركة الإنسان في الحياة، وفي قيمة الإنسان بالحياة.

ولذلك، فالدين على هذا الأساس لا علاقة له بحركة الحياة، قد يُعطي الحياة لمسة روحية، وقد يعطيها نبضة شعورية، وقد يعطي الحياة شيئاً من هنا وهناك. ولكن، حذارٍ، لا يقترب الدين من تفاصيل الحياة.. أبعده، أفصلوه، إجعلوا للدين مهمة معيّنة، ووظيفة معيّنة، ودواماً معيّناً.. أما بقية المجالات، فليس لله دورٌ فيه.. وعلى هذا قسّموا الدنيا بين الله، وبين القيصر..

لهذا، قد نحتاج إلى أن نتأمّل: هل انطلق الدين في فراغ؟ هل هو شيءٌ في التجريد؟ أبداً، الدين هو الذي يفسّر الكون، ويعطيه معنى الوحدة المركزية. والله تعالى يجمع لك كلّ ظواهر الوجود، وكلّ حركية الوجود، يجمعها لك لتنتقل كأنسان واحد مع الكون.. فالأرض ليست قطعة مرمية في الفراغ، وكذلك الشمس والقمر، وكلّ الوجود.. إنّها إرادة الله الواحد، وبذلك عندما تعيش هذا الوعي للدين، فإنك تعرف عندما تحدّق بالكون، لماذا لا يتحوّل هذا الكون إلى فوضى: (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)^(٢) و (قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا)^(٣).

(٢) الطلاق: ٦٥.

(٣) القمر: ٤٩.

ومن هنا، تشعر بأن الوحدة هي سرّ الكون، وتشعر من خلال ذلك أنك، وكلّ الكون من حولك، وكلّ ما يتحرك في داخل هذا الكون، أنك خلقتُ الله، وعندما تكون أنت والكون خلقتُ الله، فمعنى ذلك أنك تتحرك في معنى الوحدة، ولا تتحرك في معنى الانفصال.. وبهذا يُفسّر لك الدين معنى الوحدة في الكون، وبذلك يدخل إلى عقلك، ليمنح الخط المستقيم للفكر، ويدخل إلى قلبك، ليمنحه الطمأنينة العميقة في كلّ خفقاته، وفي كلّ نبضاته، ويدخل إلى حياتك ليقول لك، إنّ البداية ليست بداية ضائعة، وإنّ النهاية ليست ظلاماً، ولكنها انفتاح على عالم أكثر إشراقاً.

■ ما هي برأيكم غاية حياة الإنسان؟

* أنا لا أملك لحياتي هدفاً إلا الحياة، ولكن غاية حياتي، هي أن أصنع الحياة لوجودي، وذلك بأن أرتبط بالله الذي هو مصدر الحياة.

* نحن ننطلق من خلال الإحساس بحياتنا من أجل أن نصنع حياةً منفتحة على الله في معنى العبادة، ومنفتحة في معنى العبادة على خدمة الإنسان والطبيعة.

صناعة الحياة

□ الحياة، هي نحن، هي الوجود الذي يتحرك وينمو، ويُحسّ ويتطلع ويسمو... ليصنع من داخل عناصره الحيويّة، حياةً للأشياء التي تُحيط به، أو التي يمثل وجوده شرطاً لها.. الحياة، هي نحن، عقلنا، قلبنا، احساسنا، حركتنا... هي كلّ هذا الوجود الذي يضجّ في تركيبته الذاتية بكلّ ما تحتاجه الحياة.. ومن هنا، فالعقل يُعطي من خلال هذه الحياة، يعطي عقلاً لحياة أخرى، والقلب يُعطي عاطفة لحياة أخرى.. فأنا الإنسان الحيّ، أعطاني الله الحياة، من أجل أنْ أعطي الحياة للحجر والنبات والحيوان، وأنْ أعطي حياتي حياةً جديدة من خلال ما تنتجها عناصر الحياة الواعية في شخصيتي من حياة.. وفي ذلك، يظلّ الإنسان يصنع من حياته حياةً، ولن تبقى له حياةً واحدة، هي الحياة التي خلّقَ فيها.

فنحن نُخلّق جسداً حياً لا شأن لنا بعنصر الحياة في ذاته، ولكننا نحيا عقلاً،

صنعناه من خلال تجربتنا، ومن خلال تأملاتنا، ونحيا قلباً، لنصنع حياة عاطفة، وهكذا حياة الحركة لكل ما حولنا ومن حولنا.

ارتباط بمصدر الحياة

أنا لا أملك أن أعطي لحياتي هدفاً إلا الحياة، ولكن غاية حياتي هي أن أصنع الحياة لوجودي، وذلك بأن أرتبط بالله الذي هو مصدر الحياة، والذي تستمر الحياة من خلال إرادته في وجودي، والذي يمنحني حياة من خلال وحيه الذي ينزله، وفيما يلهمني فيه من أفكار وتأملات.

أنا أحيأ لأنطلق في حياتي، ولأحيا بالله، فكما أنني عشت الحياة به في بدايتها، فأنا أريد أن أحيأ به في كل امتدادات هذه الحياة، ومن هنا، فإن الحياة تصنع هدفها في الحياة مع الله، وعندما نحيا مع الله ونحيا به، فإننا نستطيع أن نحيا مع الإنسان، ومع الكون كله، لأن الله سبحانه ليس فكرة تجريدية منفصلة عن كل خلقه. ولذا، فأنا عندما أنفتح على الله لأعبده، لا أستطيع أن أنفصل عن الإنسان، الذي هو خلق الله، والذي تنطلق حركتي لخدمته، وتنميته، وتوعيته، وتطويره، وتحسين ظروفه، ليكون ذلك عبادة لله.

إلغاء لدور الصراع

وأنا عندما أحيأ بالله وأعبده، فإنني أتحمس مسؤوليتي في كل هذه الطبيعة التي خلقها الله لاتكامل معها، ولأتوازن معها، ولأعطيها من حياتي حياة جديدة، تكبر فيها، وتصبح أكثر جمالاً وحيوية وفعالية.. لذلك نحن ننطلق من خلال الإحساس بحياتنا من

أجل أن نصنع حياةً منفتحة على الله في معنى العبادة، ومنفتحة في معنى العبادة على خدمة الإنسان والطبيعة.

ومن خلال ذلك نفهم، أن علاقتنا بالطبيعة، ليست علاقة صراع، ولكنها علاقةً محبةً، فنحن نحاور الطبيعة في تأملاتها، ونحن نمنحها حبنا عندما تنطلق لساعاتنا لتبحث عن أسرارها، وعمّا يُمكن أن يجعلها أفضل.. لذلك ليست هناك كلمة صراع بين الإنسان والطبيعة، كما ليست هناك كلمة صراع بين الإنسان والإنسان، بل هناك حياة تتناغم وتتوازن وتتكامل، تُنتج بعضها بعضاً من خلال ما تُعطيه كلّ حياة للأخرى.

■ الكثيرون منا يستسلمون لأحلامهم، ويظنون
أن المستقبل يتحقق بالأمانى، ما قولكم في هذا؟

* إن الأحلام هي فكرنا الذي يتطلع إلى الأعلى، هي قلبنا
الذي ينبض بالأصفى والأنقى.
* كونوا الناس الذين يعيشون عصرهم وإنسانيتهم
وقضاياهم، ولا تكونوا حياديين أمام القضايا الكبرى في
العالم كله.

إنسانية الأحلام

□ مشكلة الكثيرين منا أنهم يعيشون الأحلام الكبيرة في المستقبل على أساس أن
تأتيهم - كما يفكر الشباب والصبايا في أحلامهم - أن تأتيهم الأحلام كفارس يأتي على
صهوة جواد مطهم، يقطع البراري والقفار ليقدم نفسه إليهم.. إن الأحلام لا تأتي على
جواد مطهم أو غير مطهم.. إن الأحلام هي فكرنا الذي يتطلع إلى الأعلى، وهي قلبنا
الذي ينبض بالأصفى والأنقى، إن الأحلام هي حركتنا التي تنطلق في الخط المستقيم،
لذلك اصنعوا أحلامكم في خطأ إنسانيتكم لا في خطأ غرائزكم، لأنه عندما تتحرك
أحلامكم في خطأ إنسانيتكم، سوف تنطلقون لتجسدوا هذه الأحلام بنسبة عشرة بالمئة
هنا وعشرة بالمئة هناك.

تجسيد الأحلام

إزرعوا في كل حلم تعيشونه، عندما تفكرون بالحديقة الكبيرة وردة واحدة لعلها
ترمي لكم في نهاية الربيع ألف بذرة من بذور المستقبل، إصنعوا شيئاً للحياة تجسدون

فيه بعض أحلامكم.. تحبّون العدالة؟ إعدلوا مع أنفسكم، مع ربّكم، مع أهلكم، مع أزواجكم، مع زوجاتكم، مع أولادكم وبناتكم، مع الحياة من حولكم، إعدلوا مع البيئة التي تشتركون فيها مع الآخرين، أعطوا شيئاً من العدل في الواقع حتى تُقنِعُوا أنفسكم أنّ الأحلام ليست شيئاً في الخيال، كما يقول ذلك الشاعر:

مُنَى إِنْ تَكُنْ حَقّاً أَعَذَبَ الْمُنَى وَإِلَّا فَقَدْ عَشِنَا بِهَا زَمَناً رَغْداً

كأنّه يريدُ للأمنيات أن تعيش بالصدفة.. نحنُ نريد أن نصنع الأحلام في عقولنا، لتكون أحلاماً في الواقع، لا أحلاماً لليقظة كما يقولون، نصنعها في عقولنا، ونصنعها في قلوبنا، ونصنعها في حركتنا في الحياة، عند ذلك عندما نفكّر بالدولة العادلة نكون قد صنعنا شيئاً من العدل في مجتمعنا، يُهَيِّئُ لمجتمع الدولة العادل، عندما نفكر بالامة الحرة نكون قد صنعنا شيئاً من الحرية في حياتنا الصغيرة، من أجل أن تكون دليلاً للحرية في الحياة الكبيرة.

كونوا الناس الذين يعيشون عصرهم وإنسانيتهم وقضاياهم، ولا تكونوا حياديّين أمام القضايا الكبرى في العالم كلّها. لا تكونوا الوطنيين الذين يختنقون في وطنهم، ولكن كونوا الذين يفتحون بوطنهم على كلّ الأوطان. لا تكونوا القوميّين الذين يحبسون أنفسهم في سجن قوميتهم، بل كونوا القوميّين الذين يعيشون القومية حالةً تفتح على الحالات الإنسانية الأخرى. كونوا المتدينين الذين لا يعتبرون أنهم وحدهم عبادُ الله، وأنّ الجنة لهم وحدهم، كونوا المتدينين الذين يفتحون على الله، فيفتحون على كلّ عباد الله، على أساس أنّ الخلق كلّهم عيال الله، وأحبّهم إلى الله أنفعهم لعِيالهِ.. لا أقولها، موعظةً تقليدية، لكن أقولها من خلال كلّ تعبنا الإنساني، ومن خلال كلّ صراخاتنا الروحية، ومن خلال كلّ التحديات التي تواجهنا في الحياة.

■ دائماً تردّدون: «لا بدّ لنا أن نعطي العاطفة
جرعة من العقل».. ما نظرتكم إلى العقل والعاطفة؟

* مسؤوليتنا حبّ الذين يُعطون الحياة حباً من طاقتهم
ومن جهدهم وبذلك نقوِّي مواقعهم.
* البعض يتحدث عن «الحب الأعمى»، الحب لا يكون
أعمى، وإلا كان غريزة، الغريزة تتحسّس والقلب يعي.

وعى العقل

□ أن تُحرّك عقلك فيما لا يُغني حياتك، وفيما يُضيعُ حياتك وحياة الآخرين فيما
يُصحّرها ويهدمها، إنك بذلك تعيشُ فسادَ حركة العقل، ولكن عندما تُطلقُ عقلك فيما
يُغني، بحيث إذا تحرك أعشبت الأرض، وانطلقت المصانع، واكتشف الناسُ أسرار
الكون، واستطاعوا أن يجدوا المنهج الذي يجب أن يهجوّه في حياتهم.. وإذا تحرك
عقلك، استطاع الناس أن يجدوا من خلال حركة عقلك، كيف يمكن أن يُقننوا ويشرعوا
ويتحركوا.. إنك بذلك تعيش عقلك في صلاحه، لأنه يعيش صلاح الفكر في معناه،
ليتحرك من خلاله صلاحُ الواقع وصلاح الحياة.. وهكذا، قلبك، عاطفتك.. فالعاطفة
ليست شيئاً يفرض علينا نفسه، العاطفة نحن نصنعها، لأننا ننطلق بعاطفتنا من خلال
مفاهيمنا النفسية التي تحدّد لنا اتجاه العاطفة.

معنى الحب

نحن نُحب، ولكن لو فكّرنا في الحب، نحن لا نحبّ الآخر، نحن نحبّ ما نُفكّر فيه
بالآخر، عندما نحب الجميل، نحن لا نحب الذات، ولكننا نحب الجمال في الجميل، لأنّ

الجمال يُمثلُ قيمةً عندنا. ومن هنا، فإننا من خلال ارتباطنا بهذه القيمة، نرتبط بمن تتجسد فيه هذه القيمة.

وهكذا عندما تُحبُّ المُخلص فأنت تحب الإخلاص الذي هو قيمة في نفسك فيه، وعندما تحب العالم، فإن العلم يمثل قيمة تُحبها، عندما تتجسد في هذا وذاك العالم.. وهكذا عندما تبغض أو لا تتعاطف مع القبيح، فلأنك تعتبر القبح قيمة سلبية، ولا تتعاطف مع الخائن، لأنك تعتبر الخيانة قيمة سلبية.. لذلك نحن عندما نحب وعندما نبغض، فإننا نحب ما في أنفسنا فيمن نحب، ونبغض ما في أنفسنا فيمن نبغض.. لأن العاطفة ليست شيئاً يفرض نفسه علينا، بل هو شيء يُولد في ولادة مفاهيمنا التي نصنعها أو نرثها أو نتأثر بها هنا وهناك.. لذلك هناك عاطفة تتحرك في خط الصلاح، عندما تنفتح هذه العاطفة على القيم الطيبة في الإنسان، فإنها تكون صلاحاً، لأن الطيبين والمخلصين في الحياة، الذين يعيشون روحية العطاء في الحياة، هؤلاء عندما تمنحهم حباً، فإنك تستطيع أن تمنحهم قوة من خلال هذا الحب، لأن الإنسان في إنسانيته يقوى بعاطفة الآخرين تجاهه، تماماً كما يضعف أمام العاطفة السلبية التي يوجهها الآخرون إليه.

فنحن مسؤوليتنا الحب، حب الذين يُعطون الحياة حباً من طاقتهم ومن جهودهم، ومن حركتهم، ومن كل ما عندهم من علم... إننا بذلك نقوي مواقعهم، والعكس صحيح، إننا نُضعف هؤلاء إذا واجهناهم مواجهة اللامبالاة، ولم نُعطيهم كلمة حب، أو عاطفة شعور، ولم «نفضض» لهم عما في أنفسنا من أحاسيس المحبة.

ليس حباً

وهكذا عندما نعطي الحب لمن لا يستحقه، إننا نقويه، لذلك، للعاطفة صلاحها

وفسادها.. ونحن نستطيع أن نُعقلَ عاطفتنا، ولكنَّ بعضَ الناس يقولون إننا «لا نملك قلوبنا».. المسألة ليست صحيحة، إننا نملك قلوبنا، ولكننا في بعض الحالات، لا نريد أن نُخرج بعض الناس من قلوبنا، ولو من خلال الألفة.. «المتنبى» يمثل حالة إنسانية في بيت من الشعر، يقول:

خَلَقْتُ أَلُوفًا لَوْ رَجَعْتُ إِلَى الصَّبَا لَفَارَقْتُ شَيْبِي مُوجِعَ الْقَلْبِ بَاكِيا

هل تتصورون إنساناً يفارق شيبه الذي استبدله بشباب - لو أمكن أن يُستبدل بالشيبُ الشباب - هل تتصورون إنساناً يبكي وهو يفارقُ الشيب؟ إنها الألفة، الإنسان يألف.. ولذلك فقد يألف الإنسان بفعل بيئته القُبْح، ويبكي عندما يفارقه القُبْح.. قد يألف الخيانة ويستوحش إذا صار إنساناً مخلصاً، وهكذا..

ادرسوا داخلكم، إنزلوا إلى أنفسكم لتفهموها جيداً لأننا في بعض الحالات لا نُفرِّقُ بين ما نريد وما نقدر عليه. أقول أنا لا أستطيع إلا أن أحب فلاناً، ولا أستطيع أن أبغضه، لا أستطيع أن أفارقه، ولو عرف الإنسان نفسه، لقال، لا أريد ذلك، لأنني ألفتَ ذلك، ولأنني استوحشُ من ذلك.

أُتصوِّرُ أننا كما نستطيع أن نحركَ عقولنا، نستطيع أن نُحركَ عواطفنا، ولا بُدَّ لنا دائماً أن نُعطي العاطفة جرعة من العقل حتى تتوازن وتعرفَ كيف تُبصرُ بعينين مفتوحتين، وعندها يسقط «الحب الأعمى» أو «البغض الأعمى» الذي كثيراً ما نتحدث عنه في وجدانياتنا.. ومن المفارقات أنَّ البعض يتحدث عن «الحب الأعمى»، الحب لا يكون أعمى وإلا كان غريزة، والبغض لا يمكن أن يكون أعمى وإلا كان غريزة.. الغريزة تتحسَّس، والقلب يعي.

■ هل لنا أن نخرج من حالة الإنهزام الداخلي، في وقت يخطط لنا الآخرون، لنبقى رقماً بلا فاعلية؟

* المهم أن نعيش عقلية أن نكون رقماً، وإذا استطعنا أن نكون رقماً، فإننا نتخلص من نقطة الصفر.

* هي معركة روح، هل نبقى بلا روح، أو تبقى لنا روحنا؟

* إن الذين يجمدون طاقاتهم يسرقون طاقات أمتهم، والذين يحركون طاقاتهم في الفراغ، يحركون وجودهم في الفراغ.

* الآخرون لا يملكون عقولاً من ذهب لتكون عقولنا من تراب، الآخرون لا يملكون طاقات من حديد، لتكون طاقاتنا من قطن.

الإنبهار والسقوط:

□ إننا عندما نعي واقعنا وقضيتنا ومواقفنا، ونعي ما لنا وما علينا، عند ذلك يمكن أن نكون الواعين لكل ما يخططه الآخرون، وذلك عندما نواجه بوعي الفكرة التي تنطلق من أننا ننتظر الآخر وكيف يخطط، أو ننتظر تخطيط القوى الدولية، ونشغل أنفسنا فيما يريد هذا المحور الدولي الذي يمثل «القضاء والقدر» الدولي - حسب رأي البعض - أو فيما يريد هذا المحور الإقليمي.. أمّا ما نريد نحن، فقد نتنازل عن أن نكون أمّة تريد، أو شعباً يريد، لأنّ القضية قد تكون أنّ هناك مَنْ يحاول أن يستلب إرادتنا وإحساسنا بوجودنا وبشخصيتنا، وهناك مَنْ يريد أن نقول، فكروا لنا، وخطّطوا لنا، وأين موقعنا من النظام الأمني الإقليمي أو الدولي، لا ما هو موقفنا من النظام الأمني الإقليمي أو الدولي.. لأننا بهذا لا نكون حتى صفراً، إذا عشنا هذا الإنبهار بالقوة المتعاطمة، فإننا لا نستطيع أن نتحرك إلا كما تتحرك الأصفار التي لا تنفع ولو كانت بحجم الملايين..

لذلك، كن رقماً ولو بنسبة واحد، كن رقماً يُثبت وجوده، رقماً واحداً، رقماً ثانياً، لأن الأرقام لا يمكن إلا أن تأخذ حجمها في حركة الواقع، فالرقم عندما انطلق من العدم أصبح وجوداً يحرك دائرة ولو صغيرة حوله، والمهم أن نعيش عقلياً أن نكون رقماً، وإذا استطعنا أن نكون رقماً، فإننا نتخلص من نقطة الصفر، ونفكر عندها أن نكون رقماً صعباً، لا أن نكون مجرد شيءٍ من الأشياء يُنظر إلينا كما يُنظر إلى الأشياء.

ومن هنا، لا بد أن نغير ذهنتنا في الحركة السياسية والثقافية، وأن نغير طريقتنا في تحركنا الاجتماعي، والآن نقف من أجل أن نصدق بالفاتحين، وأن يكون لنا شيء من الثبات والمواجهة، لا أن نعيش البهلوانية الاستعراضية، بل أن تكون لنا روح تتحفظ، روح تستعد وتتحدى، لا سيما وأن المعركة ليست بيننا وبين إسرائيل فحسب، ولكن بيننا وبين كل الذين يريدون إسقاطنا، هي معركة روح، هل تبقى بلا روح، أو تبقى لنا روحنا؟ إن المسألة هي أن نغير هذه الذهنية التلقائية، الذهنية التي تنتظر الآخر وتصدق بما يريد الآخر، والتي تقول:

ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها

هذه الذهنية هي التي تقول:

ما علينا إن قضى الشعب جميعاً أفلسنا في أمان

فهذه الذهنية هي سر هزائمنا، حيث نملك أرقاماً كبيرة في العدد، ولكننا قد لا نملك رقماً واحداً في التخطيط.. نخطب كثيراً، ونتحمس ونطلق الشعارات كثيراً، ولكن الذين يتقدمون في تخطيط حاسم منفتح على المسؤولية، هم القليلون القليلون، حتى إذا انطلق منا أناس يعيشون إرادة الحرية والتحرير، فإننا نخاف من ذلك، نخاف أن يُسيئوا إلى

استرخاننا ولهونا وعبثنا، نخاف أن يُسيئوا إلى كلّ المفردات الصغيرة الصغيرة التي عششت في عقولنا بطريقة استهلاكية، واستطاعت أن تعفّن هذه العقول.

تحدّي في مواجهة التحديات

إنّ علينا أن نشعر أننا أمة لا بد أن تصنع نفسها ومرحلتها ومستقبلها، وأنها إذا هُزمت، فإنها لا تسقط أمام الهزيمة، وإنما تفكّر كيف تتحرك نحو النصر من جديد، وإذا حدثها الآخرون عن نقاط الضعف فيها، حدّثتهم عن نقاط القوة عندها، وعن بعض نقاط الضعف عندهم.. إنّ علينا أن نكون مجتمعاً كادحاً يكدح في الجامعة والمعمل، وفي الموقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وأن نكون أمة تعطي كلّ طاقاتها، بحيث عندما يموت أي إنسان منّا، يموت بعد أن أعطى كلّ طاقاته، وألاّ تموت طاقاته بعد أن يموت.. فطاقاتنا مسؤولة الله عندنا، سيسألنا الله عن كلّ طاقةٍ نحملها ونعيشها، كيف حركناها، وأعطينا الناس منها ما يحتاجون؟ إنّ الذين يجمّدون طاقاتهم يسرقون طاقات أمّتهم، والذين يحركون طاقاتهم في الفراغ، يحركون وجودهم في الفراغ..

فالتحديات كبيرة، والآخرون يواجهون مشاكلهم على أساس أنها مشاكل لا بد أن يعملوا على حلّها، لا على طريقة ما نواجهه نحن من مشاكل، حيث المشاكل تسقطنا..

المنطقة تحفل الآن بمتغيرات كثيرة، ونحن نستطيع إذا حركنا طاقاتنا، وتحرّرتنا من ذهنياتنا التي تتحرّك في الجزئيات الصغيرة، نستطيع أن نفعل شيئاً، أن «نخربش جداراً»، وأن نفتح ثغرة، أو نوسع ثغرة، وليس صحيحاً أن أمّتنا كفتت عن القوة وعن الإبداع، ولكنّ المشكلة أنّ الذين يحكمون هذه الأمة هم الذين يخنقون كلّ إبداعاتها، و«يراقبون» الإنسان وهو يفكّر، لأنهم لا يسمحون للإنسان أن يفكّر.. ولهؤلاء نقول: أعطوا الأمة حرية أن تفكّر، وحرية أن تبدع، وأن يعيش الإنسان فيها إنسانيته ومستقبله. أعطوا أمّتنا التي استطاعت أن تصنع حضارة في مدى أقل من مئة سنة، أعطوها حرية

أن تصنع الحضارات، لأننا لسنا بعيدين عن صنع الحضارة، الآخرون لا يملكون عقولاً من ذهب، لتكون عقولنا من تراب، الآخرون لا يملكون طاقاتٍ من حديد، لتكون طاقاتنا من قطن.. إن الآخريين يملكون عقولاً كما نملك، وطاقات كما نملك الطاقات ولكنهم تحركوا ووقفنا.. القضية، هي أن نعيش وجودنا المسؤول في كل إنسانيتنا، وهنا يحضرنى قول علي الأكبر (ع) في كربلاء لوالده الإمام الحسين (ع) عندما سمعه يقول: «القوم يسيرون والمنايا تسير خلفهم» قال: يا أبت، ألسنا على الحق؟ قال (ع): بلى، قال علي الأكبر (ع): «إذاً لا نبالي إن وقعنا على الموت، أو وقع الموت علينا». إذاً علينا أن نكون مع الحق، ونؤكد الحق في عقولنا وقلوبنا، وحركتنا وفي دروبنا، وعند ذلك، عندما يكون الحق حياتنا، فالموت لا يمثل بالنسبة إلينا موتاً، ولكنه يمثل حياة جديدة في نهاية المطاف.

■ ما مدى تأثير الالتزام الديني على شعر الحب والغزل؟

* عندما تنفتح على الله تكتشف الحب.. ليس حباً ينبض به جسدك، ولكنه حباً ينفتح على روحك وقلبك ووجدانك وحركتك في الحياة.

* هناك فرق بين أن تشتهي وأن تحب، بين أن تلهو وأن تحب، وبين أن تحب وأن تذوب.. تلك هي المسألة.

إنفتاح على الروح

□ من الطبيعي، أنك عندما تكون ملتزماً دينياً بوعي، فإنك تكتشف الحب بأعمق مشاعره وبأرحب آفاقه.. وهكذا عندما تنفتح على الله تكتشف الحب، ليس حباً ينبض به جسدك، ولكنه حباً ينفتح على روحك وقلبك ووجدانك وحركتك في الحياة.. وبهذا تحب الله حباً منفتحاً، لا حباً مغلقاً عابثاً، كما يعبت بعض الناس عندما يتحدثون عن الله في مسألة الحب.. عندما تنفتح على الله بوعي، فالله الذي خلق كل هذا الجمال يجعلك تبكي فرحاً، وعندها يتحوّل الفرح إلى حالة بكائية تشعر فيها بالسعادة التي لا تفهم أبعادها.. ومعنى ذلك أن الجمال هذا احتواك كلك حتى لم تعد تستطيع أن تتماسك أمام البسمات.. الضحكات لا معنى لها، الدمع أصفى تعبير عن الحب عندما يأخذك كلك، وعندما تحب الله، تحب الناس، وعندما تحب الله ترى الجمال يمتزج بمعنى الإبداع في إيمانك بالله. وهذه هي مسألة الدين المنفتح على الكون وعلى الحياة، الدين الذي يشعرك بأنك جزء من الكون.

حَبَّ اللَّهِ

نحن نقرأ في تجارب الإمام زين العابدين (ع) - الذي سمّاه المرحوم السيد صدر الدين شرف الدين، الذي كان يملك ترف الكلمة وترف الفكرة: «شاعر الله» - نقرأ هذا الشعور، وهو أنك جزءٌ من الكون لست منفصلاً عنه تصارعه ويصارعك: «أصبحنا وأصبحت الأشياء كلّها بجملتها لك، سماؤها وأرضها، وما بثثت في كل واحد منهما، ساكنه ومتحركه ومقيمه وشاخصه، وما علا في الهواء، وما كنّ تحت الثرى» تشعر بأنك جزء من الكون تتفاعل معه، وتحاول أن يتفاعل معك.. فإن تبدأ الحب، لا بدّ أن تعيش عمقه في عمقك، وعند ذلك تكون حركة الحب تفاصيل في حياتك، مَنْ لا يملك عمق الحب كقيمة في قلبه ووجدانه لا يستطيع أن يُحب.. هناك فرق بين أن تشتهي وأن تحب، بين أن تلهو، وأن تحب، وبين أن تحب وأن تذوب، تلك هي المسألة.

وأتصور أننا عندما نعيش حبّ الله، فنحن نعيشُ الشِعْرَ أحاسيس ومشاعر وأفاقاً، وعند ذلك يصفو الحبّ في وجدانك، حتى وأنت تنطلق في كلّ مواقع الجمال، حتى الجمال الإنساني، إنّه لا يُحرّك فيك غريزتك، ولكنه يحرك فيك صفاء الإحساس بالقيمة المبدعة للجمال التي تُعطي الحياة، شيئاً للطمأنينة، و شيئاً للروعة، و شيئاً للإبداع، و شيئاً للحب.

■ مع أن الإنسان يملك العقل والإرادة، نلاحظ أن تصرفه في أغلب الأحيان، هو ردة فعل، وليس فعلاً حقيقياً، ما قولكم في ذلك؟

* الإنسان الذي تنطلق حاجاته لتكون واعية، هو إنسان يملك التوازن في حركة وجوده.

□ مشكلة الإنسان أنه يستغرق في حاجاته الحسية العمياء، أكثر مما يستغرق في معنى هذه الحاجات، وفي حركة هذه الحاجات في حياته وحياة الآخرين.. ومن هنا، فإننا في الوقت الذي لا نمانع فيه من أن يعيش الإنسان حاجاته، باعتبار أنها شروط استمرار حياته في ضرورتها وفي غير ضرورتها، كذلك نريد للإنسان أن يعيش وعي معنى الشهوة واللذة والحاجة، كما يعيش وعي الأفكار الكبرى، وعي الأهداف العظيمة، وعي القضايا المتحركة في الحياة، وعي الكون من حوله، لأن الإنسان الذي تنطلق حاجاته لتكون واعية هو إنسان يملك التوازن في حركة وجوده.

لذلك، فمشكلة العقل والإرادة، أنهما قد يسقطان أو يضعفان، أو ينسحبان عندما تتحرك الشهوات بشكل مجنون أعمى. وعلى هذا، فالقيمة الإنسانية هي بمقدار ما ينطلق العقل، ليكون سيداً في وعي الواقع في داخل الإنسان، ولتكون الإرادة سيّدة في تجسيد هذا الوعي في حركة الإنسان في الواقع، ولتكون الحاجات مجرد أشياء ينظمها العقل، وتوجهها الإرادة، أو تحركها الإرادة في اتجاهها السليم.

ومن هنا، نحن نريد أن يعيش الإنسان عقله وإرادته - لا بالشكل التجريدي - يعيش عقله الحيّ الواقعي، الذي يحاول أن يبحث عن بداية ونهاية وهدف لكل مفردة من مفردات حياته.

■ لبناء شخصية إسلامية متوازنة، ذات بناء فكري سليم وروحية جهادية، ما تنصحون في ذلك؟

* للإنسان كمخلوق أن يأكل ويشرب ويتلذذ وينام، ولكنه عليه أن يعطي شيئاً من عقله للحياة.

العقل والإرادة أولاً

□ بناء الشخصية الإسلامية يفرض أن يعمل الإنسان من أجل توفير العناصر الذاتية التي تحقق كل مهماته الإنسانية في الحياة.. وأولى مهام الإنسان، مسؤوليته عن نفسه، فيما هو جسدٌ وعقلٌ وإرادةٌ وروح.. والله تعالى أوكلَ إليه إدارة شؤون نفسه من خلال العقل الذي يستطيع به أن يفهم الحَسَنَ والقبيح، ومن خلال الإرادة التي يستطيع الوقوف بها على الخطِّ عبر الوسائل المستقيمة.. إذأ، لا بُدَّ أن تكون لديه عناصرُ في شخصيته، تجعله يقود وجوده قيادَةً تؤدي به إلى النجاة في الدنيا والآخرة. وأول ما يُطلب منه أن ينمي عقله ويُدربَه على ملاحقة التجارب التي عاشها في حياته، ثم يقرأ ما أنتجته عقولُ الآخرين، وأن يدخلَ في عملية حوارٍ مع الآخرين، حتى يصنع من عقله قوةً تنطلق من تجربته الخاصة، ومن تجارب الآخرين، فيملك بهذا العقل كلَّ ما يمثل وضوحاً في الرؤية، ومعرفةً للواقع أكثر، وانسجاماً مع الخطوط المستقيمة التي تؤدي به إلى النتائج الأفضل.

فالعقل إذأ، يحتاج إلى أن يعيش الحركة دائماً في تفكيره، وفي ملاحظته للتجربة التي تواجهه في الحياة فيما يتعلمه، وفيما يحاور به الآخرين.. وعلى الإنسان بعد ذلك أن يكون صاحب إرادة، ولأ تسيطر عليه نقاط الضعف الموجودة في نفسه، بمعنى أن

يقود نفسه، ولا تقوده نفسه الخاضعة لنقاط الضعف. وعليه أيضاً أن يكون واقعياً في الحياة غير خيالي، وغير مستسلم للأجواء الخيالية، فليدرس الواقع، ويحاول أن يطوره ولا يستسلم له، وذلك بحسب الإمكانيات المتوافرة.

رسالة وحاجات

فالإنسان العاقل الواقعي يتحرك من خلال هذه العناصر التي ذكرنا، ومن خلال ما أعطاه الله من طاقات، إلى جانب ما يمثله الصدق والأمانة والمسؤولية من عناصر مهمة في تكوين شخصيته.. فإذا كان الإنسان صادقاً كان جاداً وإذا كان أميناً، كان متوازناً، وإذا كان مسؤولاً كان منفتحاً على الحياة كلها من خلال الخطوط التي تحتاجها الحياة، ومن الطبيعي أن يكون للإنسان رسالة في الحياة، فإن يأكل ليست قضيته، بل حاجته وأن يشرب ليست رسالته بل كذلك حاجته، وأن يلبس ويسكن ويتلذذ، ويحصل على شهواته، هي حاجاته. فالرسالة شيء والحاجات شيء آخر، وهذه الحاجات عليه أن يحققها لكي يعيش، ولكن عندما يريد أن يعيش، لا بُدّ للقضية، للرسالة أن تبرر حياته.. فله كمخلوق أن يأكل ويشرب ويتلذذ وينام، ولكن عليه أن يُعطي شيئاً من عقله للحياة، وشيئاً من إرادته، ومن طاقته، ومن مسؤوليته.

■ هل بإمكان الإنسان أن يعي ويعيش دوره في الحياة الكاملة، من دون أن يتكامل مع شخصٍ آخر، وأن تُتَوَجَّ هذه العلاقة بإنجاب أطفال؟

تكامل الوجود

□ من الطبيعي، أننا عندما نتحدث عن الإمكان في التجريد، فالإنسان وجودٌ مستقل، يُمكن له ألا يعيش مع وجود الآخر، ويُمكن له أن يكبت حاجاته ومشاعره وأحاسيسه وتطلّعاته، ولكن عندما يريد أن يكون إنساناً ينزل إلى عمق إنسانيته، فإنه لا يملك أن يعيش وحده، لأنّ مسألة الزوجية، ليست مسألة تنطلق من خلال الخارج، ولكنها تنطلق من خلال الداخل.. فالمرأة موجودة في داخل الرجل، والرجل موجودٌ في داخل المرأة، لأنّ الإنسان الأول - الرجل والمرأة - جعل كلّ رجل يُولد من امرأة ورجل، وجعل كل امرأة تُولد من رجل وامرأة.. فالرجل والمرأة، منطلقان في داخل كلّ ذات على أساس الأبوة والأمومة، لهذا، فنحن في وجودنا نُوجد في داخلنا رجلاً وامرأة، وفي الحاجات لا يكتمل الرجل إلا بالمرأة، ولا تكتمل المرأة إلا بالرجل، وكذلك في إنتاج الحياة، في عملية الإمتداد في الإنسانية.

عملية احتواء

فالمسألة تحتاجُ إلى تكامل، لأنّ الإنسان يُحسّ بالفراغ الهائل، وبالعدم في معنى الامتداد عندما ينفصل عن الإنسان الآخر.. ولذا، فهذا التمازج، وهذا التزاوج الذاتي يفرضُ وعياً للرجل في حركة ذكوريته في الأنثى، وعياً للمرأة في حركة أنوثتها في الرجل. ومن أفضل التعبيرات الموحية في هذا المجال، هو التعبير القرآني: (هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ، وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لِهِنَّ)^(١)..

فالمرأة تلبس الرجل، والرجل يلبس المرأة.. إنها عملية احتواءٍ للوجود كلّه في كلّ منهما تماماً، كما هو احتواء الثوب للجسد.. ولذلك، فإننا لا نوافق على التفكير الذي يعزل الرجل في داخل نفسه، وفي خارج حياته عن المرأة، ويعزل المرأة بالطريقة نفسها، لأنهما عند ذلك يتنكران لمعنى وجودهما في ذاتياتهما الذكورية والأنثوية التي هي ذاتيات معنى الحياة فيهما.

■ برأيكم ما هي السعادة، وهل يمكن أن تدوم؟

تنوّعات السعادة

□ السعادة هي حالةٌ داخلية من حالات الوعي والإحساس بالأشياء التي تحيط بنا مما يتمثل في حاجاتنا وفي تطلعاتنا، وفي أحلامنا في الحياة. السعادة، هي حركة علاقة الإحساس الداخلي بالخارج، فنحن نُحسّ بالسعادة عندما نُحسّ بالانسجام في حياتنا مع بعض الأشياء التي تحيط بنا. فالإنسان يشعرُ بالسعادة عندما يعيش الإنسان مع مَنْ يُحبُّ أو يُبغض، ويُحسّ بالسعادة عندما يحصل على حاجاته ولذاته وشهوته، ويُحسّ بالسعادة عندما يلتقي بأحلامه وبطموحاته في الحياة.

وهكذا، نشعر أنّ الأشياء المادية التي تنطلق السعادة من وعيها، أو من وجودها، هي الشرط الذي تتحقّق فيه السعادة في الداخل، فالسعادة حركةٌ وعي في الإحساس من خلال الانفتاح على الواقع المتصل بوجود الإنسان. ومن هنا، فإنّنا لا يمكن أن نعتبر السعادة حالةً مادية في مفهومها الفكريّ. ربما يتحدّث بعض الناس عن السعادة الروحية، والسعادة المادية، من خلال موضوع السعادة، فقد يعيش الإنسان السعادة في بعض الجوانب الروحية من تطلعاته، وقد يعيش السعادة في بعض المواقع المادية من حاجاته. فالمادة والروح، هنا، موضوعان للسعادة، وليس هما السعادة، بل الإحساس بهما، العيش لهما، يُعطينا الإحساس بالسعادة الداخلية، ولذلك، فإنّ السعادة تمثّل حالةً روحية في الإحساس الماديّ في داخلنا، ولا تمثّل حالةً خارجية، فيما يتناثر حولنا من حاجاتنا وأوضاعنا.

■ برأيكم، ما هي الوحدة - العزلة - ولماذا يشعر الإنسان بالعزلة؟

□ إنَّ الوحدة، هي حالة انفصالٍ عن الآخر، أو انفصالٍ عن شيءٍ، فنحن نشعر بالوحدة وبالعزلة، عندما ننسى الآخر، وعندما نغفل في وجودنا عن وعي الآخر، فإننا نشعر بأننا وحدنا في الكون، وبذلك يعيش الإنسان الوحشة، والكثير من الحالات النفسية السلبية، والتي قد تلتقي بالضياح في الكثير من الحالات. ومن هنا، فإنَّ قضية العزلة، هي قضية نفسية أكثر منها قضية خارجية، وربما يكون وجودنا في مكانٍ لا يوجد فيه إنسان، يُوحى لنا بالعزلة، ولكنَّ هذا الإحساس بالعزلة ينطلق من خلال غفلتنا عن الآخر، واستغراقنا في أنفسنا. وقد تنطلق هذه العزلة - الوحدة - من حالةٍ مرضية، وعندها يعيش الإنسان حالة الكبرياء الذاتية، التي تجعله لا يُحسُّ بوجود النَّاس من حوله، بحيث يختصرُ الوجود في ذاته، ويعتبر أنه وحده هو الموجود، عندها يشعر بالوحدة، وبالعزلة، لأنَّه لا يشعرُ بقيمة أيِّ أحدٍ يُمكن أن يعيش معه، أو أن يتوازن معه.

■ ألا نستطيع أن نربط هذا الأمر بشعور الإنسان أنه غير محبوب من الآخر؟

□ إن هذا النوع من الإحساس بالعزلة عن الناس، ينطلق من أن الإنسان يحب أن يعيش وحده، وبذلك يشعر بالعزلة، عندما يُشعر نفسه أنه منبوذ من الناس. والعزلة كائنٌ موجود، ليس معه أحد، لأن هذا «الأحد» الذي يُحيط به، مفصولٌ عنه نفسياً أو روحياً، فكأنه يعيش وحده، لأن قصة أن نعيش مع الآخرين، ليست أن يكونوا موجودين معنا في الأرض التي نعيش فيها، بل أن يكونوا موجودين في وعينا، وأحلامنا، وأحاسيسنا وعواطفنا، كما نكون موجودين في أحاسيسهم وعواطفهم.. إنها الوحدة - العزلة النفسية - التي يفتقد الإنسان فيها احساس الآخرين به، أو احساسه بالآخرين.

■ لماذا يخاف الإنسان من الموت، مع معرفته بأنه أمرٌ محتمٌّ؟

□ إنَّ حبَّ الحياة، هو الذي يخلقُ في داخل نفوسنا، الخوفَ من الموت، وقضية أن يكون الموت محتمّاً، لا يعني أننا لا نخافه، فنحن قد نلتقي بأشياء محتمّة من الأمور السلبية في حياتنا، ومع ذلك نخافها، ونحاول لا شعورياً أن نحترس منها. ومن هنا، فإنَّ الثقافة الدينية استطاعت أن تجعل الإنسان محباً للموت، من خلال أنّها فتحت له جسراً، يجعل الموت يربطه بحياةٍ أخرى أفضل.

ولذلك، أمكن ومن خلال الحسّ الديني، أمكن للقضايا الكبيرة أن تنطلق في حياة الإنسان، لتتحدّى كلّ المخاطر حتى الموت، باعتبار أن الموت لا يعني نهاية الحياة، ولكنه يعني نهاية مرحلة من الحياة، لتبدأ مرحلة أفضل، ولذلك أيضاً، فإننا لا نفهم أيّ معنى للشهادة بمعناها الحيّ بعيداً عن الرواسب الدينية، حتى أن الذين لا يؤمنون بالله، عندما ينطلقون في خطأ «الشهادة»، فإنهم ينطلقون في ذلك، من خلال الرواسب الدينية الكامنة في أعماقهم، وإلا لو فكّرنا مادياً، فما معنى أن أضحيّ بنفسي في سبيل الآخرين، هي حياة واحدة أعيشها؟ ما معنى أن أموت ليحيا الآخرون؟ أو أجوع ليشبع الآخرون؟ إنَّ هذه القيم المطلقة في نفس الإنسان، هي قيمٌ دينية حاول البعض أن يفسّرها تفسيراً مادياً، ولكن حركتها في عمق الوجدان، تنطلق من بقايا الرواسب الدينية، التي يتحرك فيها الإنسان - حتى المادي والملحد - لا شعورياً.

وعندما نعتبر من خلال العقيدة الدينية، أن هناك حياةً أخرى، وأن هناك عذاباً وثواباً على ما عمله الإنسان في الدنيا من خير أو شر، فإنَّ معنى ذلك، أن الموت هو القنطرة التي تربط بين الحياتين.

■ هل الخوف من طبيعة الدنيا، أم من طبيعة البشر، ولماذا يخاف الإنسان؟

□ إنَّ الإنسان يخاف، لأنَّه يعيشُ حياته، وإذا كان يعيش حياته، فإنَّه يعيش ضرورات هذه الحياة وأحلامها. ومن هنا، ينطلق الخوف، من الحالة التي يفكر فيها الإنسان، بأنَّ هناك شيئاً خفياً أو بارزاً، يمكن أن يقضيَ على حياته، أو يخفِّف من شروط حياته، أو يضعف بعض أوضاعه، أو يصادر بعض أحلامه.. الخوف ينطلق من استغراقنا فيما نحبه، وفيما نعيشه بالمستوى الذي نحبُّ فيه أن يبقى لنا، لذلك، الخوف ينطلق من حالة فرضية العدم. ومن هنا، فإنَّ الخوف ينطلق من خلال وجودنا، ووجودنا يختزن الخوف من خلال أنَّ الإحساس بالوجود، يفرضُ الخوف من العدم، ولذلك أيضاً، نعتقد أنَّ الخوف يمثل جزءاً من ذاتياتنا، وربما كانت حالة الخوف منطلقة من غرائزنا، باعتبار أنَّها هي التي تحمينا من كلِّ المخاطر، فنحن إذا لم نخفُ من الموت، فإنَّنا لا نجد هناك دافعاً يدفعنا إلى أن نحترس من كلِّ ما يجلب إلينا الموت، وإذا كنَّا نخافُ من الفقر، فإنَّنا نعمل على أساس أن نحصل على فُرصِ الغنى. وهكذا، فإنَّنا نعتبر أنَّ الخوف غريزة إنسانية، لها بُعدٌ إيجابي في حياة الإنسان، فهي التي تحمي للإنسان حركته ووجوده، ولكنها قد تتحوَّل - ككل غريزة لا تتوازن - إلى حالة تشكُّل الخطر على الإنسان، عندما تقوده إلى الوضع الذي يُشلُّ حياته، ويشلُّ حركته، وهذا ما يلتقي باليأس وبالإحباط، وبالضياع.

■ هل تَرَوْنَ خطورة في تملك الإنسان للمال؟

□ إن التملك لا يمثل خطورة إلا بمقدار غفلة الإنسان عن وظيفة المال في الحياة، فالمال ليس قيمة موضوعية، بل هو حاجة مادية تتوقف عليها بعض شروط الإنسان في وجوده، أو في حركته. ومن هنا، فإن كثرة المال لدى الإنسان، لا تمثل شيئاً كثيراً في معنى إنسانيته، بل تمثل شيئاً كبيراً في معنى حاجاته، ولهذا، فإن مشكلة المال، أن الإنسان قد يغفل في استغراقه فيه، وبارتباطه فيه، لا سيما في المجتمع الذي يعتبر المال قيمة، ويُعتبر صاحبه ذا قيمة، قد يعمى معها، وقد تكبرُ نفسه، ويشعر بالتفوق على الآخرين، وهذا ما عبّر عنه القرآن الكريم: (كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ أَسْفَهًا) (١)، وهذا الشعور بالامتلاء، إذا لم يصاحبه وعي في معنى هذا الامتلاء، فإنه قد يتحوّل إلى عقدة نفسية تتحوّل إلى حالة طُغيان.

■ - برأيكم - ما علاقة الإنسان بالماضي والحاضر والمستقبل؟

* الزمن، ليس مجردَ خطٍّ وهميٍّ معلقٍ في الفضاء.. بل هو امتدادُ حركة الحياة في الوجود.

□ الماضي والحاضر والمستقبل، لحظاتٌ زمنية لا معنى لها إلا في الإنسان، فالماضي هو الزمنُ الذي عشناه، والحاضر هو الزمن الذي نعيشه، والمستقبل هو الزمن الذي ننتظرُ أن نعيشه.. الزمن ليس مجردَ خطٍّ وهميٍّ معلقٍ في الفضاء.. بل هو امتداد حركة الحياة في الوجود. ولما كان الإنسان هو المخلوق الحيُّ الواعي الوحيد في هذا المعنى من الوعي المنفتح على الكون كلّه، وعلى المسؤولية كلها، فإنَّ الزمن يمثلُ امتداد حركته.. فالزمن، هو الذي يحتضن أحلامنا، ويحتضنُ نشاطاتنا، وثقافاتنا، وإنتاجنا، ولذاتنا وشهواتنا، وكلَّ شيءٍ.. لذلك، نحن لا نستطيع أن نفصل بين الزمن والإنسان، فالماضي، هو الذي مات في لحظة من اللحظات، عندما ماتت اللحظة فيه، وبُعِثَ من جديد، والحاضر هو أنا الذي أحيأ وأعيش هذه الحياة في عملية انسحاب منها، والمستقبل هو حركة البعث الإنساني بعد أن يموت الإنسانُ الماضي، والإنسانُ الحاضر.

لذلك، أنا أرى الماضي والحاضر والمستقبل، أراه معنى للامتداد الإنساني، التي تُعطي فيه كلَّ مرحلة من مراحل معنى المرحلة الأخرى لتتكامل المراحل، ولتُولد مرحلةً من مرحلة. الماضي هو الذي يُنجب الحاضر ويُنتجه، والحاضر هو الذي يُنجبُ المستقبل، وعملية هذا التوالد الزمني، هي التي تمثلُ عملية ولادة الإنسان في معناه المشتمل على كلِّ عناصر ذاته، وعلى كلِّ عناصر حياته.

■ كثيراً ما يعيش الإنسان تمرّقاً نفسياً وفقداناً للروحانية. برأيكم ما هي الوسائل الناجعة لتفادي الوقوع في هذه الأزمات؟

□ إنني أعتقد أنّ كثيراً من حالات العقد النفسية، والحالات العصبية التي يسقط الإنسان أمامها، لا يعمل الإنسان فيها على أن يواجه هذه الحالات بطريقة عقلانية. من هنا، فإنني أقول لكلّ إنسانٍ يعيش الأزمة النفسية: إقحم أزمته، ادخل في داخلها، ادرس خلفياتها، اطرح على نفسك سؤالاً، لماذا؟ لماذا؟ ولماذا؟ وعندئذٍ ستجد الجواب، لا تخف من اقتحام نفسك، فالذين يهربون من مشاكلهم، سوف تسحقهم المشاكل.. وعلى الإنسان أن يكون أكبر من المشكلة.. أقولها للشباب الذين يعيشون تجارب محدودة، تجعلهم يضيقون بأية مشكلة حتى تكاد المشكلة أن تخنقهم، أقول: واجهوها بهدوء، لن تقتلك المشكلة، واجهوها واقتحموها، وادرسوا أسبابها... لأنّ هذا الضياع يأتي من خلال عدم معرفة السبب، فتغرقكم الهواجس والوساوس.

وهناك كلمة للإمام عليّ (ع) تشجّع الإنسان على أن يتحدّى جانب الخوف والحيرة في نفسه: «إذا هبت أمراً، فقع فيه، فإنّ شدّة توقّيه أعظم مما تخاف منه». لذلك على الإنسان أن يستنفر قوته العقلية والإرادية وسيعرف أنّه لا يحتاج إلى طبيب نفسيّ، بل يمكن إذا وعى نفسه أن يكون طبيباً نفسه.

■ هناك مَنْ يعيش حالة وسواس دائم، ويشعر بأنه مقصّر ولا يصل إلى شعور الرضا عن نفسه خلال قيامه بالأعمال العبادية، مع العلم أنه لا يوفر جهداً في هذا الجانب، ما نصيحتكم في هذا المجال؟

□ هناك فرق بين الإنسان الذي يشعر أنه مقصّر، لأنه يرغبُ بطاعة الله أكثر، على قاعدة «لا تُخرجُ نفسك من حدِّ التقصير»، وبين الإنسان الذي تتحوّل عنده إلى وسواس، أو إلى حالةٍ نفسيةٍ معقّدة متأزّمة، هذا غير مقبول. والإنسان عندما يُفكّر، بأنّ الله سبحانه يريد منه جهداً بحسب الوضع الطبيعي، فإنه يعمل على تطوير هذا الجهد، وتقوية الأعمال العبادية.

ويقال - حسب الروايات - إنّ الإمام الباقر (ع) رأى ولده الإمام الصادق (ع) في حالة الطواف، وهو يتصابّ عرقاً، ويبذل جهداً، ويسيل العرق من وجهه، قال له: «يا بني، إنّ الله يرضى منك بأقلّ من هذا»، أي لا تجهد نفسك أكثر، أعبد الله بشكل هادي، فلا تُرهق ولا تعذب جسدك ونفسك، ثم قال له: «إنّ هذا الدين متين، فأوغل فيه برفق، ولا تبغض إلى نفسك عبادة ربك» ومعنى ذلك، أدخل في هذا الدين بهدوء، ولا تُثقل نفسك بالعبادة، بحيث تبقى في الليل والنهار، تمارس الصلاة والعبادة والدعاء دون أن تترك لنفسك فسحة من الراحة، وتحوّل هذه الأعمال العبادية إلى ثقلٍ يضغط على نفسك، ويتحوّل إلى حالةٍ نفسيةٍ معقّدة، وعندها تعبد الله من دون وعي. وعلى هذا قد تترك العبادة «ولا تبغض إلى نفسك عبادة ربك، فإنّ المنبتّ - المقطوع في الطريق، الذي كانت تسير به دابته، دون أن يُريحها فسقطت وماتت في الطريق - لا ظهراً أبقى - لم يُبق على دابته - ولا أرضاً قطع - وهو سقط في نصف الطريق». من هنا كان

الحديث: «رَوَّحُوا الْقُلُوبَ سَاعَةً بَعْدَ سَاعَةٍ»، إعمل بقدر طاقتك، وبشكل يجعلك دائماً في نشاط العبادة، ونحن نعرف أن الإمام علياً (ع) يقول: «لِلْمُؤْمِنِ ثَلَاثُ سَاعَاتٍ، سَاعَةٌ يَنَاجِي فِيهَا رَبَّهُ، وَسَاعَةٌ يَرْمِي فِيهَا مَعَاشَهُ، وَسَاعَةٌ يُخَلِّي بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ لَدُنَّهَا فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ فَإِنَّهَا عَوْنٌ عَلَى تَيْبَتِكَ السَّاعَتَيْنِ».

إذاً، مسألة الوسواس عندما تتحوّل إلى حالة نفسية متأزّمة، فإنها تشكل خطراً، وعلى الإنسان أن يعالج نفسه بالثقة بربه، وبالسير بالشكل الطبيعي.

■ يسقط البعض في مستنقع القلق فتتعطل حركة الوجود في داخله، وطاقته في المجتمع تتجمد، برأيكم ماذا يمثل هذا الوجود في حركة إبداع الإنسان؟

* الذين يجمدون عند الماضي ويستغرقون فيه ويقدسون عاداته وتقاليده، حتى ولو كانت منحرفة او متخلفة هؤلاء يريدون للحياة أن تموت.

* كن الإنسان الذي يبقى في حركة دائمة، والإنسان الذي يبدع، لأنك كلما أبدعت أكثر، كنت التقي أكثر.

الوجود . . ونحن

□ أن تعيش وجودك كإنسان يخترن أكثر من طاقة، ويتطلع لأكثر من قيمة، وينطلق من أكثر من حركة مما أودعه الله في داخلك.. أن تعيش وجودك، تلك مسؤولية، فليست امتيازاً ولا شرفاً، فأنت وجدت من خلال عناصر هذه الأرض، ومن كل طاقات الإنسان.. لذلك، الوجود يجتذب الوجود، فأن تكون إنساناً موجوداً، معناه أن تعطي الوجود شيئاً منك، شيئاً من عقلك، من روحك وحركتك وانفتاحك، ومن اطلالتك على مستقبل تصنع شيئاً منه، إذا لم تستطع أن تصنعه أنت. لذلك، أن نعيش وجودنا، أن نكون في حالة طوارئ عقلية. ومن المؤسف، أن لغتنا في هذا الشرق، فرضت علينا كلمات الأمن والعسكر حتى دخلت في مفرداتنا، فصارت قصة عقلك، قصة شيء صنع الآخرون، ففرضوا عليه بعض الأفكار، وأدخلوا في عمقه بعض الخطوط، ثم أطلقوه في أفق معين، فالآخرون صنعوك من خلال ما صنعوا. ولكن أنت ماذا صنعت؟ ليست المسألة أن تصنع الآخر لتتضح شخصيتك عندك بأنك المعلم والمفكر، المسألة، أن تصنع نفسك

أنت، أن تعيد النظر في عقلك ليكون عقلك طاقة تُؤلِّد فيك ومنك، فالذين يجمدون عند الماضي ويستغرقون فيه ويقَدِّسون كلَّ عاداته وتقاليده حتى ولو كانت منحرفة أو متخلفة، هؤلاء يريدون للحياة أن تموت، لأنَّ الحياة عندما تسكن، تموت، وعندما تتحرَّك تحيا من جديد..

وعى الذات

لذا، إنَّ مسؤوليتنا في هذا الوجود أن نصنع للوجود وجوداً ثانياً. قد لا نستطيع أن نضيف شيئاً للكون، ولكننا نستطيع أن نضيف شيئاً لعقله و شيئاً لحركته، وأن نضيف الكثير الكثير من المفردات التي وضعها الله بين أيدينا، لنصوغ مثلها مفردات من خلال سنن الله وقوانينه، وأن نكتشف سرَّ الكون لا بالطريقة التجريدية، لأنَّ إيماننا بالله لا ينطلق من خلال تجريد نجلس فيه مع أنفسنا لتتغزَّل برينا، ولنبعث في أنفسنا الآهات ابتهالات. هذا شيءٌ عظيم في الروح، ولكنَّ الله علَّمنا أن نعرفه من خلال عناصر العظمة في إبداعه للكون، لأنَّه أرادنا سبحانه أن نؤمن به، من خلال جولةٍ كونية تنطلق إلى أعماق الأرض، وتتجول في ساحاتها، وتفتح على آفاقها، من أجل أن نكتشف سرّاً هنا أو هناك، لا لنكتفي بالتسبيح، بل لكي تتحوَّل التسبيحة صياغةً لواقع ولطاقة تُصنَّع الطبيعة.. ومن هنا نحن مدعوون عندما نكتشف أسرار الله في الكون أن نُصنَّع للطبيعة، نصنع قوانينها على هدى تلك القوانين ليكون إنساننا، الإنسان الذي جعله الله خليفته في الأرض، وقال له، كن الإنسان الذي يبقى في حركةٍ دائمةٍ، والإنسان الذي يُبدع، لأنك كلما أبدعت أكثر، كنت التقى أكثر، وكلما انفتحت أكثر، كنت المنفتح على الله أكثر، لأنَّ الخلق عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله. وعلى هذا، فإنَّ علينا أن ننطلق من خلال وجودنا في هذا الشرق، أو من خلال وجودنا في هذا العالم العربي والإسلامي، لنخطَّ ولنواجه كلَّ التحديات.

■ الإنسان يتقدم ويسمو بإنسانيته وبفكره،
ولكن نحن نتساءل، إلى متى سيبقى المعاق جسدياً
أسيراً أو هاماً أكثرية الناس، وعدم الوثوق بقدرته؟

إبداع الإعاقة

□ إن الإعاقة الجسدية لا تمثل حالة سلبية في إنسانية المعاق جسدياً.. وربما يكون المعاق جسدياً من أكثر الناس ذكاءً، ومن أكثر الناس قدرةً على الفهم.. إن أبا العلاء المعري كان معاقاً جسدياً، ولكننا لا زلنا ندرس شعره، وإن طه حسين، كان معاقاً ولكننا لا نزال ندرس أدبه.

لذلك على الإنسان ألا ينظر إلى سلبيات المعاق، ولكن عليه أن ينظر إلى إيجابياته، فنجد أن كثيراً من المعاقين قد يُبدعون أكثر مما يُبدع غير المعاقين في مجالات كثيرة. قد تُوظف شخصاً أعمى على الهاتف، فإنه يستطيع أن يقوم بمهمته بواسطة خبرته التي يملكها، أكثر من إنسان مُبصر. ونحن نعرف من خلال معهد المكفوفين(*)، أن هناك مكفوفين يُبدعون في الأشغال اليدوية أكثر مما يُبدع المبصرون، ولذلك قد ترى شخصاً من أجمل الناس وأكملهم جسداً، ولكن من أغبى الناس، بحيث لا تطيق أن تجلس معه لحظة واحدة، بينما ترى شخصاً أعمى أو مشلولاً، وتجد عنده نشاطاً وخبرة..

توظيف القدرات

من هنا، علينا ألا نسيءَ إلى إنسانية هؤلاء، فننظر إليهم باحتقار، أو بنظرة إشفاقٍ وعطف، بل علينا أن ننظر إليهم على أنهم أناسٌ ابتلاهم الله من خلال مرضٍ وراثيٍّ، أو

* التابع لمؤسسة الإمام الهادي (ع) للإعاقة السمعية والبصرية.

من خلال حادث، وقد يبتلينا الله كما ابتلاهم، لذلك، عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به، ولو قدر الله لك، أن تصبح كفيفاً أو أصمّ أو معاقاً من الناحية الجسدية، فهل تقبل من الناس أن يعاملوك بالطريقة التي تعامل فيها المعاق؟ طبعاً، لن تقبل. وفي أدبنا الإسلامي، أن الإنسان إذا رأى شخصاً مُبتلىً، يقول: «الحمدُ لله الذي عافاني مما ابتلى به غيري، ولو شاء لفعل».

وشماتة الإنسان بالمعاق، قد تؤدي إلى أن يبتليه الله في حياته. لذلك عندما نريد أن نوظفَ المعاقين، أو نزوجهم، ونعيش معهم، علينا أن ندرسهم، كما لو كانوا أناساً يملكون القدرات، لنحدد هذه القدرات، فإذا رأينا أن قدراتهم تتناسب مع حاجاتنا الوظيفية، أو مع حاجاتنا العملية، علينا أن نحقق أهدافنا في ذلك، وأن نحفظ إنسانية هؤلاء لمنعهم من أن يعيشوا اتكاليين على صدقات وأكتاف الناس.

□ القضاء والقدر :

* استسلام أم أسباب؟

* القدر والحظّ.

* إرادة الإنسان.

* مسير أم مخير.

* رداً على إشكالية.

■ هناك من يقول: إن مسألة القضاء والقدر تشجع على الاسترخاء.. ما رأيكم بذلك؟

خطأ في المفهوم

□ نعم، هناك شخص يقول: إن فكرة القضاء والقدر في الإسلام تشجع على الاسترخاء، ويضرب لذلك مثلاً، فيقول: «لو فرضنا أنه في باكستان مات قطعاً من الغنم لأحد الرعاة، فالفكرة التي تطرأ في ذهنه أن ما حدث من موت لقطيعه هو قضاء وقدر، من دون أن يدرس أسباب موت القطيع، بينما الغربيون عندما يواجهون مثل هذه الأحداث، فإنهم يبدأون بالبحث عن الأسباب من خلال الإصابة بالميكروبات وغير ذلك».

الواقع أن هذا الشخص لا يفهم معنى القضاء والقدر، لأن القضاء والقدر لا يلغي قانون السببية التي تنطلق من سنة الله في الكون.. فالله سبحانه كما جعل للحياة شروطاً، جعل للموت شروطاً وأسباباً، ولذلك فإن مسألة القضاء والقدر تنطلق من الأسباب التي أودعها الله في الكون، مما يدخل اختيار الإنسان في بعض الحالات، أو تدخل بعض العناصر الموجودة في الكون ضمن نظام التكوين.

فلذا نقول في بعض الحالات نحن نصنع قضاءنا وقدرنا: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)^(١)، ويقول سبحانه: (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ)^(٢)، ويقول تعالى أيضاً: (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)^(٣).

(٢) النحل: ١١٢.

(٢) الروم: ٤١.

(١) الرعد: ١١.

القضاء والقدر في دائرة النظام الكوني

فالقرآن يُركِّز على أن ما يحصل للإنسان نتيجة عمله، يُعتبر قضاء الله وقدره، وهذا يخضع للأسباب التي جعلها الله في الكون سواءً من خلال السنن التاريخية أو السنن التكوينية، أو من خلال السنن الإنسانية القائمة في المجتمعات. لذلك إذا حدث، أي حدث في هذا الكون لا بدّ من البحث عن سببه وعن السنّة التي تفرضه، وهذا لا يُنافي نسبته إلى قضاء الله وقدره، لأنّ الله تعالى يقضي من خلال سنّنه ومن خلال الأسباب، ويُقدّر الأمور من خلال النظام الكوني.

وإنّ كثيراً من الناس لا يفهمون فكرة القضاء والقدر الموجودة لدى المسلمين، وأذكر أنني كتبت بحثاً سنة ١٣٨١هـ في مجلة «الأضواء» العراقية علّقت فيه على نظرية كتبها الدكتور قسطنطين زريق في كتابه «نحن والتاريخ» الذي يحاول فيه أن يُبيّن النظريات التي تتحدّث عن أسباب سقوط الحضارات ونشوئها، وعن المشاكل التي تحدث في حركة التاريخ، ويعتبر أنّ العامل الديني يختصر ذلك كلّهُ، وأنّ كلّ ما يحدث في التاريخ من الله، ولذلك، إنّ علينا ألاّ نبحث عن سببه.

علّقت حينذاك على ما قاله، بأنّ هذا ناشئ عن الجهل بالتفكير الديني الذي لا يُلغي قانون السببية، والذي معناه، سنّة الله في الكون، حيث نعتقد أنّ كلّ حركة في التاريخ إيجابية كانت أو سلبية تنشأ من خلال الأسباب. فالقرآن الكريم عندما كان يتحدث عن الماضين، كان يتحدث عن الأسباب التي أوجبت هلاكهم وسقوط حضاراتهم.

■ الإنسان ينسب إلى القَدَر الأحداث التي لا يستطيع تفسيرها، والتي تكون سلبية إجمالاً، بينما ينسب الأحداث الإيجابية إلى الحظ، فما هو القَدَر، وما هو الحظ، وكيف يتدخلان في حياة الإنسان؟

* الحظ هو حالة في الوجود تنطلق من أسباب معينة، قد يكون الإنسان جزءاً منها، وقد لا يكون جزءاً منها، بل تُفرض عليه.

* القدر، هو حركة هذا الوجود في كل مفرداته ومعطياته التي قد تكون من صنع الإنسان، وقد تكون من صنع الواقع الكوني الذي يدبره الله.

القَدَر ارتباطٌ بالسُنن

□ من مشاكل الإنسان، أنه يحاول الهروب دائماً من محاولة اقتحام دائرة الغموض، الذي يعيش الإنسان في داخله، في حالة ضبايية من الوعي. ومن الطبيعي، أننا نعيش في كونٍ له نظمُه وقوانينه وسننه، التي تحكُم كل نظامه، الذي يضع كل شيءٍ في موضعه، ويربط بين الأشياء في عملية تكاملٍ وتوازن.

ونحن - الإنسان - جزءٌ من الكون، فإننا في الوقت الذي نملك فيه الإرادة والعقل، فإن وجودنا يخضع لقوانين في الجانب التكويني الوجودي، ويخضع لقوانين في الحركة النفسية والاجتماعية.. وإذا كنا نواجه مثل هذا، فنحن لا نفهم معنى للحظ الذي يتحرك منفلاً من أي قانون كوني أو إنساني يعيش في داخل الواقع، كما أننا لا نستطيع أن

نأخذ كلمة القدر ككلمة غامضة تفرض نفسها علينا، لتجعلنا نتحرك في اللافهم، وفي اللاوعي.

لو أردنا أن ندرس القدر، فإننا نفهم من هذه الكلمة، في معناها اللغوي، التقدير، التحديد (إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)^(١) وكذلك (قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا)^(٢)، فكما نصّ الآيتين، فالله سبحانه هندس الكون من خلال ما وضعه فيه من نُظْمٍ وقوانين وسُنَنِ، فكلّ ظاهرةٍ تنطلق من بداية لتكون لها نهايتها، وليكون لها دورها، وبما في ذلك الظاهرة الإنسانية. لهذا فالقَدَرُ، يتحرك في دائرتين: دائرة النظام الكوني الذي يحدّد للإنسان حركته بقدر ارتباطه بهذا الكون وخضوعه لضروراته ولبعثياته، لأنه كائنٌ يعيش في داخله.

والدائرة الثانية، هي دائرة القدر في إرادة الإنسان وفي عقله. لهذا، إذا أردنا أن نواجه كلّ ما يحدث في الحياة، يمكن أن نقول، إنّ القدر يُصنع للإنسان في داخل الإنسان، كما قد يُفرض عليه، فالإنسان يصنع قدره من خلال الأشياء المرتبطة بإرادته وبعثه، فنحن نصنع الظلم، كما نصنع العدل، ونصنع الإستقامة، كما نصنع الإنحراف، وهكذا، فإنّ الإنسان يصنع الكثير من قدره من كلّ الأشياء التي تحيط به، وتتحرّك في داخله، فهو يملك الحرية في ذلك من حيث عقله الحرّ، وإرادته الحرة.

وهناك قدرٌ يفرضُ على الإنسان، من خلال علاقته بالكون، فنحن لا نستطيع إلا أن نخضع لضرورات الجسد، ولضرورات الجوع والبيئة، قد نستطيع أن نحمي أنفسنا من بعض نتائجها السلبية، وقد نستطيع أن نصنع بعض النتائج الإيجابية، ولكننا لا

نستطيع إلا أن نخضع لها في المطلق، لأنها جزءٌ من وجودنا، والإنسان لا يملك أن يتحرَّرَ من وجوده، إذا تحرَّك من بعض مُعطيات هذا الوجود.

ونحن، عندما ندرسُ قانون السببية في الكون، السببية الثابتة في داخل الكون، والسببية المتحركة في داخل الإنسان، فإننا نستطيع أن نُفسِّرَ كلَّ شيءٍ سلبيٍّ بأسبابه الطبيعية والإنسانية، ويُمكن أن نفسِّرَ كلَّ شيءٍ إيجابي في ذلك، لأنَّ قانون السببية في الكون، قانون وجودي لا يمكن أن يفلت منه أيُّ شيءٍ.

الحظ . . وخضوعٌ للفرص

وإذا أتينا إلى مسألة الحظِّ، فإنَّ الحظَّ يمثلُ فرصة الإنسان الإيجابية، في أن يحصل على شيءٍ أفضل، ليكون حظُّه سعيداً، أو على واقع سلبيٍّ، يعيش الإنسان فيه حرمان نفسه من بعض الأشياء، ليكون حظُّه بائساً أو تَعَساً.

وهكذا، عندما ندرس مسألة الحظِّ، فإنَّ علينا أن ندرس أسباب هذا الشيء الذي يتمثَّل الحظُّ فيه، فأنا عندما أكون غنياً، فإنَّ الغنى، ليس حظاً مفصلاً عن الأسباب الداخلية والخارجية التي يعيشها وجودي، وهكذا عندما أفقر، أو عندما تحدث أوضاع سلبية على مستوى اجتماعي أو سياسي أو ذاتي، فإننا نستطيع أن نفسِّرَ ذلك تفسيراً موضوعياً واقعياً من خلال المفردات التي تُنتج هذه الظاهرة الإنسانية، أو تلك.

إذاً، فالحظُّ هو حالةٌ في الوجود تنطلق من أسباب معيَّنة، قد يكون الإنسان جزءاً منها، وقد لا يكون جزءاً منها، بل تُفرضُ عليه، والقدر، هو حركة هذا الوجود في كلِّ مفرداته ومعطياته التي قد تكون من صنع الإنسان، وقد تكون من صنع الواقع الكوني الذي يدبُّه الله.

■ **البعض يقول: إن الدين يعزل إرادة الإنسان، ويخضعها للقضاء والقدر، فما قولكم في هذا؟**

* أنت تصنع هزيمتك، لأنك عشت إرادة الهزيمة، وأنت تصنع النصر إذا وفرت أسباب النصر.

□ الدين، يقول لك، عندما تتحدث عن متغيرات التاريخ، وعندما تتحدث عن التاريخ كيف تبدل وتطور وتغير، وكيف سقطت حضارات، وقامت حضارات، الدين يقول لك، ما هو تفسير ذلك؟

الدين وقانون السببية

الدين قائم على قانون السببية، بقانون السببية، اكتشفنا وجود الله، وذلك عندما نقول، إن الأثر يدل على المؤثر، وإن الممكن لا يمكن أن يوجد إلا من خلال الواجد.. وهكذا عندما نريد أن ننطلق في الواقع كله، وفي الظواهر الكونية كلها، الدين يقول لك، اجلس وفكر: ما هو سرّ هذه الظاهرة الكونية؟ وما هو سرّ حركة التاريخ التراجعية، أو حركة التاريخ المتقدمة؟ وما هو سرّ كل هذه المتغيرات هنا وهناك؟ إنك تملك كمؤمن بالله دراسة كل ظواهر الكون، وكل حركة الإنسان في الكون من خلال ما تكتشفه، وما تتأمله.. الدين لا يلغي قانون السببية، حتى في حركة الإنسان، ألا يتحدثون عن مسألة القضاء والقدر، عن الهزيمة أنها قدرنا، وعن المآسي التي نعيشها أنها قدرنا، ألم يقولوا ذلك، وكأنهم يريدون أن يرجعوا المسألة إلى أشياء غيبية غير معروفة، إن الله يقول لك: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)^(١)، معنى ذلك غير نفسك أيها الإنسان، تُغَيِّرُ الواقع وتُغَيِّرُ التاريخ.

القضاء والقدر وإرادة الإنسان

التاريخ يتغير من خلال إرادتك، من خلال إرادة الفكرة في عقلك، ومن خلال إرادة الحركة في حركتك، لذلك، إن مسألة (ظَهَرَ الفسادُ في البرِّ والبحرِ بما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ)^(٢)، لا كعقوبة تأتي من فوق، ولكن لأن كسبك يُنتج هذا الفساد (لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)^(٣).

وهكذا، مَنْ يتصور أن الدين يعزل القضاء والقدر عن إرادة الإنسان، هو لا يفهم الدين جيداً، نحن نصنع قضاءنا وقدرنا من خلال ما يتعلّق باختيارنا وإرادتنا، نحن في الكون نتحرك في خط نملك الخيار فيه من خلال عقلٍ نفكر فيه، ومن خلال إرادة نركّزها، ومن خلال حركة نتحركها، وكلّ هذا يعني، أنك إذا حشدت الظروف الموضوعية، فأنت تصنع هزيمتك، لأنك عشت إرادة الهزيمة، وأنت تصنع النصر إذا وفّرت أسباب النصر .. القصة، أنك تصنع قضاءك وقدرك .. فالله أخضع قدره وقضاءه في الكون لإرادة الإنسان، لأنها هي جزءٌ من السببية في الكون، كما هي القوانين التي تحرك الزلازل والبراكين، وكما هي التي تُنتج الثمار من الأرض.. كذلك الإنسان، هو أحد هذه القوانين، ولكنه إنسانٌ قانونٌ متحرك. من هنا، فالدين يدفع الإنسان إلى أن يفهم سرّ الكون كلّهُ، وسرّ الإنسان كله، لأنه كلما اكتشف عظمة الله أكثر، كلما أمن بالله أكثر.. فالدين لا يمرُّ في طريق الجهل، بل إنه يتأصل في طريق العلم.

■ تقول الآية المباركة (قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا) التوبة ٥١، يعتبر البعض أن مضمون الآية يُوحى بأن الإنسان مسير وليس مخيراً، ما تعليق سماحتكم على ذلك؟

* الله خلق للإنسان عقلاً، وخلق له إرادة، وجعله حراً.
* نحن نصنع قضاءنا وقدرنا، لأن القضاء والقدر يحددان للإنسان هندسة حياته من خلال ربط المُسببات بالأسباب.

بين التسيير والتخير

□ إن الإنسان مُسَيَّرٌ ومخيرٌ معاً، هو مسيرٌ فيما يعيش، نحن مسيرون في طبيعة تكويننا الجسدي، في بياض الإنسان وسواده وطوله وقصره، وما إلى ذلك، ونحن مسيرون في تأثرنا بالكون من حولنا، وبالأمر التي تتصل بحركة وجودنا في واقع الوجود العام، وفي واقع الوجود مقارناً بالوجود الآخر.

أما ما فعله نحن، فالله خلق للإنسان عقلاً، وخلق له إرادة وجعله حراً:

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ، إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)^(١)، ويقول سبحانه: (وهديناه النجدين)^(٢)، ويقول أيضاً: (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ، وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ)^(٣)، وفي آية أخرى: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)^(٤)،

(١) الكهف: ٢٩.

(٢) الزلزلة: ٧ - ٨.

(٣) الإنسان: ٢.

(٤) البلد: ١٠.

أما النص الذي يقول: (قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)^(٥)، فإنه يتحدث عن أن الله كتب مستقبل الخليفة، ولكن كتابة الله لا تعني أن الإنسان مسير، لأن الكتابة تنطلق من رصد ما يحدث في المستقبل بأسبابه، ومن أسباب ما يحدث في المستقبل هو اختيار الإنسان.. الله يعلم من خلال الظروف التي نعيشها، سواء كانت ظروفًا فكرية أو نفسية أو بيئية... الله تعالى يعلم بأننا سنفعل كذا من خلال ظروفنا، ولذلك فإن ما كتبه الله لا يلغي قانون السببية الذي ينطلق من أن الفعل يتبع سببه، ومن الأسباب، إرادة الإنسان، تماماً كما كتبنا أن السماء سوف تمطر في شباط مثلاً وحدث ذلك، فهل معنى ذلك أننا كتبنا ذلك فلا يكون هناك سبب لنزول المطر، إننا نكتب حدوث المستقبل بأسبابه.

الإنسان وحمل المسؤولية

فالله تعالى نظم الكون وجعل الإنسان، المخلوق الوحيد في هذا الكون الذي يملك عقلاً متحركاً، ويملك إرادة متحركة، ويملك ظرفاً متحركة، وقد حمّله الله مسؤولية نفسه من خلال هذه الحركة.. ولعلنا نستوحي ذلك من قوله سبحانه وتعالى: (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ، إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)^(٦)، الأمانة هنا تمثل مسؤولية إدارة وجودها، بحيث تتحمل هي نتائج هذه المسؤولية (فأبين أن يحملنها) وقلن لا نستطيع ذلك، ولكن يا رب حرّك القوانين في داخلنا التي تُسيرنا نحو ما تريد.

أما الإنسان، فقد قال من خلال ما يملك من عقلٍ ومن إرادةٍ ومن واقعٍ متحرك، يستطيع أن يُغيره ويبدّله، قال: أنا لها. ولكنه ظلم نفسه وجهل حجم المسؤولية.. ونحن نقرأ في القرآن الكريم: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)^(٧).

(٧) الرعد: ١١.

(٦) الأحزاب: ٧٢.

(٥) التوبة: ٥١.

معناه أن الإنسان يملك تغيير الواقع من خلال تغيير نفسه (وما ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا
أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)^(٨).

لذلك أحب أن أقول: إنَّ القضاء والقدر في الإسلام، لا يجعلان الإنسان واقعاً تحت
تأثير شيءٍ قاهرٍ يُلغي إرادته.. فنحن نصنع قضاةنا وقدرنا، لأنَّ القضاء والقدر يحدّدان
للإنسان هندسة حياته من خلال ربط المسببات بالأسباب.

□ البعض يقول ومنهم د. صادق جلال العظم، إنَّ الله يأمُر بـ«أمر» ولكن تكون له مشيئة أخرى، وهو سبحانه عندما طلب من إبليس أن يسجد لأدم، كانت مشيئته ألا يسجد، ولذلك عاش إبليس «مأساة» عندما رفض السجود لأدم، فلأنه يرفض السجود لغير الله، رفض السجود لبشر، ما تعليقكم على ذلك؟

المشيئة والإرادة

□ الواقع أنني عالجت هذه القضية في بعض أبحاثي، وأعتقد أن د. العظم لم يبحثها عن وعي للمفردات الفلسفية.. على أي حال، أمامنا نقطتان: نقطة تجاذب بين المشيئة والأمر، فالمشيئة تفرض حتميتها في أن يختار إبليس الشرّ - إذا صحّ التعبير - أي الرفض.. والأمر يفرض عليه أن يختار الإيجاب. هذه المسألة تحتاج إلى أن نفهم المشيئة.. فالمشيئة معناها، أن الله في تخطيطه للوجود، سواء وجود الإنسان أو وجود الطبيعة، يعلم بما سيحدث في المستقبل من خلال العناصر التي تؤثر في حركة المستقبل، يعني أن الله يعرف أن الزلزال سيكون في مرحلة معينة، في سنة كذا، ويوم كذا، من خلال علمه بالأسباب التي تُنتج الزلزال، وأنها سوف تكون جاهزة في ذلك الوقت، ولكن ليس معناه أن المشيئة اقتضت الزلزال، بل إنَّ المشيئة انطلقت في خطّ الحكمة من خلال أنها انطلقت من علاقة المسببات بالأسباب.. وعلى هذا، فإنَّ الله تعالى علّم أن إبليس لن يسجد، وسوف يختار عدم السجود من خلال نوازعه الذاتية.

أما أن الله شاء ذلك، ليس بمعنى أنه أراد ذلك بشكل مباشر، معنى (شاء ذلك)، أن الله سبحانه ربط حركة المخلوق الحي فيما يتعلّق بإرادته. وعلى هذا، فإنَّه سبحانه علم أن إبليس سوف لن يسجد إنطلاقاً من كبريائه. فإذاً ليس هناك تنافٍ بين المشيئة وبين

الأمر، فإله يريد له أن يختار ذلك، ولكنّه سبحانه علم أنّه سيعصيه، فليس رفض إبليس السجود لأدم أنّ الله أرادّه بمشيئته أن يرفض، بل لأنه هو اختار ذلك.

الله يريد للإنسان أن يفعل، أو يريد للشيطان أن يفعل، ولكن خلق عنده حرية الاختيار، فالمشيئة تابعة للأسباب، فالله يشاء الأشياء بأسبابها، ومن أسبابها، اختيار الإنسان، أو اختيار الشيطان.

إذاً، هناك مشيئة تتصل بالأشياء بشكل مباشر، الله خلق الكون، وخلق آدم وعلم أنه سيعصيه، وهنا تتصل المشيئة بالأفعال، وتكون المشيئة بالنسبة للأفعال بلحاظ علاقة الأفعال بالاختيار الإنساني.. وليس ذلك كما يقول البعض، إنّ هذا مما كتبه الله. نحن نقول، كتبه الله، لأنّه يعلم أنّ فلاناً سيفعله، ولم يفعله لأنّ الله كتبه، إنّ الله كتبه، معناه أنّ الله يعلم المستقبل، ويعلم تحقّق هذا الشيء بأسبابه.

توهم المساواة

أما النقطة الثانية في السؤال، وهي الحديث عن «مأساة» إبليس، وأنّه مخلوق موحد، يحبّ الله، وأنّ الله يفرض عليه أن يسجد لأدم، وهو لم يعتد ذلك.. نحن نسأل د. العظم: مسألة إبليس من أين جاءت؟ جاءت من التراث الديني، هي غيبٌ من غيب الله، فطريق معرفتنا بإبليس، هو النصّ القرآني، الذي يقول بأنه رفض السجود لأدم كبرياءً، ولم يرفض السجود له إخلاصاً لله. والقرآن يقول أيضاً فيما هي قصة إبليس: (أنا خيرٌ منه خلقتني من نارٍ وخلقته من طين)^(١).

فإبليس تعبد لذاته، وعلى هذا الأساس فليست مسأله مسألة مساوية، لأنّ المساواة تنطلق من أنّ الله أراد أن يفرض على إبليس شيئاً على خلاف حبه له، وهذا ما لم يكن.

□ الإيمان :

- * بعيداً عن الإحباط واليأس.
- * إحساس القلب.
- * التفاعل مع الوحي.
- * عمقُ في الروح وحركة في المادة.
- * معرفة الله.

■ كيف لنا أن نحول الإيمان بالله إلى قوة فاعلة في حركة الواقع بعيداً عن الإحباط واليأس؟

* إذا يُئسْتَ فلا مجالَ لأيِّ تفكيرٍ عندك، وعندما يكون
الأمَلُ دائِمَ الإخضرارِ في عقلك وقلبك، فإنَّكَ تستطيعُ أن
تفهمَ كُلَّ مرحلةٍ بحجمها.

* خذِ عِزَّكَ من الله لا يُضعِفُكَ، وخوْفُكَ من الإنسانِ ومن كلِّ
شيءٍ من جنسِ والجنِّ هو الذي يُلغِي إنسانيتك.

مواجهة اليأس

□ إننا من خلال الإيمان بالله سبحانه وتعالى، ننطلق على أساس ألا نياس من رَوْحِ
الله.. إنك عندما تقول لله: (إنك على كُلِّ شيءٍ قدير)، وتؤمن بطاقتك الإنسانية التي
يمنحها الله القوة التي هي حالة تعيش في داخل إنسانيتك، وتعيش في تطلعاتك
الإيمانية فيما تستقبله من أوضاع، وبما يمنحك الله من قوة.. إنك عندما لا تياس، فإنك
تستطيع أن تفكر، لأنك إذا يُئسْتَ فلا مجالَ لأيِّ تفكيرٍ عندك، وعندما يكون الأملُ دائِمَ
الإخضرارِ في عقلك وقلبك فإنك تستطيع أن تفهم كلَّ مرحلة بحجمها، لتكتشف فيها
ثغرةً تنفذ منها إلى هذا الأفق، وثغرةً تنفذُ منها إلى ذاك الأفق.. اليأسُ ظلام، والأملُ
نور، ومخطئون هم الذين يقولون بأنَّ الإيمان بالله شيءٌ للخدر، وشيءٌ للهروب من
الواقع، أبدأ، لأنَّ الإيمان بالله هو الذي يربطك بالواقع أكثر، لأنَّه يقول لك: إنك كإنسان
إذا نفذتُ منك قوتك، فلا تُسْقِطُ نفسك أمامَ ما ينفدُ من القوة، لأنَّ هناك قوةً تستطيعُ أن
تعيشها إحياءً في العقل من خلال الإيمان، لتتحولَ إلى حركةٍ في حياتك من خلال

الواقع، ومن خلال ذلك لا يعودُ الإيمانُ بالله، إذا وعيناه وعياً إنسانياً واقعياً، حالة تخدير وهروب من الواقع، ولكنه يزيدك ارتباطاً بالواقع حتى لو أراد الواقع أن يُخرجك من كلِّ واقعه: (إذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا)^(١) ويقول سبحانه (يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ، وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيَّاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)^(٢)، وقوله سبحانه أيضاً: (إِنَّمَا ذَلِكَمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ، فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)^(٣)، خفِ الله وحده، لأنَّ خوفك من الله لا يُضعفك، لأنك مرتبط بالله ارتباط الموجود بمبدع الوجود. أما خوفك من الإنسان ومن كل شياطين الإنس والجن هو الذي يُلغي إنسانيتك، حرر نفسك من عقدة الخوف من الإنسان، وابقِ خائفاً من الله، لأنَّ خوفك من الله، هو الذي يُعطيك الأمن الروحي الذي تستطيع أن تتحرك فيه على أساس القوة في الحياة.

انطلاقاً الإيمان

على هذا الأساس نستطيع أن نحرك الإيمان ليكون شيئاً في القوة، ويكون شيئاً في حركة الواقع فلا نسقط إذا أمانا بالله وأخذنا بسننه.. إنَّ بعضَ النَّاسِ يفكرون أنَّ الإيمان بالله، بأن نقول: اللهم ارزقنا، لينزل علينا مائدة من السماء.. اللهم انصرنا ليُرسل جنوده إلينا ليحاربوا بالنيابة عنا.. اللهم خَاصِنَا مِنَ الْفَوْضَى لِيَبْعَثَ لَنَا مَلَائِكَةَ يَنْظِمُونَ لَنَا الْوَأَقِعَ!! ولكن عندما نقول ارزقنا، اجعلنا نتحرك للأخذ بمواقع الرزق التي هيأتها لنا، ثم الطف بنا فاجعلنا نتحرك بطريقة فيها الكثير من الأمل، انصرنا، اجعلنا نعيش إرادة النصر وروحية النصر عندما نتحرك في خط المواجهة، فالدعاء ليس شيئاً يجعلك تفكر بأن الله يقوم بالنيابة عنك بشيءٍ طبيعيٍّ، وإلّا لماذا خلق الله الكون؟ الكون

كله خاضع لسنن الله، وسنن الله هي ما يُسمّى بالقوانين الطبيعية، أو الكونية.

على هذا الأساس نستطيع أن نجعل من الإيمان بالله شيئاً يُغني واقعنا في كل ما يحتاجه الواقع، حتى نستطيع أن نفكر دائماً، لأنّ الذي يعيشُ الأمل يستطيع أن يملك عقله، أما الذي يعيش اليأس، فهو لا يستطيع أن يملك وجوده، ولذلك لا معنى لأن يعقل وأن يفكر.

■ هناك قولٌ لعالم بيولوجي مفاده «إنَّك إن لم تحس بالله في قلبك، فلا تنشده في الخارج» ما تعليقكم على ذلك؟

واقع لا تجريد

□ في تصوّري أنّ مسألة الحديث عن القلب، أن يدخل الله في قلبك كمظهر من عمق العلم من داخل كيانك، هذه مسألة لا تنطلق من التجريد، وإنما تنطلق من حركة الواقع، التي قد تطل بك على ما وراء الواقع.. ليست المسألة محصورة في هذا المقياس بالغيبيات، بل حتى في الحسيّات.. إنَّك عندما تحاول أن تحرك الحسيّات لتجمعها كعناصر، تكتشف من خلال حركيّتها في علاقتها بالذات فكرة. إنّ الفكرة ليست شيئاً حسيّاً.. إنّ الفكرة دخلت في قلبك، والقلب في مصطلحنا - في مصطلح القرآن - العقل: (إنّ في ذلك لذكري لمن كان له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيد)^(١)، ذلك لمن كان له عقل، (إنّما يتذكّر أولو الأبواب)^(٢)، هم أولو العقول. إنّما يدخل عقلك للشيء، أو يسكن قلبك إليه - إذا أردنا من القلب معنى الإحساس والطمأنينة الشعورية - إذا استطعت أن تلتقي به بطريقة وبأخرى في حسك، لأنّ الحسّ هو المادة الخام الأولى التي يمكن أن تموّن العقل بكلّ أفكاره، سواء كان في التجريد أو في الواقع..

في طريق العقل والتجربة

فأنا عندما اكتشف الله تعالى في قلبي، كيف اكتشفته؟ إنني اكتشفه من خلال هذا الكون الذي أحسه في عمق إحساسي، وأتصّره وأتطلع إليه بحيث لا يمكن أن يمثل الصدفة، لأنّ الكون لا يمكن أن يكون ذرّة ضائعة في الفراغ، تلتصق بالفراغ، لتتحول

إلى نظام لا يمكن لك أن تخترقه، أو تبتعد به عن مساره بمقدار لحظة واحدة. لذلك، نقول، إن الإيمان ينطلق من الفطرة، من طبيعة هذا العمق الصافي في تمثّل الذات للأشياء التي تحسّها، من خلال وعيها لما تُحسّه، فأنا عندما لا أتصوّر الكون محبّرة سكبته على الجدار، وتحوّلت إلى لوحة فنيّة، فلأنّ المسألة أنّ الكون يمثّل حركيّة تنطلق في مسارٍ طبيعيّ خاضع لقوانين دقيقة جداً، بحيث لا يمكن أن ترصد أية ظاهرة، إلا إذا اختزنت في نفسك أنّ وراءها سرّاً وسبباً وقانوناً. من هنا، فإنّ المعرفة الإلهية في هذا المجال، ليست مجرد حالة لا عقلية، بحيث نقول، إنّ العقل لا دور له في هذا المقام، هي حالة قلبية، لأننا نتصوّر أنّ القلب عندما يجعلُ الله في داخله، فإنّه يكون قد مرّ في حركته بطريق العقل.. فأحساسنا بوجود الله تعالى، حالة عقلية تنطلق من إحساس الإنسان بالكون الذي يُطلّ به على سرّ هذا الكون في معناه الذي يُرجع نظامه الدقيق إلى عقل منفصل عنه، يُطلّ عليه ويحرّكه، فيتحوّل ذلك إلى حالة في القلب تخشع لها، وتخضع لها، وتنفّث عليها، وتعيش معها.

ومن هنا، فنحن لا نتصوّر أنّ هناك إيماناً أعمى، أو أنّ الإيمان فوق العقل. نحن نعتبر أنّه ليس هناك في حركة الإنسان شيء فوق العقل، لأنّ الإنسان يطلّ على الأشياء بعقله. قد نختلف في تفسير العقل، ولكن نحن لا نريد أن نستغرق في الفلسفات التي تحاول أن تصوّر لنا العقل بطريقةٍ وبأخرى. عقلك وعي، ووعيك يتحرّك في داخلك من خلال المفردات التي يملكها. هناك أفكار تجريدية يعتبرونها المعلومات السابقة التي تتحرّك في التجربة، مثل: «النقيضان لا يجتمعان» أو «الضدّان لا يجتمعان» أو «الكلّ أعظم من الجزء».

لكننا نعتقد أنّ هذه وإن كانت أفكاراً تجريدية خارج نطاق التجربة، فلأنّ الإنسان يتصوّرُها بنفسه، ولكننا عندما نتعمّق فيها، نجد أنّ التجربة هي التي تُوحى بهذا.

■ الإنسان ليس مجرد مُتلقٍ يتلقَى، وعلى هذا
كيف نفهم التفاعل بين الإنسان والوحي وكيف له
أن يعيش العقيدة؟

الإحساس بالغيب

□ إن الله تعالى عندما قدّم لنا الوحي عبّر عنه أنّه نورٌ، وأنّه هُدًى، وعندما عبّر عن حركة الوحي في التشريع عبّر بالحياة: (يا أيّها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يُحييكم)^(١) فالوحي ليس شيئاً معزولاً عن الإنسان، ليس شيئاً يتطلّع إليه الإنسان، كما يتطلّع إلى قمة لا يبلغها مجال.. قد يكون الوحي في طبيعته شيئاً ضبابياً في الوعي الإنساني بالمعنى الإحساسي، بمعنى إحساس الإنسان به، ولكنّه في الوقت نفسه يُطلّ على الإنسان في كلّ حياته. ولذلك عندما نقرأ القرآن، فإننا نجد أنّ القرآن يُقدّم لنا، حتى الغيب بشكلٍ حسيّ، فهو يحدثنا عن الجنة التي فيها أنهار من لبن، وأنهارٌ من خمرٍ وعسل (لذة للشاربين)، وفيها حورٌ عين، وولدانٌ مخلدون، كما يحدثنا عن مجتمع الجنة (إخواناً على سُررٍ متقابلين) (ونزعنا ما في صدورهم من غلٍ) فإنك تشعر حتى بالغيب أنّك تُطلّ على جانب الحسّ، بحيث لا يُراد لك أن تبعد وأنت في حالتك الغيبية عن الحسّ.

التقليد في خطّ الجمود

وهناك شيءٌ، وهو أنّه لا يجوز لك أن تقلّد بالعقيدة، قلّد في المفردات التي تحتاج إلى اختصاص، قلّد مثلاً في الفقه، إن لم يكن لك اختصاص فيه.. لكن عليك أن تكون

(١) الأنفال: ٢٤.

صاحب اختصاص، ولا بُدَّ لك في قناعاتك أن تنطلق من الاجتهاد، سواء كانت قناعاتك تتصل بالعقيدة، أو تتصل بحركة الإنسان والحياة.. ففي القناعات، لا تقليد، إنما التقليد في الجانب الحركي في التفاصيل.. أما في الخطوط العامة للقناعات، فإنَّ الله يريد، كما هو المفهوم الديني، أن تملك الحجَّة على ما أنت فيه، لذلك، قال سبحانه: (يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تَجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا)^(٢)، فإذا لم يكن وعي نفسك موجوداً في كلِّ ما انطلقت فيه، فكيف يمكن أن تكون في موقع الجدل عنها، وهي تعيش حالاتٍ في الفكر وفي الإيمان، وفي الحركة.

إثبات الحق بالحق

وطبعاً، لا بُدَّ أن يكون الجدل بالحق، فالقرآن الكريم يقول: (وَجَادِلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ)^(٣)، فالجدل بالباطل مرفوض، وهنا أذكر في هذا المجال موقفاً للإمام الصادق (ع)، حيث كان يتفقَّد بعض طلابه، فسمع واحداً منهم يحاور شخصاً آخر، ورأى أن هذا الطالب يستعمل الأسلوب الجدلي الذي يحاول أن يُلزِمَ الآخر بما التزم به، حتى ولو لم يكن محل قناعة المجادل، قال له ما يفيد: «إنك أخذته بالحقِّ والباطل، وقليل من الحقِّ يُغني عن كثيرٍ من الباطل»، ما الفرق بينك وبينه؟ إنَّه جحد حقاً، وجحدت حقاً مثله.. جحد الحقِّ في النتائج، وأنت جحدت الحق في الوسائل، ولذلك لا بُدَّ لك من أن تُثبت الحقَّ بالحقِّ، لا أن تُثبت الحق بالباطل، لأنَّ الحق إذا احتاج إلى الباطل كوسيلة من وسائل إثباته، فإنَّه كفَّ عن أن يكون حقاً خالصاً.. وهكذا نجد في عالم الجدل ضرورة أن يكون لك علمٌ ما تجادلُ به (ها أنتم هؤلاءٍ حاججتم فيما

(٢) غافر: ٥٠.

(٣) النحل: ١١١.

لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ، فَلَا تُحَاجُّونِي فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ^(٤). لذلك، ليس لك أن تجادل بما لا تملك معرفته، وليس لك أن تجادل بالباطل لتثبت به الحق، احترم عقل مَنْ تجادل، واحترم قناعاته إذا أردت أن يحترم قناعاتك.

إنَّ الأسلوب القرآني في الجدل أو الحوار يُخرج الذات عن جَوِّ الحوار، فنلاحظ أنَّ الله تعالى علّم نبيه (ص) أن يقول للكافرين: (وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)^(٥)، ونلاحظ أيضاً أنَّ الأسلوب القرآني الحواري، لم يفرض حالةً مسبقة لمن يطرح الحوار، ليقول الحقّ معي بنسبة كبيرة والباطل مع غيري بنسبة كبيرة (وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ)، يمكن أن أكون أنا على هدى أو على ضلال، ويمكن أن تكون أنت على هدى أو على ضلال.. هناك حقيقة ننشدها معاً، نبدأ من الشك حتى نصل إلى اليقين.

الحقيقة في ظلّ الحوار

ومن الطبيعي، أنَّ المعرفة التي يمكن أن نحصل عليها من خلال الحوار، قد تُطلِّبُ بنا على الحقّ الذي نقنع به معاً. لذلك، نحن نعتبر أنَّ مسألة أن تجتهد، يعني أن تحقّق قناعاتك في الأشياء بحسب قوانينها، وعندما تُوصَلُ إنسانيتك، فإنّ التعبير عن هذه الإنسانية، أن يكون لك إنتاجُ فكر وإحساسك وشعورك وانطباعاتك وتمتلك للأشياء.. وليس ضرورياً أن تكون ذاتياً في حركة هذا الإنتاج، بل لك أن تستعين بفعل الآخر، لا على أساس أن تخضع له، ولكنّ تستنير به، ليكون لك عقلٌ آخرٌ يفكّر مع عقلك، وتكون النتيجة من خلال حركة العقلين اكتشاف الحقيقة.

ومن هنا، لا معنى أن تُلزم الآخر، إذا لم تُقنع فكره، أنت تستطيع أن تضغط على

(٤) ال عمران: ٦٦.

(٥) سبأ: ٢٤.

جسده فتحبسه في زنزانه، لكنك لا تستطيع أن تحبس فكره، أو تلزمه بما لا يستطيع أن يقتنع به. الإلتزام هو خيارٌ إنساني، خيار لا يملك الإنسان معه حالة أخرى.. فإذا لم أقتنع، فكيف ألتزم، قد ألتزم بالكلمات، ولكن لا ألتزم بالفكر. لذلك، نحن لا نفهم أي معنى للضغط على الفكر، لأن الفكر لا يمكن أن يتصرف فيه حتى صاحبه، فأنا لا أملك بأن أؤمن بشيء ليست عندي عناصر الإيمان به، ولا يمكن أن أجد شيئاً لا أملك عناصر الجحود فيه.. ولذلك فأنا أزعم أنه ليس هناك ملحدٌ في العالم، لأن الإلحاد يعني نفي الغيب، ونفي وجود الله تعالى، وأنت إذا كنت تملك شمولية المعرفة للكون في كل خفاياه، فكيف يمكن أن تنفي ما لم تملك تجربة الوصول إليه، لذلك نقول، إن كل من يدعون الإلحاد شاكون، وليسوا ملحدين، لأنهم يقولون، لم يثبت الإيمان عندنا، والإيمان يحتاج إلى دليل. أما الحالة الوحيدة التي لا تحتاج إلى دليل، بل تتجمد بك أمام الأشياء، هي الشك، لأن الشك ينطلق من خلال عدم وجود الوسائل التي تُطل بك على الإيمان، أو على الكفر، لذلك إن طريقة البعض بتكفير هذا وارتداد هذا بشكلٍ حادٍ ومتعصب، هي حالة غير عقلانية، بل غير إسلامية، لأن الإسلام يقول لك، إن عليك ألا تحكم على الآخر، إلا بعد أن تعرف كل مفرداته، سواء كان الحكم يتصل بعقيدته، أو كان يتصل بحركة حياته. والمشكلة، أن هؤلاء عندما يكفرون المسلمين الذين لا يلتقون بأرائهم، فإنهم لا يُحيطون بما عندهم، والحيثيات في حكمهم لا تكون حيثيات مكتملة وافية تسمح لهم بالحكم.

فمسألة الإيمان والكفر، هي كأي مسألة فكرية عندما تريد أن تفتح على فكر إنسان بالسلب أو بالإيجاب، ولكنك عندما تحكم بالإيمان، لا بد لك أن تكون الحيثيات التي تؤكد إيمانه موجودة بين يديك، باعتبار أن الإيمان حالة عقلية، لا بد لك أيضاً من أن تكتشف

هذه الحالة العقلية في وعي الإنسان من خلال أفكاره التي تعبر عنها كلماته أو مسيرته، وما إلى ذلك، وهكذا، عندما تريد أن تحكم على إنسان بالكفر، فليس من الضروري، أن يكون الحكم بالكفر حالةً تصدر من سلطة دينية عليا، لأنّ الكفر هو حالة فكرية، يجحد فيها إنسانُ شيئاً لا يؤمن به، بل يؤمن بخلافه..

إن المشكلة، أنّ كثيراً من الناس عندما يحكمون على الأشخاص، فإنهم يحكمون عليهم من جانب واحد من الصورة ولا يحكمون من خلال كلّ جوانب الصورة.

■ كثيراً ما تردّدون أنّ الدين في طبيعته، عمقه الروح، ولكنّ حركته في المادة، وأنّ إرادة الإنسان ليست مرهونة للشيطان، كيف تفسّرون ذلك؟

* الإنسان لا يحملُ الخطيئة، الإنسان صفحة بيضاء، والخطيئة حالة طارئة.

التوازن

□ الدين عمقٌ في الروح من حيث إنطلاقه من الإيمان بالله وإيمانه باليوم الآخر، وإيمانه بأنّ هناك غيباً في أجواء الغيب ولكنّه في الحركة، حيث الدين حركة في المادة.. فالإنسان لا بدّ أن يتحرّك ليبنى الحياة ويبني نفسه، ويبدع الحياة فيما ينتجه من وجدانه من شيء جديد للحياة.. لا بدّ لهذا الإنسان أن يعيش في خطّ التوازن «إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً»، إعمل في بناء الكون من خلال مسؤوليتك، كما لو كنت لن تموت، واعمل في إحساسك بالمسؤولية أمام الله، وأنت تبني الكون، كما لو كنت تموت غداً.. هذا هو التوازن بين مسؤولية الإنسان في حركة المادة فيما يبني له إنسانيته، ومسؤولية الإنسان في عمله، على أن يكون عملاً للخير لا للشر، وللحق لا للباطل..

الخطيئة .. الشيطان .. والإرادة

من خلال ذلك يكون للمادة معنىً آخر يختلف عن معناها في المنهج الغربي الحضاري، ويكون لحقوق الإنسان معنىً آخر، ويكون لكثير من مفردات العلاقات الإنسانية معنىً آخر.. فلا تكون اللذة خطيئة، بل تكون قيمة ولكن في خط التوازن.. ففي

الإسلام، الإنسان لا يحمل الخطيئة، الإنسان صفحة بيضاء، والخطيئة حالة طارئة... الفطرة خيرة، والطوارئ هي التي تُشوه شيئاً في خير الفطرة (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ، إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)^(١)، «فكل مولود يُولد على الفطرة»، والضمير هو حالة عميقة في الوجدان الإنساني لأن العلم يُربيه، كما أن الجهل يصادر الكثير مما فيه. فالإنسان يخطئ، ولكن الخطيئة لن تكون لعنته، بحيث يعيش لعنة الخطيئة، وهو يُصحح نفسه. الخطأ والخطيئة، هي حالة اختلال التوازن في حركة فكره، وفي حركة غرائزه، ولكنه هو الذي يُصحح (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ)^(٢)، يأتي الشيطان، ولكنه لا يتعمق، وإنما يطوف ليعطي خيالات ووسوس، والإنسان هو الذي يتذكر.

في التفكير الإسلامي، الشيطان ليس هو العنصر الضاغط الذي يشل إرادتنا، الشيطان يوسوس، يقوم بجراحة تجميلية للأشياء في وجدان الإنسان، يُزين القبيح، ويُبجح الحسن.. وملتقى بالآية الكريمة عندما يُصورُ الله لنا الشيطان وهو في المحشر، يقف، ويندفع كل الناس إليه ليتخففوا من أثقال ما قاموا به ليرموا المسؤولية على الشيطان، كل يقول، يا ربنا، إن الشيطان هو الذي أوقعنا في الخطيئة، وهو الذي وجَّهنا للجريمة، ولكن الشيطان يعرف كيف يدافع عن نفسه أمام الذين يحملونه مسؤولية لا يتحملها: (وَقَالَ الشَّيْطَانُ لِمَا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ)^(٣) قال لكم: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)^(٤)، وما أنتم ترون النتائج أمامكم: (ووعدتكم فأخلفتكم)^(٥)، والله قال لكم: (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا، إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السُّعِيرِ)^(٦). (إِنَّ اللَّهَ

(٥) إبراهيم: ٢٢.

(٦) فاطر: ٦.

(٣) إبراهيم: ٢٢.

(٤) الزلزلة: ٧ - ٨.

(١) الإنسان: ٣.

(٢) الأعراف: ٢٠١.

وَعَدَّكُمْ وَعَدَّ الْحَقَّ، وَوَعَدْتُمْ فَأَخْلَفْتُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ
دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا
أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي، إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ^(٧)، أنا لا أعترف بكل ما
نسبتموه إليّ، وبكل ما تعبدتم به إليّ.. إذاً الشيطان ليس لعنتنا، والخطيئة ليست
قضاءنا وقدرنا، الشيطان يوسوس، والعقل يواجه الوسوسة بوعي، أما الخطيئة فهي
حالة اختلال في الغريزة، يمكن لها أن تتوازن بشيء من الوعي، وبشيء من الإرادة..
الإنسان يملك حرية الإرادة، ويملك أن يُحرر إرادته من الذين يضغطون عليها، ولكن
بعض الناس يستعبد نفسه في استعباد إرادته للآخر.

(٧) إبراهيم: ٢٢.

■ هل يمكن أن يكون الإنسان مؤمناً، أو أن يعرف

الله قبل أن يعرف نفسه؟

□ عندما نفهم أن الإيمان بالله، ينطلق من معنى في العقل وفي الوجدان، الذي هو معنى في الوعي، فأنتني لا أستطيع أن أعرف الله إذا لم أعرف نفسي، لأن معرفتي لنفسي هي التي تدلني على الله باعتبار أنني أحد مخلوقاته، فإذا وعيت أسرار نفسي، وعيت معنى الخالق الذي نظمها وصنعها. ولذلك فإن الإيمان لا بد أن يمرّ بطريق الوعي والإحساس والعلم، لأننا لا نؤمن «بالإنسان الأعمى»، وأنا لا أفهم إيماناً أعمى، لأن ذلك تماماً كما نقول الوعي أعمى.. إن الوعي هو حركة بصر، وحركة إشراق، ومن هنا لا يمكن أن يكون أعمى في هذا المجال.

لذلك، نحن نقول، إن الإيمان بالله، ولكي يكون حالة تشمل كيان الإنسان، لا بد أن ينطلق من حركة وعي يتكامل فيها العقل والإحساس في كلّ المفردات التي تُشير إلى الله من موقع عظمتها، ومن موقع الأسرار المودعة فيها.

□ الدعاء :

* إشراقة وعمل.

■ ما هي الأدعية المعتبرة عندنا، وهل يمكن للإنسان أن يدعو الله كيفما شاء؟

عفوية الدعاء

□ الكثير من الأدعية عندنا وُضعت من قِبَل علماء، والأدعية الأساسية التي يمكن للإنسان أن يدعوَ بها أدعية الإمام زين العابدين (ع) في الصحيفة السجادية ودعاء «أبي حمزة الثمالي». والأدعية الموجودة في كتبنا علينا أن نتبناها حتى ندعو الله بها..

والدعاء، إنما هو حديث مع الله، فليس على الإنسان أن يقرأ الدعاء استظهاراً، فبعض الناس يدعون كمن يقرأ القرآن بدون وعي، ليست العبرة بكلمات الدعاء، بل بمعناه، لذلك على الإنسان أن يعيش الدعاء في نفسه ويعيش معانيه.

وأقول: إن الإنسان إذا لم يستطع فهم الأدعية الموجودة في الكتب، فبإمكانه أن يدعو الله بما شاء، حتى باللغة العامية. فالله تعالى يقول: (ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)^(١).. ولم يقل ادعوني بالدعاء الموجود في «مفتاح الجنّات» أو «مفاتيح الجنان».. ادعوني بما شئتم من أسرارٍ وآلامٍ وهمومٍ.. ولذا في كثيرٍ من الحالات، لا بُدَّ للإنسان أن يُعطي نفسه العفوية في الدعاء.. وإلا لو قرأنا أدعية لا نفهمها، فهل نحن نستظهر كلاماً وحسب؟ وهل نتكلم مع شخصٍ دون أن نفهم ما نقول؟ وكذلك إذا تكلمنا مع الله، لا بُدَّ أن نفهم ما نتكلم به.

صحة المفاهيم

ثم إن هناك في الواقع مشكلة فكرية.. كتبتُ مرة في مقدمة إحدى كتب الأدعية، أن

(١) غافر: ٦٠.

هذه الأدعية تتضمن مفاهيم، تارة تكون واردة عن النبي (ص) أو عن الإمام علي (ع) أو عن الإمام زين العابدين (ع).. أما إذا أُلّف إنسان دعاءً على طريقته أو زيارة ما لأحد المعصومين (ع) ما الذي يُدرينا أنّ هذه المفاهيم صحيحة أم لا؟ لأنّ الدعاء يُعبّر عن مفاهيم تجاه الله.. من هنا، علينا أن نتحقّق بكلّ التراث الموجود عندنا، بحيث لا نعتبر أنّ كلّ الأدعية مفاهيمها صحيحة.

لو أخذنا مثلاً دعاء الصباح، لوجدنا أنّ الإمام زين العابدين رسم لنا برنامجاً يومياً إسلامياً، فيقول: «اللهم ووفقنا في يومنا هذا، وليتّننا هذه، باستعمال الخير وهجران الشرّ، وشكر النعم واتباع السنن ومجانبة البدع، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحياطة الإسلام وانتقاص الباطل وإذلاله، ونصرة الحق وإعزازة، وإرشاد الضالّ ومعاونة الضعيف، وإدراك اللّهيّف»..

وهكذا من خلال هذا الدعاء تتحرّك مسؤولية الإنسان بأن يحوط الإسلام، وأن ينصر الحقّ ويُعرّزه بمختلف الوسائل. وأن ينتقص الباطل ويُدله، ويرشد الضالّ ويعاون الضعيف، ويدرك الملهوف، وهكذا. وإنّي أنصح بقراءة دعاء الإمام زين العابدين (ع) في الصباح والمساء، لأنّه برنامج عمليّ رائع، حيث يفتح الإنسان من خلاله على الكون كلّ.

أما أدعية الأيام، الموجودة في ملحقات «الصحيفة السجادية» هي برامج عمل رائعة، نأخذ مثلاً دعاء «يوم الإثنين» يقول فيه: «اللهم وأيماً عبداً من عبيدك أو أمة من إمائك، كانت له قبلي مظلمة ظلمته إياها في نفسه أو في ماله أو في عرضيه، أو في أهله أو ولده، أو غيبة اغتبتّه بها، أو تحامل عليه بميل أو هوى أو أنفة أو حمية أو رياء أو عصبية غائباً كان أو شاهداً، حياً كان أو ميتاً، فقصرت يدي وضاق وسعي عن ردها إليه والتحلل منه، فأسألك يا مَنْ يملك

الحاجاتِ وهي مُسْتَجِيبَةٌ لِمَشِيئَتِكَ، ومُسْرَعَةٌ إِلَى إِرَادَتِكَ أَنْ تُرْضِيَهُ عَنِي بِمَا شِئْتَ وَتَهَبَّنِي مِنْ عِنْدِكَ رَحْمَةً، إِنَّهُ لَا تَنْقُصُكَ الْمَغْفِرَةُ وَلَا تَضْرُكُ الْمَوْهَبَةُ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ». وهو (ع) عندما يأتي على ذكر «يوم الإثنين» يطلب من الله تعالى طلبين اثنين فيقول (ع): «اللَّهُمَّ أَوْلِنِي فِي كُلِّ يَوْمٍ اثْنَيْنِ نِعْمَتَيْنِ اثْنَتَيْنِ، سَعَادَةً فِي أَوْلِهِ بِطَاعَتِكَ، وَنِعْمَةً فِي آخِرِهِ بِمَغْفِرَتِكَ».

إذاً، هي أدعية صغيرة يُمكن للإنسان أن يحفظها، لكن عندما ندعو بها، علينا أن نستوحِها، ونحاول أن نركز حياتنا على أساسها.

إشراقه في القلب وعمل في الواقع

وبالنسبة إلى الجانب الروحي علينا أن نفكر دائماً أننا نحن عباد الله، وهذه هي صفتنا الأساسية، وأن نفكر أن الله أبقى لنا من كل أحد، وسنفارق الأهل والآباء والأمهات والأولاد إلى الله (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ، وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)^(٢).

وكيف نُعبّر عن حبنا لله سبحانه؟ بالطاعة نُعبّر عن ذلك.. (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ)^(٣)، فاتباع النبي فيما أراد الله له أن يبلغه للناس، هو الذي يُعبّر عن حب الإنسان لله.. أما ما يُقوِّي هذا الجانب الروحي، فهو التفكّر في عظمة الله من خلال علم الحيوان والنبات والطبيعة واستخدام هذا العلم في فهم أسرار الكون.. وكلّما فهمنا أسرار الكون في عظمتها أكثر، كلما عرفنا الله في عظمتها أكثر.. وعندما نفكّر في أسرار خلق الله تتجسّم لدينا عظمة الله من خلال عظمة الخلق فينا، ولا سيما عندما يفكر الإنسان في أجهزته، وما القوانين التي تحكمها، وأسرار الخلق فيها. ثم

(٣) آل عمران: ٣٦.

(٢) الرحمن: ٢٦.

التفكر في نعم الله، فالإنسان الذي ينظر بعينه ويرى إنساناً أعمى، يعرف عظمة البصر. أو يرى إنساناً أصم، يعرف عظمة السمع.. وحتى يعرف الإنسان نعمة الله، من المستحب إذا رأى أحداً من أهل البلاء أن يقول: «الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به غيري، ولو شاء لفعل» فإذا، (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها)^(٤)، فالتفكر في نعم الله يعطي الإنسان روحية وعلاقة كبيرة بالله.

عندما يعيش الإنسان هذا الجو، أعتقد أن الله يُشرق في قلبه، وعند ذلك يصفو العالم الروحاني في نفسه، ونحن بحاجة لأن نعيش هذا الجو الروحاني في صلاتنا ودعائنا وابتهاالاتنا وأعمالنا وتفكيرنا بنعم الله، وأن نعمل كل عمل لله سبحانه.. وهذا ما يجعلنا مرتبطين بالله، ويجعلنا نشعر بحضور الله في حياتنا.

(٤) إبراهيم: ٣٤.

الفهرست

- نص افتتاحية الكتاب ٥
مقدمة الكتاب ٧

الإسلام والحوار

- قدسية الحوار ١٠
إمكانية الحوار ١٢
رداً على دعوة ١٣
التمسك بالمقولات ١٥

الإسلام وصراع الحضارات

- هل من مشروع حضاري للإسلام ١٧
استمرارية الطموح ٢٠
صراع حضارات أم مؤامرة ٢١

الإسلام والغرب

- الصراع القائم ٢٥
إنسحاق أمام الآخر ٢٨
تقدمهم وتأخرنا ٣٠
مؤتمر السكان ٣١

الإسلام والعنف

- بين العنف وسلمية الأسلوب ٣٥
ماذا لو فُرض العنف؟ ٣٨
عنف أم جهاد ٤٣
ظاهرتان مميزتان ٤٥
خطأ في المفهوم ٤٩

الإسلام والحريات

٥٥ أيّ حرية؟
٥٨ دولة بلا دين
٦٢ حرية الباطل
٦٤ آيات شيطانية والحرية
٦٥ حرية المفاهيم والمعتقدات
٦٧ الحرية الجنسية
٧١ حرية الزواج

الإسلام والعلم

٧٥ علم السماء أم علم الأرض؟
٧٧ التعليم عبادة
٨١ رسالية وتربية
٨٤ الأسلوب
٨٨ المسؤولية
٩١ نصيحة
٩٣ المدرسة الإسلامية

الإسلام والفن

٩٦ القيمة
٩٩ المساهمة في الدور

الإسلام والفكر الآخر

١٠١ الديمقراطية والتعددية
١٠٣ الدين والقانون
١٠٤ إسلام سياسي وإسلام تقليدي
١٠٦ ثنائيات

الإسلام والمرأة

١١١ القوية الشخصية
١١٥ محاكمة لقول خاطيء
١١٩ تفوق أم تكامل؟

١٢٢	إقضاء عن الموقع
١٢٥	تتصير إعلامي
١٢٧	سفر الفتاة للتخصّص
١٢٩	كيان المرأة
١٣١	تقاسم العمل المنزلي
١٣٣	ارتباط المثقفة بمن دون مستواها
١٣٤	الإختلاط
١١٥	مؤتمر بكين
١٤١	الحجاب
١٤٤	المودة والرحمة
١٤٨	جيل خالٍ من التعقيدات
١٥٢	الزواج الثاني

الإسلام والطب الحديث

١٥٨	معالم العلاقة
١٦٢	الإجهاض
١٦٦	جنس الجنين
١٦٨	زرع الأعضاء
١٧٢	إخفاء الحقيقة عن المريض

دور الدين في الوقاية من السيدا

١٧٤	بلاء أم نتيجة أسباب؟
١٧٥	حدود الخطر
١٧٧	الوقاية
١٧٨	دور الدين

الوحدة

١٨٠	جهود
١٨٣	تقييم للدور
١٨٦	البيت الإسلامي
١٨٨	الحالة الإسلامية والتعبير عن التطلعات

قناعة أم لا؟	١٩١
تقريب	١٩٤
حملات التكفير	٢٠٠
الملفات القديمة	٢٠٢
المجتمع الإسلامي	٢٠٣
الثقافة والوعي	
أسسنة الثقافة	٢٠٥
رؤية	٢٠٨
خوفاً من الوعي	٢١١
تنوع وواقعية	٢١٣
التراث	
تلمس خطوات أهل البيت (ع)	٢١٦
هل من قداسة؟	٢٢٠
الحدائث	٢٢٣
أصالة وتبعية	٢٢٨
العرف والتقاليد	٢٣٠
الإنتماء الحزبي	
خطاب للأمة	٢٣٣
حركة مع الله	٢٣٦
الحوزة	
دور عالم الدين	٢٣٨
في مواجهة المخاطر	٢٤٠
الشخصية التبليغية	٢٤٥
التجديد	٢٤٦
الحبيب المصطفى	
في ذكرى الولادة	٢٤٩
في ذكرى الوفاة	٢٥٤
ما أودى نبيّ مثلما أوديت	٢٦٢

السيدة زينب

٢٦٤	بين القضية والمأساة
٢٧٠	صحّة المواقف
٢٧٢	تبيان لقول شريف
٢٧٣	تحديد للمشهد

المسجد

٢٧٤	المسجد حصن ودور
-----	-----------------

قرآنيات

٢٨٢	التربية القرآنية
٢٩٠	كتاب حركي
٢٩٣	القرآن أولاً
٢٩٧	أمانة
٢٩٩	وضوح النصوص والتأويل
٣٠٢	حمّال ذو وجوه
٣٠٤	ترتيب الآيات
٣٠٧	المنهج
٣٠٩	إلزام أم اجتهاد؟
٣١٠	غوامض الألفاظ
٣١٢	الدلول القرآني للإمامة
٣١٣	ربط بين النعيم وذكر الله
٣١٥	مناقشة رأي
٣١٦	إمكانية الجدل في المسلّمات
٣١٨	السلم القرآني
٣١٩	تجميد العمل
٣٢٢	طاعة الوالدين
٣٢٩	حديث قدسي
٣٣١	منزلة إبراهيم الخليل (ع)
٣٣٣	الإسراء والمعراج

الموت المبكر	٣٣٤
<hr/>	
أخلاقیات	
الفساد	٣٣٦
مخاطر الفساد في بعض المؤسسات الجامعية	٣٤١
الفسق	٣٤٤
السخرية	٣٤٧
السبُّ واللُّعن	٣٥٤
الإستقامة	٣٥٦
النفس الأمارة بالسوء	٣٦١
التكبر	٣٦٣
الظلم	٣٦٤
إفشاء الأسرار	٣٦٥
خرق النظام العام	٣٦٦
المزاح	٣٦٧

فهي النفس والوجدان

التأمل	٣٧٠
غاية الحياة	٣٧٥
الإستسلام للأحلام	٣٧٨
العاطفة والعقل	٣٨٠
الإنتهاز الداخلي	٣٨٣
شعر الحب والغزل	٣٨٧
ردة الفعل	٣٨٩
الشخصية المتوازنة	٣٩٠
التكامل مع الآخر	٣٩٢
السعادة	٣٩٤
العزلة	٣٩٥
الخوف	٣٩٦
تملك المال	٣٩٩

٤٠٠	علاقة الإنسان بالزمن
٤٠١	التمزق النفسي
٤٠٢	الوسواس
٤٠٤	القلق
٤٠٦	السموم

القضاء والقدر

٤٠٩	استسلام أم أسباب؟
٤١١	القدر والحظ
٤١٤	إرادة الإنسان
٤١٦	مسير أم مخير
٤١٩	رداً على إشكالية

الإيمان

٤٢٢	بعيداً عن الإحباط واليأس
٤٢٥	إحساس القلب
٤٢٧	التفاعل مع الوحي
٤٣٢	عمق في الروح وحركة في المادة
٤٣٥	معرفة الله

الدعاء

٤٣٦	إشراقاً وعمل
-----	-------	--------------

هذا الكتاب محاولة للإنتفاح على الذات وعلى الآخر، ولكي نملك مفردات خطاب هذا الإنتفاح، ونتقن عملية توظيف ذلك في مجاله الحضاري والإنساني، كانت تلك الأسئلة الحائرة الباحثة عن جواب واعد بحجم التطلعات الرسالية.

وكان للتجربة الفكرية التي أمسك بمفاصلها الأساسية سماحة آية الله العظمى السيد محمد حسين فضل الله (دام ظله)، مجالها الرّحب في تبيان ما أردنا أن يكون توصيفاً جلياً للحقيقة يدعو لاثارة العقل، ويدفع به صوب الإتجاهات والأفاق التي تكمن في عمقها معالم المعرفة.

شفيق محمد الموسوي